إسرائيل أمريكا الصغرى

أمريكا: إسرائيل الكبرى

التاريخ الحقيقي لأمريكا في الشرق الأوسط

د.عبد الحي زلوم

الـفـهـرس

التمهيد	
المقدمة	
الفصل الاول ***اللوبي الإسرائيلي AIPAC من أين يستمد قوته الرهيبة*** كونغرس مطواع وديمقراطية كل صوت بدولار الهجوم الإسرائيلي على غزة في بداية سنة **2009** **AIPAC** جزء من قاعدة القوة العالمية	
الفصل الثاني ***قوى العلن وقوى .. الظل*** فرسان الهيكل والماسونية إيباك **AIPAC** جزء من طيف النفوذ العالمي بيوت الفكر(**Think Tanks**) في خدمة جماعة المصالح الخاصة مجلس العلاقات الخارجية **CFR**.. دراسة حالة هيمنة **CFR** على الإعلام العالمي اختيار وتدريب وتوزيع البيروقراطيين مجموعة بيلدبيرغ واللجنة الثلاثية... نتاج مجلس العلاقات الخارجية طبيعة عمل مجلس العلاقات الخارجية وبيوت الفكر	
الفصل الثالث ***جذور أمريكا" الصهيونية"*** لمحة تاريخية فرسان الهيكل والكالفينية والماسونية المسيحية الصهيونية وعقيدة الإعادة الرهاب الإسلامي.. تعبير جديد أم ظاهرة قديمة؟ أولى حروب أمريكا على المسلمين تغيير الأنظمة في الشرق الأوسط... هاجس أميركي قديم **200** سنة بعد قصف المارينز درنة	
الفصل الرابع ***الحملات الصليبية الأمريكية*** دور الولايات الأمريكية في تفكيك الإمبراطورية العثمانية لمحة تاريخية غزو نابليون مصر وسوريا تحديات من الداخل محمد علي وصدام حسين البعثات التبشيرية الأولى بداية محبطة... الأسطول الأمريكي والغزو الثقافي بداية جديدة الهدف الجديد: العلمانية عبر القومية	

الفصل الخامس

السلطان عبد الحميد الثاني والأيام الأخيرة...

عبد الحميد الثاني

ولكن..من كان عبد الحميد الحقيقي؟

أجندة المسيحيين الصهاينة الأمريكيين في أواخر القرن الـ: **19**

أجندة مختلفة للسلطان عبد الحميد

إصلاحات عبد الحميد الثاني

أمريكا في مصر و.. فرنسا في شمال إفريقيا

السياسات العربية والإسلامية

تركيا الفتاة بدون تركيا والانقلاب الماسوني اليهودي

الشباب العربي و"الثورة العربية"

الفصل السادس

تقطيع أوصال الشرق العربي إلى دويلات

الاتحاد والترقي وخطوات مقصودة لاستعداء العرب

جمعيات "الفتاة والعهد" السرية

تعميد فيصل في الجماعات السرية

جمال باشا يشد اللجام

حسين.. من شريف مكة إلى ملك عربي ومن ثم للمنفى

الاتحاد والترقي تجرّ الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى

محض مصادفة!.. أم ماذا ؟

احتلال العراق..أحد الأهداف الرئيسية للحرب

ما بعد كوتشينر..

حملة أرض الرافدين

الاحتلال البريطاني لفلسطين

في مواجهة المهاجرين اليهود

فيصل بعد الحرب العالمية الأولى

شرق أوسط جديد في مؤتمر القاهرة

الفصل السابع

الانتداب: بناء مؤسسات الدولة اليهودية

انتفاضة النبي موسى

الإدارة المدنية البريطانية.. واستمرار التوتر

انتفاضة يافا...

مفوضية صهيونية سامية تعيد النظر في وعد بلفور

المزيد من الهجرة اليهودية... وانتفاضة حائط المبكى

المفوض السامي في حيرة من أمره...

سياسة جديدة بناء على ورقة بيضاء..

المفوض السامي الجديد.. صهيوني عتيد

القسام وثورة **1936**

الإرهاب اليهودي وإرهاب الدولة البريطاني

العقوبات الجماعية

جذور عقيدة المواجهة العسكرية للجيش الإسرائيلي

مونتغمري يتولى مهمة قمع الثورة

الورقة البيضاء..

رؤساء حكومات إسرائيليون .. إرهابيون سابقون

الخبراء البريطانيون: حان وقت الرحيل عن فلسطين نهاية الانتداب البريطاني وقرار التقسيم بريطانيا تخطط للتخلص من العبء الفلسطيني	
الفصل الثامن ***دولة يهودية في فلسطين (1949-1967)*** قوى عسكرية ومالية وسياسية غير متوازنة الجيوش العربية والجيش اليهودي.. مقارنة القوة **1948-1967** .. المشروع الصهيوني أمام طريق مسدود الثورة الديموغرافية اليهودية: غلبة الميزراحي على الأشكناز التمييز يطال اليهود الشرقيين أيضاً ! مصاعب اقتصادية!! إسرائيل خططت لحرب **1967** وخلقت مسوغاتها الاستعداد للحرب تحديد مستقبل الضفة قبل احتلالها إسرائيل..واستفزازات الحرب خطط الحرب ضد سوريا الحرب وانتصار سهل ورخيص لدرجة الخيال حدود إسرائيل الجديدة.. قضية اليوم! خطة بن غوريون المقترحة للسلام التهجير في الإيديولوجية الصهيونية	
الفصل التاسع ***إسرائيل: عودة إلى الحرب الصليبية*** عملية سلام بدون سلام المستوطنون يرسمون سياسة إسرائيل الرسمية جنون الاستيطان وتواطؤ الحكومة انتصار ليكود بيغن: نقطة تحول للسياسة الاستيطانية إرهاب المستوطنين في ظل الليكود مئير كاهانا: من نيويورك إلى الكنيست متعصبو جبل الهيكل ... والمسجد الاقصى عملية السلام.. بدون سلام مؤتمر مدريد اتفاقيات أوسلو .. أوسلو **II** ...تفاهمات واي ريفر .. باراك، عرفات وكامب ديفيد خطة شارون تحظى بدعم بوش والمحافظين الجدد انتفاضة "الأقصى" الثانية وإعادة احتلال الضفة الغربية محمود عباس.. خليفة عرفات دور واشنطن في الصراع الفلسطيني الداخلي	
خاتمة..انتهت اللعبة	

تقول الإنسايكلوبيديا ويكي بيديا Wikipedia :

"يرى المؤرخون أصل المصطلح (الثقافة اليهومسيحية Judeo-Christian Culture) يعود إلى الثورة البروتوستانتية ... وفي السياق الأمريكي يرى المؤرخون بأن استعمال هذا المصطلح هو للدلالة على تأثير العهد القديم اليهودي (التوراة) والكتاب الجديد (الإنجيل) على الفكر البروتوستانتي ومفاهيمه بشكل خاص ... لقد رأى المهاجرون الأوائل لأمريكا أنفسهم الوارثين للكتاب المقدس العبري وتعاليمه ... والتي أصبحت بدورها أساساً لمفاهيم النظام الأمريكي ... لتصبح تلك المفاهيم العبرية أساساً للثورة الأمريكية ، وميثاق الاستقلال ، ودستور الولايات المتحدة."[1].

كلام واضح لا لبس فيه ! الحضارة الغربية والأمريكية جذورها وروحها يهودية تلمودية!

[1] Encyclopedia Wikipedia: Judeo-Christian Culture.

تمهيد

أفرزت الثورة البروتستانتية في بداية القرن السادس عشر شراكة يهودية مسيحية بروتستانتية كانت الغلبة فيها لليهوديه والتي ما لبثت أن حللت الربا وأطلقت النظام الرأسمالي الذي استعار اسمه من بارونات رأس المال اليهود فصار النظام بأكمله خادماً لهم.

وما لبث الغرب أن انطلق بغزواته الاستعمارية عبر شركاته عبر القطرية كشركة الهند الشرقية سنة **1600** يبني ثرواته باستنزاف ونهب ثروات الآخرين واستعبادهم كعبيد يباعون ويشترون ، أو كمستعمَرين لا حول لهم ولا قوة ، ولقد صاحبت جيوش المستعمرين الغربيين غزوات ثقافية خصوصاً في القرن التاسع عشر، ثم جاء الاستعمار المباشر خصوصاً في القرنين التاسع عشر والعشرين، والاستعمار غير المباشر ما بعد منتصف القرن العشرين في عهد ما بعد الاستعمار أو ما يسمى أحياناً بعصر الاستقلال.

خلّف الاستعمار وراءه نُخباً من أهالي مستعمراته تم إرضاعهم بحليبه وثقافته ومن ثم تم برمجتهم ، وتهيئتهم لتحكم هذه النخب نيابة عن الغرب، يساعدهم في ذلك محافل ومؤسسات سرية أو شبه سرية رعاها وبناها المستعمر إبأن حكمه المباشر ، وهكذا انفصلت هذه النخبة عن شعوبها وتوسّعت الهوة بينها وبن شعوبها يوماً بعد يوم ، وأزمة بعد أزمة حتى عرّتها الأيام حتى من ورقة توت تستر بها عورتها!

يُبين هذا الكتاب بشكل علمي تاريخي أن التحالف الغربي الأمريكي الصهيوني اليهومسيحي هو أبعد وأقوى من صهيونية ثيودور هيزل أو نفوذ اللوبي الإسرائيلي ايباك، أو اللوبي المسيحي الصهيوني. فالعلاقة متجذّرة في التاريخ . فلقد أطلق المهاجرون الأوائل على الأرض الأمريكية الجديدة المكتشفة اسم "صهيون الجديدة" قبل مئات السنين، وهكذا فإن أمريكا هي إسرائيل الكبرى وإسرائيل هي أمريكا الصغرى .

المؤلف

"وجدت الأصولية المؤمنة بضرورة إعادة اليهود لفلسطين أكبر تعبير لها في كتاب نشر سنة 1844 بعنوان :

"وادي الرؤى : اعادة إسرائيل للوجود" كتبه بروفيسور اللغة العبرية في جامعة نيويورك جورج بوش الجد الأعظم لرئيسين أمريكيين يحملان الإسم نفسه ، وكان قد كتب قبل ذلك سيرة عن (النبي) محمد وصفه بالنبي الكاذب ... طالب بوش في كتابه بالرقي ورفع اليهود إلى مرتبة نبيلة أمام الأمم في العالم واقامة دولة لهم في فلسطين، فذلك سوف يأتي بالخير على الإنسانية ، حيث يصبح اليهود عندئذٍ همزة الوصل بين الإنسانية والله. [1]

[1] Michael B. Oren, Power, Faith and Fantasy. P 141

المقدمة

عندما بدأت العمل في هذا الكتاب، كانت لدي فكرة تامة وواضحة عن جوانب وتفاصيل وأبعاد الموضوع وكذلك الأمر بالنسبة لتسلسل الفصول، ولم أتوقف طويلاً إلا عند العنوان الذي يفترض أن يكون، أبلغ تعبير عن الرسالة التي يريد المؤلف إيصالها إلى أذهان القراء. انتابني الكثير من الحيرة إلى أن عثرت ذات يوم على ضالتي، وكان ذلك في مقال لعضو الكنيست الإسرائيلي السابق يوري أفنيري. كان أفنيري يحاول شرح الأسباب التي تدفع بالمرشح لانتخابات الرئاسة الأمريكية وقتها، باراك أوباما، كغيره من معظم الساسة الأمريكيين، للزحف تحت أقدام اللوبي الإسرائيلي ممثلاً بلجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية **AIPAC** ، كشرط للوصول إلى المناصب الحكومية العالية، والحفاظ عليها أطول فترة ممكنة. انتهى مقال أفنيري، وهو مؤلف ممتاز وناشط سلام لا يكل، لنتيجة مؤداها أن أمريكا ليست سوى إسرائيل كبيرة وبأن إسرائيل ليست سوى أمريكا الصغرى. لحظتها أدركت بأنني عثرت على العنوان الأكثر تعبيراً لكتابي الجديد.

أما العنوان الفرعي للكتاب " التاريخ الحقيقي لأمريكا في الشرق الأوسط "، فيحاكي عنوان واحد من أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة هو:" تاريخ شعب الولايات المتحدة الحقيقي" الذي يعرض فيه مؤلفه:هوارد زين، أستاذ التاريخ في جامعة بوستون، للجانب الآخر من الرواية التاريخية لا على طريقة المؤسسات الإعلامية والكتب والموسوعات العالمية المعتادة. ويأتي كتاب البروفيسور زين كدليل حي على صدق مقولة عميل الاستخبارات البريطاني لورنس العرب بأن" التاريخ ليس سوى سلسلة من الأكاذيب المسلّم بها". وبالتأكيد فإن معظم ما سطره المستشرقون الغربيون والمحافظون الجدد عن العالم العربي والإسلامي لا يجانب رأي لورنس هذا. بل إنه لا يعدو في كثير من الأحيان عن كونه: سفسطة لخدمة أهداف الإمبريالية في النهاية.

عايشت قيام إسرائيل عام **1948**، وكنت على درجة من الوعي قبل ذلك بعقد من الزمان لأميز الهوة بين الواقع كما عشناه والصورة كما عرضها المؤرخون ونقلتها وسائل الإعلام. فلا يزال صوت الانفجار الهائل الناجم عن تفجير فندق الملك داوود في القدس عام **1946** يطن في أذني، ولا زالت مشاهد الدمار الذي أحدثته العملية-التي نفذتها منظمة إرهابية يتزعمها مينا حيم بيغن، رئيس حكومة إسرائيل لاحقاً بل والحاصل على جائزة نوبل للسلام- حية في ذاكرتي كما لو أنها حدثت بالأمس القريب. كان الفندق قريباً من موقع مدرستي: العمرية في الطالبية - القدس الغربية.

سافرت للولايات المتحدة في الثامنة عشرة من عمري للدراسة في الجامعات الأمريكية، وبقيت على اتصال بها بطريقة أو أخرى خلال السنوات الخمس والخمسين سنة الماضية، وهي فترة تعادل تقريباً ربع عمر الجمهورية الأمريكية. وكان موضوع التدخل الأمريكي في شؤون الشرق الأوسط ودوافعه بالأمور المتعلقة بفلسطين، والعرب والمسلمين بل والعالم قد أثارت فضولي ليس من الناحية الأكاديمية بل لما كان لها من تأثير كبير على حياتي . لذلك فلقد بقيت خصوصية العلاقة الأمريكية الإسرائيلية أمراً يحيرني أبحث عن جواب شاف له، خصوصاً ذلك النفوذ الهائل لجالية يهودية صغيرة العدد لكنها

كما يبدو ذات تأثير يفوق حجمها مرات ومرات، بحيث أنها تُخيف الروساء وتُخضع الكونغرس، وبواسطة الأيدي الطويلة لمؤسسات الولايات المتحدة تؤثر على العالمين.

نبين في هذا الكتاب أنه نتيجة للتغيرات الايدلوجية للثورة البروتستنية (تحليل الربا)، والتغيرات التكنولوجية، انتقل النظام العالمي الاقتصادي من الاقطاع إلى الرأسمالية، ونشأت المفاهيم اليهومسيحية والتي مالت مع الوقت نحو التوراتية، وتبين لي أن الصهيونية المسيحية سبقت صهيونية هيزل بقرون عديدة. وجاءت هذه المفاهيم مع المهاجرين والأوروبين الأوائل، واتسمت هذه الحضارة بمعاداتها للإسلام والمسلمين منذ أيام كريستوفر كولومبس وحتى جورج دبليو بوش.

وحتى عهد قريب جداً كنت لا أتقبل نظرية صراع الحضارات، ذلك لأن الإسلام بعكس ما يشاع، يتقبل الآخر (اليهودية والمسيحية) بينما لا يتقبل "الآخر" الإسلام والمسلمين، لم أكن أريد أن أقبل أن الغرب العلماني تسيره أحقاد تلمودية أو أصولية دينية، والتي يتم توظيفها من بارونات المال العالميين لمصالحهم الضيقة بعيداً عن مبادئ أي دين، لكن حرب الإرهاب والتي أخذت اسما معكوساً وسميت الحرب على الإرهاب عرت ورقة التوت التي كان يختفي خلفها الغرب العلماني، ولعل أفضل تعبير عن ذلك جاء من صاحب نظرية صراع الحضارات صامويل هانتينغتون، وهو ركن من أركان النظام الأكاديمي الأمريكي، وكذلك عضو فاعل في مؤسسة الأمن الأمريكي، حيث عبر عن ذلك صراحة وبدون التباس، حين كتب "إن المشكلة بالنسبة إلى الغرب ليست مشكلة الأصوليين الإسلاميين ، بل المشكلة بالإسلام نفسه ، الذي يمتلك حضارة مختلفة يؤمن أصحابها بتفوقها في الوقت الذي يتألمون من ضعف أحوالهم. والمشكلة للمسلمين هي ليست وكالة المخابرات المركزية أو وزارة الدفاع الأمريكية ، المشكلة في الغرب نفسه ذي الحضارة المختلفة، والتي يؤمن أصحابها بتفوقها وصلاحيتها كنظام عالمي ، يرغبون في فرض هذه الحضارة على العالم "

إذن فالغرب كما يقول هانتينغتون يريد أن يفرض حضارته اليهومسيحية على المسلمين، وعدا فئة قليلة من المسلمين الذين خلفهم الاستعمار وراءه بعد أن تمت برمجتهم وربط مصالحهم بمصالحه، فإن المسلمين بأكثريتهم لا يرغبون بشراء بضاعة الغرب الفاسدة هذه.

في كتابه المعنون: السلطة، العقيدة والخيال، كتب المؤرخ والمؤلف الإسرائيلي مايكل بي. أورين يقول: حملت الدفعات الأولى من الأوروبين ممن حطوا الرحال على شواطئ العالم الجديد صورة سلبية عن الشرق (المسلمين)، ومن ذلك القول في وصف إحدى رحلات كريستوفر كولمبوس: في عام 1492 ومن منطلق العداء لدين محمت(محمد) شرع كولومبوس في رحلة لاكتشاف طريق جديد تقوده للأرض المقدسة.. بل إنه اصطحب معه مترجماً عربياً لهذا الغرض. وقتها أعلن كولمبوس قائلاً: ستخصص سائر المكاسب التي تتحقق من هذه الرحلة لغزو القدس".

الفصل الأول

اللوبي الإسرائيلي AIPAC

من أين يستمد قوته الرهيبة ؟

يجد الكثيرون حول العالم، على اختلاف معتقداتهم وانتماءاتهم العرقية والقومية، أنفسهم أسرى حالة من الحيرة حيال مدى ما يتمتع به اليهود من نفوذ وقوة في الغرب بشكل عام وفي الولايات المتحدة بشكل خاص،حيث لا يتناسب حجم هذا النفوذ وهذه القوة الكبيرة مع أعداد اليهود المتواضعة في المجتمعات التي يوجدون فيها.

ومن أبلغ المؤشرات على مدى ما يحظى به اليهود من نفوذ في الولايات المتحدة ما صدر عن المرشح الديمقراطي للانتخابات الرئاسية الأخيرة. فما إن ضمن باراك أوباما ترشيح الحزب له حتى:" حثّ الخطى إلى مؤتمر تعقده لجنة العلاقات الأمريكية الإسرائيلية **AIPAC**، أقوى جماعات الضغط الإسرائيلية في البلاد، وهناك ألقى كلمة كسر فيها سائر الأرقام القياسية المسجلة في إظهار الخنوع وممارسة التزلف" على حد تعبير الكاتب وعضو الكنيست الإسرائيلي السابق يوري أفنيري في عموده المنتظم بتاريخ **10** يونيو **2008**. وأضاف أفنيري:" انظروا كيف أن أول عمل أقدم عليه أوباما بعد ضمان ترشيح الحزب له كان التضحية بمبادئه .. وها قد أقبل أوباما زاحفاً وسط الغبار لينكب على أقدام إيباك ويخرج عن خطه المعهود في تبرير سياسة تناقض تماماً أفكاره التي طالما نادى بها ". وجاء في مقالة أفنيري أيضاً القول:" الذي يهم فعلاً هنا هو وجه التشابه الكبير بين المشروعين الأمريكي والصهيوني، على المستويين: الروحي والمادي لدرجة يمكن معها القول بأن: إسرائيل ليست سوى أمريكا الصغرى، وبأن أمريكا هي إسرائيل الكبرى ". وجدت في هذه الجملة أبلغ تعبير عن مضمون كتابي فوقع عليها اختياري كعنوان للكتاب.

تحدث أفنيري عن الروح الدينية التي كانت تهيمن على رؤية وممارسات الموجة الأولى من المهاجرين الذين حملتهم السفينة ماي فلاورز للأرض الجديدة، فقد أطلق هؤلاء على أنفسهم صفة الحجاج، وهي الصفة نفسها التي وسم بها المهاجرون اليهود الأوائل لفلسطين أنفسهم، مستخدمين كلمة عوليم وهي اختصار لعبارة عوليم بيريغيل التي تعني بالعبرية كلمة: حجاج. كان المهاجرون في الجانبين على قناعة تامة بأنهم شعب الله المختار الذي عاد إلى أرض الميعاد. ولهذا نجد المهاجرين الأوائل إلى أمريكا يطلقون أسماء توراتية وفلسطينية على المستوطنات التي أقاموها في الأرض الجديدة، والتي تحولت إلى مدن وبلدات لا تزال تحمل الأسماء نفسها بما فيها: القدس وبيت لحم على العديد من البلدات، ومكة (على بلدتين)، والمدينة(ثلاث بلدات)، وبغداد(ثلاث بلدات)، وحلب

والجزائر والقاهرة والإسكندرية. ويمكن القول أيضاً إن المهاجرين في الحالتين اقترفوا ممارسات وحشية وجرائم جماعية ضد السكان الأصليين في فلسطين وأمريكا.

في مايو **2004** تحدث جورج دبليو. بوش في المؤتمر السياسي السنوي للجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية، حيث أثنى على جهود "أيباك" في:" تعزيز الروابط التي تجمع أمتينا وقيمنا المشتركة والتزامنا بالحرية". وأضاف بوش بأن" هناك قواسم مشتركة عديدة تجمع البلدين: فقد ولد كلانا من رحم الكفاح والتضحية، وأقيم كلا البلدين على يد مهاجرين هربوا من الاضطهاد الديني في أرضهم .. وقمنا كلانا ببناء صرح مشع للديمقراطية قائم في كلتا الحالتين على حكم القانون واقتصاديات السوق.. يقوم بلدانا على معتقدات أساسية من أن الله مطلع على شئون العباد ويقدر كل حياة.. مثل هذه الروابط جعلتنا حلفاء بالطبيعة وهي روابط أقوى من أن تكسر أبداً".[1]

تجرأ بعض العلماء والسياسيين والكتاب الأمريكيين الجادين مؤخراً، على الخوض في قضايا، كانت وحتى وقت قريب، من المحرمات، ويعتبر مجرد التطرق إليها بمثابة الدخول في معركة خاسرة أمام قوى عظيمة: أي البحث في وشرح ظاهرة كون السياسات الأمريكية أصبحت أسيرة قوة اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة، حتى مع حقيقة أن هذه السياسات لا تخدم المصلحة القومية الأمريكية. الواقع أن قوة اللوبي اليهودي الممثل أكثر ما يكون في نفوذ "إيباك"، تجلت في العديد من الحالات لدرجة أن هذا اللوبي أصبح يسيطر تماماً على الكونغرس، ويشكل مصدر إرهاب للرؤساء وكبار المسئولين ممن يحاولون إظهار قدر من التصلب أمام نفوذ اللوبي. ويحاول اللوبي والقوى التي تقف وراءه توجيه القضايا الخاصة بإسرائيل بعيداً عن التداول العام.ولتحقيق هذا الهدف أوجد اللوبي شبكة من المؤسسات التي مهمتها القيام بحملة تشهير ضد أي شخص يقدم على إثارة جدل من شأنه أن يؤدي إلى نتائج لا تتوافق مع أجندة اللوبي. وفي العادة فإن هذا الشخص المارق يجد نفسه عرضة لهجوم مدمر في حالة فشل الجهود الخاصة بإسكات الجدل المثار والحيلولة دون تطبيق أي نتائج قد تترتب عنه.

ولعل ما حصل مع اثنين من الأكاديميين الأمريكيين المعروفين مؤخراً ما يشكل مثالاً على طريقة عمل اللوبي اليهودي المناصر لإسرائيل في الولايات المتحدة. فقد طلبت مجلة أتلانتيك ماغازين، من أستاذين من جامعة شيكاغو وجامعة هارفارد، إعداد دراسة عن اللوبي الإسرائيلي. وبعد عامين من العمل والبحث والتمحيص ، أبلغهما رئيس التحرير بأن المجلة لن تتمكن من نشر الدراسة. وفي ذلك يقول البروفيسور جون ميشيمر:" عملنا على إعداد الدراسة على مدى عامين بالتعاون مع محرري أتلانتيك ماغازين. وفي يناير **2005** أرسلنا لهم النص النهائي، الذي جاء منسجماً تماماً مع ما تم الاتفاق عليه ومتضمناً مقترحاتهم كافة. بعدها بأسابيع فوجئنا برئيس التحرير يبلغنا بأن المجلة قررت عدم نشر الدراسة".

قرر الأستاذان جون ميشيمر و ستيفن وولت توسيع الدراسة وإعدادها للنشر ككتاب صدر عام **2007** بعنوان: "اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية للولايات المتحدة" أوضح المؤلفان في كتابهما بأن الفكرة الرئيسية التي شكلت موضوع الدراسة المرفوضة كانت بسيطة ومباشرة، وهي أن الولايات المتحدة تقدم دعماً مادياً وسياسياً لإسرائيل

[1] The Israel Lobby and US Foreign Policy John J. Measheimer & Stephen Walt, Farrar, Straus and Giroux, New York, 1st Edition 2007, Pg 78

بمعدلات غير عادية، وبأن هذه المساعدات لا يمكن تبريرها على أسس إستراتيجية أو أخلاقية على حد سواء. وبدلاً من ذلك" فإن هذه المساعدات هي نتاج القوة السياسية للوبي الإسرائيلي في المقام الأول". ويرى المؤلفان "بأن السياسة الأمريكية المنحازة تماماً لإسرائيل تضر بالمصالح القومية للولايات المتحدة بل هي ضارة بالمصالح الإسرائيلية نفسها على المدى البعيد". ولتوضيح حجم الدعم الذي تحظى به إسرائيل من الولايات المتحدة كتب الأستاذان ميشيمر و وولت يقولان" يمكن الحكم على المكانة التي تحظى بها إسرائيل في الولايات المتحدة من حجم ما تتلقاه من مساعدات أميركية يمولها دافعو الضرائب الأمريكيون في المقام الأول. فحتى عام **2005** كان حجم ما تسلمته إسرائيل من مساعدات أميركية قد وصل إلى **154** مليار دولار معظمها هبات لا ترد".[1] وكما سيتم شرحه لاحقاً فإن الحجم الفعلي لهذه المساعدات يتجاوز الرقم المذكور بكثير، لأن المساعدات تأخذ أشكالاً أخرى لا تنضوي تحت ميزانية المساعدات الخارجية المثير هنا أن المساعدات الأمريكية لإسرائيل تأتي بمعدل **100** ألف دولار لكل عائلة إسرائيلية مكونة من أربع أفراد في وقت يعاني فيه **45** مليون أميركي من ضيق الحياة المعيشية ويصنفون تحت خانة الفقراء، طبقاً لمكتب الإحصائيات الرسمي في واشنطن، الأمر الذي ينسف المقولة الأمريكية الشهيرة: الإحسان يبدأ من البيت.

حاول الأستاذان ميشيمر و وولت استكشاف سبل إيصال دراستهما القيمة والمثيرة للجدل في الوقت ذاته للقراء، إلا أنهما لم يعثرا على أي جهة مهتمة بموضوع الكتاب داخل الولايات المتحدة، فكان أن تم نشر دراستهما في لندن. كانت الحجج التي أوردها الكاتبأن على قدر كبير من القوة والإقناع؛ لدرجة أثارت ردة فعل غاضبة من جانب اللوبي اليهودي الذي سارع لاستخدام سلاحه التقليدي في مثل هذه الحالة وهو : إلصاق تهمة معاداة السامية بالأستاذين الجامعيين. وبعد الضجة التي أثارها نشر الدراسة في لندن، قام الاستاذان بتوسيع الدراسة على شكل كتاب، حيث وجد الكتاب طريقه للنشر في الولايات المتحدة.

وفي تعليق للكاتب وعضو الكنيست الإسرائيلي السابق على الكتاب، قال يوري أفنيري :" أستطيع أن أضيف فصلاً كاملاً على الكتاب من واقع خبرتي الشخصية.. فقد زرت الولايات المتحدة لأول مرة في أواخر الخمسينات وهناك دعتني محطة إذاعية رئيسية لإجراء مقابلة معي، لأستمع لاحقاً لتحذيرات من المسئولين عن البرنامج الذين قالوا لي:" بإمكانك انتقاد الرئيس(أيزنهاور)، ووزير الخارجية(فوستر دالاس) كما تشاء، ولكن رجاءً لا تنتقد القادة الإسرائيليين". وفي اللحظة الأخيرة ألغت المحطة الإذاعية فكرة إجراء المقابلة من الأساس... وفي عام **1970** دعتني جمعية الزمالة الأمريكية للمصالحة التي تحظى بسمعة طيبة لإلقاء سلسلة محاضرات في **30** جامعة عبر الولايات المتحدة برعاية جمعية "حاخامات هيليل". وعندما وصلت نيويورك وجدت أنه تم إلغاء **29** محاضرة، وكان علي إلقاء المحاضرة الوحيدة تحت رعاية إحدى الجمعيات الكنسية المسيحية".

ومضى أفنيري في تعليقه يقول:" أتذكر في هذا الشأن، على وجه الخصوص، تجربة محبطة عشتها في بالتيمور. تطوع يهودي طيب، هاله إلغاء محاضرتي المقررة في

[1] According to the "Greenbook" of the U.S. Agency for international Development (USAID), which reports "overseas loans and grants", Israel received $153,894,700.000 (in constant 2005 dollars) from the United States through 2005, See http://qesdb.usaid.gov/gbk

المدينة، لتنظيم المحاضرة بأي ثمن. قمنا بتمشيط المدينة شارعاً شارعاً بحثاً عن قاعة تحمل اسم يهودي لعقد المحاضرة فلم نجد مديراً يقبل بعقد محاضرة لعضو كنيست إسرائيلي "مشاكس"... في تلك السنة وخلال أحداث أيلول الأسود، عقدت مؤتمراً صحفياً في واشنطن حيث توافد الصحفيون على المكان قادمين من مؤتمر صحفي لرئيسة الوزراء غولدا مائيير وأخذوا إمطاري بالأسئلة. تحدثت لمدة ساعة هي الوقت المحدد للقاء، إلا أن الصحفيين الذين يمثلون وسائل الإعلام الأمريكية المختلفة رفضوا الانفضاض واستمر اللقاء ساعة ونصف أخرى.وعندما خرجت الصحف في صباح اليوم التالي، لم أعثر ولو على كلمة واحدة عن اللقاء أو حتى التطرق لحدوثه من الأساس. بعدها بسنوات طوال وتحديداً في أكتوبر **2001** عقدت مؤتمراً صحفياً في مبنى الكونغرس ليتكرر معي ما حصل قبل **31** عاماً: كان هناك العديد من ممثلي وسائل الإعلام الذين استوقفوني لأكثر من ساعة بعد انتهاء المؤتمر، ومع ذلك لم تنشر الصحف كلمة واحدة عما صدر عني بالأمس".

ومن جانبه يتساءل إدوارد تيفنان كيف يتسنى للطائفة اليهودية التي لا يزيد عددها على ستة ملايين أميركي أن تتمتع بهذا القدر من النفوذ السياسي.. ويتساءل عما إذا كان الأمر يتعلق بوجود توافق كامل بين المصالح الإسرائيلية والأمريكية. وعندما قرر إعداد كتاب عن هذا الموضوع اعتقد سائر من تحث معهم بهذا الشأن بأن الموضوع اختيار موفق ويشكل قضية مناسبة للبحث والعرض. وأضاف تيفنان:"غير أنه كانت هناك مشكلة: قيل لي مرة تلو مرة: لن تجد من يقبل بالتحدث عن هذا الأمر.. كان الموضوع على درجة عالية من الخطورة والحساسية بل والسخونة بحيث لا يجرؤ أحد على الخوض فيه. ويفضل الزعماء اليهود وجماعات الضغط وأصدقاء إسرائيل-وأعدائها- في الكونغرس الإبقاء على هذا الموضوع طي الكتمان. قيل لي بأن الموضوعية تحتم علي توجيه انتقادات قوية لإسرائيل وللجماعات وليهود أمريكا في وقت يعتبر فيه أي قدر ولو بسيط من الانتقادات سيجر علي تهمة معاداة إسرائيل ومؤازرة العرب، بل وربما أسوأ من ذلك: معاداة السامية التي يخشاها الجميع.."[1]

ومما قاله تيفنان أيضاً:" غير أن هناك من يرى الأمور من منظور أكثر سوداوية. فقد حذرني العديد من العاملين في السلك الدبلوماسي، بمن فيهم سفراء سابقون في الدول العربية قائلين:" لن تجد ناشراً في نيويورك يقبل بنشر هذا الكتاب". وعندما قلت بأنني حصلت على التزام من دار نشر رئيسية في المدينة، أشاحوا بأيديهم قائلين بأنني لن أجد من يقبل بتوزيعه، وحتى في حالة وصوله للمكتبات فإن الجماعات اليهودية المحلية ستضغط لإزالته من على الأرفف".

اشتريت نسخة من الكتاب المذكور خلال وجودي في بوستون لحضور حفل تخرج ابني في منتصف الثمانينات. وفي اجتماع ضمني مع زميل في الصناعة النفطية كان يشغل منصب مدير عام شركة المشاريع النفطية الحكومية وأصبح لاحقاً نائباً لوزير الدفاع العراقي حسن كامل، اقتبست بعض الفقرات من الكتاب قبل أن أعطيه النسخة التي أملكها قائلاً بأنني سأشتري نسخة أخرى. بعدها بأشهر عدت للولايات المتحدة مجدداً وطفت المكتبات بحثاً عن الكتاب ليقال لي في كل مرة بأن الكتاب المذكور نفد من السوق ولم يطبع منه المزيد!

---

[1] The Lobby, Jewish Political Power and American Foreign Policy, Edward Tivnan, Touchstone, Ist Edition 198, Pg 8-9

تحدث الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر في مذكراته عن زيارة قام بها لإسرائيل عام **1973**. وقتها كان كارتر حاكماً لولاية جورجيا وتمت الزيارة بدعوة من إسحق رابين الذي كان حينها سفيراً لإسرائيل في واشنطن. من الواضح أن سبب دعوة كارتر لزيارة إسرائيل يعود الى تردد اسمه كمرشح أقوى للحزب الديمقراطي في الانتخابات الرئاسية التالية. خلال زيارته لإسرائيل التي كانت أقرب إلى "مقابلة اختبار" إسرائيلية للرئيس الأمريكي القادم، علم كارتر بمعاناة "الفلسطينيين الذين طردوا من منازلهم" ليصف ما حدث لهم بأنه أشبه بـ:" إجبار الهنود الحمر على مغادرة أراضي جورجيا حيث تقع مزرعة عائلتي حالياً.. لقد أجبروا على الرحيل لإفساح المجال لاستيطان أجدادنا البيض". غادر كارتر إسرائيل وهو " على قناعة بأن الإسرائيليين هم المهيمنون إلا أنهم يتوخون العدل .. غلب علي شهور بالابتهاج والتفاؤل حيال التزام واضح من قبل الإسرائيليين بإقامة دولة ملتزمة بمبادئ العدل والسلام، والتعايش مع الجيران كما تنص عليها التعاليم اليهودية المسيحية"

نجح كارتر في الاختبار وسرعان ما وصل للبيت الأبيض. غير أن كارتر تبين له حينما أصبح كرئيس بأن إسرائيل لم تكن تنوي تحقيق السلام مع جيرانها، كما تبين له عدم استطاعته الضغط على بيغن حتى في قضية تطبيق نصوص اتفاقية كامب ديفيد. وفي ذلك كتب كارتر يقول:" من المستبعد أن تتمكن أي قوة عربية مجتمعة ولا حتى الولايات المتحدة من إجبار إسرائيل على اتخاذ قرارات لا تريدها فيما يتعلق بقضايا رئيسية مثل القدس الشرقية، والضفة الغربية، وحقوق الفلسطينيين، أو الأراضي العربية المحتلة. فمثل هذه الأمور تحسم في القدس.. "

خطيئة كارتر بالنسبة لمسئولي إيباك كانت في اعتقاده بأن تحقيق السلام أمر ممكن في حالة انتهاج إسرائيل سياسات معقولة، لأن "العديد من الأنظمة العربية أضحت منشغلة أكثر من أي وقت مضى بمشاكلها الداخلية والتي أبرزها: تجدد النزعة الدينية، وتعاظم الآمال والطموحات بين أبناء الطبقتين المثقفة والوسطى، والمخاوف من مزيد من تدخلات القوى الأجنبية، والنزعة الديمقراطية الآخذة في التعاظم، وميل هذه الأنظمة إلى نفض يدها من القضية الفلسطينية"

تمثلت المشكلة بالنسبة للرئيس الأمريكي السابق في" كون الولايات المتحدة وحيدة تقريباً في تقديم هذا القدر من الدعم لإسرائيل". ولمنح الدولة العبرية الغطاء السياسي في مواجهة الإرادة الدولية، كان على الولايات المتحدة اللجوء إلى استخدام حق النقد – الفيتو- في **42** مناسبة منذ عام**1973** لتجد نفسها وفي معظم هذه الحالات وحيدة مع إسرائيل في مواجهة العالم.

لقي كتاب كارتر تجاهلاً من صحيفة بوزن النيويورك تايمز التي تعاملت معه كما لو أنه غير موجود. كان من الواضح للقائمين على الصحيفة بأن الحقائق التي أوردها كارتر في كتابه لا تعجبهم بما تحمل من آراء عن إسرائيل، وبذلك فهي لا تستحق النشر وبالتالي لم تحاول نشر أي خبر عن الكتاب أو عرض له كما جرت العادة. وعندما تصدّر كتاب كارتر قائمة الكتب الأكثر مبيعاً للأسبوع الخامس على التوالي، أقدمت الصحيفة على نشر تعليق سلبي عنه نقلاً عن موظف سابق لدى كارتر. وفي رد على الافتراءات والهجمات الشرسة التي تعرض لها، نشر كارتر مقالاً في لوس أنجلوس تايمز جاء فيه القول: "عايشت وخبرت وعلى مدى الثلاثين عاماً الماضية الكثير من القيود التي تمارس على المناقشة الحرة والمتوازنة للحقائق .. لدرجة يصبح معها أي تجرؤ من قبل أي عضو كونغرس على

اتخاذ موقف متوازن بين إسرائيل وفلسطين أو مطالبة إسرائيل الالتزام بالقانون الدولي، أو الدفاع عن حق الفلسطينيين بالعدالة وحقوق الإنسان، بمثابة الإقدام على الانتحار السياسي". وبالطبع أصبح الرئيس الأمريكي السابق عرضة لتهمة معاداة السامية، بل والأسوأ من ذلك وصفه بـ: نصير النازية. تعرض كارتر للهجمة اليهودية لأنه قال أقل مما صدر عن الوزير الإسرائيلي السابق وناشط السلام يوسي ساريد في مقال له في صحيفة هآرتز بتاريخ **26** أبريل **2008**،[1] ومما جاء في المقال الذي حمل عنوان: نعم.. إنه الفصل العنصري، القول:" من الواضح تماماً لماذا تخيفنا عبارة.. الفصل العنصري إلى هذا الحد. غير أن الذي يجب أن يخيفنا ليس وصف الحقيقة بل الحقيقة نفسها.. فقد وجدنا حتى شخصاً مثل إيهود أولمرت يتوصل لنتيجة مؤداها أن الاستمرار في الوضع الحالي يعني نهاية الدولة الديمقراطية اليهودية، طبقاً لما صدر عنه مؤخراً".[2]

وهذا الصحفي مايكل ماسنغ ينقل عن أحد موظفي الكونغرس من مؤيدي إسرائيل القول:" نستطيع الاعتماد على أكثر من نصف أعضاء المجلس (ما بين **250-300** عضو) في فعل ما تريده إيباك". ويوضح مسئول إيباك السابق ستيفن روزين، الذي تم تجريمه بتهمة تسريب وثائق حكومية سرية لإسرائيل، مدى ما تتمتع به لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية من قوة، أمام مراسل النيويوركر: جيفري غولدبيرغ، بوضع فوطة مطعم على الطاولة أمامه وهو يقول:" باستطاعتنا الحصول على تواقيع **70** سيناتوراً على هذه الفوطة في أقل من **24** ساعة".[3]

أصبحت تهمة معاداة السامية أو مناصرة النازية التي توسم بالدراسات الموضوعية الرصينة وتتهمها بنظرية المؤامرة، بمثابة نكتة ممجوجة وسمجة لا يستسيغها الكثيرون. بل إنها شكل من أشكال الابتزاز وتفكير بوليسي وبهدف الإبقاء على مثل هذه القضايا بعيداً عن متناول الجمهور، بحيث لا تصل هذه الحقائق لأعضاء الكونغرس من نوعية المستعدين للتوقيع على فوط المطاعم وكل من ساهم في إيصالهم إلى قبة المجلس.

مع أن هذه الكتب تناولت قوة اليهود في الولايات المتحدة إلا أنها لم تعالج نفوذهم في الأجزاء الأخرى من العالم. فهذا رئيس الحكومة البريطانية السابق في فترة الحرب العالمية الأولى، لويد جورج، يرد على الاتهامات التي كيلت له بالخضوع للنفوذ اليهودي وما أعرب عنه العديدون من أن دعم اليهود في فلسطين كان خطأً. ومما ورد في مذكرات لويد جورج بهذا الشأن القول بأنه كان عليه" إجراء اتصالات مع اليهود نظراً لأن اليهود سلالة تتمتع بقوة ونفوذ عظيمين وكنا بحاجة لهم لكسب الحرب".

تقول إليزابيث موور في كتابها المعنون: مرحلة بريطانيا في الشرق الأوسط **1914-1971**، بأن" وعد بريطانيا بأنشاء وطن قومي لليهود لدى صدوره بتاريخ **2** نوفمبر **1917** لم يثر الكثير من الاهتمام العام مقارنة بالعواقب الوخيمة التي جلبها على

---

[1] http://www.informationclearinghouse.info/article19811.htm

[2] Palestine Peace Not Apartheid, Jimmy Carter, Simon & Schuster, New York, 2006, p 69

[3] Michael Massing, “The Storm over the Israel Lobby”, New York Review of Books, June 8, 2006; and Jeffrey Goldberg, “Real Insiders”, New Yorker, July 4, 2005

بريطانيا.. ،إذا كان الوعد البريطاني جلب لليهود، سواء من هاجر منهم إلى فلسطين أو الكثيرين ممن لم يفعلوا، الخلاص وتحقيق الوعد الإلهي، إلا أنه جلب للبريطانيين الكثير من المشاكل والتعقيدات التي أضعفت قوتهم. وإذا ما قسنا وعد بلفور من منظور المصلحة البريطانية وحدها فإنه كان من أكبر الأخطاء في تاريخنا الاستعماري".

ويقول ل.شتاين في كتابه المعنون: وعد بلفور، بأن الحكومة البريطانية في إصدارها وعد بلفور كانت" منهمكة في التفكير بالوضع المتدهور سريعاً في روسيا ، وبموقف اللامبالاة تجاه الحرب من لدن الجزء الأكبر من يهود أمريكا، وبالقيمة الدعائية الكبيرة التي سيخلقها الإعلان المؤيد للصهيونية..." وعن مغازلة الحكومة البريطانية لليهود الروس قالت إليزابيث مونرو في كتابها المذكور:" كانت بريطانيا تأمل في أن يلعب اليهود الروس دوراً أساسيا في الإبقاء على القوة الروسية على خطوط القتال ومنع تجارة القمح الروسية التي يسيطر علها اليهود من تغيير خطها لتنتهي في أيدي الألمان الجياع".

ولكن إذا كان رؤساء أمريكا ورجال الكونغرس يخشون ضغوط اللوبي اليهودي، فما الذي يدفع برموز الإمبراطورية البريطانية للتصرف بشعور من لا يقل خوفاً وخشية عن نظرائهم الأمريكيين؟ في هذا الشأن نقل المؤرخ الإسرائيلي توم سيغيف من مذكرات بن غوريون القول:" بالرغم من تراجع وضعه داخل الحركة الصهيونية استمر المسئولون البريطانيون في التعامل مع حاييم وايزمان بكثير من الاحترام. فهذا سير أرتشيبالد سينكلير، زعيم الحزب الليبرالي يستقبله على مائدة العشاء في منزله بحضور عدد من كبار الشخصيات منهم وينستون تشيرتشل.وبعد أن وصل تشيرتشل حد السكر البين أخذ في توجيه الشتائم لرئيس الحكومة ستانلي بالدوين واصفاً إياه بـ: الغبي، ثم خاطب وايزمان قائلاً بأنه سيبقى من أشد المؤيدين للصهيونية بالرغم مما يصدر عنهم من ممارسات في غاية الغباء. بعدها التفت تشيرتشل إلى كليمنت أتليي الذي أصبح رئيساً للحكومة لاحقاً وقال وهو يشير بيده إلى وايزمان: هذا أستاذك وأستاذي وكان أستاذ لويد جورج وسنفعل كل ما يطلب منا".

لعب اليهود دوراً فاعلاً في سقوط الإمبراطوريتين: القيصرية الروسية والعثمانية المسلمة. وفي ذلك يقول ديفيد فرومكن في كتابه المعنون: سلام ينهي كل سلام، كان ألكسندر إسرائيل هيلفاند الذي كان ينشط تحت الاسم الحركي: بارفوس، يهودي روسي يعمل على زعزعة حكم القياصرة . وبينما أظهر لينين عدم اكتراث حيال الانتصار المحتمل للألمان، فإن هيلفاند كان ينتظر هذه النتيجة بحماسة كبيرة. كان اليهودي الروسي المذكور يملك المال والاتصالات السياسية القوية التي مكنته من متابعة ميوله المؤيدة للألمان في الحرب ضد روسيا".

تحت عنوان: موضوع محرم، كتب مارك ويبر في مجلة جورنال أوف هيستوريكال ربفيو (العدد الصادر في يناير-فبراير **1994**) يقول:" مع أن اليهود لم يكونوا يشكلون طبقاً للإحصاءات الرسمية أكثر من **5**% من عدد السكان، إلا أن دورهم كان يتجاوز حجمهم بصورة كبيرة. فقد لعب يهود روسيا دوراً كبيراً وربما حاسماً في النظام البلشفي الفتي لدرجة أنهم كانوا يسيطرون عملياً على الحكومة السوفيتية خلال السنوات الأولى من الحكم الشيوعي...فباستثناء لينين(فلاديمير اوليانوف)، نجد أن معظم الأسماء الرئيسية في قيادة الثورة الشيوعية التي تولت مقاليد الأمور في روسيا خلال الفترة من **1917-1920** كانوا من اليهود: فهذا ليون تروتسكي (اسمه الأصلي ليف برونشتاين) يعين على رأس الجيش الأحمر، وتولى إدارة الشئون الخارجية للسوفيات

لبعض الوقت. وهناك ياكوف سفيرلدوف (سولومون) يرأس اللجنة التنفيذية المركزية – رئاسة الحكومة السوفيتية، بالإضافة إلى منصب السكرتير التنفيذي للحزب البلشفي. أما غريغوري زينوفييف (رادومسلسكي)، فعين على رأس اللجنة الشيوعية الدولية (كومنتيرن) وهي الوكالة المركزية المسئولة عن نشر الشيوعية في الدول الأجنبية. ومن الأسماء الأخرى على قائمة الشخصيات اليهودية التي هيمنت على القرارات في القيادة الجديدة في موسكو :المفوض الصحفي كارل راديك (روزنفيلد)، ومفوض الشئون الخارجية ماكسيم ليفينوف (والاتش)، بالإضافة إلى: ليف كامينيف (روزينفيلد) وموسي اوريتسكي.

بل إن لينين نفسه كان يهودياً في جزء منه.. فهو وإن كان سليل عائلة كالموك الروسية، إلا أن جده لأمه ألكسندر(إسرائيل) بلانك كان يهودياً أوكرانياً تم تعميده من قبل الكنيسة الأرثوذكسية الروسية".

غير أن مما يثير الاهتمام بالفعل رؤية مدى تأثير اليهود على روسيا في مرحلة ما بعد انهيار الشيوعية والاتحاد السوفيتي. وفي ذلك كتب د. وليام بيرس تحت عنوان: الاقتصاد الروسي، يقول:

"قبل بضعة أيام نشرت **MSNBC** على الإنترنت لائحة بمن أسمتهم " بارونات روسيا اللصوص: الإثنا عشر رجلاً الذين يملكون الاقتصاد الروسي"، مرفقاً بها نبذة شخصية عن كل واحد من محدثي النعمة هؤلاء ممن امتلكوا المليارات على حين غرة. من المثير للاهتمام بالفعل أن نعلم بأن أياً من هؤلاء الأثرياء لم يكن حتى قبل سنوات يملك **10** ألاف دولار في جيبه.. أما الأكثر إثارة في الأمر فهو أن **8** ممن على القائمة التي تضم **12** ملياردير هم من اليهود .. ومما يزيد الأمر إثارة هو أن هذا يحدث في بلد لا يمثل فيه اليهود سوى أقل من نصف من واحد بالمائة من السكان..

يتصدر قائمة الملياديرين اللصوص هذه: بوريس بيروفيسسكي، وفلاديمير غوسنسكي، وميخائيل خودوركوفسكي، وفيتالي مالكين، وميخائيل فريدمان والكسندر سمولنسكي، وفلاديمير فينوغرادوف، وأناتولي شوبيس وهم جميعاً من اليهود ممن لا يخفون انتماءهم الديني... وجميعهم من الأثرياء الجدد ممن وقفوا خلف بوريس يلتسين بالمال والدعاية الإعلامية...

اختارت مجلة فوربس وصف الملياردير اليهودي بوريس بيريفوفسكي بأنه عراب الجريمة المنظمة اليهودية في روسيا.. علماً بأن المذكور هو اليهودي الأكثر نفوذاً في الدائرة المحيطة بالرئيس السابق يلتسين .. بل إن بيروفوفسكي دائم التفاخر بالقول بأنه كان وراء إيصال يلتسين إلى رأس السلطة في روسيا. وبعد إعادة انتخابه رئيساً لروسيا عام**1996** عمد يلتسين إلى ضم الملياردير اليهودي المتهم بإدارة أكبر مافيا في البلاد، لعضوية مجلس الأمن القومي.. غير أن يلتسين عمل على إعفائه من المنصب، ولكن بعد أن تكشفت حقيقة حصول المذكور على الجنسية الإسرائيلية."

ويتساءل د.بيرس كيف أن البارونات اللصوص هؤلاء نجحوا في تعزيز قبضتهم على مقدرات الشعب الروسي بالقول:" لعل السر في ذلك يكمن في أنهم طبقوا الطريقة نفسها التي مكنت بني جلدتهم من الهيمنة على الشعب الأمريكي أي: السيطرة على وسائل الإعلام والترفيه.. فهذا بيروفوفسكي على سبيل المثال يسيطر على **ORT** أكبر شبكة تلفزيونية روسية، بالإضافة إلى عدد من الصحف والمجلات. أما زميله في الثراء وحامل الجنسية الإسرائيلية رئيس المؤتمر اليهودي الروسي فلاديمير غوسنسكي فيملك ثاني أكبر

شبكة تلفزيون في البلاد وعدداً من الصحف والمجلات، بالإضافة إلى أحد أكبر المصارف الروسية".

وكان التحالف اليهودي الماسوني قد أوجد ما وصفه السفير البريطاني في اسطنبول بـ:" اللجنة اليهودية للاتحاد والترقي التي أطاحت بالسلطان عبد الحميد ونفته إلى سالونيك، حيث حددت إقامته في فيلا يملكها أحد اليهود. وقتها كتب السفير إلى وزارة الخارجية يقول بأن شبكة يهودية- ماسونية منتشرة عبر الإمبراطورية العثمانية تتآمر لإسقاط الإمبراطورية العثمانية".

تستمد جماعات الضغط اليهودية قوتها التنظيمية والسياسية من منظمات وجمعيات سرية وأخرى شبه سرية تعمل بالأسس نفسها التي تدار بها أجهزة الاستخبارات، واكتسبت الكثير من الأساليب والإجراءات التي تم تطويرها على مدى أجيال بل وقرون من العمل السري. وكما أوضح مدير الاستخبارات المركزية السابق وليام كيسي ذات مرة، فإن العمل في عالم الاستخبارات يقوم على تجميع أجزاء الصورة شيئاً فشيئاً حتى تكتمل، وبدون ذلك لن تحصل على الصورة المطلوبة. وعليه فإن الدليل الظرفي يمكن أن يستخدم في فك الغموض الذي يغلف نشاط هذه الجمعيات السرية.. وسنعمل جاهدين في هذا الكتاب على تجميع أجزاء الصورة لتكتمل معالمها أمام القارئ.

كونغرس مطواع وديمقراطية كل صوت بدولار

بتاريخ **12** فبراير **2008** ألقى وزير الأمن الوطني في فترة بوش الثانية، مايكل تشيرتوف، محاضرة في كلية كينيدي للعلوم الإدارية الحكومية- جامعة هارفارد، تحت عنوان: ما الذي يعيق تحقيق التغيير في واشنطن ؟ جاء فيها القول:

" معوقات التغيير في واشنطن تنظيمية أكثر منها حزبية.. وهذه المعوقات لها علاقة مباشرة بأفراد وجماعات متنفذة تسعى لتكريس مصالحها الضيقة، مما يجعل عملية التغيير الجذري في واشنطن عملية صعبة التحقيق.. بكل ما يعنيه ذلك من الأضرار في خدمة الصالح العام".

في المحاضرة التي ألقيتها في المكان نفسه بعد ذلك بثلاثة أسابيع، وتحديداً في **18** مارس **2008**، تساءلت كيف يتسنى تحقيق خدمة الصالح العام من خلال كونغرس مطواع يوقع على بياض على أي مشروع تتقدم به قوى الضغط الصهيونية؟ الواقع أن النظام يسير طبقاً لما هو مصمم لأجله: أي خدمة المصالح الخاصة لأطراف معينة. لا شك في أن جورج سوروس ،الذي يعدّ شخصياً أحد رموز هذه المصالح، أقدر من يستطيع الإجابة عن التساؤل السابق وهو ما فعله في كتابه المعنون: أزمة الرأسمالية العالمية، بالقول:

" الرأسمالية والديمقراطية تخضعان لقوانين مختلفة.. بقدر اختلاف المصالح التي يفترض أن تخدماها. وفي حين أن الأولى تخدم المصالح الخاصة، فإن الثانية مصممة لخدمة المصلحة العامة.. وفي الولايات المتحدة نجد التضارب بين الحالتين متمثلاً في الصراع اللفظي بين شارع المال **Wall Street** وشارع الشعب **Main Street** ".

يمثل اللوبي اليهودي الذي يظهر أكثر ما يكون في إيباك، أكثر من غيره، دهاليز السلطة للمصالح الخاصة. فاللوبي أقدر ما يكون على إحباط المصلحة العامة، وأكثر ما

يفعل مثل هذا الأمر من خلال موافقة الكونغرس على بياض على متطلبات ايباك في ديمقراطية "الصوت الانتخابي الواحد بدولار واحد". الواقع أن الوول ستريت والشركات المتعددة الجنسيات هي جزء من عجلة القوة التي تمثل إيباك مجرد جزء ظاهر منها، مهمتها ممارسة سياسة "الصدمة والرعب" بحق الكونغرس والرؤساء في أي وقت من النهار أو الليل! ويلجأ اللوبي وما يمثله، إلى استخدام كل الوسائل وما يملكون من قوة في محاولة إبعاد كل ما من شأنه كشف حقيقتهم وحقيقة إسرائيل، عن الأنظار. وإلا كيف سيتسنى للوبي اليهودي دفع أعضاء مجلس الشيوخ إلى التصويت لصالح مطالبهم بدون نقاش أو التوقيع على بياض؟ وهذا أحد الرؤساء الأمريكيين (ردذرفورد بي. هايس) يقول بعد أن ضاق ذرعاً بالبارونات اللصوص ونفوذ الشركات الكبرى:" لم تعد هذه حكومة الشعب ومن الشعب للشعب بعد الآن.. إنها حكومة الشركات ومن الشركات للشركات ".

في لقاء على مائدة العشاء وبحضور وزير عدل أردني سابق وحاكم ولاية الجزيرة في السودان، تحدث رئيس حكومة أردنية سابق عن حادثة معبرة شهدتها مفاوضات السلام الإسرائيلية الأردنية.. وقتها كان الرئيس الأمريكي السابق كلينتون يحاول استمالة الأردن لتوقيع اتفاقية سلام مع الإسرائيليين، من خلال منحه مساعدات مالية ببضع مئات من ملايين الدولارات.. خلال الجلسة التفت كلينتون إلى إسحق رابين الذي كان حاضراً وخاطبه قائلاً:" إسحق، ستساعدني على تمرير هذا الأمر في الكونغرس، أليس كذلك؟ .. كان مشهداً سريالياً بالفعل.. فنحن أمام رئيس أميركي يطلب من زعيم أجنبي.. رئيس حكومة إسرائيلية مساعدته على تمرير رغبته في برلمان بلاده المطواع.. برلمان القوة العظمى الوحيدة المتبقية في العالم.

الهجوم الإسرائيلي على غزة في بداية سنة 2009

رأت الولايات المتحدة وإسرائيل في حركة المقاومة الفلسطينية متجسدة في حماس والجهاد الإسلامي بشكل كبير عائقاً أمام مشروع تسوية أمريكي وبمواصفات إسرائيلية، وبدعم ما يسمى دول الاعتدال العربي، يتم بموجبه إيجاد دولة فلسطينية منقوصة السيادة تكون في حقيقتها درعاً لحماية أمن إسرائيل والقيام بأعمال "الحراسة والكناسة" . ولقد أصبحت مثل هذه التسوية ضرورة أمنية استراتيجية، كما أصبح واضحاً من تصريحات القادة الإسرائيليين وحتى المحافظين الجدد الأمريكيين.

لقد شكل نجاح حماس مفاجأة في انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني سنة **2006**، والذي كان نتيجة انتخابات حرة شهد بنزاهتها المراقبون الدوليون. لكن إسرائيل – الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط حسب الادعاءات الغربية – لم تعجبها نتيجة هذه الانتخابات، وذلك بداية باعتقال أعضاء في المجلس التشريعي المنتخب، بمن في ذلك رئيس المجلس ، وذلك بالتزامن مع أجهزة أمن السلطة الفلسطينية والتي تعمل بالتعاون مع أجهزة المخابرات المركزية الأمريكية **CIA**، والتي تقبع جهاراً نهاراً في مقرات تلك الأجهزة وفق اتفاقيات تم توقيعها مع السلطة، وعندما أفشلت حركة حماس انقلاباً أعدته الأجهزة الأمنية للسلطة، كما سنبين في التفصيل في فصل لاحق، تم حصار غزة وأغلقت سائر المعابر، بما في ذلك معبر رفح على الحدود الفلسطينية المصرية. وجرت بعد ذلك حركة تفكيك المؤسسات التي ترعاها حماس في الضفة الغربية.

بعد حوالي عشرين شهراً من فشل الحصار على غزة في أن يأتي بالنتائج المرجوة وهي إزاحة حماس عن السلطة في غزة ، وحيث إن فترة ولاية محمود عباس تنتهي في الأسبوع الأول من شهر يناير **2009** ، وكذلك ستنتهي ولاية الرئيس بوش الثانية في **20** يناير ، وتأتي الانتخابات الإسرائيلية في **2009/02/10** ، قامت القوى المناهضة للمقاومة الفلسطينية والمتمثلة في حماس بهجمة كان على رأسها، عسكرياً، إسرائيل، وساعدها مالياً ودبلوماسياً وإعلامياً حلفاؤها القريبون والبعيدون. فالجميع أراد أن يبدأ باراك أوباما بداية جديدة لتطبيق التسوية حسب المشروع الأمريكي الإسرائيلي كما أسلفنا وبموجب المبادرة العربية.

كتب باراك رافيد وآفي إسكار، وزفي باريل في صحيفة هآرتس الإسرائيلية بتاريخ **6** يناير **2009** مقالاً بعنوان "مبارك للإتحاد الأوروبي؛ يجب عدم السماح لحماس بربح المعركة" :

"يجب ألا تربح حماس معركتها مع الجيش الإسرائيلي ... هذا ما أخبر به الرئيس المصري حسني مبارك وفد وزراء الخارجية الأوروبيين في اجتماع مغلق".

ماطل المعتدلون العرب وأخروا انعقاد اجتماع لوزراء الخارجية أياماً عدة ، كما عارضوا انعقاد مجلس قمة للجامعة العربية ، ثم ماطلوا ثانية بالذهاب إلى الأمم المتحدة، وأتوا بمبادرات كان هدفها مساعدة إسرائيل على تحقيق أغراضها بالاتفاق السياسي في وقت فشلت في تحقيق هذه الأغراض في حملة عسكرية دمرت البنية التحتية لقطاع غزة، وجرحت أكثر من **6000** فلسطيني نصفهم من الأطفال والنساء.

في اليوم العشرين من عدوان إسرائيل على غزة زارها بان كي مون الأمين العام للأمم المتحدة . وكانت تحية إسرائيل له قصفها في اليوم ذاته مركز الانروا للأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين ، وكذلك مستودعاتها وكذلك تم قصف مستشفى للهلال الأحمر وبه **500** مريض .

كما ورد على موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الانترنت، وفي المؤتمر الصحفي الذي عقد في **15** يناير **2009** في تل أبيب قالت وزيرة الخارجية تسيفي ليفني أن وقف اطلاق النار هو قرار إسرائيلي يعتمد على تقديرات إسرائيل وحدها ، أي ليس على قرارات الأمم المتحدة. وأضافت في ذلك المؤتمر الصحفي الذي عقد في تل أبيب في وقت كان السكرتير العام للأمم المتحدة يقف بجانبها:

" إن عملياتنا العسكرية ضد (الإرهاب) في غزة ... هي جزء من عملية السلام التي أطلقتها إسرائيل في أنابوليس بالإشتراك مع القيادة الواقعية لقيادة السلطة الوطنية الفلسطينية ... نحن نعمل وفق استراتيجيتين: الحاجة لإتمام عملية السلام مع القيادة في السلطة الوطنية الفلسطينية التي تتسم بالواقعية والتي تمثل شرعياً الشعب الفلسطيني ، وفي الوقت ذاته محاربة (الإرهاب) والاستمرار في إزالة الشرعية عن حماس **De-legitimization of Hamas**".

السيدة ليفني تقول إن إسرائيل هي التي تقرر من هي الشرعية الفلسطينية ومن هي غير الشرعية . إذا كانت حكومة حماس قد جاءت عبر صناديق الاقتراع ، وإذا انتهت ولاية محمود عباس في نهاية الأسبوع الأول من يناير **2009** فهذه تفاصيل تافهة فالمهم أن

إسرائيل بقوة سلاحها تستطيع أن تجعل من الشرعي لا شرعي ، ومن اللاشرعي شرعياً ونصف.

تضيف السيدة ليفني في مؤتمرها المذكور جاعلة من نفسها الناطق الرسمي عن معكسر (الاعتدال):

"إن هناك معركة في هذه المنطقة وهي ليست بين إسرائيل والفلسطينيين . إنها معركة بين معسكر الاعتدال ومعسكر المتطرفين ، إن إسرائيل والمعتدلين الفلسطينيين وحكومتهم (في رام الله) في معسكر واحد .... ونحن كذلك مع الدول (العربية) الأخرى والتي عبرت عن رغبتها في السلام معنا ضمن حل الدولتين" . إذن فإسرائيل تدعي أنها ومعسكر الإعتدال في خندق واحد في (محاربة الإرهاب) والتطرف . وهكذا قطعت ليفني قول كل خطيب.

في محادثة هاتفية بين رئيس وزراء قطر ورئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس والذي قالت عنه السيدة ليفني بأنه يمثل الشرعية الفلسطينية حول الدعوة لعقد قمة عربية حول الاعتداء الإسرائيلي على الفلسطينيين في غزة ، اعتذر سيادة الرئيس عباس عن الحضور لأنه لا يستطيع الحصول على التصريح بالسفر ، وهو التصريح الذي يتوجب على سيادة الرئيس الحصول عليه من إسرائيل في كل مرة يسافر سيادة "الرئيس" عباس خارج فلسطين ... !

AIPAC جزء من قاعدة القوة العالمية

مع أن الكتب السابقة اقتصرت في بحوثها على ظاهرة القوة اليهودية غير العادية في الولايات المتحدة حالياً، إلا أن مؤلفيها جميعاً توقفوا عند حدود معينة، بحيث لم يتطرقوا لشبكة القوة الفعلية التي ينتمي لها اللوبي اليهودي ويستمد منها قوته ونفوذه.. وهي شبكة نفوذ دولية تمثل: كبار رجال المال عبر العالم، والصناديق السرية، والبوارص، والشركات المتعددة الجنسيات، ومؤسسات الإعلام العملاقة، والمحافل السرية ومعاهد الدراسات الخاصة وشبكة المنظمات السرية وشبه السرية . سيوضح هذا الكتاب حقيقة أن جذور شبكة قوى الظل هذه متغلغلة وثابتة في الأعماق عبر العالم وعلى مدى قرون، وبأن إيباك وجماعات الضغط اليهودي الأخرى ليست سوى الجزء الظاهر منها.. كما ويعرض هذا الكتاب لتأثيرات هذه القوة الخفية على المسلمين والعرب والفلسطينيين.

كان البروفيسور كارول كويغلي، الأستاذ في جامعة جورج تاون، والمستشار لدى البتاغون:" معجباً بوجه خاص بمؤسسة الشؤون الخارجية القديمة، وهي جزء من مؤسسة أنغلو-أميركية مالية نخبوية، أو ما يطلق عليها: بنية قوية متنفذة بين لندن ونيويورك تتغلغل عميقاً في الحياة الجامعية والإعلام وممارسة السياسة الخارجية.. كان كويغلي يرى في مجلس العلاقات الخارجية شبكة دولية مترابطة إن لم يكن تآمرية". وكان على اعتقاد بأن البرنامج السياسي لكلا الحزبين متطابق بصورة كبيرة. وهنا يعلق أحد الطلبة نقلاً عن أستاذه بالقول:" لا يهم لمن تمنح صوتك في الانتخابات الرئاسية القادمة" [1]

الفصل الثاني

قوى العلن وقوى .. الظل

هل تعد لجنة العلاقات العامة الإسرائيلية الأمريكية (إيباك AIPAC) منظمة قائمة بحد ذاتها أم أنها مجرد جزء من طيف نفوذ متعدد الأطراف قادر على ممارسة عقيدة

[1] Roger Morris, as quoted in *Partners In Power*

"الصدمة والرعب" بحق رؤساء الولايات المتحدة ، الكونغرس والإدارة الأمريكية ككل؟ وهل ظهرت هذه القوة الخفية على حين غرة أم إنها وليدة تطور تاريخي لتصبح الآن متجذرة في الإرث الثقافي اليهودي- المسيحي الأنجلو- ساكسوني.. هذا الإرث الذي شهد تطوراً كبيراً مع تحول الغرب من مجتمع إقطاعي إلى آخر صناعي رأسمالي؟

برزت الثقافة اليهودية- المسيحية مع ظهور الثورة البروتستنتينية وحركة الإصلاح الديني ليغلب عليها الطابع اليهودي مع مرور الوقت. ومع السيطرة التدريجية للتيار الرأسمالي والإصلاحي بما فيه العقيدة الكالفينية، على المجتمع الغربي، وجد اليهود- الذين عرفوا تاريخياً بتعلقهم وإتقانهم لإدارة المال، لأسباب ليس أقلها من حرمانهم من تملك الأراضي في المجتمعات الأوروبية (على عكس المجتمعات الإسلامية) - الفرصة مواتية للسيطرة على عالم المال، الأمر الذي أكسبهم سلطة غير عادية في أروقة الحكام من ملوك وأباطرة. فقد كانوا في وضع يسمح لهم بتمويل الحروب وتأمين عوامل النصر لهذا الحاكم أو ذاك.

ارتبط أول نشاط مصرفي دولي على الأغلب مع جماعة دينية لا يزال يكتنفها الكثير من الغموض، فبعد سنوات من أول حملة صليبية تنجح في دخول القدس، طلب أحد تابعي الكونت شامبين ويدعى هيو دي باينز من الملك بالدوين الثاني السماح له ولعدد من رفاقه بتأسيس جماعة دينية، هدفها المعلن تأمين الحماية العسكرية للحجاج المسيحيين. وعرفت تلك الجماعة لاحقاً باسم: "جماعة الهيكل". وطبقاً لما جاء في كتاب جون روبنسون المعنون: معمد بالدم.. الأسرار المفقودة للماسونيية" فإن الجماعة المذكورة" حصلت على الترخيص المطلوب بل ومنحت مقراً لها في أحد أجنحة القصر الملكي في منطقة المسجد الاقصى، وهو المكان الذي يدعي اليهود وأنصارهم أن المسجد الأقصى قد قام على أنقاضه.. ومن هنا اكتسبت الجماعة الدينية المذكورة اسمها الذي تغير مع مرور القرون أكثر من مرة، من جماعة الهيكل إلى فرسان هيكل سليمان في القدس وغير ذلك من أسماء دينية ذات دلالة. وأياً كان الاسم فقد كان اسم هيكل سليمان حاضراً في كل مرة، وليرتبط على الدوم بالاسم الدارج للجماعة: " فرسان الهيكل" .[1]

على مدار السنوات التالية ما بين **1118-1127** لم تجتذب الجماعة أي أعضاء جدد ولم يسجل لها الكثير من النشاط. وعندما قرر أعضاؤها مباشرة أنشطتهم الفعلية بعث الملك بالدوين الثاني برسالة إلى برنارد رئيس دير كليفو للرهبأن الذي كان بمثابة البابا الثاني، يطلب منه التدخل لدى بابا روما لاستصدار مرسوم بابوي للاعتراف بالجماعة وهو ما فعله. بل إن بيرنارد تبنى قضية جماعة الهيكل ودافع عن قضيتهم بحماسة، وكانت النتيجة حصول فرسان الهيكل ومن خلال ملوك أوروبا على المال والأراضي. عندما غادر هيو دي بلينز القدس كان على رأس جماعة غامضة مجهولة من تسعة أتباع، ليعود إلى المدينة المقدسة بعدها وقد أصبح زعيماً لجماعة كبيرة تضم **300** فارس مستعدين للموت في سبيل القضية ودفاعاً عن زعيمها، وتحظى باعتراف البابا وتتحكم بموارد غنية من الذهب والفضة. تطورت جماعة فرسان الهيكل وفي غضون بضع سنوات لتصبح مصدر التمويل الفعلي للحملات الصليبية وللبابا الذي حرصت الجماعة على الاحتفاظ بعلاقات قوية معه. كانت عمليات التمويل تتم من خلال "منافذ مصرفية" عرفت بـ:المقاطعات،

[1] Born In Blood: The Lost Secrets of Free Masonry, John I. Robinson, . M. Evans & Company/New York,1989, p 66

وكانت تنشط كوكلاء للحكومة في جمع الضرائب وإدارة الرهون المصرفية من خلال الإقراض مقابل ضمانات العوائد العقارية. ويعود لهذه الجماعة الفضل في إطلاق خدمة الأوراق المالية التي كانت تحظى بالاعتراف الملزم من قبل أي من المقاطعات التابعة لجماعة الهيكل؛ لتكون بالتالي الرائدة في مجال الشيكات أو الحوالات.

في ذلك الوقت لم يكن يسمح ليهود أوروبا تملك الأراضي الزراعية أو الاستثمار في أي من وسائل الإنتاج، كما أن تجمعات اليهود وخاصة في مدينة البندقية كانوا قد طوروا بعض التقنيات المصرفية بما في ذلك تقديم القروض للحكام، إلا أن هذه الخدمات لم تعمم أو تكتسب الصفة المؤسسية، إلى أن جاءت الأنشطة المالية لجماعة فرسان الهيكل لتعمل على توسيع مدى الخدمات المذكورة وإكسابها السمة القانونية.

فرسان الهيكل والماسونية

يجمع فرسان الهيكل باليهود أكثر من قاسم مشترك: فقد كان هدف استعادة الهيكل المدمر وبناء هيكل ثالث في صلب معتقدات الجانبين، علاوة على أنهما يعتبران من رواد الخدمات المالية والمصرفية. ولكن هل توقفت علاقاتهما الحقيقية عند هذا الحد؟ مثل هذا سؤال مثير للاهتمام على الأغلب. فمن جانبها كانت جماعة فرسان الهيكل تدير شبكة استخباراتية واسعة وكفؤة ضمت العديد من العملاء الذين كانوا ينشطون بسرية في مدن الشرق الأوسط وأوروبا الرئيسية.وهنا يقول جون روبنسون:"اقترنت الشبكة الاستخباراتية بالأدوات التجسسية المعهودة من لغة الرموز والإشارات وتقنيات التطابق وأساليب التكتم المقرونة بالعمليات العسكرية والمالية المتواصلة، والالتزام التام بمبدأ السرية فيما يتعلق بالمبادرات وما يدور في الاجتماعات، هذه جميعاً تشكل القاعدة المثالية لإقامة وعمل الجماعة السرية".

في أعقاب القطيعة بين جماعة فرسان الهيكل وملك فرنسا الذي عين بابا خاصاً من جانبه، تعرض أتباع الجماعة للملاحقة والتنكيل في فرنسا وتم إحراق زعيمهم هناك حتى الموت، بادر أتباعه على إثرها للهرب من البلاد ولجأوا إلى إنجلترا، وعندما ضغط البابا على ملك إنجلترا لملاحقتهم اختفى هؤلاء من الحياة العامة ومعهم أموالهم ووثائقهم بدون أن تمس.

في كتابه المعنون: " أخوة الدم ..الأسرار المفقودة للماسونية"، قال المؤلف جون روبنسون الذي بنا كتابه على تحقيقات واسعة في هذا الشأن بالتعاون مع الماسونيين: " أردت التأكد من احتمالية وجود رابطة بين الماسونية وفرسان الهيكل الناطقين بالفرنسية، من خلال دراسة المعاني الخفية لهذه التعبيرات بالفرنسية التي كانت سائدة في القرون الوسطى، وسرعان ما وجدت نفسي أمام سيل من الأجوبة التي بدأت بالتدفق حاملة معلومات قيمة منها ما يتحدث عن المدعو: هيرام أبيف Hiram Abiff المهندس القتيل الذي صمم هيكل سليمان، والذي يعتبر شخصية محورية في الطقوس الماسونية".

في الماضي غير البعيد كان يترتب على باحث مثل روبنسون تجشم وعثاء السفر والتنقل بين العديد من البلدان، والقيام بعملية بحث واسعة للتوصل إلى نتيجة منطقية حول علاقة اليهود بالماسونية، وذلك نظراً للسرية التامة التي تحكم طبيعة ونشاط الجماعة المذكورة، أما اليوم فإنه يكفي أحدنا الدخول على الشبكة العنكبوتية وزيارة موقع محفل الميريديان الماسوني رقم **691** ليقرأ تحت عنوان: " الاتصال الماسوني" ما يلي: "ينتسب

كافة فرسان الهيكل لعضوية أقدم منظمة أخوية في العالم والتي تعرف باسم: (الماسونيون القدماء الأحرار الأصليون) أو ما يعرفون باختصار باسم "الماسونيون". ولكن ليس كل ماسوني من أتباع فرسان الهيكل بالضرورة لأن جماعة فرسان الهيكل ليست سوى جزء من الطيف الماسوني". [1]

ما من شك في أن الماسونية شهدت تطورات تدفعنا للاعتراف بأن هذه الحركة السرية الغامضة أصبحت جزءاً محورياً من الحضارة اليهودية- المسيحية الغربية الرأسمالية في القرون القليلة الماضية. وفي ذلك كتب روبنسون يقول: " عندما أدى جورج واشنطن، الماسوني، يمين القسم كرئيس للولايات المتحدة، اختار أن يفعل ذلك مستخدماً نسخة من الإنجيل تمت استعارتها من المحفل الماسوني في مدينة نيويورك، وتمت مراسم القسم تحت إشراف المستشار روبرت ليفنغستون، وهو ماسوني آخر كان يحظى وقتها بمرتبة السيد العظيم على سلم المناصب في الحركة.. لم يكن واشنطن الرئيس الأمريكي الوحيد في انتمائه للماسونية، بل إن القائمة طويلة وتضم رؤساء آخرين مثل: أندرو جاكسون، جايمس بولك، جايمس بوكانان،أندرو جونسون، جايمس غارفيلد، ثيودور روزفلت، وليام هوارد تافت، وارين هاردنغ، فرانكلين روزفلت، هاري ترومان، ليندون جونسون، جيرالد فورد، والأخ الفخري رونالد ريغان.

وفي الوقت نفسه نجد أن قائمة عضوية الحركة تزهو بأسماء كبار السياسيين والعسكريين في العالم الغربي، منهم من قاد الحلفاء إلى النصر في الحرب العالمية الثانية "مثل وينستون تشيرتشل" و"الفيلد مارشال كلود اوتشينليك" و"المارشال لورد نيوهال" قائد السلاح الجوي الملكي البريطاني، والجنرال سير فرانسيس وينغيت. أما الحركة الماسونية الأمريكية فتمثلت في الحرب العالمية بعدد من الجنرالات منهم: مارك كلارك، عمر برادلي، جورج مارشال، جوزيف ستيلويل ودوغلاس مكارثر.

الواقع أن المرء يجد صعوبة في معرفة أين يتوقف لدى الحديث عن مدى تغلغل نفوذ الحركة الماسونية في مناحي الحياة الغربية كافة على مدى السنوات الـ **270** الماضية، وعلى سائر المستويات السياسية والعسكرية والثقافية"

وعليه يمكن القول وبكثير من الثقة بأن الحضارة الغربية التي تلت حركة الإصلاح وظهور البروتسنتينية كانت حضارة يهودية- مسيحية الطابع، ولم تكن مسيحية خالصة، بل إنها أصبحت لاحقاً رهينة للطابع اليهودي الذي غلب على جانبها المسيحي مع مرور الوقت. بدأ هذا التحول بثورة على الكنيسة الكاثوليكية وانتهى تدريجياً بعداءٍ سافر للمسيحية السائدة، والذي تجلى أكثر ما يكون في رؤية وطروحات المذهب الكالفيني وغيره من المذاهب العديدة التي قادها دعاة التجديد، الذين جاهروا بعدائهم للمسيحية السائدة بل طالبوا وبحماسة بتغيير الإنجيل كما فعل كالفين وآخرون. من الملاحظ هنا أن جميع المذاهب البروتسنتينية اليهودية- المسيحية الأنجلو- ساكسونية **(**WASP **)** متفقة تماماً في عدائها للإسلام وحماستها لعودة اليهود إلى فلسطين وإعادة بناء هيكل سليمان، وهو الهدف نفسه الذي جمع بين المسيحيين الصهاينة واليهود الصهاينة، كما أن إعادة بناء الهيكل المزعوم يعتبر أحد مطالب الحركة الماسونية. كانت عملية تقريب التوراة والإنجيل تتم ببطء ولكن بثبات حتى وصلت مرحلة التوحد عند البروتنسنت.

[1] http://www.islipmasons.org/knights_templers.htm

وهكذا نجد أن اللوبي الإسرائيلي جاء وليد مجموعة من العوامل، التي توحدت معاً في ظروف مواتية، وأبرزها: المذاهب الإصلاحية المسيحية، وقوة المال اليهودي الذي يشكل العمود الفقري للرأسمالية، والمنظمات السرية التي تتحكم ومن وراء ستار بالسياسات والاقتصاد العالمي، من خلال شبكتها الخاصة من الجمعيات والمؤسسات والمعاهد العلنية منها والسرية، إضافة لأعضائها الملتزمين الذين زرعتهم في مواقع اتخاذ القرار، بعد عملية فرز واختيار دقيقة لضمان تنفيذ أهدافها الكبرى في السيطرة على العالم. وبغض النظر عن اختلاف الدوافع لدى كل من المسيحيين واليهود الصهاينة، فإن المسيحيين الصهاينة تعرضوا لعملية غسيل دماغ جعلتهم يتبنون وجهة النظر اليهودية بكثير من التسليم، الأمر الذي يجسده ليني ديفيز بالقول رداً على ما قيل له بأن المسيحيين الصهاينة سيتبرؤون من المعتقدات اليهودية بعد عودة المسيح:" لا شك في أن هؤلاء الأشخاص يثيرون لدي الكثير من الشك والتخوف، إلا أنني وحتى أرى المسيح يظهر على تلال القدس، سأبقى مؤيداً لإسرائيل". [1]

إيباك AIPAC جزء من طيف النفوذ العالمي

هناك طيف متعدد من الجماعات والهيئات والمؤسسات السياسية والاقتصادية والمالية والعسكرية تشكل معاً عجلة القوة التي تتحكم بمسار العولمة هذه الأيام، وليست لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية (إيباك **AIPAC**) سوى جزء وإن كان جوهرياً من هذه التركيبة. وجاءت الثورة الرقمية في عصر المعلومات لتعزز من تلاحم هذه الجماعات، المتنفذة للغاية، إلى درجة الاندماج لتشكل عجلة قوة موحدة. في محاضرتي التي ألقيتها في كلية كينيدي في الإدارة الحكومية- هارفارد بتاريخ **18** مارس **2008**، وصفت العولمة، أو ما يعرف بالنظام العالمي الجديد، على أنها في الواقع تعبير ريائي يقصد منه تجميل الحقيقة، إذ إن ما نشهده ليس سوى عملية تحويل الدول القومية إلى جمهوريات موز تكرس لخدمة المصالح الخاصة التي تملك عجلة القوة التي تتحكم بدورها بالعالم من خلال الإمبراطورية الأمريكية حالياً، والإمبراطورية البريطانية في الأمس القريب. الواقع أننا لم نشهد الكثير من التغير في جوهر الإمبريالية ما بين الأمس واليوم وإن طال التغيير الشكل فقط. وفي مقارنة بين سياسة صندوق النقد الدولي الخاصة بفرض الشروط على طالبي المساعدات من الدول حالياً، والإمبريالية الأنغلو- فرنسية في القرن التاسع عشر، عندما قررت إدارة السياسة المالية لمصر عام 1875 لضمان استرداد ديونها، كتب روبرت كووبر، مستشار رئيس الوزراء البريطاني، في عدد أكتوبر 2001 من مجلة بروسبيكت يقول:" ما وجه الاختلاف بين هذا (شروط الصندوق) وما فعله لورد كرومر وآخرون في مصر؟... ما فعله هؤلاء كان أقرب إلى البرنامج الصارم الذي يطبقه صندوق النقد الدولي". بالأمس كان الأمر يتعلق بشركة الهند الشرقية واليوم نحن أمام شركة شيفرون الأمريكية .. وإذا كان هناك رونشايلد واحد في الأمس فإننا نكتوي بممارسات العديد من أبناء جلدته اليوم.

يكفي أن يقرأ أحدنا خطاب إغناتشيوس دونيللي الذي ألقاه في مؤتمر سانت لويس الشعبي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ليجد نفسه أمام وصفة دقيقة للمشاكل التي

[1] Painting Islam as the New Enemy, Abdulhay Zalloum, Pg 211

يعاني منها العالم اليوم. ومما جاء في خطاب دونيللي بهذا الشأن القول:" نحن نتحدث وسط أمة تقف على شفير الهاوية أخلاقياً وسياسياً ومادياً.. فالمؤسسات تتحكم بصناديق الاقتراع وتوجه المشرعين وتسيطر على الكونغرس، وتكاد "تتلمس بيدها فرو مقاعد القضاة" .. أما الصحافة فهي إما خانعة أو مكبوتة".

من الواضح أن عالمنا أصبح رهينة لخطط ومؤامرات الإمبريالية الغربية الرأسمالية التي تسيطر عليها الإمبريالية اليهودية_المسيحية الأنجلو-ساكسونية، وتتحكم بمسار الأمم من خلال شبكة من المؤسسات المتعددة الجنسيات وشركات الإعلام، والهيئات المالية والمؤسسات العسكرية والسياسية.. وهي شبكة من صنع وتخطيط وتوجيه طيف القوة المتنفذ في الأمس وفي الوقت الحاضر على حد سواء. وقد نجحت الجماعات المذكورة في فترة ما من تجريد الحكومات من القدرة على إدارة الأمور في بلادها مستخدمة شعارات مختلفة كان آخرها "الخصخصة".

مثل "هذه الجماعات المتنفذة التي تعمل جاهدة على تسويق وفرض النظام العالمي الجديد تفعل ذلك على الملأ وأمام أنظار الجميع. ومن أبرز الأمثلة على هذه الجماعات: الشركات متعددة الجنسيات(تسيطر على **80**% من النشاط الاقتصادي للولايات المتحدة). والمؤسسات المالية العالمية (بما فيها البنوك، وصناديق الاستثمار، والبوارص، وصندوق النقد الدولي، واتحاد الجامعات الرئيسية، وبنك التنمية الأمريكي الدولي، وبنك المقاصة الدولي **BIS** ، ومنظمة الأمم المتحدة، ومنظمة التجارة العالمية **WTO**) والأهم من ذلك سيطرة الجماعات المذكورة على موقع اتخاذ القرار في الإدارة الأمريكية والحكومة الإسرائيلية والبريطانية وغيرها من الدول الصناعية". [1]

بيوت الفكر(Think Tanks) في خدمة جماعة المصالح الخاصة
مجلس العلاقات الخارجية CFR.. دراسة حالة

في عام **1919** استضاف فندق ماجيستيك الباريسي اجتماعاً لعدد من أرباب المصارف والمحامين والسياسيين والأكاديميين على هامش مؤتمر باريس للسلام. وكان الموضوع الرئيسي على بساط البحث في اجتماع الشخصيات المعروفة المشاركة فيه هو خلق شبكة من بيوت الفكر التي تستخدم كمحافل خاصة مهمتها رسم الخطط المناسبة لضمان انتقال سلس لمركز ثقل القوة الإمبريالية من بريطانيا للولايات المتحدة في المرحلة القادمة والاتفاق على رؤية واضحة لتوجيه هذه القوة. كما ستتولى بيوت الفكر الجديدة تصميم ترتيبات عالم ما بعد الحرب بما يخدم مصالح الإمبريالية العالمية وأهداف التحالف الأنجلو-أميركي. انبثق عن اجتماع باريس توأم من بيوت الفكر أحدهما في لندن وحمل اسم المعهد الملكي للشؤون الدولية **RIIA** والآخر في نيويورك تحت اسم مجلس العلاقات الخارجية **CFR** . ومن البداية نشط المجلسان المذكوران في تسويق نظام اجتماعي

---

[1] Salbuchi Global Research Articles by Adrian Salbuchi] Global Research, December 2, 2006

وسياسي لا يختلف بشيء عما سبقتهما لطرحه المؤسسات التي تدار من قبل الحركة الماسونية مثل: جمعية فابيان الممولة من قبل جماعة الطاولة المستديرة وهي الجماعة التي أوجدتها وتديرها وتمولها: عائلة سيسيل رودس - جنوب إفريقيا-، وعائلة روتشيلد المالية الدولية، وعدد من المحافل الماسونية في المملكة المتحدة، والتاج البريطاني. وكان أول دعم يحظى به مجلس العلاقات الخارجية قد جاء من كبريات العائلات الثرية المتنفذة في الولايات المتحدة مثل: روكفللر، وميلون، وهاريمان، ومورغان وتشيف، وكاهن وواربيرغ ولويب وكارنيجي (طبقاً لما ورد في مقالة لأدريان سالبوتشي نشرتها غلوبال ريسيرتش).

وعلى سبيل المثال نجد أن شارلز برات مدير الشؤون المالية في شركة ستاندارد أويل المملوكة لعائلة روكفللر هو الذي تبرع بالعقار الكائن في شارع **68** ليكون مقراً لمجلس الشؤون الخارجية في نيويورك. عمل المجلس بعدها على فتح معاهد شقيقة في كل من كندا وجنوب افريقيا ونيوزيلندا واستراليا والسويد وهولندا والهند واليابأن. ولأن مجموعة روكفللر ومجموعة مورغان كانتا من صاغ مسودة التشريع الذي انبثق عنه نظام الاحتياط الفيدرالي الخاص للسيطرة على مال وبنوك أمريكا عام **1913** ، فقد أصبح لمؤسسة روكفللر ومجلس نيويورك للعلاقات الخارجية كلمة الفصل في تحديد وتوجيه سياسات المجلس المذكور. لم يكن من قبيل الصدفة أن يتعاقب على رئاسة المجلس في سنوات ما بعد الحرب مجموعة من الأشخاص جمعتهم قواسم مشتركة مثيرة للاهتمام، منها أنهم جميعاً خدموا على رأس أقوى البنوك المركزية في العالم، بما فيها الاحتياط الفيدرالي، وكونهم جميعاً من أبناء عقيدة واحدة هي اليهودية وهم: وليام مكنزي مارتن، أرثر بيرنز، جي وليام ميللر، بوول فولكر، آلان غرينسبان، والرئيس الحالي للاحتياط الفيدرالي بنيامين شلومو بيرنانكي، وجميع هؤلاء كانوا من الأعضاء الأوائل لمجلس العلاقات الخارجية.

ومن الأسماء البارزة التي لعبت دوراً أساسياً في تسيير شؤون المجلس آلان دالايس الذي شغل منصب مدير المجلس في سنواته الأولى ، ويعرف عن المذكور أنه كان شخصية بارزة في أجهزة الاستخبارات الأمريكية، حيث يعود إليه الفضل في تأسيس وكالة الاستخبارات المركزية **CIA**. وهناك أيضاً القطب الإعلامي وولتر ليبمان، الذي كان من أقرب المستشارين للرئيس ويلسون، إلى جانب عدد من كبار المحامين العاملين لدى جي.بي. مورغان وغيرها من المؤسسات المالية العملاقة. ولا ننسى هنا بالطبع Isaiah Bowman الذي قاد فريقاً لإعادة رسم خريطة أوروبا الوسطى عام **1919**، وترأس مجموعة دراسات الحرب والسلام السرية التي صممت النظام العالمي الجديد بعد الحرب العالمية الثانية، واعتمدت توصياتها اجتماعات بريتون وودز عام **1944** في تأسيس كبريات المنظمات الدولية مثل: الأمم المتحدة، صندوق النقد الدولي البنك الدولي ومنظمة الجات.

شكل الهيمنة على الإعلام هاجساً رئيسياً للقائمين على مجلس العلاقات الخارجية منذ البداية ولا يزال، حيث سارع رموز المجلس للسيطرة على شبكات الراديو الجديدة مثل **ABC،NBC** ، و **CBS** . ومع وجود الصحف الرئيسية مثل النيويورك تايمز والواشنطن بوست والوول ستريت جورنال وشيكاغو تريبيون تحت السيطرة، يكون هؤلاء قد استكملوا هيمنتهم على وسائل الإعلام، خاصة وأن الشبكات الإذاعية المذكورة تملك محطات تلفزيونية رئيسية خاصة بها.

هيمنة CFR على الإعلام العالمي

منذ الحرب العالمية الثانية، وإنشاء مجلس الإستراتيجية النفسية في السي آي إيه، بدأت وزارة الخارجية ومجلس العلاقات الخارجية والدوائر الداخلية في أوساط النخبة في الولايات المتحدة، تكريس الكثير من الوقت والجهد والموارد المادية لتحقيق هدف رئيسي وهو السيطرة على وسائل الإعلام. وما تحقق في هذا الشأن كاف لإقناع الكثيرين بأن الإعلام الأمريكي أصبح الآن تحت سيطرة النخبة في مجلس العلاقات الخارجية، وبشكل يفوق ما هو عليه في الصين الشيوعية وأكثر الأنظمة دكتاتورية في العالم، وإن كانت هذه السيطرة تتم بدهاء يخدع عامة الأمريكيين الغافلين عن حقيقة أن سائر أفكارهم السياسية إنما تلقن لهم وتوجه من قبل النخبة.

خلال الحرب الباردة استقبلت الولايات المتحدة وفداً إعلامياً من الاتحاد السوفيتي الذي جاء بهدف الاطلاع على تجربة الصحافة الحرة في دولة ديمقراطية . وفي ختام الزيارة أبدى المنظمون استعدادهم للاستماع إلى أي ملاحظات أو استفسارات قد يطرحها أعضاء الوفد الضيف. وهنا تحدث أعضاء الوفد السوفياتي عن إعجابهم الشديد بدرجة السيطرة التي تخضع لها وسائل الإعلام الأمريكية، قائلين بأن الأمريكيين استطاعوا تطوير وسائل التحكم بطريقة مثيرة للإعجاب. وأضاف هؤلاء بأنه وبغض النظر عن الجهة التي تتحكم بتوجهات وسائل الإعلام الأمريكية، فإنها تؤدي عملها بطريقة أفضل مما هو متحقق في الاتحاد السوفياتي. وأكد أعضاء الوفد الشيوعي الزائر بأنهم لمسوا وجود هيمنة من جهة ما على وسائل الإعلام الأمريكية في كل مكان زاروه، سواء أكان دار إذاعة أو محطة تلفزيون أو صحيفة.

وفي عملية تعبير واضح عن أولياتهم في حقبة عولمة هيمنتهم على السوق الإعلامي منذ أوائل التسعينات ، شرعت المؤسسات الإعلامية العملاقة في تنفيذ عملية إعادة تنظيم وتركيز النشاط الإعلامي في أيد محدودة تجسدها هيمنة مؤسسات عملاقة على السوق الإعلامي، مثل AOL Time Warner التي تتحكم بشبكات CNN و CBS و HBO والأخيرة هي أكبر شبكة كيبل ومزود للإنترنت في الولايات المتحدة ويرأس مجلس إدارتها جيرالد ليفين. هذا بالإضافة إلى مجموعة مجلة التايم واستوديوهات Warner Brothers وغيرها من كبريات شركات الإنتاج السينمائي في هوليود.

يترأس مايكل إيزنر ساعة كتابة هذه السطور ثاني أكبر شركة عملاقة في صناعة الإعلام في الولايات المتحدة وهي وولت ديزني، والمذكور لا ينتمي للعائلة الشهيرة بقرابة نسب. وتدير ديزني العديد من شركات الإنتاج التلفزيوني بما فيها تتشستون، بوينا فيستا، كارافان، وهوليوود بيكتشرز. كما تملك شركة ديزني ثاني أكبر شبكة تلفزيون بفروعها الأوروبية العديدة وهي كابيتال سيتيز ABC .

أما ثالث أكبر مجموعة في السوق الإعلامي الأمريكي فهي شركة فياكوم إنكورب التي تملك أيضاً شبكة **ESPN** الرياضية، وبارامونت، وجريدة وومينز وير اليومية المتخصصة في الشؤون النسائية، وبارامونت بيكتشرز، كما اشترت مؤخراً شبكة **CBS** من تايم وورنر. وتتحكم فياكوم في سوق الشباب على المستوى العالمي من خلال شبكة **MTV** الكيبل، التي تنشر ثقافة العنف والجنس في صفوف المراهقين من خلال قنوات نيكلديون وشو تايم، حيث تصل خدمات **MTV** إلى **270** مليون منزل في **71** بلداً عبر العالم، الأمر الذي يجعل منها أحد أكثر شركات الاتصال تأثيراً ونفوذاً على مستوى العالم.

يملك قطب الإعلام الأسترالي المولد روبرت مردوخ رابع أكبر مجموعة إعلام أميركية هي نيوز كورورريتشن. ويملك مردوخ شبكة فوكس التلفزيونية التي يسيطر عليها ويوجه خطها الإعلامي المحافظون الجدد لمصلحة إسرائيل. كما يملك مردوخ جريدة النيويورك بوست وصحفاً عديدة أخرى بما فيها الويكلي ستاندارد الناطقة ياسم المحافظين الجدد، ويترأس تحريرها أحد رموز هذا التيار وهو وليام كريستول. والحديث عن مردوخ يقودنا بالضرورة إلى شريكه التجاري السابق حاييم صبأن، الملياردير الهوليوودي المقرب من أرييل شارون، وأحد أكثر اليهود الأمريكيين تعصباً لإسرائيل. فقد تملك صبأن مؤخراً أكبر مجموعة تلفزيونية في ألمانيا وهي: Pro- 7 Media .

أما خامس أكبر مجموعة إعلامية فهي تلك المملوكة للملياردير سي نيوهاوس وتحمل اسمه. وتمتلك نيوهاوس 12 محطة تلفزيونية و87 محطة كيبل وعدداً من الصحف، منها الصنداي ماغازين الواسعة الانتشار، وبارييد والنيويوركر ومجلات فووغ ومادموزييل وفانيتي فيير، وغير ذلك من الصحف المحلية في مدن كليفلاند ونيوآرك ونيوأورليانز.

لعل الحقيقة الأكثر إثارة فيما يتعلق بنفوذ الإعلام في أمريكا حالياً هي أن سائر المؤسسات الإعلامية الكبرى تدار من قبل أعضاء في مجلس العلاقات الخارجية CFR بدءاً من ديزني وتايم وورنر وفوكس نيوز وفياكوم. وهناك حقيقة لا تقل أهمية بهذا الشأن وهي أن أعضاء مجلس العلاقات الخارجية هؤلاء، ممن يتحكمون بالمؤسسات الإعلامية العملاقة، هم جميعاً من اليهود، وهي حقيقة عارية ومتاحة أمام كل من يرغب بالتحقق من صحتها، إلا أن الحديث عنها أو التطرق لها يعتبر من المحظورات، نظراً لما تثير من حساسية في الأوساط الأمريكية والغربية عموماً. فالتهمة بمعاداة السامية جاهزة للصقها بكل من يحاول طرح أكثر التساؤلات أساسية وهو: كيف تسنى لمجموعة عرقية صغيرة تعرف بآرائها ومواقفها المؤيدة لإسرائيل التحكم بالقطاع الإعلامي إلى درجة الاحتكار ؟ تبقى الحقيقة القائمة، والتي مفادها أن قطاع الإعلام في الولايات المتحدة حالياً يتركز في أيدي حفنة من الأشخاص، جميعهم أعضاء في مجلس العلاقات الخارجية علاوة على أنهم من اليهود.

كان مجلس العلاقات الخارجية ولا يزال مجموعة خاصة من النخبة، ممن يتم اختيارهم من قبل لجنة معينة، تبعاً لمعايير محددة ليس أقلها الولاء التام لأجندة نخبة سرية عالمية. ويتمتع أعضاء المجلس الذي يقدر عددهم بـ 3 ألاف شخصية مرموقة بوضع يؤهلهم للتحكم بسياسات الحكومات، وتوجيه الأحزاب السياسية، والهيمنة على المصارف والقطاع الخاص الصناعي. ومن مجمل الأعضاء الـ: 3 آلاف هناك دائرة داخلية من النخبة أطلق عليها الكولونيل فليتشر براوتي من مكتب التنسيق لشؤون الاستخبارات مع السي آي إيه في سلاح الجو الأمريكي لقب: الفريق السري. ويتكون الفريق المذكور من 100 عضو يتم اختيارهم بعناية من أعضاء المجلس، وتوكل لهم مهمة السيطرة على: وزارة الخارجية، ووكالة الاستخبارات المركزية، ووزارة الدفاع، ومكتب التحقيقات الفيدرالي FBI، ووزارة الخزانة وغيرها من الأذرع الرئيسية للحكومة الأمريكية.

وهكذا يجد العالم نفسه اليوم أمام نوع جديد من الإمبريالية يختلف في الشكل ولكنه يتفق تماماً في الجوهر مع ما اكتوى به في الماضي القريب. وبدلاً من لجوء الإمبريالية الأمريكية الجديدة لنظام المستعمرات القديم في بناء إمبراطوريتها، فقد وجدت في إيديولوجية الأسواق الحرة والتجارة المفتوحة الوسيلة الأكثر كفاءة، في ضمان استمرار نمو

وهيمنة الصناعات والمصارف الأمريكية على الأسواق على حساب منافساتها الأجنبية. ومن خلال نفوذها الذي لا ينازعه أحد في الأمم المتحدة، وهيمنتها على المنظمات الاقتصادية والمالية الجديدة. مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الولي ومنظمة الجات لاحقاً، للسيطرة على حركة التجارة الدولية، وخرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية في أوج قوتها. فقد أصبحت تتحكم بالجزء الأعظم من الاحتياط العالمي من الذهب، وتهيمن على بحار العالم السبع و40% من ثروة العالم وقدراته الصناعية، علاوة على أنها الطرف الوحيد الذي خرج من الحرب بدون أن تعاني من الدمار والمصاعب الاقتصادية.

اختيار وتدريب وتوزيع البيروقراطيين

سيكون من الأفضل البدء بتحديد العلاقة بين القوة الخفية، التي تمسك بيدها بزمام القوة الحقيقية والأفراد الذين يتم اختيارهم ودفعهم للواجهة لتنفيذ ما يرسم لهم من أجندة. ولعل أوضح تعريف لهذه العلاقة بين طبقة النخبة من الأكاديميين والسياسيين والبيروقراطيين مع أقطاب المال والبارونات اللصوص العالميين، ذلك الذي جاء على لسان وولتر ليبمان، أحد مؤسسي مجلس العلاقات الخارجية وقطب إعلامي، حيث قسم ليبمان النظام الطبقي الأمريكي إلى ثلاث فئات: الطبقة الخاصة، والمسئولين الذين تتلخص مهمتهم في تحديد المصلحة القومية، وأخيراً طبقة الجهلة وهم العامة الذين يشكلون الأغلبية الساحقة الذين عليهم الانقياد لتوجيهات الطبقة الخاصة. وفي كتابه المعنون: "قرن الحروب"، ينقل الاقتصادي والكاتب وليام إينغدال عن ليبمان رؤيته بهذا الشأن بالقول:" تتحول النخبة إلى بيروقراطية مكرسة لخدمة مصالح الطبقة الخاصة والأثرياء، مع توخي عدم كشف حقيقة العلاقة بين الطرفين أمام العامة بأي حال من الأحوال، لأن طبقة العامة لن تستطيع استيعاب مثل هذه العلاقة". ومضى ليبمان للقول:" يتوجب الإبقاء على العامة أسرى الاعتقاد الواهم من أنهم يمارسون السلطة بصورة ديمقراطية، على أن تنحصر مهمة صياغة هذا الوهم من قبل هيئة النخبة أو المسئولين فيما يعرف اصطلاحاً بـ: "صناعة القبول". وتعرف هذه البيروقراطية المكرسة لخدمة النخبة بأنها السلطة الظاهرة في حين أن السلطة الحقيقية تبقى في يد القوة الخفية التي تمثلها النخبة المالية والاجتماعية.

وكدراسة حالة سنطرح كلاً من هنري كيسنجر وكونداليزا رايس على بساط البحث باعتبارهما عضوين بارزين من الطبقة المكرسة أو المسئولين. فقد جذب كيسنجر، الأستاذ الجامعي الشاب الطموح من جامعة هارفارد، أنظار المسئولين في مجلس العلاقات الخارجية الذين قرروا تبنيه ورشحوه عام 1957 لرئاسة مجموعة دراسة جديدة للمجلس لفترة الستينات. وفي العام التالي صدر لكيسنجر كتابه المعنون: الأسلحة النووية والسياسة الخارجية، والذي جاء وليد مشروع مجلس العلاقات الخارجية، ودفع بصاحبه خطوة رئيسية إلى الأمام، حيث تم اختياره بعدها مستشاراً لإدارة الرئيس كينيدي، وليصبح كيسنجر بذلك أحد أقطاب القوة الخفية، ويلعب دوراً رئيسياً في تنفيذ الأجندة الخفية لمجلس العلاقات الخارجية، من خلال المواقع الرسمية التي تبوأها من وقت لآخر.

في عام **1957** أصدر روبرت شتراوس هيوب- مؤسسس معهد أبحاث الدراسات الأجنبية قبل ذلك التاريخ بعامين- دورية تحمل اسم أوربيس **Orbis** " برعاية مباشرة وكاملة من **Isaiah Bowman** ". وقتها كان مجلس تحرير الدورية المخصصة

للبحث في القضايا الدولية يضم وليام ياندیل إيليوت من جامعة هارفارد وتلميذه هنري كيسنجر. كانت المهمة الأساسية للمعهد المذكور على المدى البعيد خدمة التصور الخاص بالإمبراطورية الأمريكية المهيمنة على عالم بدون دول قومية في مرحلة ما بعد الاتحاد السوفياتي. حملت المقالة الرئيسية التي نشرتها دورية أوربيس في عددها الأول بقلم روبرت شتراوس عنوان:" ميزان الغد" وجاء فيها القول" تجد الولايات المتحدة نفسها في مواجهة قضية أساسية ملحة، تتمثل في توحيد العالم تحت قيادتها في وقت لا يتجاوز الجيل الحالي.. وهنا ينبغي التأكيد على حقيقة هامة وهي أن بقاء واستمرار الثقافة الغربية بل وبقاء الجنس البشري مرهون بكيفية إنجاز الولايات المتحدة هذه المهمة بسرعة وكفاءة.. وهل سيكون النظام العالمي الجديد المرتقب الإمبراطورية الأمريكية الجديدة؟ لا بد أن الأمر كذلك بالفعل لدرجة أنه يحمل بصمة الروح الأمريكية ". وطبقاً لشتراوس فإن آسيا ستكون مصدر التهديد الجديد لهذه الرؤية وللإمبراطورية الأمريكية الجديدة . وأضاف شتراوس بأن" الإمبراطورية الأمريكية والإنسانية لن يكونا على طرفي نقيض بل مجرد اسمين للنظام العالمي الجديد".

ما أشبه اليوم بالبارحة. ففي أعقاب هجمات **11** سبتمبر **2001** عبر بيان موقع من **60** شخصية أميركية رئيسية، عن الروح نفسها التي كتبت بها مقالة شتراوس، والرؤية نفسها التي شكلت أساس عمل ومهمة معهد أبحاث السياسة الخارجية عام **1955**، وهو المعهد نفسه الذي استقطب أشخاصاً من وزن أبطال نظرية صراع الحضارات: هنتنغتون، كيسنجر وبريزنسكي وبيرنارد لويس كمستشارين أو بمعنى آخر موجهين لدفة الأمور فيه. لم تنتظر الولايات المتحدة طويلاً بعد انهيار الاتحاد السوفياتي لتطلق حملتها الخاصة بتطبيق النظام العالمي الجديد أو بمعنى آخر: إقامة الإمبراطورية الأمريكية الجديدة.

بتاريخ **23** أغسطس **1990** أي بعد مرور ثلاثة أسابيع على الغزو العراقي للكويت، بدأ يتردد في واشنطن علناً تعبير النظام العالمي الجديد، وكان برنت سكاوكروفت، مستشار الأمن القومي في عهد الرئيس جورج هيربرت وولكر بوش أول من تطوع لاستخدام هذه العبارة عندما قال أمام الصحفيين:" نعتقد بأننا نعمل الآن على خلق النظام العالمي الجديد على حطام العداء الأمريكي السوفيتي". بعدها بأسابيع قليلة وتحديداً في **11** سبتمبر **1990** خاطب الرئيس بوش الكونغرس قائلاً:" بدأت تواً شراكة جديدة بين الدول.. كما أن الأزمة في الخليج "الفارسي" على خطورتها الجسيمة تشكل فرصة نادرة.. فمن صلب هذه الأوقات العصيبة يمكن أن يبرز نظام عالمي جديد".

دعونا نناقش حالة جورج دبليو. بوش وكونداليزا رايس. فعندما قررت القوة الخفية ترشيح جورج دبليو. بوش لخوض الانتخابات الرئاسية، لم يكن المرشح يفقه الكثير في مجال السياسة الخارجية، لدرجة أنه أجاب عن سؤال صحفي عما إذا كان يعرف شيئاً عن "طالبأن" بالقول وبلهجة جادة بأنها فرقة روك آند رووول. ولمعالجة هذا الجهل المطبق في السياسة الخارجية لدى بوش تم الاستعانة باثنين من فئة البيروقراطيين المكرسين: كونداليزا رايس وبوول ولفووتز، وأوكلت لهما مهمة تلقين المرشح الجمهوري ألف باء السياسة الخارجية. وبدءاً من شتاء **1999** اعتاد الثلاثي: بوش رايس وولفوتز التنسيق مساء كل أحد للاتفاق على خطة عمل الأسبوع الجديد. وفي صباح الاثنين التالي يتولى فريق أكبر العمل على وضع التفاصيل الدقيقة لخطة عمل الأسبوع التي اتفق عليها بوش ورايس

وولفوتز. وكان الفريق ألأكبر يضم عدداً من كبار المسئولين في إدارة بوش الأب من أشد المتحمسين لفكرة النظام العالمي الجديد ومن الأعضاء النشطين في اللوبي الصهيوني مثل: ريتشارد أرميتاج، وريتشارد بيرل، ودوف زاخييم. وبعد فوز بوش الابن بالرئاسة تبوأ المشرفون على حملته الانتخابية مناصب رفيعة في الإدارة الجديدة لتنفيذ المرحلة التالية من إعادة ترتيب النظام العالمي طبقاً لرؤية وخطة القوة المتنفذة الخفية.

تمثل تجربة كونداليزا رايس في السلطة مثالاً على كيفية تجنيد وتأهيل ودفع البعض إلى الواجهة لخدمة مصالح النخبة. فقد ولدت كونداليزا في بيرمنغهام - ألاباما عام **1954** في وقت كانت فيه الولايات الجنوبية تعاني من المشاكل العنصرية الأمر الذي دفع بعائلتها السوداء إلى الانتقال إلى دينفر-كولورادو حيث عمل والدها أستاذا في جامعة دينفر، وهناك حصلت كوندي على الدكتوراه في العلاقات الدولية عام **1981** تحت إشراف البروفسور جوزيف كوربل.

تقول رايس بأن علاقة صداقة قوية جمعتها بالبروفيسور كوربل واعتادت التردد على بيته، حيث التقت هناك بابنته مادلين كوربل أولبرايت - التي تولت لاحقاً حقيبة الخارجية في عهد كلينتون- ونمت صداقة قوية بين الاثنتين. يذكر هنا أن أولبرايت كانت حريصة على الادعاء بأنها مسيحية الديانة إلى أن كشف أحد المراسلين ذات يوم، بعد وصولها لمنصب الخارجية ، عن وجود ابن عم لها يهودي يعيش في أحد الكيبوتزات في إسرائيل. وقتها اضطرت أولبرايت للاعتراف بجذورها اليهودية وبأنها لم تكتشف ذلك سوى مؤخراً وبعد أن بلغت الستين من العمر!!!.

انتقلت رايس للتدريس في جامعة ستانفورد حيث ترقت سريعاً لرتبة الأستاذية. انضمت لـ: معهد هووفر للحرب والسلام والثورة واستمرت فيه برتبة زميل أول. منح مجلس العلاقات الخارجية رايس فرصة العمر عندما اختارها لزمالة المعهد مما أوجب عليها الانتقال إلى واشنطن حيث عملت في مكتب رئاسة الأركان المشتركة الأمريكية كباحث في التخطيط النووي الإستراتيجي. وفي عام **1989** وقع عليها الاختيار للالتحاق بمجلس الأمن القومي كخبيرة في الشؤون السوفياتية. وفي مايو **1990** تمت ترقية كوندي كمدير أول لشؤون الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية، ليعاد ترقيتها مجدداً بتاريخ **9** أغسطس التالي ، أي بعد أسبوع من الغزو العراقي للكويت وإطلاق رؤية النظام العالمي الجديد، لتصبح المساعد الخاص للرئيس بوش. ومن موقعها الجديد تابعت رايس السنوات الحرجة التي شهدت تحول الاتحاد السوفيتي من قوة عظمى إلى قوة من الدرجة الثالثة بأسنان نووية. ومنذ خروجها من إدارة بوش الأب وحتى انضمامها لحملة بوش الابن الانتخابية ، كان اسم رايس يقترن بالشركات المالية والنفطية المتعددة الجنسيات، حيث كانت عضواً في مجالس إدارة العديد منها مثل: شيفرون النفطية، ومؤسسة هولت باكارد، وشارلز شواب، كما أنها عضو في المجلس الاستشاري لبنك جي.بي. مورغان.

مجموعة بيلدبيرغ واللجنة الثلاثية... نتاج مجلس العلاقات الخارجية

في عام **1954** أدرك أعضاء مجلس العلاقات الخارجية، وجود حاجة إلى منظمة أطلسية قادرة على تنفيذ والتحكم بالسياسات الأوروبية في مرحلة ما بعد الحرب، بعيداً عن السياسات العسكرية الطابع لحلف الناتو. ومن هذا المنطلق نظم المخططون الإستراتيجيون في المجلس ندوتهم السنوية التي عادة ما تحضرها نخبة النخبة، في فندق بيلدبيرغ_

هولندا، وحضور مميز من الأمير الهولندي بيرنهاردت، الذي يشير سجله إلى أنه خدم في الحرب كضابط في القوات الخاصة النازية وكان مقرباً من قائد تلك القوات الجنرال هيمللر. وبعد الحرب، وجدت الولايات المتحدة في الأمير اللعوب _ كما أطلقت عليه الصحافة_ الأداة الناجعة في إدارة شؤونها الأوروبية من خلال مجموعة بيلدبيرغ، هذه المجموعة التي انبثقت عن الاجتماع المذكور.

ومنذ اجتماع بيلدبيرغ المذكور، يعقد حوالي مائة من كبار قادة الحكومات ومسؤولي كبريات الشركات في أمريكا الشمالية وأوروبا اجتماعا سنوياً لهم في مكان سري بعيداً عن أعين الصحافة، حيث يناقشون مبادرات سياسية يتم الإعداد لها مسبقا، فيما أصبح يعرف لاحقاً باسم مجموعة غولدبيرغ نسبة للفندق الهولندي الذي استضاف أول اجتماع من هذا النوع.

في مايو **1973** وفي اجتماع سري آخر نظم للمجموعة في جزيرة خاصة تملكها عائلة وولينبيرغ السويدية اليهودية في سولتهوبادن خارج ستوكهولم، تم التخطيط للعملية الاقتصادية الخاصة برفع أسعار النفط بنسبة **400**% فيما عرفت بالصدمة النفطية، وهي عملية تمت بإشراف هنري كيسنجر من موقعه كمستشار للأمن القومي. وطبقاً للتخطيط الماكر للمجموعة فقد كان المقصود تحميل شيوخ النفط العرب اللوم عما سيحدث من صدمة في سوق الطاقة، في حين تؤكد الوقائع على أن الصدمة النفطية كانت مشروعا من تخطيط وتنفيذ كيسنجر وزملائه من النخبة في مجموعة بيلدبيرغ من الألف إلى الياء.

وإلى جانب مجموعة بيلدبيرغ، عمدت قوة الظل إلى إنشاء هيئة دولية خاصة جديدة تكون مهمتها: تنظيم الأمور في العالم لمصلحة الإمبراطورية الأمريكية. وحملت الهيئة الجديدة اسم اللجنة الثلاثية، في إشارة رمزية إلى مراكز القوى الثلاثة الرئيسية في العالم وقتها وهي: أمريكا الشمالية ، أوروبا الغربية واليابأن. وقع الاختيار على زبيغنيو بريزيزنسكي ليكون أول مدير تنفيذي للجنة الثلاثية. وكان بريزيزنسكي، وهو من أصدقاء كيسنجر المقربين، يعمل وقتها مديراً لمعهد الدراسات الروسية في جامعة كولومبيا، وهو معهد ممول من قبل مؤسسة روكفللر. وفي الوقت نفسه وقع الاختيار على جيمي كارتر، الحاكم المغمور لولاية جورجيا ليصبح أحد الأعضاء المؤسسين للجنة الثلاثية الأمر الذي يفسر على الأغلب سر العلاقة القوية التي ربطت بين كارتر وبريززينسكي لدرجة أن ولاية كارتر كرئيس للوليات المتحدة خلال الفترة من **1977-1980** تميزت أكثر ما يكون بهيمنة الأخير، ومن موقعه كمستشار للأمن القومي على القرار السياسي، إلى جانب العضو الآخر وزير الخارجية سايروس فانس.

شهدت العقود الثلاث الماضية عملية تطبيق وعلى أرض الواقع لما تمخض عنه اجتماع اللجنة الثلاثية المنعقد عام **1975** من قرارات وتوصيات حتى **11** سبتمبر **2001**، عندما أجبرت المخاوف من تعرض بلادهم لهجمات إرهابية جديدة، الأمريكيين للقبول بسيطرة الدولة البوليسية على شؤون حياتهم في سابقة لم تشهدها الولايات المتحدة في تاريخها. ولعل باستطاعة من يتمعن بدراسة هنتغتون المعنونة:" أزمة الديمقراطية"، التي عرضها في اجتماع اللجنة الثلاثية عام **1975** أن يلاحظ التطابق التام في الطروحات بين **1975-2001**. وعليه ، فلم تكن محض مصادفة أن يكون هنتغتون هو صاحب الكتاب المثير للجدل المعنون " صراع الحضارات" والذي توقع فيه نشوب حروب

بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي. وكان هنتغتون قد طرح فرضيته التشاؤمية هذه لأول مرة في مقالة نشرتها له مجلة الفورين آفييرز الناطقة باسم مجلس العلاقات الخارجية.

تعتبر المنظمات الثلاث المذكورة، مجلس العلاقات الخارجية ومجموعة بيلدبيرغ واللجنة الثلاثية، بمثابة الأذرع والأرجل للنخبة السلطوية والتي تعمل من خلاله على تنظيم شؤون العالم بالطريقة التي تراها مناسبة بما يخدم مصالحها أولاً وأخيراً. غير أن الهيئات الثلاث هذه ليست سوى الجزء الظاهر من الصورة، حيث تكمن خلفها شبكة خفية من الجمعيات الخاصة والمحافل السرية، والتي تتحكم بنشاط الملايين حول العالم لصالح أجندة سلطوية فيما يطلق عليها البعض اسم:" الإدارة المتشابكة". وترتبط هذه الجمعيات والمحافل بأنشطة سرية غامضة لها طابعها الغيبي، مثل دعمها القوي لإعادة بناء هيكل سليمان في موقع المسجد الأقصى في القدس. كما أن قوائم العضوية في هذه المحافل تضم أسماءً بارزة في عالم السياسة والمال والفن، ومن قادة دول وبما ذلك أعضاء مجلس العلاقات الخارجية ومجموعة بيلدبيرغ واللجنة الثلاثية والعديد من الدول النامية الافريقية والآسيوية.

طبيعة عمل مجلس العلاقات الخارجية وبيوت الفكر

يعود رسم الخطوط العريضة لسياسة الولايات المتحدة الخارجية الحالية إلى عام **1992** ،عندما خرج مكتب وزير الدفاع ديك تشيني في عهد جورج بوش الأب بعقيدة جديدة تطالب بنهج سياسي أكثر عدوانية، ومن جانب واحد يكفل السيطرة الأمريكية على شؤون العالم وبالقوة وحدها عند الضرورة. مثل هذه السياسة التي حملت اسم "السلام من خلال القوة" ،والتي وجدت طريقها للتطبيق على أرض الواقع بعد حرب الخليج الأولى، اكتسبت زخماً حقيقيا منذ اليوم الذي تولى فيه جورج بوش الابن السلطة في يناير **2001**.

الواقع أن التخطيط الاستراتيجي، بدأ خلال سنوات كلينتون وبتمويل من مجمع الصناعات العسكرية وشركات الطاقة والمؤسسات اليمينية. ومع مرور الوقت شكل المكلفون بالعمل على وضع الخطط الجديدة تجمعاً متناغماً وعمدوا عام **1997** لتأسيس بيت فكر حمل اسم: المشروع الأمريكي للقرن الجديد **PNAC** . وضم التجمع اليميني المحافظ الجديد شخصيات بارزة ومتنفذة مثل: ديك تشيني الذي كان وقتها يرأس شركة هالبيرتون، أكبر شركة خدمات نفطية وإنشاءات عسكرية في العالم، ودونالد رامسفيلد وبوول وولفوتز. كما ضمت دائرة النخبة في التجمع الجديد عدداً من أكثر المحافظين الجدد تشدداً في إدارة جورج دبليو بوش، ممن قاد كذبهم وزيفهم الولايات المتحدة إلى التورط في غزو العراق، أمثال: جون بولتون الذي تولى لاحقاً ملف الحد من التسلح وسياسة حظر انتشار الأسلحة غير التقليدية في وزارة الخارجية، ولويس ليبي، الذي عمل رئيساً لأركان مكتب نائب الرئيس ديك تشيني، وأفراهام شولسكي، وستيفين كامبون، ودوف زاخييم وجميعهم من كبار المسئولين في البنتاغون. وهناك أيضاً ريتشارد بيرل وكارل رووف اللذان لعبا دوراً أساسياً في تأسيس المشروع الأمريكي للقرن العشرين، بالاضافة إلى جيب بوش حاكم فلوريدا الذي رجحت ولايته كفة أخيه بوش في انتخابات **2000** في ظروف غير طبيعية أسهمت بها المحكمة العليا.

هل كان محض المصادفة أن يعقد مجلس العلاقات الخارجية **CRF** قبل **11** سبتمبر **2001** بشهور مؤتمراً له لمناقشة الآثار المتوقعة التي ستترتب على هجوم

إرهابي "محتمل" على الأسواق المالية؟ وقبل ذلك بتاريخ **12-13** يوليو **2000** ناقش **CFR** سيناريو بعنوان:" الأزمة المالية القادمة.. النذر والأضرار والسيطرة والعواقب ". وقبلها بحث أكثر من سيناريو لم يكشف عنها النقاب بما فيها ذلك الذي تحدث عن الآثار المدمرة التي سيلحقها هجوم إرهابي رئيسي بالاقتصاد الأمريكي والعالمي، والخطوات التي ينبغي اتخاذها لمنع مثل هذا الانهيار المتوقع للنظام الاقتصادي العالمي القابل للتفجر بطبيعته. كان السيناريو المذكور جزءاً من تقرير عام عن الطبيعة الحساسة للنظام المالي. تحدث التقرير وقتها عن افتراضات محتملة مؤداها أن رئيس الولايات المتحدة سيكون في وضع يجعله غير قادر على أداء مهامه، مما يعني تسلم " المؤسسة" المسؤولية عن إدارة شؤون البلاد. المثير في الأمر أن هذا ما حدث بالفعل لدى وقوع هجمات11 سبتمبر ، حيث تولى نائب الرئيس مهام القيادة وتوجه لغرفة العمليات مدعوماً بـ: "المؤسسة" في وقت كان فيه الرئيس في فلوريدا بعيداً عن واشنطن. وبالطبع فإن ديك تشيني، العضو الأكثر تمرساً داخل المؤسسة الرسمية، حرص على إبقاء الرئيس في صورة ما كان يحدث طوال الوقت. وقتها تمت السيطرة على الأسواق المالية بدرجة معقولة في ظل الظروف الاستثنائية التي كانت تمر بها البلاد.

في يوم 14 سبتمبر **2001** عقد مجلس العلاقات الخارجية اجتماعاً له في فندق سانت ريغيس- واشنطن تحت اسم:" اللجنة الأمريكية للأمن القومي في القرن الحادي والعشرين" بهدف مراجعة سيناريو **2000**. وفي الاجتماع المذكور تحدث الحضور عن ضرورة إعادة تنظيم أجهزة الاستخبارات الداخلية وهيئات إدارة الأزمات، الأمر الذي انصاع له بوش، حيث تم بعدها بثلاثة أيام فقط الإعلان عن استحداث وكالة الدفاع عن الأمن القومي، التي ترأسها حاكم بنسلفانيا ثوماس ريدج الذي منح رتبة وزير.

على متن الملكية الأردنية رحلة رقم **194** في منتصف شهر يناير **2004** من نيودلهي إلى عمان، تصادف جلوسي إلى جانب جنرال إسرائيلي متقاعد عرفت منه أنه خدم كحاكم عسكري للضفة الغربية وأصبح لاحقاً نائب الحاكم الإداري للمناطق المحتلة. كان الرجل في رحلة ترانزيت إلى تل أبيب عبر عمان. وعلى مدار الساعات الست التي استغرقتها الرحلة تبادلنا أطراف الحديث عن العديد من القضايا، منها ما يتعلق بموضوع هذا الكتاب أي مدى قوة اللوبي اليهودي. قال لي الجنرال بأنه كان في الولايات المتحدة خلال الانتخابات الرئاسية الأمريكية التي انتهت بفوز بوش على آل غور، معظم حملة الجوازات الأمريكية من الإسرائيليين توجهوا للولايات المتحدة للمشاركة في الانتخابات والتصويت لصالح المرشح الديمقراطي ليس تحمساً لـ: آل غور بل لنائبه المرشح اليهودى جوزيف ليبرمان. وقتها استمع الجنرال من مسئولي لجنة العلاقات العامة الإسرائيلية الأمريكية "إيباك" وهم يقولون له: لا داعي للقلق لأن بوش وتشيني في هذا الجيب وآل غوور وليبرمان في الجيب الآخر.

كانت القوة الحقيقية وستبقى في أيدي القلة من النخبة الخفية أو ما يعرف بـ: قوى الظل التي تحدد أجندة كلا الحزبين، وما الرؤساء ونوابهم وإداراتهم سوى " مجموعة من الممثلين " مهمتهم تسويق وتنفيذ أجندة النخبة ليس إلا.

وليام برادفورد أحد المهاجرين البيوريتان وهو يضع قدمه على الأرض الأمريكية عام **1620**:" ***كان أول ما تفوه به وهو يغادر السفينة ماي فلاورز التي أقلته و101 من أتباعه إلى الأرض الجديدة القول: تعالوا لنعلي كلمة الرب في أرض صهيون" . كانت أمريكا في نظر المهاجرين البروتستنت أرض الميعاد التوراتية بالفعل.***

الفصل الثالث

جذور أمريكا" الصهيونية"

كانت الغالبية العظمى من المستوطنين الأوائل في الأرض الجديدة من البيورتان أو المتطهرون (طائفة متطرفة من البروتستنت) ممن هربوا بمذهبهم المنشق عن الكنيسة الكاثوليكية ووصلوا على متن السفينة ماي فلاورز الشهيرة إلى شواطئ أمريكا الشمالية. وكان البيوريتان قد حاولوا الانقلاب على الكنيسة الكاثوليكية من منطلق الاعتقاد بأن الكنيسة الإنجليزية بحاجة لعملية تطهير جذرية والتخلص من الطقوس المزيفة والتعاليم غير التوراتية. ومن أجل هذا الهدف أقام الإنقلابيون كنائسهم الخاصة التي سرعان ما افتضح أمرها فكان خروجهم الجماعي من إنجلترا واللجوء لهولندا عام **1609** حيث استقروا في ليدين، وهناك حاولوا إقناع الحكومة الهولندية بـ" نقل أبناء وبنات إسرائيل إلى أرض الميعاد لاستعادة إرث أجدادهم والاستقرار فيها للأبد".

بلغ تأثر البويريتان بالعقيدة اليهودية درجة جعلتهم يطلقون أسماء توراتية على العديد من مستوطناتهم في الأرض الجديدة، والتي تحولت لاحقاً إلى مدن لا تزال تحمل الأسماء نفسها مثل: صهيون، شيلو، سالم، جيروزاليم، بيت لحم. ولأن معظم القادمين الجدد ممن هبطوا على الساحل الشرقي لأمريكا كانوا من البيوريتان، فقد كانت دراسة العبرية مثار تشجيع بل وكانت إلزامية في جامعات الساحل الشرقي الرئيسية. كانت الظروف مواتية لإعادة إحياء التعاليم التوراتية، وبدأت العديد من الجماعات البروتستنتينية الجديدة في الظهور مثل: المعمدانيون، والمشيخيون، والميثوديون، كما تمت إعادة كتابة الإنجيل على أسس توراتية، ولتشكل الطوائف الجديدة جوهر تيار المسيحيين الصهاينة حالياً.

لمحة تاريخية

منذ أن أعاد مسيحيو إنجلترا اكتشاف الإنجيل اليهودي ،التوراة، لم تعد الكتب الدينية المحظورة من قبل الكنيسة الكاثوليكية تتعرض للمحاربه بل على العكس من ذلك أصبحت تحظى باهتمام الكثيرين وتحقق رواجاً واسعاً. فقد انبرى الإصلاحيون الخوارج عن الكنيسة الإنجليزية، لاستغلال الماكينة الإعلامية المتاحة وقتها، وهي تسخير جوقة من الكتاب والشعراء والفلاسفة، للترويج لوجود رابطة لا تنفصم بين الإنجليز والشعب اليهودي اللذين "يتشابهان فكراً وعبقرية وفوق ذلك يتقاسمان الإرث التاريخي نفسه ". نتج عن هذا التزاوج الإنجليزي اليهودي خليط ثقافي مشترك، أخذ يتحرك مع مرور الوقت باتجاه الفكر التوراتي الأمر، الذي تجلى بجملة من الظواهر منها إعادة إحياء اللغة العبرية واكتساب الأسماء العبرية شعبية واضحة في أوساط الشعب الإنجليزي. إلا أن البيورتان" المتطهرون" كانوا الطائفة المسيحية السرية الأكثر حرصاً على الارتباط التام بالتوراة.

كان لجماعة البيورتان معتقداتهم الدينية المختلفة عن التيار المسيحي التقليدي، ومن ذلك معارضة إقامة مراسم القداس ومراسم الزواج في الكنيسة، ونأوا بأنفسهم عن

الكنائس التقليدية، مفضلين التعبد في أماكن أطلقوا عليها "بيوت اللقاء" الخالية من الصلبأن. كان البيوريتان يعتبرون السبت عطلة دينية ويمتنعون عن الاحتفال بالأعياد الدينية المسيحية مثل أعياد الميلاد وعيد الفصح. وفوق هذا كله فقد قدم أتباع هذه الجماعة لأمريكا حاملين معهم مشاعر التعصب ضد الإسلام والكراهية للمسلمين أو الشرق، كما كانوا يطلقون على أتباع الدين الإسلامي. على مدى السنوات العشرين التي أعقبت وصول أول دفعة من البيوريتان إلى الأرض الجديدة على متن السفينة ماي فلاورز، وصل عدد المهاجرين من أتباع المذهب المتمرد ممن حطوا الرحال في مستوطنات خليج ماساشوستس إلى أكثر من **16** ألف مهاجر، بينما استقر عدد آخر في كونيكتيكت ورود آيلند. وكما كان الحال مع إخوانهم في إنجلترا فقد حرص المهاجرون البيوريتان على إلزام أنفسهم بالعادات والتقاليد الموروثة لقدامى العبريين. فقد كانوا يرون في هجرتهم من إنجلترا تكراراً للخروج اليهودي من مصر بقيادة موسى، وفي الملك الإنجليزي فرعون مصر المعاصر، في حين أن عبورهم الأطلسي إلى أمريكا كان أقرب إلى ما فعله بنو إسرائيل عندما قادهم موسى عبر البحر الأحمر إلى أرضهم الموعودة. أما الهنود الحمر فليسوا سوى الكنعانيين القدامى. كان البيوريتان يرون في أنفسهم: الإسرائيليون الجدد. وعندما احتفلوا بأول عيد شكر لهم في الأرض الجديدة بعد عام من رسو السفينة ماي فلاور على الشواطئ الأمريكية عام **1621**، اعتبر أول المهاجرين الجدد ذلك بمثابة عيد الكفارة أو يوم كيبور (عيد الغفران) لدى اليهود ، وهي مناسبة دينية لدى الطرفين يتشاركان فيها الحالة نفسها من: الصوم والتأمل والعبادة.

حتى منتصف القرن السابع عشر كانت الأغلبية العظمى من المهاجرين الأوروبيين الذين حطوا الرحال على الشواطئ الأمريكية هم من أتباع المذاهب المنشقة عن الكنيسة الكاثوليكية مثل: البيوريتان (المتطهرون)، والكويكر (الأصحاب) وهي جماعة متشددة من البيوريتان لا تؤمن بالقساوسة ورجال الدين بشكل عام، ويعتقد أتباعها بأن مجرد التقاء الأصدقاء معاً للتأمل هو الصلاة المطلوبة والكافية لنزول الروح القدس على المكان. وهناك أيضاً أتباع المذهب الكالفيني (نسبة للكاهن اللاهوتي الفرنسي كالفين) والمينونايت (نسبة لكاهن سويسري) والأميش.

جاء المهاجرون الجدد لأمريكا هرباً بمعتقداتهم من ملاحقة الكنيسة الكاثوليكية، غير أن من أبرز الأشياء التي وحدت جماعات المهاجرين الجدد: معتقداتهم البروتستنتينية وقربهم الشديد من التقاليد الدينية اليهودية. وبالنسبة لهؤلاء لم تكن الحروب الصليبية على أرض الإسلام بالماضي البعيد. ولهذا نجد أفراد الموجة الأولى من أوائل المهاجرين يحرصون على نحت شعار معبر على صخرة بالقرب من مستعمرة أقاموها في أمريكا الشمالية هذا نصه:" تسقط الأمم الشرقية(المسلمون) وتنتهي أمجادهم بينما تسمو الإمبراطورية في مغرب الشمس".

تشير الدلائل الى أن الفكر الماسوني دخل أمريكا مع أوائل المهاجرين الجدد القادمين من إنجلترا وفي منتصف القرن السادس عشر على الأغلب. وفي ذلك كتب جون روبنسون يقول:" رأينا ملامح الفكر الماسوني واضحة في نص الدستور الذي كتبه جون لوك للمستعمرة المقترح إقامتها في كارولينا الجنوبية، وذلك قبل حوالي نصف قرن من الظهور العلني للماسونية في (**1717**).. وقد تحولت كارولينا الجنوبية لاحقاً إلى معقل

للماسونية في الولايات المتحدة.. وشكلت شارلستون ميناء الوصول الرئيسي لأتباع المذهب الماسوني الاسكتلندي".[1]

فرسان الهيكل والكالفينية والماسونية

هناك علاقة وثيقة بين الكالفينية والفكر الرأسمالي لدرجة يمكن معها القول بأن الكالفينية - التي كان يعتنقها معظم المستوطنين الأوائل بمن فيهم البيوريتان وحتى اولئك القادمين من فرنسا وهولندا ممن اسستقروا في نيويورك التي كانت تدعى في البداية نيو أمستردام- هي التي هيأت المسرح لظهور الرأسمالية. ففي عام **1536** نشر كالفين (اللاهوتي الفرنسي البروتسنتي صاحب المذهب الذي حمل اسمه) كتابه المعنون:" معاهد الدين المسيحي" مع تعليق على الإنجيل ليصبح أول مصدر تأثير (من خارج الكنيسة الإنجليزية) على حركة الإصلاح البروتستنتينة.

جاءت آراء كالفين فيما يتعلق بالثورة على التعاليم الدينية الخاصة بتحريم الربا بمثابة تبشير بقرب ميلاد نظام مالي جديد سيعرفه العالم لاحقاً باسم الرأسمالية. ففي رسالة له، انتقد كالفين اللجوء إلى فقرات معينة من الإنجيل وتفسيرها على أنها ضد الربا واستيفاء الفائدة على القروض. وعليه فقد أعاد كالفيين تفسير الفقرات المعنية وأفتى ببطلان فقرات أخرى بحجة أنها لم تعد تتلاءم وتغيرات الزمن، وبجواز استيفاء الدائنين فائدة على القروض. وبالطبع فقد كان يهود أوروبا الذين يسيطرون على سوق المال الأكثر سعادة واستفادة من طروحات اللاهوتي الفرنسي المذكور. شكلت الرأسمالية التي غذاها اليهود بالقروض فرصة لتعاظم النفوذ اليهودي الذي تضاعف أيضاً بظهور الثورة الصناعية بمتطلباتها الأساسية من الخدمات المالية والمصرفية.

بعد وقت قصير من وقوع المدينة المقدسة في أيدي الصليبيين عام **1099** واقتراف الغزاة القادمين من قلب أوروبا المسيحية مذبحة جماعية بحق سكانها باسم الصليب، الأمر الذي تؤكده التقارير المرفوعة للبابا والتي جاء في إحداها القول:" إذا أردتم معرفة كيف تعاملنا مع أعدائنا في القدس فاعلموا بأن فرساننا كانوا يخوضون بخيولهم وسط برك من دماء العرب المسلمين التي غطت إسطبل سليمان وساحة الهيكل وعلت لتصل ركب خيولهم".

تجمع يهود المدينة بمعبدهم الرئيسي معتقدين بأن الصليبيين سيعفون عنهم باعتبارهم غير مسلمين، ومع ذلك فقد عمد الغزاة إلى حرق المعبد وذبح جميع من فيه. وهنا يستشهد ريموند حاكم مقاطعة أغيليير بالمزمور رقم **118** من الإنجيل في وصف مشهد الجثث المقطعة التي كانت تغطي المكان بالقول:" هذا يوم شاءه الرب.. فدعوننا نبتهج فيه ونفرح ".[2]

عرفت الجماعة الغامضة المذكورة باسم فرسان الهيكل، حيث حصلت على التصريح اللازم لممارسة نشاطها في الأرض المقدسة، بل إن السلطات الصليبية منحتها

---

[1] Born In Blood: The Lost Secrets of Free Masonry, John I. Robinson, . M. Evans & Company/New York,1989, *P 285 Robinson*

[2] Born In Blood: The Lost Secrets of Free Masonry, John I. Robinson, . M. Evans & Company/New York,1989, Pg 65

الموافقة على إقامة مقر لها في المسجد الأقصى مدعين أنه موقع هيكل سليمان. وفي ذلك يقول جون روبنسون في كتابه المعنون" معمد بالدم.. أسرار الماسونية المفقودة"، " ترى إحدى النظريات، على سبيل المثال، أن فرسان الهيكل اختاروا المسجد الأقصى مقراً لهم عن سابق قصد وتعمد لاعتقادهم بأنه موقع هيكل سليمان، وهناك وفي اجتماعاتهم السرية اعتاد فرسان الهيكل إحياء الطقوس الماسونية القديمة التي يعتقد بأنها انطلقت من مبنى المعبد في الأساس".[1]

أصبح فرسان الهيكل أرباب بنوك بالنسبة للصليبيين حيث كانوا أول من أصدر كتب اعتماد عرفها النظام المالي القديم، وطبعوا نقودهم الخاصة بهم والتي كان يعترف بها في سائر فروعهم المنتشرة في أوروبا والأرض المقدسة. كما عملوا كوكلاء في تحصيل الديون وإدارة الصناديق المالية والممتلكات وتوزيع الحصص على الورثة، وهي خدمات كانت تقدم مقابل رسوم محددة. وعليه يمكن القول بأن فرسان الهيكل أصبحوا بذلك أول مؤسسة مالية دولية. ومع الوقت تطورت هذه الجماعة لتأخذ أشكالاً وتكتسب أسماءً مختلفة. ومع ذلك و.." بغض النظر عما كان يطلق عليهم فقد كانت الجماعة تتخذ من موقع هيكل سليمان مقراً لها، كما وظلت مرتبطة باسم فرسان الهيكل الذي عرفت به في المقام الأول".

جاء الوقت ليظهر ملوك وأمراء أوروبا ضيقهم بالحملات الصليبية، ولكن ليس قبل مرور قرنين على انطلاق الحملة الأولى باتجاه الأراضي المقدسة، والهزيمة التي أحاقت بهم على يد الناصر صلاح الدين. فقد الأمراء الصليبيون حماستهم ودخلوا مرحلة من الاقتتال الداخلي وإن استمروا في التظاهر بدعم الحرب المقدسة التي أصبحت في الواقع خارج أجندتهم الفعلية. وحدهما: البابا والزعيم الأكبر لحركة فرسان الهيكل جاك دي مولاي، اللذان رفضا التسليم بالهزيمة وواصلا جهود الحشد لحملة جديدة.. وفي سبيل هذا الهدف أعد المكتب البابوي خطة دمج لتوحيد موارد وجهود فرسان الهيكل وحركة الإسبتارية (حركة دينية عسكرية ظهرت في بيت المقدس خلال الحروب الصليبية في القرن الـ **12**) التي كانت تنشط تحت غطاء العمل الخيري الاجتماعي.

في الوقت الذي كان فيه دي مولاي وقادة حركة فرسان الهيكل يعتقدون بأن الملك فيليب يبادلهم المودة، فقد كان الملك الفرنسي يخطط سراً لتدمير الجماعتين. قدم فرسان الهيكل للملك فيليب الدعم المالي، بما في ذلك تمويل حروبه للاستيلاء على ممتلكات بريطانيا الخارجية، بل إن الحركة زودته بقرض لتمويل زواج ابنته من ابن الملك إدوارد، ملك بريطانيا الذي أصبح لاحقاً الملك إدوارد الثاني. كانت الحركة تحتفظ بالجزء الأكبر من ثروتها وممتلكاتها في فرنسا، وكان الملك فيليب يعتزم مصادرتها كلها والاستئثار بها لنفسه.

أوكل الملك مهمة التحرك ضد حركة فرسان الهيكل إلى رجل مخابرات سري محترف يدعى دي نوغاريت، أو رجل المهمات الصعبة السرية كما كان يطلق عليه. ففي خلال يوم واحد وتحديداً بتاريخ **22** يوليو **1306** ، كان دي نوغاريت قد ألقى القبض على يهود فرنسا كافة واحتجزهم تمهيداً لنفيهم من البلاد بعد مصادرة ممتلكاتهم. ومن الأساليب المبتكرة التي استخدمها المذكور في الكشف عن بعض أسرار فرسان الهيكل، زرع الجواسيس داخل الزنازين مع أعضاء الحركة. وبهذه الطريقة حصل دي نوغاريت

[1] Born In Blood: The Lost Secrets of Free Masonry, John I. Robinson, . M. Evans & Company/New York,1989,Pg. 287

على اعترافات من أتباع الحركة بارتكاب ممارسات تجديفية، من ذلك الطلب من الأعضاء الجدد البصق على الصليب ، والتعهد بوضع المذهب الجديد وثروته فوق أي مبدأ آخر، وعدم إفشاء أي من أسرار الجماعة تحت طائلة التعرض للموت الفوري. وتم إرسال الاعترافات المذكورة إلى البابا.

ومع أن جماعة فرسان الهيكل شكّوا بوجود شيء ما يتم الإعداد له ضدهم، إلا أن زعيمهم دي مولاى بقي محافظاً على اطمئنانه باعتبار أن فرسان الهيكل لم يكونوا خاضعين للقوانين الفرنسية، ولا لقوانين أي ملك أو إمبراطور علماني تمكنه من ملاحقتهم لأي جنحة، كما أنهم كانوا مستثنين من التعرض لأي شكل من أشكال التعذيب.

حتى في ليلة التحرك ضد فرسان الهيكل، كان دي نوغارتي المكلف بالمهمة الكبرى ضيف شرف في بلاط الملك فيليب ويتم تكريمه بحضور النبلاء. وفي صباح اليوم التالي **13** أكتوبر **1307** كانت الأوامر المختومة في طريقها إلى سائر الأقاليم الفرنسية تطالب الحكام بالتحرك الفوري للقبض على أتباع فرسان الهيكل. كانت النتيجة أن اقتحامات قوات الملك فيليب لجميع مراكز الجماعة ضمن مساحة تزيد على **150** ميلاً مربعاً قادت إلى اعتقال **15** ألف شخص من أتباع فرسان الهيكل ومصادرة ثرواتهم. وفي **22** نوفمبر صدر عن البابا أمر بابوي " أثنى فيه على الملك فيليب، وحمل الموقف الرسمي البابوي الذي يعترف بصدق الاتهامات الموجهة لفرسان الهيكل، ويطالب سائر ملوك العالم المسيحي بالتحرك ضد الجماعة واعتقال وتعذيب جميع أتباعها في مناطق نفوذهم. ومنذ ذلك اليوم انقلب البابا على الحركة ولاحق أتباعها بحماسة كبيرة". 5

عندما تم إلقاء القبض على دي مولاي أخيراً، اكد الزعيم الأكبر لفرسان الهيكل على صدق التهم التي اعترف بها أتباعه، وإن تراجع عن ذلك لاحقاً مدعياً بأنه اعترف هرباً من التعرض للتعذيب. صدر حكم بالموت على دي مولاي الذي قضى لاحقاً حرقاً فوق نار فحم هادئة.

في غضون ذلك كان ملوك البرتغال وأسبأنيا منشغلين عن ملاحقة فرسان الهيكل بمحاربة المسلمين في أسبأنيا، خاصة وأن أتباع الجماعة المذكورة كانوا يساعدونهم في تلك الحرب ضد عدو مشترك. وقتها غيّر فرسان الهيكل اسمهم ليصبح "فرسان المسيح" وبذلك أصبحوا تابعين للملك بعد أن كانوا مسئولين من البابا. وفي ألمانيا" جلس زعيم فرسان المسيح هوغو دي غومباتش في مجلس بطريرك ميتز وهو في كامل لباس المعركة محاطاً بعشرين من إخوانه في الحركة. وهناك أعلن البطريك هوغو براءة جماعة الفرسان من كافة التهم التي ألصقت بهم ووصف زعيمهم دي مولاي بالمسيحي الملتزم والرجل الشريف. وفي المقابل وصف هوغو البابا كليمنت الخامس بالشرير وبأنه مغتصب لعرش بطرس وطالب بخلعه من عرش البابوية".

ما فعله البطريرك الألماني كان ثورة على البابا والكنيسة الكاثوليكية. فهل كان مارتن لوثر راهباً متنكراً وأحد أتباع فرسان الهيكل بترديده اتهامات هوغو دي غومباتش ضد الكنيسة الكاثوليكية والبابا بعد مرور قرنين ؟.

في إنجلترا أظهر الملك إدوارد الثاني تردداً في القبض على فرسان الهيكل وماطل، فقد كانت الجماعة تحظى بنفوذ قوي في البلاد وتظهر ولاءً للبلاط. وعليه فقد ماطل في التحرك ضدهم لإتاحة الفرصة لزعيم الجماعة في البلاد "دو لا موور" باستكمال اختفاء أتباعه من الحياة العامة، مصطحبين معهم أموالهم ومجوهراتهم ووثائقهم. وعندما تعرض دو لا موور للاعتقال كانت الأوامر بإيداعه قيد الإقامة الجبرية في مكان مريح والسماح له

بدخول القصر الملكي وقتما يشاء. أما القلة من أتباعه ممن تعرضوا للاعتقال، فوضعوا قيد الإقامة الجبرية في منازلهم. وهكذا لم تتأثر حركة الفرسان في إنجلترا وحافظت على تماسكها. وعندما تساءل البابا عن عدم تنفيذ أوامره الخاصة باعتقال وتعذيب أتباع فرسان الهيكل، رد الملك إدوارد بأن بلاده لا تملك خبراء متخصصين في ممارسة التعذيب، فما كان من البابا إلا وأن قرر تزويده بـ: **12** خبيراً في هذا "الفن". ومع ذلك فقد سمح للعديد من أتباع الجماعة ممن كانوا قيد الاعتقال بالنجاة بأنفسهم قبل وصول خبراء البابا. ولعل هذا يفسر تحول إنجلترا واسكتلندا إلى ملجأ آمن لأتباع فرسان الهيكل ممن لجأوا إلى النشاط الخفي وتحولوا إلى منظمة سرية.

تجاهل الاسكتلنديون ملوكاً وثوريين المرسوم البابوي بحظر وملاحقة وتعذيب أتباع فرسان الهيكل، وذلك تقديراً منهم للمساعدات التي تقدمها الجماعة، إضافة إلى أن الاسكتلنديين كانوا منشغلين عن الفرسان بقضيتهم الكبرى وهي الاستقلال عن انجلترا. غير أن توحيد إنجلترا واسكتلندا في النهاية دفع بفرسان الهيكل إلى العمل السري وممارسة نفوذهم القوي من خلف ستار في ظل منظمة جديدة عرفت باسم: الماسونيون الأحرار . أصبحت المملكة المتحدة المرتع الرئيسي للماسونية، الأمر الذي يتضح أكثر ما يكون من قائمة العضوية الخاصة بالمنظمة الجديدة، والتي ضمت العديد من الملوك البريطانيين وهو واقع لا يزال قائماً حتى يومنا هذا.

وفي ذلك كتب روبنسون يقول:" رأينا كيف أن منظمتين فقط ربطتا نفسيهما بفكرة إعادة بناء هيكل سليمان وهما: الماسونية وحركة فرسان الهيكل الصليبية. وتأتي الأدلة الدامغة لتشير إلى حقيقة أن الربط بين الجماعتين المذكورتين إلى درجة الاندماج في النهاية لم يأت وليد صدفة أو أملته ظروف عرضية، بل إن الماسونية، هذه المنظمة السرية ولدت من رماد المنظمة العلنية التي تعرضت لإدانة وملاحقة كل من الدولة والكنيسة في حقبة عرفت العقاب الجسدي بأبشعه".

مع بداية القرن السابع عشر شهدت إنجلترا والولايات المتحدة عملية إحياء للغة العبرية. كما انتشرت الأسماء العبرية في أوساط البروتستنت على اختلاف طبقاتهم. وفي أوائل العشرينات من القرن المذكور أدخلت جامعة هارفارد مساقا خاصاً بدراسة العبرية تحت إشراف الأستاذ جوداه مونيس. وفي عام **1777** أصبح تعلم العبرية جزءاً من المنهج المقرر على الطلبة الجدد في جامعة ييل. ولعل الاهتمام الذي أظهره بروتستنت المستعمرات جاء نابعاً من القناعة بأن التوراة "العهد القديم"، أو الإنجيل الذي تنزل بالعبرية، أرسى الأسس للإنجيل المسيحي " العهد الجديد". وهنا يعتقد قساوسة نيوإنجلاند – على الأقل- بأن القراءة الصحيحة للعهد القديم يجب أن تتم بلغة التوراة الأصلية أي العبرية. وحتى يومنا هذا لا تزال كلمتا **'Urim v Thumim"** تظهران واضحتين وسط الشعار الرسمي لجامعة ييل، وقد وردت هاتان الكلمتان في ثمانية مواضع في التوراة، علماً بأن ييل ليست الجامعة الوحيدة التي تضع كلمات عبرية على شعارها الرسمي فهناك جامعة دارموث وجامعة كولومبيا تفعلان الشيء ذاته أيضاً.

المسيحية الصهيونية وعقيدة الإعادة

ورد في موقع موسوعة الويكيبيديا على الشبكة العنكبوتية حول المسيحية الصهيونية وعقيدة الإعادة القول:" يعتقد أتباع هذه الكنيسة من المسيحيين المتشددين بأن

عودة اليهود للأرض المقدسة وإقامة دولة إسرائيل عام**1948** يأتي تطبيقاً للنبوءة الواردة في الإنجيل. كما يعتقد بعض المسيحيين الصهاينة بأن تجميع اليهود في إسرائيل يعتبر مقدمة لعودة المسيح. مثل هذا الاعتقاد يرتبط، وإن لم يكن حصراً بالضرورة ، بالكنيسة القدرية" التي تقوم على الاعتقاد الجازم بأن إرادة الرب وحدها هي التي تتحكم في سائر مناحي الحياة، وينتشر هذا المذهب بين الناطقين بالانجليزية خارج أوروبا. الواقع أن المفهوم القائل بوجوب دعم عودة اليهود إلى أرض إسرائيل تحقيقاً لنبوءة الإنجيل، كان ولا يزال من المفاهيم القوية السائدة في أوساط البروتستنت منذ الحركة الإصلاحية. وكان تعبير المسيحية الصهيونية قد بدأ في الانتشار في منتصف القرن الماضي ليحل محل عقيدة الإعادة التي كانت سائدة في أوساط المسيحيين المتشددين قبل ذلك التاريخ". وطبقاً لـ:ويكيبيديا ، فإن هناك العديد من الكنائس التي تدين بعقيدة الإعادة منها:" المؤتمرات المسيحية، كنائس المسيح، حواريو المسيح، الكنائس المسيحية المستقلة، شهود يهو، حركة القديس لاتر داي، سبتيو اليوم السابع وغيرها من الجماعات التي تدين بعقائد مختلفة، إلا أنها جميعاً تنبع من الاعتقاد بأن النهج الحقيقي للديانة المسيحية مات مع الردة قبل سنوات طويلة قبل أن يعود أخيراً عبر كنائسهم. ويعتقد البعض منهم بأنهم وحدهم الذين يجسدون هذه العودة، في حين يرى آخرون بأنهم يسيرون على النهج الحقيقي للمسيحية، والذي أعيد اكتشافه مجدداً ويطبق من قبل بعض الكنائس وخاصة كنائسهم.

عمل القائمون على كل من هذه المذاهب الجديدة من العقيدة المسيحية (هذا إذا كانت مسيحية من الأساس) على كتابة ونشر رواياتهم الخاصة من الإنجيل والتي كانت مع مرور الوقت تظهر مزيداً من التقارب مع التوراة. ولهذا السبب نجد بأن البعثات الأولى من المبشرين البروتستنت إلى الشرق الأوسط اعتبرت العرب المسيحيين مضللين ،وينبغي تحويلهم للمسيحية بالطريقة نفسها التي سيتم التعامل بها مع العرب المسلمين. ولهذا السبب ووجه المبشرون الغربيون بمعارضة من الكنيسة المارونية في لبنان فاقت في شدتها رفض المسلمين لهؤلاء الدخلاء.

قد يكون من المناسب أن نختم في هذا الشأن بالقول إن القوى السرية والغامضة التي تمردت على الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا هيمنت على عملية الهجرة إلى الأرض الجديدة، وعلى تنظيم الحركة السياسية والدينية هناك بهدف إعادة بناء هيكل سليمان. وكشرط أساسي لتحقيق هذا الهدف فإنه ينبغي تخليص القدس وفلسطين من يد المسلمين، وبأن على القوى المكلفة بهذه المهمة النجاح فيما فشلت **200** سنة من الحملات الصليبية في تحقيقه. ولهذا نجد أن أول ما قاله الجنرال اللنبي لدى دخول القوات البريطانية القدس عام **1917** كان " الآن فقط انتهت الحروب الصليبية"، بكل ما تحمله هذه العبارة من مدلولات. ومن جانبهم استمع اللندنيون وبكثير من الإثارة لأجراس كنيسة ويستمنستر وهي تدق لأول مرة منذ اندلاع الحرب العالمية ألأولى. أما الأكثر سعادة بسقوط القدس فكان رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج ووزير خارجيته لورد بلفور اللذين كانا من أبرز أتباع "عقيدة الإعادة"، واعتادا وصف نفسيهما على الملأ بأنهما صهيونيين!.

اتضح لنا إذاً بأن الماسونيين كانوا من قادوا الثورة الفرنسية، وكذلك الأمر بالنسبة للثورة الأمريكية. بل إن قائد الثورة، جورج واشنطن ومعظم جنرالاته، وكذلك الذين سطروا بنود الدستور الأمريكي، كانوا من بين من أدوا القسم الماسوني. كان جميع الرؤساء الأمريكيين من البروتستنت باستثناء جون أف. كينيدي الذي كان كاثوليكياً، وربما كان هذا

أحد أسباب اغتياله قبل أن يكمل فترة الرئاسة الأولى. كان المسيحيون الصهاينة متمترسين في الغرب قبل أجيال من صهيونية هيرتزل.

الرهاب الإسلامي.. تعبير جديد أم ظاهرة قديمة؟

تعود السجلات الموثقة عن محاولة تشويه صورة الإسلام في أعين الغربيين، الذين لا يعرفون عن الاسلام والمسلمين سوى النزر اليسير، إلى منتصف القرن السابع عشر، عندما نشر ألكسندر روس عام 1649 كتابه المعنون" القرآن" بهدف معلن هو "كشف زيف الدين الإسلامي" على حد قوله. وفي عام 1734 نشر المحامي جورج سيلز نسخة أخرى من القرآن بهدف مساعدة البروتستنت على " مهاجمة القرآن بطريقة ناجحة". تم العثور على نسخة من هذا الكتاب في مكتبة ثوماس جيفرسون، الذي كان من أبرز الشخصيات التي ساهمت في صياغة الدستور الأمريكي ووصل للبيت الأبيض لاحقاً. الواقع أن جهل الأمريكيين هذا بالعرب والمسلمين تواصل حتى الوقت الحاضر، حيث اختلطت معلوماتهم اليسيرة بهذا الشأن بالكثير من مشاعر الكراهية والعنصرية التي تعتبر نتاج فشل قرنين من الحروب الصليبية.

أياً اخترت من الأسماء الكثيرة التي أطلقت على المسلمين عبر التاريخ مثل: المغاربة، والأتراك، والعرب، والشرق والشرق الأوسط، فإن ذلك لا يلغي حقيقة أن المسلم سيظل ذلك " الآخر" المختلف الذي ينتمي لمنطقة وثقافة وتركيبة اجتماعية وحضارة غريبة مغايرة إلى درجة الرفض والاستهجان. وبالطبع فقد حمل المهاجرون الأوائل القادمون من أوروبا معهم مشاعر التعصب ضد الإسلام لنشرها في الأرض الجديدة.

يقول مايكل بي. أورين في كتابه المعنون " السلطة، العقيدة والخيال": بالرغم من أن أمريكا أعتزت وفي وقت مبكر بتسامحها الديني فإن هذا التسامح لم يمتد ليطال الإسلام الذي لم يكن حتى ليحظى بالاعتراف كـ: دين ". وأضاف أورين بأن معظم علماء الغرب يعترفون بأن معظم المهاجرين، بل حتى الأمريكيين المعاصرين لا يعرفون سوى القليل جداً عن الإسلام والمسلمين، وبأن هذه المعلومات على ضآلتها كانت تستند إلى مصدرين حصريين: الأناجيل المتعددة وكتاب ألف ليلة وليلة الذي تمت ترجمته في أمريكاعام **1708**"[1]

وفي حين أنه سجل لصامويل لانجدون، رئيس جامعة هارفارد قبل عدة أجيال، وصف رسول الإسلام بالقول:" محمد ليس سوى نبي زائف.. بل إنه رسول الشيطان"، نجد صامويل هنتنغتون، الأستاذ في الجامعة نفسها ولكن في القرن الحادي والعشرين وأحد رموز المؤسسة الأمنية القومية سابقاً يتحدث عن الإسلام في كتابه "صراع الحضارات" بالقدر نفسه من الكراهية والتعصب بالقول:" من الخطأ القول بأن الأصولية الإسلامية هي المشكلة الكبرى التي تواجه الغرب بل إنه الإسلام ككل...".[2]

[1] Power, Faith and Fantasy, Michael B. Oren, W.W. Norton & Co., New York, 2007, pg. 42
[2] The Clash of Civilizations, Samuel Huntington, Simon & Schuster, 1997

بتاريخ **8** مارس **2007** وتحت عنوان: بيرنارد لويس يمتدح الحروب الصليبية" ورد في تقرير لصحيفة الوول ستريت جورنال القول:" قوبلت كلمة بيرنارد لويس التي ألقاها أستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة برينستون الشهير، بتصفيق حاد من قبل الحضور وجلهم من الشخصيات المحافظة المعروفة وذلك عندما وصف هجرة المسلمين إلى أوروبا بهجمة إسلامية على الغرب، ودافع عن الحملات الصليبية، باعتبارها تقليداً وإن كان غير ناجح ومحدود ومتأخر، للجهاد الذي نشر الدين الإسلامي في أجزاء واسعة من العالم".

وكانت الصحيفة تتحدث عن المحاضرة التي ألقاها لويس في "معهد مشروع القرن الأمريكي الجديد" الذي أمدّ إدارة الرئيس جورج دبليو. بوش بالعديد من رموز المحافظين الجدد، وحضرها شخصيات بارزة مثل: نائب الرئيس ديك تشيني، وعضو المحكمة العليا كلارنس ثوماس، وريتشارد بيرل، والعديد من الشخصيات السياسية في واشنطن.

ومما جاء في تقرير الوول ستريت جورنال أيضاً القول:" وحذر لويس العجوز (**90** عاماً)- والذي يصفه البعض في الوسط الثقافي بأنه عراب قرار الإدارة الأمريكية بغزو العراق_ في محاضرته من أن الغرب وبخاصة أوروبا بدأ يفقد توهجه وإيمانه في وجه مرحلة من التحدي الإسلامي. فالعالم الإسلامي يشن هجوماً على الغرب، على حد قوله، مستخدماً نوعين من التكتيك: الإرهاب والهجرة. وتحدث لويس عن مكامن القوة في العالم الإسلامي، موضحاً بأن الحماسة الإيديولوجية والكثرة العددية (الديموغرافيا) يعتبران من مكامن القوة التي يحظى بها العالم الإسلامي في مواجهته مع الغرب، إلا أن المحاضر لم يقدم أي وصفة تمكن الأوروبيين من الحد من تدفق المهاجرين القادمين من شمال إفريقيا وجنوب آسيا والشرق الأوسط." ومضت الصحيفة للقول:" وأوضح لويس في محاضرته أمام معهد المشروع الأمريكي بأن الحملات الصليبية، على وحشيتها، لم تكن سوى ردة فعل مبررة على الهجمة الإسلامية في القرون السابقة، وبأنه سيكون من السخف الاعتذار عنها".

بعد المحاضرة علق نائب الرئيس ديك تشيني ممتدحاً عمق ثقافة لويس ونصيحته بالقول:" في القرن الجديد تشكل حكمته(لويس)مصدر عون يومي لصناع السياسة والدبلوماسيين والأكاديميين والإعلاميين".

دخل تعبير "الرهاب الإسلامي" معجم المصطلحات لأول مرة عام **1976** ووجد طريقه تدريجياً إلى عالم كتابة الخطب والمقالات ومجالس النقاش ليصل ذروته في التداول بعد **11** سبتمبر **2001**. ولعل أوجز تعريف لهذا المصطلح القول بأنه: تعصب ضد المسلمين وتشبيههم بالشياطين، غير أن لـ:"صندوق رنيميد"، وهو بيت خبرة بريطاني مستقل مناهض للعنصرية يرأسه البروفيسور غوردون كونواي من جامعة ساسكس تعريف مفصل، ضمنه تقريراً عن صورة الإسلام في أعين الغربيين ويحدد فيه جوانب رئيسية ثمانية للرهاب الإسلامي هي: [1]

[1] Islamophobia: A Challenge for Us All, Runnymede Trust, 1997, p. 1, cited in Quraishi, Muzammil. Muslims and Crime: A Comparative Study, Ashgate Publishing Ltd., 2005, p. 60. ISBN 075464233X

1. ينظر للإسلام في الغرب باعتباره جلموداً متحجراً مقاوماً للتغيير يستعصى على التطور.
2. ينظر للإسلام باعتباره تكتلاً لا علاقة له بالآخرين حيث له قيمه الخاصة التي يرفض مشاركة الآخرين بها بحيث لا يتأثر بالآخرين ولا يؤثر فيهم.
3. يعتبره الغربيون متخلفاً عن الركب وبربرياً ولا يحكّم العقل وبدائي وجنسي الميول.
4. الإسلام دين عنف وعدواني ومصدر تهديد وراع للإرهاب وشغوف بالصراع مع الحضارات.
5. الإسلام إديولوجية سياسية في المقام الأول ويكرس موارده لتحقيق مكاسب سياسية وعسكرية بحتة.
6. أي انتقادات للغرب مصدرها الإسلام لا تلقى سوى الرفض القاطع وبغير نقاش.
7. يستغل العداء للإسلام في الغرب في تبرير الممارسات العنصرية تجاه المسلمين وعزلهم عن المجتمع.
8. تعتبر معاداة الإسلام ممارسة عادية وطبيعية غير مثيرة للحفيظة.

جاء قرار القائمين على الأمور في واشنطن في عهد الرئيس جورج دبيلو. بوش بتجاهل الحقائق المعقدة التي زادت من الهوة بين المسلمين والغرب بشكل عام، وبين المسلمين والمحافظين الجدد في الولايات المتحدة بشكل خاص، ليفاقم من تعقيد الأمور في وضع خطير من الأساس. وبدلاً من توجيه الجهود باتجاه خلق الحوار وأجواء التفاهم المتبادل فقد كانت سياسات المحافظين الجدد الرامية للسيطرة على العالم من خلال العولمة والعمل على احتلال منابع النفط، على قيادة العالم بالاتجاه الآخر. ولأن 70% من احتياطي العالم من النفط يقع تحت أراضي المسلمين، فقد قرر المحافظون الجدد خوض حربهم ضد الإيديولوجية الوحيدة التي يعتقدون بأنها تقف حجر عثرة في طريق إقامة إمبراطوريتهم العالمية. عن هذا الموضوع كتب جيريمي سيبروك في صحيفة الغارديان يقول:" رسمياً ينكر أتباع التيار اليميني صفة العنصرية التي يلصقها الكثيرون بهم .. ويأتي الرهاب الإسلامي ليمنحهم النافذة التي تحقق لهم عودة مظفرة إلى أحضان المجتمع".[1]

غير أن حملة الكراهية التي شنها المحافظون الجدد وجوقتهم سمحت للعنصرية بدخول أمريكا من أبوابها المشرعة. فبعد إجبار ستة من رجال الدين المسلمين على مغادرة طائرة يو.أس. إيروييز في نوفمبر **2006**، بثت محطة إذاعية يغطي إرسالها واشنطن العاصمة وميريلاند وفيرجينيا برنامجاً حوارياً تناول التعصب ضد الإسلام يحمل مدلولات كبيرة. وفي ذلك يقول بيان صحفي صادر عن مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية:[2] "حظي برنامج حواري ساخر لإحدى محطات الإذاعة من واشنطن العاصمة باهتمام كبير من لدن شريحة واسعة من المستمعين، بعد أن تظاهر مقدم البرنامج جيري كلين، بأنه يؤيد الطريقة التي يتم التعامل بها مع المسلمين الأمريكيين، والتي لا تختلف بشيء عن الطريقة التي استهدفت بها الجالية اليهودية من قبل النازية .. فعلى سبيل المثال ادعى أنه أظهر تأييداً

[1] "Religion as a fig leaf for racism", *The Guardian*, July 23, 2004
[2] http://cair.com/default.asp?Page=articleView&id=2415&theType=NR

لبرنامج حكومي مقترح لإجبار سائر المسلمين على وضع "علامات تعريف واضحة" بالقول: "أعتقد بأن العلامة المقترحة يجب أن تكون إما طوقاً يتم ارتداؤه على الذراع أو علامة على شكل هلال تطبع أو حتى توشم على الذراع." وأضاف كلين :" إذا تطلب الأمر ملاحقة هؤلاء واحتجازهم ريثما يتم وشم العلامة الفارقة في مكان ظاهر يسهل الوصول إليه من الجسم فعلينا أن نفعل ذلك"... وهنا قال أحد المستمعين في اتصال مع البرنامج ويدعى ريتشارد:" يجب أن لا نكتفي بوشمهم على الجباه بل علينا جمعهم كالقطيع وشحنهم إلى خارج هذه البلاد". علا على إثرها صوت مشارك آخر ويدعى هييث قائلاً:" لا أعتقد أنكما تتحدثان عما يكفي من إجراءات بحق هؤلاء.. عليكم إقامة معسكرات اعتقال جماعية كالتي أقيمت خلال الحرب العالمية الثانية لليابأنيين والألمان". في نهاية البرنامج كشف المذيع كلين النقاب عن أن دعوته للممارسات العنصرية ضد المسلمين لم تكن سوى بالون اختبار، وختم برنامجه بالقول مخاطباً مستمعيه:" لا أصدق أن هناك من هو مريض لدرجة الموافقة على بل ومجرد تصديق، ولو للحظة، أي مما ورد على لساني خلال نصف الساعة الماضية".

وهذا المحلل السياسي جاكوب ويزبيرغ، صاحب المقالات العديدة في النيوزويك والنيو ريببلك، والنيويورك ماغازين_ قبل أن ينضم إلى مجلة سليت عام **1996** وصاحب العمود في الفايننشال تايمز، كتب في مجلة سليت يقول تعليقاً على محاضرة بيرناند لويس أمام ديك تشيني في معهد مشروع القرن الأمريكي الجديد:

"الذي فاجأني في كلام لويس إدانته إقدام البابا يوحنا بولس الثاني على الاعتذار عن الحروب الصليبية. وهو كلام تضمن مفارقات قد يصعب على المستمع إحصاؤها، فنحن أمام عالم يهودي (لويس) ينتقد البابا لاعتذاره للمسلمين عن حرب مقدسة شنت ضدهم باسم الدين المسيحي مع أنها كانت مذبحة لليهود أيضاً". [1]

أولى حروب أمريكا على المسلمين

عندما أعلنت المستعمرات الأمريكية الاستقلال ، كانت الدولة العثمانية- التي يترأسها خليفة بلقب سلطان ويعتبر الزعيم السياسي والديني للبلاد الإسلامية- تشكل قلب العالم الإسلامي. وإذا كان مفهوم السلطة في العالم العلماني السائد في الغرب ينص على: أن ما لله لله وما لقيصر لقيصر فإن الوضع في الإسلام مختلف، حيث تتغير المعادلة لتصبح: ما لله لله وما لقيصر هو أيضاً لله. وكانت الثورة الفرنسية من أول من بشّر بالعلمانية وجاءت شقيقتها الأمريكية لتنشر النظام العلماني في الأرض الجديدة، علماً بأن الحركة الماسونية هي التي قادت الثورتين اللتين نادتا بفصل الكنيسة عن الدولة. وفي حين أن بالمستطاع تطبيق هذا الفصل في العالم المسيحي حيث يوجد كيانان: الدولة والكنيسة، تم الطلاق بينهما نهائياً ورسمياً، فإن هذا النظام لا ينطبق على الإسلام حيث قانون السماء هو الذي يحكم حياة المسلم، وحيث السياسة جزء لا يتجزأ من الدين، وبالتالي لا يمكن فصلها عنه. ففي نظر المسلم الملتزم تعتبر العلمانية أو فصل الإسلام عن الحياة اليومية بمثابة تجريد الدين الإسلامي من هويته. وكان علماء الإسلام ولا يزالون على قناعة بأن العلمانية ، هذا الاختراع الماسوني اليهودي- المسيحي، تحولت إلى أداة لفرض الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي، وبغض النظر عما إذا كانت العلمانية ضد المبادئ الإسلامية أم لا. وتحقيقاً لهذا

[1] http:/www.slate.com March 14,2007- Party of Defeat: AEI Weird Celebration

الهدف، حرصت البعثات التبشيرية الغربية على العمل جنباً إلى جنب مع الحملات الاستعمارية، بل إن المبشرين كانوا يسبقون الجنود أحياناً لتمهيد الأجواء في المناطق المستهدفة، وتسهيل المهمة على القوى الاستعمارية القادمة. الواقع أن نشر العلمانية في البلدان الإسلامية أصبح هدفاً للاستعمار الغربي الذي سعى إلى تحقيقه بكل همة والتزام إلى أن تحقق له ذلك رسمياً عام 1924.

كانت الدولة العثمانية المسلمة عام **1776** عبارة عن فيدرالية كبيرة، عدد كبير من "الولايات" التي تتمتع بدرجة عالية من الحكم الذاتي وتنتشر وتضم معظم أوروبا الشرقية حالياً بما في ذلك: صربيا، اليونان، بلغاريا،أجزاء من رومانيا وأوكرانيا، بالإضافة إلى دول الشرق الأوسط (حالياً): سوريا، لبنان، فلسطين، العراق، دول الخليج العربية،مصر، ليبيا، تونس، والجزائر، وهذا يعني بأن **80**% من سواحل البحر الأبيض المتوسط كانت خاضعة لسيطرة المسلمين، لدرجة أن الدول الإسلامية الإقليمية (الولايات) التابعة للدولة العثمانية المسلمة، وبخاصة دول شمال إفريقيا، كانت تتعامل مع البحر المتوسط باعتباره بحيرة إسلامية، وتفرض جزية (أقرب إلى رسوم عبور) على الإبحار فيه، وهي ممارسة كان معترفاً بها كواقع عام **1776** لدرجة أن بريطانيا ومعظم دول شمال أوروبا كانت تدفع الجزية لدول شمال إفريقيا (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب حالياً)، والتي كانت تعرف ببلاد المغرب بالنسبة للعالم الإسلامي أو دول البربر بالنسبة للغرب. لم يكن نظام الجزية يستثني أحداً بما فيها السفن الأمريكية التي كانت تدخل المتوسط. قبل عام **1776** عندما كانت المستعمرات الأمريكية جزءاً من بريطانيا، كانت الجزية تدفع من قبل الأخيرة وتغير الأمر بعد الانفصال وإعلان الأمريكيين الاستقلال عن بريطانيا، حيث أصبحت السفن الأمريكية تتولى دفع الجزية للمسلمين.

بدأ التبادل التجاري بين المستعمرات الأمريكية والشرق الأوسط في وقت مبكر يعود إلى القرن السابع عشر. وفي عام**1625** استولت البحرية المغربية على سفينة انطلقت من إحدى المستعمرات الأمريكية في شمال أمريكا. وفي حادثة مماثلة استولت البحرية الجزائرية على سفينة أميركية مسجلة في ولاية ماساشوستس و**13** سفينة أخرى مسجلة في فرجينيا. غير أن الوضع شهد تطورات جديدة مع تنامي حركة الصادرات الأمريكية إلى موانئ المتوسط وتعاظم حجم التجارة مع المنطقة، فكان أن حاولت الولايات المتحدة المستقلة حديثاً الامتناع عن دفع الجزية في البداية. ولأن الأمريكيين لم يكونوا قد امتلكوا قوة بحرية رسمية ، حيث لم يكن الكونغرس قد وافق على ذلك بعد، فقد انبرى المواطنون الأمريكيون وبخاصة التجار منهم لهذه المهمة، وقاموا بتجميع أسطول خاص (خلال الفترة من **1776-1783**) وتشكيل قوة بحرية غير رسمية لمواجهة البحرية الجزائرية وحماية مصالحهم التجارية في المتوسط. غير أن الأسطول الأمريكي لم ينجح في تحقيق أي من أهدافه، إذ سرعان ما خسر معركته في المتوسط ومعها سائر سفنه التي تعرضت للغرق في المواجهة مع البحرية الجزائرية. وفي العام **1784** تكررت عمليات الاستيلاء على السفن الأمريكية، حيث وقعت السفينة بيتسي في براثن البحرية المغربية. وبعد تلك الواقعة بشهرين استولى الجزائريون على السفينتين دوبلين وماريا واحتجزوا **21** أميركياً من بحارتهما، فكان أن دفعت الحوادث هذه الكونغرس الأمريكي للمسارعة في تمرير قانون خاص بأنشاء الأسطول الأمريكي الرسمي عام **1784** بهدف معلن هو

حماية التجارة في المتوسط. غير أن الكونغرس أصدر أوامره في ذات الوقت للدخول في مفاوضات مع "دول البربر" حول مسألة دفع الجزية.

وقع الاختيار على جون آدامز، السفير الأمريكي لدى لندن والرئيس لاحقاً، للشروع في مفاوضات دبلوماسية مع دول شمال افريقيا. وفي هذا الصدد اجتمع آدامز عام **1785** بالممثل السياسي لباشا طرابلس عبد الرحمن العجار، الذي شرح له جوانب السياسة التي تنتهجها دول شمال إفريقيا حيال السفن التي تدخل المتوسط أو البحر الإسلامي طبقاً لتعبير العجار وقتها، مضيفاً بأنه ما من بلد يستطيع استخدام البحر بدون الدخول في معاهدة سلام مع المسلمين. وختم العجار مناقشته مع المبعوث الأمريكي بالتأكيد على أنه ينبغي على الولايات المتحدة دفع جزية قدرها مليون دولار سنوياً، وهو مبلغ ضخم في مقاييس ذلك الوقت خاصة إذا ما علمنا بأن ميزانية الولايات المتحدة لم تكن تتجاوز الملايين العشرة. وفي وقت لاحق انضم وليام جيفرسون، الذي أصبح رئيساً بدوره، إلى المفاوضات وعقد محادثات مع المبعوث التونسي، غير أن حظه لم يكن بأفضل من زميله آدمز. انتهت المفاوضات وعاد آدمز إلى مقر عمله في لندن ليرفع توصية إلى واشنطن بضرورة دفع الجزية المطلوبة على ضخامتها وإن أطلق عليها صفة: الرشوة، قائلاً بأن البديل سيكون الحرب التي لم تكن الولايات المتحدة في وضع تستطيع معه احتمالها أو الفوز بها في ذلك الوقت. إلا أن آدمز أعرب عن شعوره الحاقد تجاه المسلمين، فكتب في مذكراته يقول:" العالم المسيحي جعل من بحارته مجموعة من الجبناء أمام رايات محمد". وفي يونيو **1786** طلب الكونغرس من آدمز وجيفرسون وفرانكلين التوصل إلى السلام مع المغرب، وهو ما حصل بالفعل حيث تم توقيع معاهدة سلام مع حاكم المغرب تم بموجبها إطلاق سراح السفينة بيتسي مقابل جزية قدرها **20** ألف دولار، كما أرسل الأمريكيون بعثة دبلوماسية إلى طنجة. غير أن السفينة بيتسي عادت لتقع في الأسر من جديد ولكن في أيدي التونسيين هذه المرة.

في السنة نفسها أرسلت الحكومة الأمريكية مبعوثها جون لامب إلى الجزائر للتفاوض على إطلاق سراح البحارة الأمريكيين المحتجزين منذ أكثر من عامين، إلا أن مهمته انتهت إلى الفشل بسبب مطالب الجزائريين. وهنا تم استغلال قضية التهديدات التي يتعرض لها الأمن القومي الأمريكي من قبل دول شمال إفريقيا إلى أبعد حدود. فحتى ذلك الوقت لم تكن الولايات المتحدة محكومة بدستور موحد، إذ كان لكل ولاية دستورها الخاص بها، الأمر الذي حال دون اتفاق الأمريكيين على سياسة موحدة تجاه الشرق الأوسط، حيث تحولت هذه القضية إلى موضع مزايدة في خدمة الأهداف السياسية الداخلية المتشعبة. وجاء استغلال هذا التهديد المبالغ فيه ليتيح للمدافعين عن قيام حكومة وجيش فيدرالي قويين لتحقيق مكاسب عجزوا عن نيلها بدون هذه القضية. وفي ذلك كتب المؤرخ ثوماس بيلي يقول معلقاً بلهجة ساخرة: " يمكن القول بأن باي الجزائر هو الأب الحقيقي للدستور الأمريكي". وبالتوجه نفسه يمكن وصف حكام شمال افريقيا بـ: آباء الأسطول الأمريكي، فقد جاء قرار الكونغرس الخاص بتخويل الحكومة الاتحادية إنشاء الأسطول عام **1794** يتضمن نصاً واضحاً، بأن يكون الأسطول على درجة من الكفاءة التي تمكنه من حماية تجارة الولايات المتحدة ضد القراصنة الجزائريين.

في عام **1790** أصبح ثوماس جيفرسون وزيراً للخارجية، وسرعان ما تقدم للكونغرس بتوصية للدخول في حرب مع الجزائريين متشجعاً بوجود الأسطول. غير أن

الكونغرس رد طلب جيفرسون، وبدلاً عن ذلك وافق على دفع جزية وصلت إلى **140** ألف دولار. وفي **27** مارس **1794** عزز جورج واشنطن الأسطول بإضافة ست فرقاطات.

كانت "جورج واشنطن" أولى سفن الأسطول الأمريكي التي تمخر في مياه البحر الأبيض المتوسط وكان ذلك في العام **1800** . والمثير هنا أنها لم تكن في مهمة عسكرية بل كانت تحمل جزية للجزائريين قدرها نصف مليون دولار. مع أن الجزائر كانت تتمتع وقتها بقدر واسع من الحكم الذاتي إلا أنها كانت لا تزال جزءاً من الدولة العثمانية المسلمة، وبالتالي تسهم في تمويل ميزانية اسطنبول. في ميناء الجزائر كانت السفينة الحربية " الهلال" ترسو كما لو كانت في استقبال الأمريكيين لتذكيرهم بواقع أليم. فقد كانت السفينة المذكورة المزودة بـ: **36** مدفعاً جزءاً من جزية سابقة دفعتها الولايات المتحدة للجزائريين. بعد تسليم الجزية الجديدة أبلغ "باي" الجزائر قبطان السفينة جورج واشنطن بأن رحلته لم تنته بعد وبأن عليه التوجه إلى اسطنبول حاملاً للخليفة السلطان العثماني هدايا وأموالاً. وخشية التعرض للمصادرة في حالة الرفض، وافق القبطان الأمريكي مجبراً فكان أن أبحر في اليوم التالي بسفينته المحملة بالأغنام والزرافات والببغاوات وبأكثر من مليون دولار من الذهب والمجوهرات والبضائع. ولعل مما ضاعف من ألم ومعاناة القبطان طوال الرحلة إلى اسطنبول مشاهدة مرافقيه الجزائريين وهم يؤدون الصلوات الخمس بأنتظام باتجاه مكة التي كان عليه ضبط مسار السفينة باتجاهها في كل مرة.

بعد وصوله للرئاسة صمم جيفرسون على مواجهة الخصوم في شمال إفريقيا خاصة وأنه أصبح يملك أسطولا قوياً. وأمام تمسك الكونغرس بموقفه المعارض لإعلان للحرب، قرر جيفرسون تجاوز المجلس وأعطى أوامره للاسطول بمباشرة القيام بدوريات في المتوسط ومواجهة أي اعتداء، بما في ذلك العمل على" إغراق وحرق وتدمير سفن المعتدين". وبقراره الذهاب للحرب بدون موافقة الكونغرس، يكون جيفرسون قد أقدم على سابقة تحتذى من قبل العديد من رؤساء أمريكا اللاحقين. وفي تطور لاحق تسبب به جيفرسون التواق لإذلال باشا طرابلس يوسف قرمنلي فيما يتعلق بقضية الجزية، تملك قرمنلي الغضب فأرسل جنوده بتاريخ **14** مايو **1801** إلى القنصلية الأمريكية في تونس، وقاموا بقطع سارية العلم الأمريكي فيما اعتبر هذا التصرف من أعمال الحرب. وبذلك يكون جيفرسون قد حصل على ما كان يسعى إليه: الحرب. أرسلت الولايات المتحدة وحدة بحرية مكونة من أربع سفن كبيرة هي: إيسيكس، بريزدنت، فيلادلفيا، وإنتربرايز بهدف فرض حصار على ميناء طرابلس وقصف المدينة وصولاً إلى إجبار قرمنلي على الاستسلام. كانت الأوامر الصادرة لقائد الوحدة البحرية المهاجمة تنص على: بذل أقصى جهد ممكن لشل حركة سفن العدو بإبقائها داخل الميناء .. وإفشال أي محاولة للهروب والاستيلاء على السفن كغنائم".

بدأت المهمة عملياتها بخدعة برفع السفينة إنتربرايز العلم البريطاني، الأمر الذي مكنها من الاقتراب من السفينة طرابلس لمسافة قريبة جداً قبل أن ترفع العلم الأمريكي وتقوم بمهاجمة السفينة العربية وتوقع **30** إصابة بين بحارتها الـ:**80**. وفوق ذلك تم أسر قبطانها الريس محمد سوسة، وجلده أمام أنظار الجميع. بعدها أرسلت القوة البحرية الأمريكية وحدة إنزال على الشاطئ وقامت بحرق **11** فلوكة محملة بالحبوب. ما إن استفاقت بحرية قرمنلي من صدمة الهجوم الأمريكي المفاجئ، حتى تحركت القوارب في محاولة ناجحة

لاختراق الحصار، ونجحت بدورها في فرض حصار على السفن الأمريكية. أما قوة المارينز التي نفذت الإنزال على الشاطئ فقتلت جميعها لتسجل بذلك أولى ضحايا تتكبدها المارينز في الشرق الأوسط. انتهت الحملة الأمريكية المذكورة بمشهد قائد القوة البحرية وهو يرفع العلم الأبيض مستسلماً لحاكم طرابلس.

في أغسطس **1803** قادت السفينة الحربية يو.إس.إس فيلادلفيا قوة بحرية أميركية جديدة باتجاه الشرق الأوسط. وما إن دخلت مياه المتوسط حتى التقت بالسفينة التجارية المغربية " المركوبة" فهاجمتها واحتجزت ركابها. وفي الطريق إلى طرابلس هاجمت القوة الأمريكية عدداً من القوارب قبالة سواحل طرابلس، فما كان من هذه القوارب إلا أن انسحبت أمامها في حركة تكتيكية على ما يبدو مقتربة من الشواطئ ما أمكن. ومع ذلك لاحقتها السفينة فيلادلفيا . وبعيداً عن ادعاء قبطان فيلادلفيا من أن سفينته علقت في شعب مرجاني وكان ذلك عصر يوم **31** أكتوبر**1803**، فقد أطبقت تسع قوارب طرابلسية على السفينة واعتقلت القبطان و**307** من المارينز وجردتهم جميعاً من ملابسهم واقتادتهم أسرى إلى الشاطئ، ثم قامت القوارب بسحب السفينة إلى الشاطئ حيث قرر الوالي يوسف قرمنلي إعادة تسميتها بـ: "هبة الله" . غير أن الأمريكيين عادوا على متن السفينة إنتربيد. وفي ليلة **16** فبراير **1804** قامت وحدة من المارينز متنكرين في زي بحارة مالطيين بالتسلل إلى موقع السفينة الأسيرة وقاموا بإحراقها. وقتها علق البابا بيوس السابع على العملية بالقول بأن "ما فعله الأمريكيون من أجل المسيحية أكبر مما فعلته أقوى دول العالم المسيحي على مدى عصور عدة".

عرضت واشنطن على قرمنلي فدية تصل إلى **100** ألف دولار لإطلاق سراح القبطان ورجاله الأسرى فرفض، مطالباً بمليون ونصف دولار، الأمر الذي دفع الأمريكيين لعمل عسكري جديد ضد طرابلس. وفي جنح الظلام قامت السفينة انتربيد بأنزال وحدة من المارينز بقيادة جوزيف إسرائيل على شواطئ طرابلس، في وقت كانت السفينة نفسها تحمل **15** ألف رطل من المتفجرات. كانت الأوامر تقضي بتدمير أسطول قرمنلي في عتمة الليل. وقبل أن تستطيع وحدة المارينز الإتيان بأي شيء تعرضت للنيران من قبل القوارب الطرابلسية التي كشفت أمرها على ما يبدو، وكانت النتيجة مصرع جميع أفراد المارينز وتفجير السفينة انتربيد بما تحمل من أطنان المتفجرات التي أضاءت السماء وأصمّت انفجاراتها الآذان على مدى ساعات الليل. وعندما طلب قائد الوحدة الأمريكية من والي طرابلس السماح بدفن جثث جنوده القتلى أصرّ قرمنلي على ترك الجثث للكلاب.

تغيير الأنظمة في الشرق الأوسط... هاجس أميركي قديم

في عام **1799** وقع اختيار الإدارة الأمريكية على جون إيتون- مغامر بالسليقة عرف بتاريخه الدموي في محاربة الهنود الحمر بحماسة شديدة- ليكون أول قنصل للولايات المتحدة لدى تونس، والذي توجه لمقره الجديد مصطحباً معه الجزية السنوية المطلوبة لتونس، وكانت عبارة عن سفينتين حربيتين من صنع أمريكا. حظي القنصل الأمريكي باستقبال جيد من قبل التونسيين طبقاً لما تمليه الأعراف الدبلوماسية، حيث أطلقت المدفعية نيرانها تحية له. ويعدها بأيام قدمت سلطات الباي للقنصل الأمريكي فاتورة بـ **800** دولار

ثمناً لمسحوق البارود الذي استخدم في إطلاق المدفعية احتفاءً به. لم يكن جون إيتون بحاجة لمن يقنعه بأن القوة العسكرية وحدها هي الكفيلة بمعالجة مشاكل أمريكا مع شمال إفريقيا، من خلال احتلال إحدى دول المنطقة لإثارة الخوف في قلوب الحكام الآخرين. ولهذا لم يطل مقامه في تونس وعاد إلى واشنطن، حيث بدأ مع أنصاره الذين لا يقلون عنه تشدداً في الترويج لرؤيته التي استقرت أخيراً على التصور الخاص بتغيير نظام يوسف قرمنلي. وطبقاً للخطة التي عرضها جون إيلتون، فإنه سيتم الاستعانة بيوسف شقيق حامد قرمنلي، الذي كان قد تم نفيه إلى مصر بعد تولي شقيقه يوسف الحكم. وعليه وبأنضمام حامد قرمنلي للمؤامرة الأمريكية، أصبح باستطاعة إيتون تشكيل قوة غزو تضم عددا قليلاً من الأمريكيين وعدداً كبيراً من المرتزقة. وبالطبع فقد لقيت خطة إيتون حماسة شديدة من قبل الرئيس جيفرسسون، الذي منحه التفويض باستخدام " حماسته.. وحكمته" في مساعدة حامد قرمنلي على الإطاحة بشقيقه. ولتوفير الحماية الدبلوماسية له فقد تمت تسمية جون إيتون " وكيلاً للولايات المتحدة لدى دول البربر. أبحر إيتون بعدها باتجاه مصر للاتفاق مع حامد قرمنلي على الصفقة.

كان أول ما فعله إيتون لدى وصوله مصر تحديد مكان حامد قرمنلي الذي عثر عليه أخيراً في برج العرب، ثم عين نفسه بمنصب عسكري رفيع "جنرال" قبل أن يشرع في تجميع جيشه الذي ضمّ **400** منهم عدد غير محدد من الأمريكيين، و **90** من أبناء طرابلس، و**63** من المرتزقة الأوروبيين (مقاولين طبقاً لمصطلحات اليوم) بالإضافة إلى **250** من البدو. تعهد حامد لإيتون بإطلاق سراح الرهائن المارينز بمجرد الوصول للسلطة مكان أخيه.

غلبت على الرحلة من مصر باتجاه طرابلس المشاكل والصعاب ليس بسبب قسوة مناخ وطبيعة الصحراء فحسب، بل كان على إيتون التعامل مع المشاجرات العديدة التي نشبت بين جنوده المسلمين والمسيحيين. وفي أكثر من مناسبة كاد البدو من المتطوعين في جيش إيتون، التمرد بل إن حامد نفسه بدأ يفكر ملياً فيما هو مقدم عليه من التآمر على شقيقه. وكان إيتون قد أعد ترتيباته مع قيادة الأسطول لإرسال سفينة حربية محملة بالمؤن والأسلحة لانتظاره في خليج بومبا، على بعد **30** ميلاً غرب طبرق. وهو ما حصل بالفعل حيث وصلت السفينة يو.إس.إس آرغوس محملة بالمؤن والطعام التي تم تزويد الجيش الصغير بها قبل أن يواصل تقدمه باتجاه "درنة" ثاني أكبر موانئ المنطقة، والذي سيكون نقطة انطلاق الهجوم على طرابلس.وصل جيش إيتون الميناء المذكور بتاريخ **15** أبريل حيث طالب "الجنرال" الأمريكي حاكم درنة الاستسلام فجاءه رد الأخير: إما رأسي أو رأسك". وعندما أخذت السفن الحربية الأمريكية التي كانت وقتها ترابط مقابل شواطئ الميناء المذكور استهداف دفاعات المدينة بالقصف، بدأ إيتون هجومه الذي انتهى بهزيمة منكرة، حيث أصيب هو شخصياً بينما قتل وجرح معظم جنوده. لم يكن إيتون يتوقع أن تنهي معركته الأولى أحلامه في السيطرة على المنطقة. فما إن بدأت المواجهة حتى وصل جيش من ثلاثة آلاف مقاتل أرسله يوسف قرمنلي من طرابلس وقام بتطويق مرتزقة إيتون وشن هجوماً مضاداً. سقط أكثر من **60** من رجال إيتون في الهجمة الأولى لجيش قرمنلي الذي نجح في تطويق الجيش الدخيل، ووجدت الولايات المتحدة نفسها مجبرة على التوصل لاتفاق مع يوسف قرمنلي تفاوض عليها من الجانب الأمريكي مبعوث جيفرسون المعين توبياس لبير، الذي أدرك وعلى عكس سلفه إيتون بأن تحرير الرهائن المارينز لن يتحقق إلا

من خلال التفاوض السلمي وتطبيع العلاقات مع طرابلس. وهو ما حصل بالفعل حيث توصل الطرفان إلى اتفق على تبادل الأسرى ودفع الولايات المتحدة جزية لوالي طرابلس الباي يوسف قرمنلي، الذي تسلم أيضاً شقيقه حامد من الأمريكيين ليعيش معه بسلام. وفي **4** يونيو **1805** وصلت السفينة الحربية الأمريكية كونستيتيوشن إلى ميناء طرابلس لتحمل السجناء الأمريكيين عائدين إلى بلادهم، ولتؤول بذلك أول محاولة أميركية لتغيير الأنظمة في الشرق الأوسط إلى الفشل الذريع.

مع تعاظم القوة الأمريكية أصبح بإمكان واشنطن إرسال حملات أكبر إلى البحر المتوسط. ففي عام**1815** أرسل الرئيس جايمس ماديسون الأسطول إلى المتوسط في حملة جديدة لإجبار الجزائر وتونس وطرابلس على التوقف عن مهاجمة السفن الأمريكية، لتشكل المهمة الجديدة نهاية لحرب دامت ثلاثين عاماً بين الأمريكيين ودول شمال إفريقيا المسلمة.

200 سنة بعد قصف المارينز درنة

في عددها الصادربتاريخ **12** مايو **2008** (ص.**30**) نشرت مجلة النيوزويك – الطبعة الدولية، تقريرا تحت عنوان:" المصير.. الشهادة" لمناقشة الأسباب التي جعلت من مدينة درنة قاعدة لتفريخ العديد من الانتحاريين للحرب في العراق.

عندما أغارت قوات المارينز عام **2007** على مقار لإحدى جماعات المقاومة العراقية هي: مجلس شورى المجاهدين، في مدينة سينجار الواقعة في شمال العراق، بدأوا دراسة وتحليل ملفات وجنسيات **606** مقاتلين ليجد المحققون أنفسهم أمام مفاجأة كبيرة، فقد اكتشف الأمريكيون بأن **112** من هؤلاء المقاتلين مع المقاومة العراقية جاءوا من ليبيا، منهم **52** من أبناء بلدة درنة التي لا يتجاوز عدد سكانها **50** ألف نسمة. وإذا كان السعوديون قد شكلوا العدد الأكبر من المقاتلين المذكورين بوجود **244** منهم بين الأسماء التي عثر عليها المارينز، فإن احتساب النسبة والتناسب في عدد السكان بين ليبيا والسعودية يرجح كفة الأولى من حيث معدل مدّ الجهاد ضد الأمريكيين في العراق بالانتحاريين والمجاهدين. ومن الحالات الجديرة بالدراسة والتأمل هنا تلك التي تتعلق بالمتطوع عبد السلام بن علي، ابن العشرين من العمر، ابن مدينة درنة حيث ولد وترعرع . فهذا الشاب الليبي الذي تخرج متخصصاً في الطب البيطري، تأثر بشكل كبير بالشريط السينمائي : أسد الصحراء، عن قصة المقاوم الليبي الأسطورة عمر المختار، الذي جسد شخصيته على الشاشة الممثل العالمي أنطوني كوين عام**1981** . ومن الواضح أن بن علي وجد في عمر المختار الذي خاض معارك بطولية ضد الاحتلال الإيطالي الوحشي لبلاده النموذج الذي يحتذى. فعلى مدى **20** عاماً استطاعت المقاومة الوطنية الليبية بقيادة أسد الصحراء إنهاك قوات الاحتلال الايطالية إلى أن وقع عمر المختار في الأسر عام **1931**.

عن ممارسات الإيطاليين القمعية جاء في تقرير للنيوزويك بتاريخ **12** مايو **2008** القول:" اتسمت الممارسات الإيطالية بالوحشية. وطبقاً لإحدى الإحصائيات السكانية الليبية فإن عدد سكان ليبيا عام **1912** كان **1.2** مليون نسمة ليتراجع إلى

825 ألف نسمة عام **1933** كنتيجة مباشرة لسياسة الاستعمار الإيطالي على حد تعبير رونالد بروس سانت جون، المتخصص في الشؤون الليبية. ويضيف العالم المذكور والذي يحظى باحترام واسع في الأوساط الأكاديمية، بأن التكتيكات الإيطالية كانت تتضمن إقامة معسكرات الاعتقال الجماعي والتجويع المتعمد للسكان، وأعمال القتل بالجملة التي وصلت حد المذابح الجماعية ".[1]

كانت درنة موقع أول معركة يخوضها المارينز في الشرق الأوسط وشارك فيها المرتزقة أو "المقاولون" كما أصبحوا يعرفون لاحقاً، وتعرضت هذه المدينة الليبية الساحلية الصغيرة لقصف من الأسطول الأمريكي في أوائل القرن الثامن عشر. وإذا كان المارينز لا يزالون يذكرون قتلاهم في درنة، فإن أهالي المدينة لم ينسوا شهداءهم والدمار الذي أحاقة القصف العشوائي للسفن الأمريكية بمدينتهم. ولهذا نجد عبد السلام، ابن درنة المتطوع في المقاومة العراقية المصدوم بما شاهده على الجزيرة وغيرها من الفضائيات، من دمار أحاقه القصف الأمريكي وعمليات المارينز بالعراق، يستحضر في خياله ما حصل لمسقط رأسه درنة على يد المارينز قبل **200** عام، وهو يقول لوالدته بأنه يعتزم التوجه للعراق لمقاتلة الأمريكيين. ومع أنه تظاهر بالتراجع أمام مشاعر الأسى التي انتابت الأم وهي تتخيل أنها قد لا تراه بعد اليوم، إلا أن عبد السلام سرعان ما اختفى. وعندما تلقت العائلة مكالمة منه بعدها بأسابيع أبلغ الشاب والدته بأنه موجود في الرمادي قائلاً: "أنا في العراق".

أثارت ظاهرة تطوع أبناء درنة للقتال في العراق _ كما تبين من الوثائق التي حصل عليها الأمريكيون في بلدة سنجار شمال العراق _ قلق واشنطن، فكان أن أرسلت وزارة الخارجية الأمريكية في نوفمبر **2007** وفداً برئاسة الجنرال ديل دايلي إلى طرابلس للقاء المسئولين الليبيين. في البداية، لم يصدق الليبيون الأرقام التي جاء بها الأمريكيون حول عدد المتطوعين الليبيين في الحرب في العراق، حتى ووجهوا بالوثائق من سنجار. وطبقاً لتقارير أميركية لاحقة، فقد أعرب الأمريكيون عن سعادتهم لمدى التعاون الذي لمسوه من السلطات الليبية في مكافحة الإرهاب. وفي ذلك يقول تقرير النيوزويك:" بالرغم مما كشفت عنه وثائق سنجار، فإن القليلين فقط في الإدارة الأمريكية يعتقدون بأن القذافي يرسل مقاتلين إلى العراق، لسبب رئيسي وهو أن أفواج المجاهدين العائدين إلى ليبيا من العراق بمهارات قتالية جديدة ستمثل كابوساً للزعيم الليبي نفسه بقدر ما تمثل للأميركيين".

تتجذر المقاومة ضد الأمريكيين عميقاً في وجدان وأذهان المسلمين، الأمر الذي تبين لمعدي تقرير النيوزويك من خلال المقابلات العديدة التي أجروها مع أقارب المجاهدين. فعندما تحدث المراسل أمام رئيس بلدية درنة عن أعداد أبناء بلدته ممن تطوعوا لمقاتلة الأمريكيين، لم يصدق المذكور ما سمعه حتى ووجه بالوثائق، وعندها علق قائلاً:" إذا كان هذا الرقم دقيقاً فهو شيء سيئ من الناحية السياسية، غير أنه ليس كذلك بالنسبة للمسلمين الذين يشعرون بأنهم إنما يؤدون واجبهم. لقد قالت أمريكا بأن الحرب في العراق هي من أجل الحرية بينما هي ليست كذلك في الواقع".

[1] Newsweek, May 12, 2008 (p 30)

وهذا مؤذن مسجد درنة النوري الحصادي، ابن الستين عاماً، ينفجر في وجه مراسل النيوزويك الذي سأله عن قريبه الشاب أشرف (**18** عاماً) والذي تطوع للجهاد وموجود في العراق. في البداية لم يكن المؤذن راغباً في الحديث إلا أنه صرخ فجأة ملخصاً الموقف بالقول:" إنه النفط.. النفط.. أمريكا بحاجة للنفط وهي التي تتحمل مسؤولية ما يحدث".

وهناك الشاب عبد الحكيم العوكلي(**28** عاماً) الذي غادر درنة أواخر ربيع **2007** متجهاً إلى العراق، بالرغم من محاولات عائلته الميسورة إعاقة خروجه باللجوء إلى سلطات الجوازات والهجرة طلباً لعدم تزويده بوثيقة سفر. وطبقاً لأقاربه ممن تحدثوا لمراسل النيوزويك فإن عبد الحكيم كان شديد التأثر بما كان يراه على الشاشة من وحشية المحتلين الأمريكيين للعراق، فكان أن أصر على الانضمام للجهاد ضد الغزاة غير آبه بالحياة المرفهة التي كانت متاحة له.

أما عبد الحميد شقيق عبد السلام علي، فقال للنيوزويك بأنه أصبح قادراً على التعايش مع حقيقة استشهاد شقيقه. وأضاف:" عندما قتل .. كنت سعيداً بالفعل.. أعتقد بأنه كان محقاً بالذهاب.. كان محقاً بالفعل.. الناس يقتلون بدون سبب.. لقد فكرت شخصياً أن أذهب بدوري ولكنني لم أعد استطيع ذلك.. لم يعد غيري معيلاً للعائلة".

قد تكون الطريقة التي وصفت بها وزارة الخارجية الأمريكية، غيرسون، قنصلها المعين في القدس عام 1844 بأنه شخص فقد نصف عقله بينما النصف الثاني غير طبيعي، هذه الطريقة قد تنسحب على العديد من المسيحيين الصهاينة المتشددين الذين أخذوا بالتدفق على الأرض المقدسة، منذ أن سنّ إبراهيم باشا قوانينه التي سمحت بالهجرة اليهودية إلى فلسطين وحتى يومنا هذا. كان من بين الذين سارعوا للهجرة وقتها المدعوة هاريير ليفرموور، وهي ابنة عضو مجلس الشيوخ عن ولاية نيو هامبشاير، والتي كانت تترأس جماعة دينية من المعمدانيين قبل أن تغادر للشرق الأوسط. وفي فلسطين التقت هاريير بسيدة أخرى لا تقل عنها هوساً بالدين وتدعى هيستر. قررت السيدتان توحيد جهودهما قبل أن تعصف الخلافات بينهما على قضية في غاية الأهمية وهي: من منهما سيكون لها شرف الإمساك بيد المسيح لدى دخوله القدس مجدداً !!! الواقع أن الفلسطينيين يجدون أنفسهم اليوم مجبرين على التعامل مع مثل هذا النوع من المعتوهين.

الفصل الرابع

الحملات الصليبية الأمريكية

دور الولايات الأمريكية في تفكيك الإمبراطورية العثمانية

بعد إرسال الرئيس ماديسون الأسطول الأمريكي لإخضاع دول إفريقيا الشمالية بفترة قصيرة، بدأ التخطيط لغزو أميركي من نوع آخر للشرق الأوسط: الغزو الثقافي. ففي عام **1810** شكلت مجموعة من رجال الدين الأمريكيين ما أطلقت عليه: المجلس الأمريكي لمفوضي المهمات الخارجية بهدف دعم المراكز التبشيرية في العالم غير البروتستنتي. كان هؤلاء يعتقدون بأن أمريكا مكلفة من قبل السماء بمهمة مقدسة وهي قيادة الأمم باعتبارها "شعلة هداية للآخرين". وبالنسبة للأميركيين البروتستنت فإن مسيحيي الشرق والروم الأرثوذكس وأتباع الكنيسة الأرمنية يعتبرون من المسيحيين الضالين، وإن كان من السهل إعادة تحولهم للدين كما تراه الكنيسة البروتستنتينية التي تطلق عليهم صفة : " مسيحيون بالاسم". أما المسلمون فلهم وضعهم المختلف تماماً باعتبارهم لا شيء من الناحية الروحية وفي وضع يائس بأنتظار الخلاص.

وفيما يتعلق باليهود فقد بدأ العديد من رجال الكنيسة البروتستنتينية بالمطالبة بالاندماج بين الكنيسة واليهودية، وتوحيد ما أسموه بـ: إسرائيل القديمة والمعاصرة. وفي ذلك قال أسا مكفارلاند، المشيخي" أحد الشيوخ المنتخبين لإدارة شؤون كنيسة في ولاية ماسساشوستس" : عندما تسقط الإمبراطورية العثمانية سيبدأ اليهود رحلة العودة إلى فلسطين... وسيتبوأ المسيح السلطة والحكم مجدداً".[1]

في عام **1816** ورد في عدد من مجلة نايلز ويكلي ريجيستر القول:" عندما يتم إخراج العثمانيين الضعفاء البلهاء من فلسطين، سيعود اليهود وسيجعلون الصحراء "تتفتح سريعاً كما الزهور". وعليه فقد كان للبروتستنت أجندتهم الخاصة المعدة سلفاً تجاه العمل على تفكيك الدوله العثمانية المسلمة وصولاً لتحقيق العودة لليهود والمسيح إلى فلسطين.

قبل مغادرتهما بوسطون إلى البلاد المقدسة ليكونا أول بعثة تبشيرية تتوجه للشرق الأوسط، شرح المبشران الشابأن للجموع المؤمنة في كنيسة أولد ساوث ما عرف بعد ذلك بـ: البرنامج التبشيري الخاص بالعالم الإسلامي. كان القس ليفي بارسونز أول المتحدثين قائلاً:" اليهود هم من علمونا طريق الخلاص.. فقد حافظوا وبإخلاص ونوايا صافية على الإنجيل.. إلهنا هو إلههم وجنتنا هي جنتهم" والأهم من ذلك أن بارسون استذكر " الحقيقة الكبرى" وهي أن اليهود هم من زودوا الإنسانية بالمخلص الأعظم.. المسيح". وفي ذلك قال

[1] Power, Faith and Fantasy, Michael B. Oren, W.W. Norton & Co., New York, 2007,P 89

القس البروتستنتي وهو يستعد للسفر إلى فلسطين: نعم.. إخوتي، إن من سيشفع لكم أمام عرش الله .. هو يهودي".أضاف القس بارسون بأن على المسيحيين، وعلى سبيل إظهار الامتنان وكنوع من رد الجميل، بذل كل ما يمكنهم من جهد لاستعادة السيادة لليهود في أرض أجدادهم وموطن الإنجيل.

واستطرد بارسون في شرح كيف أن اليهود كانوا يعيشون حياة من المعاناة والتشرد بدون وطن أو هوية سياسية على مدى **18** قرناً، وبأن الوقت قد حان لتصحيح الظلم الذي أحاق بهم. وأضاف بارسون:" علينا الاعتراف.. لا يزال هناك في صدر كل يهودي رغبة لا تقهر في تعمير الأرض التي وهبها الله لآبائهم، وهي رغبة من القوة بحيث لا يمكن اجتثاثها من النفوس حتى في حالة التحول للمسيحية.. تلك الأرض هي فلسطين التي كانت مزدهرة في يوم من الأيام لتصبح أرضاً شبه خالية من الحياة والسكان في ظل الحكم التركي، بأنتظار أصحابها الشرعيين لاستعادتها، وهو ما سيحصل" على حد قول القس المذكور وقتها، والذي أضاف:" ما إن يختفي الاحتلال العثماني لفلسطين فإن معجزة فقط هي التي ستحول دون عودة فورية لليهود إليها".[1]

وفي الوقت ذاته قال بارسون بأن عودة اليهود لفلسطين تعتبر مطلباً ضروريا لإقامة الدولة اليهودية المسيحية، والتي ستأتي تحقيقاً للشرط الخاص بعودة المسيح. ومن جانبه تحدث زميله المبشر الثاني بليني فيسك عن الخلاص وفلسطين، وعندما ختم حديثه بالقول:" كل الأعين مسلطة على القدس"، انخرط الحضور بالبكاء.

وهكذا ومن هذه الكنيسة القديمة في قلب بوسطون ، ماساشوستس - والتي كانت مسرحاً لتحرك الأمريكيين لإلقاء شاي شركة الهند الشرقية (رمز الاستعمار الإنجليزي) في البحر وإشعال الثورة الأمريكية التي قادتها الماسونية- أشعلت شرارة الحملة الصليبية الجديدة ، ولكن من بوسطون الأمريكية هذه المرة. سبق توجه القسين بارسون وفيسك إلى الشرق الأوسط جولة واسعة جابا بها مختلف الولايات انهالت عليهما خلالها التبرعات من مختلف الكنائس لتمويل حملتهما الصليبية، كما حصل مع جولات البابا التي سبقت الحملة الصليبية الأولى. وطبقاً لمردخاي نوح (عام **1819**) فقد كتب جون آدمز الذي تولى الرئاسة لاحقاً يقول:" أتمنى بالفعل أن يحظى اليهود بدولتهم المستقلة في يهودا من جديد". وهكذا فإن صهيون التي كانت أمريكا بالنسبة للحجاج (المهاجرين) الأوائل أصبحت الآن فلسطين بالنسبة لهؤلاء الصليبيين الأمريكيين.

اتضحت أجندة الحملة التبشيرية للقساوسة البروتستنت في الشرق الأوسط قبل أن يغادر روادها السواحل الأمريكية، وتلخصت بوضوح في هدفين: عودة اليهود إلى فلسطين، وتدمير الدولة العثمانية المسلمة، والتي كانت تحتل فلسطين على حد تعبير القائمين على الحملات التبشيرية الأمريكية. انطلقت الحملة الصليبية الجديدة وكان المبشرون رأس الحربة فيها... وبعدها بـ: **98** عاماً كانت فلسطين قد سقطت في براثن الاحتلال البريطاني تمهيداً لإقامة الكيان اليهودي في فلسطين. ولهذا نجد الجنرال اللنبي يقولها بصراحة لدى دخوله القدس عام **1917** :" الآن فقط انتهت الحروب الصليبية".

---

1 Power, Faith and Fantasy, Michael B. Oren, W.W. Norton & Co., New York, 2007, Pg 80-81

وتحقيقاً لهذه الأجندة، مارست البعثات التبشيرية البروتستنتينية نشاطها بكثير من الصبر والجلد، وخططت ونفذت غزواً ثقافياً ساعد إلى جانب عوامل أخرى على تفكيك الإمبراطورية العثمانية. ومن ذلك حقيقة أن السفراء الأمريكيين المعينين في العاصمة العثمانية. اسطنبول، كانوا جميعاً إما من الصهاينة المسيحيين أو من الصهاينة اليهود أمثال شتراوس، شقيق أصحاب سلسلة متاجر **Macy**، الذي ساهم وبنشاط وبالتعاون مع الماسونيين اليهود في الإطاحة بالسلطان عبد الحميد طبقاً للسفير البريطاني في اسطنبول في ذلك الوقت. وبالطبع فقد كان موقف السلطان عبد الحميد الرافض لعرض هيرتزل تسديد ديون الإمبراطورية العثمانية مقابل السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، سبباً كافياً لاستهدافه من قبل اليهود والماسونية. وهنا تصبح العودة للتاريخ ضرورة لاستيعاب الظروف السياسية التي أحاطت بالشرق الأوسط الذي كان جزءاً من الإمبراطورية العثمانية.

لمحة تاريخية

لفهم الظروف التي كانت سائدة في الشرق الأوسط في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، لا بد من مراجعة الأوضاع السياسية السائدة في الشرق الأوسط الذي كان وقتها جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، والتي كانت بدورها تشكل قلب العالم الإسلامي.

استمد العثمانيون اسمهم من: عثمان، مؤسس ما أصبح يعرف بـ: دولة عثمان الإسلامية أو الإمبراطورية كما كان يطلق عليها في الغرب. ينتمي عثمان إلى قبيلة هاجرت من آسيا الوسطى هرباً من اضطهاد إمبراطورية تانغ الصينية، واستقرت في منطقة الأناضول التركية التي كانت تتكون من أقاليم غازي المحتلة من الإمبراطورية البيزنطية الضعيفة، وهي أقاليم تتبع لدولة السلاجقة الإسلامية. استقر إيرتوغرال، والد عثمان، في غرب الأناضول واعتنق وقبيلته الإسلام، وقاتل إلى جانب السلاجقة الذين كافؤوه أخيراً بتعيينه على رأس أحد أقاليم غازي العشرة التابعة لهم. خلف عثمان والده في الحكم عام **1299** حيث أعلن استقلال الإقليم وبدأ حملة توسيع رقعة ملكه من خلال توحيد الأقاليم العشرة، وواصلت هذه الدولة توسعها لدرجة الانتشار على أراضي ثلاث قارات، ولتصبح القوة الرئيسية في العالم حتى حلّها على يد مصطفى أتاتورك عام **1923**. وعلى مدى قرون عدة شكلت الدولة العثمانية قلب العالم الإسلامي وأصبح رئيسها خليفة لكافة المسلمين طبقاً لتقاليد الحكم في الإسلام، مناط إليه واجب الحكم بما أنزل الله: أي ما نص عليه القرآن وما جاءت به السنة النبوية، وحيث لا فصل بين الدين والدولة على عكس ما هو معمول به في العالم المسيحي. واصل أورهان، ابن عثمان وخليفته سياسة والده في توسيع رقعة الإمبراطورية، وعبر بقواته مضيق الدردنيل عام **1362**. غير أن الإمبراطورية العثمانية وصلت أوجها باستيلاء السلطان محمد الثاني على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية التي حملت الاسم الجديد: اسطنبول عام **1453**.

وكما ورد في وصف موقع موسوعة الويكابيديا على الشبكة العنكبوتية فإن رقعة الإمبراطورية العثمانية في أوج قوتها (في القرنين **17**و**16**) شملت أجزاء واسعة من ثلاث قارات، وسيطرت على معظم جنوب شرق أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وامتدت حدودها من مضيق جبل طارق (بل تعدت المضيق إلى الساحل الأطلسي للمغرب

عام**1553**) غرباً وصولاً إلى بحر قزوين والخليج "الفارسي" شرقاً.. ومن أطراف النمسا وسلوفاكيا وأجزاء من أوكرانيا شمالاً إلى السودان وإريتريا والصومال واليمن في الجنوب.. كانت الإمبراطورية العثمانية تضم **29** إقليماً بالإضافة إلى ثلاث إمارات تدين لها بالولاء وتدفع لها الجزية وهي: مولدافيا وترانسلفانيا ووالتشيا.

وعلى مدار قرون ستة كانت الإمبراطورية العثمانية تعتبر مركز العالم بحكم تمتعها بموقع استراتيجي بين الشرق والغرب، وتحكمها بالبحر المتوسط باعتباره بحيرة إسلامية وذلك على مدار فترة طويلة من عمرها. لم يرث العثمانيون قسطنطينية فحسب بل الإمبراطورية البيزنطية أيضاً. كانت النتيجة أن عرف العالم ثقافة عثمانية إسلامية متميزة ناجمة عن تبني وتطويع وتطوير ودمج العديد من الثقافات والعرقيات والجماعات الدينية في الدولة. ويمكن القول بأن الإمبراطورية العثمانية مرت بالمراحل الخمس الرئيسية التالية:

- الظهور (**1299-1453**).
- النمو (**1453-1683**).
- الركود والإصلاح (**1699-1827**).
- التراجع والتحديث (**1828-1908**).
- الانحلال (**1908-1922**)

في الوقت الذي كانت فيه تطبق الشريعة التي يفترض أن تحكم وتنظم حياة وشؤون المسلمين، فإن الإمبراطورية العثمانية لم تكن لتفرض اعتناق الإسلام على أي من رعاياها من غير المسلمين، ولهذا نجد بأن عدداً كبيراً من رعايا الإمبراطورية المسيحيين في أوروبا احتفظوا بمعتقداتهم ومارسوها بكل حرية، وإن اختار البعض اعتناق الإسلام عن طيب خاطر. بل إن اليهود الذين عانوا من الاضطهاد والملاحقة في ظل محاكم التفتيش الإسبانية اختاروا اللجوء إلى الإمبراطورية العثمانية المسلمة هرباً بأرواحهم وطلباً للأمان، وخاصة إلى سالونيكا وقبرص، وكما سنرى لاحقاً فقد كانت سالونيكا التي تجمع فيها اليهود الهاربون من إسبانيا مركز التآمر على الإمبراطورية العثمانية الذي أدى إلى انحلالها.

ومع بداية القرن التاسع عشر، كانت الإمبراطورية العثمانية قد أصبحت أقرب إلى "رجل مريض" لا ضير في بقائها على قيد الحياة لأسباب تتعلق بتوازن دقيق للقوى بين الإمبراطوريات الأوروبية و الروسية، التي نجم عن تنافسهما على النفوذ والمناطق داخل أراضي الإمبراطورية العثمانية التوصل لاتفاق ضمني للحفاظ على "الرجل المريض" على حاله من السقم، من خلال إجهاض أي محاولة للإصلاح والتجديد، بأنتظار اليوم الذي قد تتفق فيه القوى الكبرى على كيفية تقاسم الأراضي المنضوية تحت الحكم العثماني.

كان العثمانيون يدركون حجم وخطورة تدخل القوى الأجنبية في البلاد، حيث تعمل هذه القوى على تأجيج الصراعات العرقية وإفشال سائر الجهود الرامية لإعادة التنظيم أو الإصلاح. وقد أخذت عملية تفكيك الإمبراطورية شكل سلسلة من الغزوات الأجنبية لأراضي الإمبراطورية، وتشجيع القوى الخارجية القوميات المختلفة على إعلان الانفصال عن اسطنبول ومن ذلك ما يلي:

- في عام **1798** قام نابليون بتجميع أسطول في ميناء طولون وأبحر إلى جهة غير معلومة قبل أن يرسو بسفنه على الشواطئ المصرية في غزو لإحدى أكبر الدول التابعة للباب العالي العثماني.
- في عام **1829** أعلنت اليونان الاستقلال عن الإمبراطورية، وعندما قررت الجيوش العثمانية والمصرية التحرك للقضاء على الثورة اليونانية ، تدخلت القوى الأوروبية ودمرت الأسطولين العثماني والمصري.
- بدأت عملية تشجيع القوميات على الانفصال بدءاً من أقاليم الدانوب وصربيا. وفي عام **1875** أعلنت صربيا والجبل الأسود والبوسنة ووالاتشيا ومولدوفيا الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية.
- بعد الحرب الروسية التركية عامي **77** - **1878** تم منح الاستقلال رسمياً لكل من صربيا ورومانيا والجبل الأسود، والحكم الذاتي لبلغاريا مع بقاء باقي مناطق البلقان تحت الحكم العثماني. في ذلك الوقت علت بعض الأصوات الصربية المطالبة بتشجيع اليهود للعودة إلى أرض صهيون واستقلال إسرائيل خلال تلك الفترة. وتزعم الحركة المؤيدة لليهود في البلقان اليهودي الصربي يهودا سولومون الكالاي.
- تعرضت مصر الى الاحتلال على يد جيش نابليون عام **1798** وتم استعادتها عام **1801** على يد قوة عثمانية بريطانية مشتركة، إلاّ أنها تعرضت مرة أخرى، إلى الاحتلال على يد القوات البريطانية بحجة إدارة الشؤون المالية للبلاد لتمكينها من سداد ديونها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وفي عام **1914** تحولت مصر مع السودان إلى محمية بريطانية.
- توالت خسائر الإمبراطورية العثمانية، حيث فقدت ولايات شمال إفريقيا الواحدة تلو الأخرى بدءاً من الجزائر (التي احتلتها فرنسا عام **1830**)، تلتها تونس في العام التالي حيث سقطت بدورها في يد الاستعمار الفرنسي. وفي عام **1912** احتل الإيطاليون ليبيا.

غزو نابليون مصر وسوريا

لفهم حالة التوازن في القوى السياسية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، عندما بدأت البعثات التبشيرية الأمريكية التوافد على المنطقة، سيكون من المفيد عرض غزو نابليون لكل من مصر وسوريا كمثال على التجاذبات السياسية في ذلك الوقت، وللدلالة على حقيقة أن القوى الأجنبية هي التي حالت دون سقوط الإمبراطورية في وقت مبكر، وتحديداً عندما كان إبراهيم، ابن محمد علي في طريقه إلى اسطنبول ولم يكن هناك ما يمنعه من الاستيلاء على العاصمة العثمانية. وقتها لم تكتف القوى الأوروبية بتدمير الأسطول المصري بل أجبرته على تبني مبادئ التجارة الحرة وإجراء تخفيض كبير على معدلات الضرائب المفروضة على المنتجات الأوروبية، الأمر الذي كان له تأثير كارثي على القطاع الصناعي في مصر والبرنامج الإصلاحي للزعيم المصري.

وتذكرنا هذه الشروط بشروط صندوق النقد الدولي هذه الأيام. ولكن دعونا أولاً نناقش غزو نابليون ودوافعه وكيف انتهى إلى الفشل الذريع.

لخص نابليون أهدافه من غزو مصر بالأمر العسكري الذي أصدره بهذا الشأن وجاء فيه القول:" تجريد الإنجليز من ممتلكاتهم الشرقية كافة .. وتدمير سائر قواعدهم على البحر الأحمر بشكل خاص، عبور برزخ السويس واتخاذ جميع الإجراءات الضرورية للسيطرة الكاملة على البحر المذكور ليصبح ملكاً خالصاً لفرنسا". [1]

أبحر نابليون على رأس قوة بحرية مكونة من **300** سفينة و**40** ألف جندي لغزو مصر، الولاية العثمانية في ذلك الوقت. دخلت القوة الغازية القاهرة بتاريخ **25** يوليو **1798** بعد معارك صغيرة وثانوية مع المماليك، الذين كان يفترض بهم أن يكونوا حماة البلاد بالنيابة عن الإمبراطورية العثمانية. صعق المصريون وهم يشاهدون الفرنسيين يدخلون عاصمتهم فجأة وبدون مقاومة تذكر في حدث سيتكرر بالسيناريو نفسه بعد ذلك بقرنين مع عاصمة عربية وإسلامية عريقة أخرى أي: الدخول الأمريكي لبغداد في **9** أبريل **2003** باستخدام السيناريو والتكتيك نفسه: الصدمة والرعب ثم الدخول السهل ومحاولة التقرب من الأهالي.

في البداية عمد الجنود الفرنسيون إلى إغراء السكان واستمالتهم إلى جانبهم بشراء كل شيء بأسعار أعلى من المعتاد، والسير في الشوارع بدون حمل السلاح. اصطحب نابليون معه **36** من العلماء إلى مصر ليساعدوه على فهم البلاد: السكان والثقافة، ليتسنى له بالتالي تغيير نظامها من ديني إلى علماني، وهو هدف استراتيجي ليس للجنرال الفرنسي فحسب بل للغرب بما فيها البعثات التبشيرية والحملات العسكرية الأمريكية اللاحقة. وإذا كان الأمريكيون ادعوا بأنهم إنما يحملون الديمقراطية على ظهور صواريخ الكروز ، فهذا ما فعله نابليون قبلهم عندما ادعى بأن غزوه لأرض الإسلام حمل للمسلمين المعرفة والتنوير. حكم نابليون مستعمرته الجديدة من خلال إصدار البيانات كما فعل بول بريمر أول حاكم إداري أميركي للعراق. وكما ادعى جورج دبليو. بوش أيضاً، فقد ادعى نابليون بأنه جاء من أجل تخليص المصريين من ظلم حكامهم الأتراك، وليتحول هذا القول إلى شعار تقليدي مبتذل يتكرر في أرض العرب والمسلمين ولكن مع اختلاف بسيط في الزمان والأسماء.

كان أول شيء فعله نابليون بعد دخوله القاهرة هو استدعاء وجهاء المدينة لإبلاغهم بأنه يريد حكم البلاد من خلال مجلس جماعي يضم عشرة أشخاص، وهو تماماً ما فعله حاكم العراق الأمريكي بريمر بعد غزو**2003** عندما شكل السلطة المركزية المؤقتة. وإذا كان بريمر قد اتخذ من مجمع القصور الرئاسية في بغداد مركزا له فيما عرف بالمنطقة الخضراء فقد سبقه نابليون للخطوة نفسها باتخاذه قصر محمد بيه الألفي المشاد حديثاً منطقة خضراء ومركز قيادة آمن له ولجنرالات الاحتلال.

ما إن استفاق سكان القاهرة (وبغداد لاحقاً) من "الصدمة والرعب" على حقيقة الاحتلال الأجنبي البغيض لبلادهم حتى بدأوا مرحلة المقاومة. رد الفرنسيون بنصب المدافع التي أخذت تصب حممها على موقع القيادة الرئيسي المفترض للمقاومة: مسجد

[1] The Ottoman Centuries, The Rise and Fall of the Turkish Empire, Lord Kinross, Perennial, 2002, Pg 424

وجامعة الأزهر. كان نابليون مصمماً على السير على الخط المتشدد نفسه مع المصريين، فأرسل الجنرال تلو الجنرال لكسر المقاومة الوطنية. بدأ نابليون مواجهته مع الشارع الوطني المصري بإرسال الجنرال دوبوي على رأس قوة كبيرة للقضاء على المظاهرات ووضع حد لأعمال المقاومة. كانت النتيجة أن أعمال العنف التي نشبت في أكتوبر **1798** تحولت إلى ثورة وطنية. لقي القائد الفرنسي الجنرال دوبوي مصرعه إلى جانب عدد كبير من رجاله. وفي لحظة اعتقد نابليون بأنه أمسك بقيادة المقاومة بمن فيهم رئيس جمعية المكفوفين الذي تم إعدامه مع أربعة آخرين. بلغت الأمور بالفرنسيين حد تسميم كلاب الشوارع بتهمة معاونة المقاومة من خلال نباحها الذي ينبه الوطنيين لقدوم الجنود الفرنسيين. كما انتهج الفرنسيون سياسة تدمير المنازل والمساجد، مما جعل القاهرة بأهلها الرافضين للاحتلال أقرب إلى فلوجة أخرى للأميركيين مع فارق الزمان ووجوه المحتل.

لاحظ نابليون بأن العثمانيين والمماليك والبريطانيين يشكلون محور شر لإخراجه من مصر، وعليه فقد قرر شن حرب استباقية من خلال غزو فلسطين ليلقى الهزيمة على أسوار عكا، عاد بعدها إلى مصر ومنها تسلل عائداً إلى فرنسا بتاريخ **22**أغسطس **1799** قبل أن تكتمل مهمته في الشرق. ويبدو أن الغربيين مغرمون بمكافأة المهزومين، حيث نودي به أول حاكم لفرنسا بعدها بفترة قصيرة، لتتكرر القصة نفسها ولكن عبر الأطلسي مع جورج دبليو. بوش الذي ثبته الأمريكيون رئيساً عليهم لسنوات أربع أخرى مكافأة له على فشله الذريع في العراق.

ترك نابليون الجنرال كليبر خلفه لإدارة المواجهة مع المقاومة المصرية، إلا أن الجنرل المذكور لقي مصرعه على يد إسلامي غير مصري يدعى سليمان أليبين. هل كان سليمان مقاتلاً أجنبياً مسلماً؟ أم كان أحد الجهاديين؟ أم إنه كان من القاعدة وبغض النظر عن أنها لم تكن قد ظهرت على الساحة وقتها؟ تم إعدام سليمان مع اثنين آخرين، وخلف كليبر في قيادة قوات الاحتلال الجنرال جاك مينو الذي اعتنق الإسلام لاحقاً ليصبح الجنرال عبد الله جاك مينو. تزوج الجنرال عبد الله من مصرية أنجب منها ابناً سماه: سليمان مراد.

في النهاية نجح تحالف بريطاني عثماني مملوكي في إخراج الفرنسيين من مصر وأصبح الرجل الثاني في قيادة التحالف المذكور، والذي تولى قيادة القوات العثمانية لاحقاً: محمد علي، على رأس إدارة شؤون البلاد عام **1803** ووالياً على مصر يتبع السلطان العثماني بعدها بعامين. الواقع أن الاحتكاك القوي بين محمد على وقيادة الجيش البريطاني خلال الحرب ضد الفرنسيين يعزز من الفرضية القائلة بأن محمد علي كان يحظى بالموافقة الضمنية من قبل الإمبراطورية البريطانية، وإلا لما حظي بدعمهم. حافظ البريطانيون على نفوذهم الكبير لدى الإمبراطورية العثمانية، واتخذ نمطاً تصاعدياً بدءاً من نفوذ غير مباشر في أوائل القرن التاسع عشر، وصولاً إلى الاحتلال المباشر لمصر عام **1882** وإعلانها محمية تابعة للتاج البريطاني بعد ذلك، ولتبقى القوات البريطانية في مصر حتى عام **1954** .

بعد تعزيز أركان حكمه في مصر وعلى مدار الـ:**43** عاماً من وجوده على رأس البلاد(**1805-1848**) شرع محمد على في تطبيق برنامج طموح من مشاريع التحديث في العديد من القطاعات: الزراعية والصناعية والإنشائية وفوق ذلك بناء القوة

العسكرية. ففي قطاع الزراعة اتسعت المساحات القابلة للاستصلاح وتنوعت المحاصيل القابلة للتصدير مثل القطن طويل التيلة، وقصب السكر والرز والنيلة. وفي عهده عرف المصريون أول نظام زراعي مركزي يتولى توزيع الحصص على الفلاحين، ويحدد لهم أنواع المزروعات المطلوبة في كل موسم. كانت الحكومة تتولى تسويق الإنتاج بسعر يتضمن نسبة زيادة محددة تذهب في النهاية لتمويل مشاريع تنموية في القطاع نفسه من أنظمة ري ومد القنوات والطرق والسدود بالإضافة إلى الإسهام في تمويل مشاريع صناعية وأخرى عسكرية. وفي عهد محمد علي شيدت المصانع الحديثة لحياكة القطن وغزل الصوف والحرير، وإنتاج السكر والنيلة ودباغة الجلود. كما استورد المصريون الماكينات الحديثة واستعانوا بالخبراء الأجانب وارتفعت نسبة العاملين في القطاع الصناعي إلى **4**% من عدد السكان.

وكما كان متبعاً في أوروبا فقد سنّ محمد علي التشريعات التجارية والضريبية التي تسمح بفرض الضرائب وممارسة الحظر على دخول المنتجات الأجنبية إلى البلاد، بغية حماية الإنتاج الوطني في مواجهة الواردات الرخيصة نسبياً وخاصة في السنوات الأولى من عمر الصناعات المحلية. كان محمد على يتحرك بثبات وعزيمة وصولاً إلى تحقيق ميزان تجاري موات. وفي الوقت ذاته أولى حاكم مصر القوي أهمية خاصة لبناء جيش قوي وقوة بحرية لدرجة أن السلطان العثماني اعتاد أن يلجأ له طلباً للدعم من وقت لآخر. ومن ذلك إرسال محمد علي ابنه على رأس قوة لمحاربة الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، كما ساعد السلطان في مواجهة تمرد اليونان في العشرينات من القرن الثامن عشر. لم يكن الأوروبيون بحاجة لأكثر من هذه الإنجازات لفتح أعينهم على الخطر الذي تمثله قوة محمد علي المتعاظمة، فكان أن حرك الأوروبيون أسطولاً موحداً نجح في إغراق كامل الأسطول المصري في نافارينو على الساحل الجنوبي لليونان بتاريخ **24** أكتوبر **1827**.

بعد أن أظهر إبراهيم باشا لأبيه محمد علي قدرة عالية كقائد عسكري ألمعي، خاصة وأنه قاد حملات ناجحة لاحتلال السودان (**1920**) وغرب الجزيرة العربية وسوريا (**1931-1932**)، بدأ محمد علي يفكر جدياً في الاستيلاء على القسطنطينية (اسطنبول) والجلوس محل السلطان العثماني في عملية تجديد لروح الإمبراطورية الإسلامية. وبالفعل فبعد أن ألحق ابنه إبراهيم الهزيمة بالجيش العثماني في معركة كونيا - الأناضول بتاريخ **21** ديسمبر **1832** لم يعد هناك ما يمنع من زحفه على العاصمة لتحقيق حلمه بعرش السلطنة. غير أن تدخل روسيا هذه المرة أوقف زحف جيش إبراهيم باشا وعمل الروس على التوصل إلى تسوية اعترف السلطان بموجبها بإبراهيم باشا، والياً على سوريا كما حصل محمد علي، على كريت والحجاز كنوع من التعويض. لم يأت التدخل الروسي لإنقاذ السلطان العثماني من طموحات محمد علي من فراغ، فقد كانت معظم القوى الأوروبية تفضل الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية بدون تفكك ولكن بحالة ضعف بأنتظار الاتفاق على تقاسمها والجهة التي ستتولى الإطاحة بها، وعليه فقد قرر القادة الأوروبيون كبح جماح قوة محمد علي المتعاظمة، باعتبارها مصدر تهديد لهم في هذا الجزء الاستراتيجي من العالم.

وجد الأوروبيون بأن أفضل طريقة للحد من طموح محمد علي تكمن في العمل على استنزاف موارده المالية، فكان أن تم الطلب منه التقيد باتفاقية التجارة الحرة التي

وقعها العثمانيون في بالتا ليمان عام **1836** بضغط من الإنجليز. ولأن مثل هذا الالتزام من جانب محمد علي سيقود إلى تخفيض كبير في حجم الرسوم الضريبية التي يفرضها على المنتجات الأجنبية ذات القدرة التنافسية، وفتح أبواب مصر على مصراعيها أمام هذه البضائع، فإن الإفلاس المحتم سيكون بأنتظار خزينة محمد علي التي تمول برامجه الاقتصادية، والأهم من ذلك العسكرية. ولهذا نجده يرفض الإملاءات الأوروبية، مما فتح الباب أمام المواجهة العسكرية ليس مع أوروبا فحسب بل مع السلطان العثماني الذي لم يغفر لمحمد علي محاولته الإطاحة به. كانت النتيجة نجاح القوات البريطانية والعثمانية في إخراج إبراهيم باشا من سوريا بعد أن حكمها لأكثر من عقد من الزمان. وفي سبتمبر تعرضت قوات إبراهيم باشا لقصف الأسطول البريطاني، الأمر الذي أجبر القوات المصرية على التقهقر. خسر إبراهيم باشا عكا في نوفمبر، تلا ذلك رسو الأسطول البريطاني في ميناء الإسكندرية، ووجد محمد علي نفسه مجبراً على الخضوع للمطالب البريطانية كما نصت عليها بنود معاهدة **1841**، والتي كان أبرزها تنازل محمد علي عن سائر الأراضي الخاضعة له خارج مصر باستثناء السودان. أما الأسوأ من ذلك فكان إرغامه على القبول بشروط اتفاقية بالتا ليمان البريطانية العثمانية للتجارة الحرة. وهذا يعني بأن محمد علي وجد نفسه في وضع لا يسمح له بالاستمرار في سياساته الاقتصادية الناجعة، والقبول بالتعريفة الجديدة التي تخدم الواردات على حساب المنتجات الوطنية. كانت النتيجة كارثية على الصناعات الوطنية التي استغرقه تأسيسها عدة عقود. وطبقاً للأرقام فقد تراجع حجم العوائد الضريبية التي كانت تدخل خزينة الدولة بنسبة **80**% في غضون عام واحد من تطبيق التعريفة الجيدة، وارتفعت ديون مصر إلى **4،2** مليون جنيه، الأمر الذي كان له وقع كبير على محمد علي الذي أصيب بأنهيار عصبي شديد استمر على مدار أسبوع كامل. استمر الوضع الصحي لوالي مصر بالتراجع إلى أن تم خلعه عن العرش في يوليو **1848** . ومما عجل في وفاته فقدانه لابنه إبراهيم الذي عاجله الموت في نوفمبر التالي؛ فكان أن توفي بعدها بعام واحد. بحلول عام **1879** كان حجم ديون مصر بوجود المستشارين الماليين البريطانيين قد جاوز الـ: مئة مليون، جنيه الأمر الذي اعتبرته لندن سبباً كافياً لاحتلال مصر بحجة إدارة شؤونها المالية وضمان ديونها.

تتحدث "دراسة بلد" خاصة بمصر في مكتبة الكونغرس عن ظروف ومسوغات الاحتلال البريطاني لمصر بالقول:[1] "يرى المؤرخ مارسوت بأن بريطانيا عقدت العزم على لجم طموحات محمد علي لأن وجود مصر قوية كان يمثل تهديداً لمصالح بريطانيا الاقتصادية والإستراتيجية. فمن الناحية الاقتصادية سيكون من مصلحة بريطانيا استمرار مصر مصدراً رئيسياً للقطن الخام لمصانع الأقمشة في لانكشاير، وعودة القطن المصري إلى بلاده على شكل منتجات بريطانية جاهزة. وفي ذات الوقت فقد استفزت السياسات الاقتصادية لمحمد علي البريطانيين والفرنسيين، مع أن هؤلاء كانوا يطبقون نفس الممارسات الاحتكارية مثل: فرض التعريفة الجمركية العالية على المنتجات الأجنبية، وحظر استيراد البضائع الأجنبية لحماية الصناعة

[1] http"//countrystudies.us/Egypt/21/htm

الوطنية. ومن الناحية الإستراتيجية ، فقد كانت السيطرة على مصر بموقعها الاستراتيجي مطلباً بريطانياً لتأمين الطريق البري المؤدي إلى الهند باعتباره حلقة ربط أساسية في شبكة الاتصالات الإمبراطورية".

مثل هذه الرؤية تحولت إلى سياسة بريطانية ثابتة حدد معالمها وزير الخارجية، لورد بالمرستون، واستمرت حتى الحرب العالمية الأولى. كانت بريطانيا تفضل بقاء إمبراطورية عثمانية ضعيفة ولكن متماسكة تخدم مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية ولا تعترض على نفوذها في المنطقة، لأنها ستكون أفضل بكثير من إمبراطورية موحدة ودولة قوية عسكرياً قادرة على تهديد مصالحها.

وبذلك تكون السياسات الإمبراطورية الخاصة بالإبقاء على الدولة الإسلامية الضعيفة، وفرض سياسات التجارة الحرة وغيرها من الممارسات الاقتصادية بل والاجتماعية عليها بالإكراه، وبما يخدم هيمنة الإمبراطوريات الغربية سياسياً واقتصادياً، هي المسئولة عن الوضع العربي هذه الأيام، وهي التي لا تزال تمنع العالم الإسلامي من نفض الغبار عن نفسه، وليس الإسلام أو الثقافة الإسلامية كما يدعي الغرب.

كانت مصيدة الديون قديماً ولا تزال ممارسة استعمارية تلجأ إليها القوى الغربية وممولوها كوسيلة للهيمنة على أراضي ومقدرات الآخرين. ولعل ما حصل مع مصر يشكل مثالاً صارخاً لهذا النوع من الممارسات البغيضة. فقد برزت فكرة شق قناة تربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر، في وقت مبكر يعود إلى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، وبدأ العمل في شق قناة السويس عام **1859** ليتم افتتاحها بعد ذلك بعشر سنوات. شكل تمويل القناة الفرصة المواتية للقوى الغربية كمدخل مناسب للهيمنة على مصر، فكان أن قدمت لها القروض بفوائد عالية لدرجة عجزت معها حكومة الخديوي عن سداد حتى هذه الفوائد، فتراكمت الديون إلى الحد المطلوب لتسويغ الخطوة التالية لفرنسا وبريطانيا وهي: الإطباق على الاقتصاد المصري. أوصلت السياسة الاستعمارية الخديوي إسماعيل، حفيد محمد على، إلى وضع مالي خانق أجبره على الإقدام على خطوة كارثية ببيع حصة مصر في القناة مقابل **4** ملايين جنيه. غير أن الأخطر هنا حقيقة أن الصفقة تمت بترتيب اليهودي ديزرائيللي وبأن أموال روتشيلد، الثري اليهودي، التي أقرضها للحكومة البريطانية هي التي مولت صفقة شراء حصة مصر في القناة. ومع وجود "المستشارين" البريطانيين في كل أرجاء المكان، يكون الوقت قد حان لقيام بريطانيا بغزو مصر بحجة إدارة الشؤون المالية للبلاد ضماناً لديونهم عليها، وليعلن البريطانيون بعدها انضمام مصر لنادي المحميات البريطانية، وكان ذلك مع اندلاع الحرب العالمية الأولى.

تحديات من الداخل

في القرنين **18** و**19** واجهت الإمبراطورية العثمانية تحدياً من حركتين، كانت أولاهما: الحركة الوهابية. ففي الجزيرة العربية انبرى أحد أبناء نجد الذي عرف بأسفاره العديدة لعملية تنقية العقيدة الإسلامية مما دخل عليها من شوائب كثيرة عبر القرون على شكل ممارسات لا علاقة لها بالإسلام الحقيقي، والعودة بالدين لمصادره النقية من قرآن وسنة كما عرفها المسلمون الأوائل. وبتشجيع من آل سعود الذين تبنوا

الحركة التطهيرية الجديدة، بدأ الوهابيون في نشر عقيدتهم المتشددة خارج حدود الجزيرة، محققين اختراقاً في العراق أوصلهم أبواب بغداد عام **1799**، أي السنة التي غزا فيها نابليون مصر، وقتها لم يجد والي بغداد مفراً من الدخول معهم في معاهدة. بعدها بعامين اجتاح الوهابيون كربلاء ومنها اتجهوا غرباً واستولوا على مكة والمدينة، قبل أن يتحولوا شمالا وصولاً إلى دمشق وحلب. أصدر السلطان العثماني أوامره لوالي مصر القوي محمد على بالعمل على استعادة الأماكن المقدسة. فكان أن أرسل محمد علي أحد أبنائه على رأس جيش إلى الجزيرة العربية في عام**1811** في حملة استمرت حتى **1818** استعادت مكة والمدينة كما سقطت الدرعية، معقل الوهابيين الرئيسي في يد المصريين.

شكّل محمد علي وأولاده التحدي الثاني الذي واجهته الإمبراطورية العثمانية. ففي عام **1820** أرسل والي مصر جيوشه جنوباً لتحتل السودان. واستجابة لطلب من السلطان، وبعد استيلائه على كريت، أرسل محمد علي بأسطوله إلى اليونان عام **1924** لمساعدة العثمانيين على إخماد ثورة اليونانيين، فنزلت قواته في موريا واحتلت شبه الجزيرة واستولت على أثينا، ونجحت في القضاء على التمرد. أمام هذا النجاح المثير للمخاوف وتنامي قوة محمد علي ، قررت القوى الأوروبية شن هجوم مشترك لإغراق أسطولي محمد علي والسلطان، الأمر الذي تحقق لها في معركة نافارينو عام **1827**. غير أن محمد علي استطاع إعادة بناء قواته بسرعة قياسية وطالب السلطان منحه سوريا مكافأة على وقفته معه ضد اليونانيين. وفي عام**1832** استكملت قواته بقيادة ابنه إبراهيم احتلال سوريا.

كانت طموحات محمد علي لا تقف عند حد، حيث كان يريد إقامة إمبراطورية عربية وتنصيب نفسه خليفة على المسلمين. المثير في الأمر أن محمد علي لم يكن من أصل عربي بل كان مسلماً البانياً. غير أن الانتماء العرقي لم يكن ذا قيمة في نظر المسلمين، فلم يكن الإسلام ليفرض أي قيود تحول دون تولي غير عربي الخلافة ما دام يتمتع بالقدرات اللازمة لتولي شؤون المسلمين، وعلى دراية تامة بأمور الدين ويلتزم بتعاليم الإسلام. ومع أن محمد علي لم يكن يجيد العربية كما أنه لم يكن برجل دين ملتزم، إلا أنه مع ذلك كان يسعى لنشر وخدمة اللغة العربية وأن يكون خليفة على المسلمين. غير أن هناك ما يظهر بأن القوى الغربية أو بعضها على الأقل حاولت تشجيعه في مسعاه هذا. فهذه فرنسا لم تحاول إخفاء تأييدها لإبراز مكانة محمد علي حتى وإن جاء هذا الموقف في إطار المنافسة مع بريطانيا ومحاولة عرقلة مساعي الأخيرة لتأمين طريق للهند. كما حظي محمد علي بتشجيع من النمسا التي صدر عنها ما يؤيد مسعاه للإطاحة بالخليفة العثماني، وعلى شكل مذكرة من الكونت بروكيش أوستين بتاريخ **17** مايو **1833**. غير أن المعارضة الحقيقية جاءت من بريطانيا على لسان لورد بالمرستون. وبعد زحف إبراهيم باشا بقواته عبر الأراضي التركية وإلحاقه الهزيمة بقوات السلطان غير بعيد عن اسطنبول، ولم يعد هناك ما يعيق دخوله عاصمة العثمانيين، تدخلت القوى الأوروبية ومارست الضغوط على والده الذي تراجع وطلب منه الانكفاء إلى سوريا. وحتى في سوريا' عمل البريطانيون بعدها على إخراجه منها، وهنا بدأ العد التنازلي بالنسبة لمحمد علي. فقد تم إجباره على توقيع معاهدة التجارة الحرة التي

ألحقت الدمار بالاقتصاد المصري، وكذلك تخفيض حجم قواته، وصولاً للإطاحة به في نهاية الأمر.

كان حكم محمد على في مصر أقرب إلى ما يمكن وصفه بـ: بالنظام العلماني. وخلال الفترة القصيرة التي حكم بها سوريا ، عمل محمد علي على تغيير النظام والقوانين إلى أشبه بنظام علماني، وعمد إلى إعادة تنظيم القطاع التعليمي مستعيناً بالمستشار الفرنسي د. أ. كلوت الذي يصفه جورج أنتونيوس في كتابه المعنون: اليقظة العربية، بأنه كان:" يكرس جهوده متفانيا تماماً لقضية التجديد الوطني في مصر، وكان من أكثر ما يشغل تفكيره في المدارس التي كان يديرها هناك العمل على شحذ مشاعر القومية العربية في نفوس الطلبة".[1]

ويضيف أنتونيوس قائلاً:" قاد حكم التسامح الذي طبقه محمد علي إلى نتيجة غير مقصودة وهي: فتح أبواب مصر والمنطقة لمشروع البعثات التبشيرية، متيحة بذلك الفرصة لدخول مصدري نفوذ: الأول فرنسي والآخر أميركي قدر لهما أن يلعبا معاً دور الأب الراعي لحركة الانبعاث العربي". [2]

يلقي موقع موسوعة ويكيبيديا على الشبكة العنكبوتية المزيد من الضوء على أصول محمد غير العربية ونشأته الأولى من أوروبا، وذلك بالحديث عن أهم أبناء محمد علي وهو إبراهيم باشا بالقول:" ولد إبراهيم باشا في بلدة كافالا في ولاية روميلا العثمانية الواقعة حالياً في إقليم مسدونيا اليوناني، لأم إغريقية مسيحية وأب يدعى تووروماتزيس هجراه وهو طفل رضيع وتبناه محمد علي لاحقاً ".

محمد علي وصدام حسين

نظرة سريعة على الممارسات القديمة للإمبراطوريات الغربية والإمبراطورية الوحيدة في ذلك الوقت، قد تكون مصدر إثارة للاهتمام. ولعل في إجراء مقارنة بين مصر القرن التاسع عشر وعراق القرن العشرين والحادي والعشرين، يظهر الكثير من أوجه التشابه المثير بين ممارسات ووسائل الإمبراطورية الأنجلو- ساكسونية في الأمس وما تفعله الإمبراطورية الأمريكية في الوقت الحاضر:

- يجمع بين صدام حسين ومحمد علي قاسم مشترك أعظم: كونهما رجلين قويين حرصا على تثبيت تعزيز دعائم الحكم والسلطة الفردية وبطريقة عنيفة أحياناً.
- وصل كلاهما للحكم من خلال اتفاق ضمني بين القوى الإمبريالية القائمة حينها ، بريطانيا في حالة محمد علي بهدف الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية بحالة ضعف، والولايات المتحدة في حالة صدام حسين بهدف محاربة الشيوعيين العراقيين الذين انضموا لحكومة عبد الكريم قاسم في البداية، ولمحاربة الثورة الإسلامية في إيران بعد ذلك.
- تبنى كلاهما النظام العلماني كمطلب رئيسي لا يزال الغرب يحاول فرضه على الدول العربية والإسلامية.
- حرص كلٌّ منهما على بناء جيش قوي وقاعدة صناعية لدعم قوته العسكرية، وفي كلتا الحالتين جاء ذلك بمباركة الإمبراطوريات القائمة وقتها.

[1] The Arab awakening, George Antonius, Simon Publications, 2001, Pg. 40
[2] The Arab awakening, George Antonius, Simon Publications, 2001, Pg. 35

- تم استخدام جيش محمد علي كأداة لشن الحروب بالنيابة عن الإمبراطوريات، وكذلك فعل صدام في خوض حروب بالإنابة، سواء عن إدراك منه أو غير ذلك وذلك بالنيابة عن الإمبراطورية (الأمريكية)، مثل الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت على السياق نفسه من الدموية لأكثر من ثمان سنوات.
- شكل كلاهما قوة عسكرية تتجاوز وإلى حد كبير الحدود المقبولة بالنسبة للإمبراطوريات، وفي كلتا الحالتين طالبت الإمبراطوريات منهما تخفيض قدرات جيشيهما حجماً ونوعاً . وكانت نتيجة التمرد على هذه المطالب نهايتهما المحتومة.
- طبق كل من محمد علي وصدام سياسات اقتصادية غير مقبولة من لدن الإمبراطوريات.. حيث أقدم صدام على تأميم صناعة النفط الذي يشكل المنتج الرئيسي للبلاد، في حين أدخل محمد علي نظام السيطرة الرسمية على القطاع الزراعي، الذي يعتبر مصدر الحياة الرئيسي للمصريين، من خلال فرض الضرائب العالية على الواردات والحظر التام عليها في بعض الحالات، بهدف حماية المنتجات الوطنية من المنافسة الأجنبية.
- تحركت القوى الأجنبية لكبح جماح محمد علي الذي تجاوز الحدود المسموح بها، فكان تدمير أسطوله بالكامل على يد تحالف عسكري أوروبي، وليتم بذلك تحجيم قوته والإبقاء عليها ضمن الحدود المسموح بها على مدى السنوات الـ: **12** التالية. وفي عام **1991** كان العالم شاهداً على نسخة جديدة من السيناريو ذاته مع صدام حسين، عندما عملت قوات التحالف التي تقودها أمريكا في حرب الخليج الأولى على تدمير الجيش العراقي، بدرجة تسمح لصدام بالبقاء في السلطة لفترة ما قبل أن تتحرك للإطاحة به .
- مع مدافع الأسطول البريطاني مسلطة على الإسكندرية، وجد محمد علي نفسه مجبراً على القبول باتفاقية التجارة الحرة لعام **1841**، التي تلزمه بإلغاء التعريفة الجمركية، والسماح للبضائع البريطانية بالتدفق على السوق المصري، مما شكل مقتلاً للصناعة الوطنية. وبعد احتلال العراق وفي ظل انتشار القوات الأمريكية في كل مكان في البلاد، أصبح يترتب على العراق تبني مبادئ التجارة الحرة والسوق المفتوحة، مما تسبب في إفلاس الشركات الحكومية التي كانت تنشط في عهد صدام وتوفر فرص العمل لمئات الآلاف من العراقيين، الذين وجدوا أنفسهم عاطلين عن العمل بعد الاحتلال.

البعثات التبشيرية الأولى

شرع المبشران البروتستنتيان بارسونز وفيسك اللذان ورد ذكرهما في صفحات سابقة، في رحلتهما التي أعدا لها جيداً باتجاه الأراضي المقدسة. كانت المرحلة الأولى من الرحلة ستقلهما من نيوإنغلاند إلى سميرنا (إزمير حالياً) في تركيا نظراً لوجود جالية كبيرة من المسيحيين الشرقيين والإغريق الأرثوذكس، أي المسيحيين الذين يعتبرهم المبشرون البروتستنت، أمثال بارسونز وفيسك مسيحيين بالاسم فقط وفاسدين ينبغي إعادة تعميدهم. فوجئ القادمان الجديدان بمدى اختلاف عالم المسيحيين الشرقيين عن عالمهما، سواء في الطراز العمراني للكنيسة أو الثقافة الدينية بحد ذاتها، وبدأ تعلم اللغة ومحاولة استيعاب

العادات والتقاليد بدءاً من تغيير ملابسهما واستبدالها بالزي المحلي بما في ذلك وضع الطربوش. تلقى بارسونز وفيسك تعليمات من صامويل وورسيستر ، سكرتير المجلس الأمريكي، تفيد بأن مهمتهما التبشيرية قد تكون في أي مكان في الشرق الأوسط: فلسطين، سوريا، مصر بل وفارس أيضاً.

في ديسمبر **1820** ترك بارسونز زميله فيسك في سميرنا، واتجه نحو القدس. وعن شعوره الغامر بالسعادة لهذه النقلة كتب يقول:" إن اختياري لأسبق غيري في التمتع بنعم أرض صهيون هي ميزة ومدعاة للشرف بحد ذاتها". نصحه المبشرون الإنجليز ممن سبقوه للقدس بالتوجه إليها خلال أعياد الفصح والغفران، وارتداء العمامة والتصرف بكياسة الرجل "الجنتلمان" الحقيقي.

وصل بارسونز إلى القدس بعد ثلاثة أشهر من مغادرته أمريكا وبهرته المدينة التي اعتبرها مركز العالم . كان أول ما فعله القس البروتستنتي هناك هو زيارة حائط المبكى ليدعي لاحقاً بأنه كان أول أميركي يفعل ذلك. غير أن شعوراً غامراً بالإحباط والتعاسة سيطر على المبشر الأمريكي عندما فشل في إقناع أي من اليهود أو المسيحيين الشرقيين من سكان القدس بالتحول إلى المسيحية "الحقيقية" التي جاء يبشر بها. فقد وجد الجميع هناك سعداء بالحرية الدينية التي يتمتعون بها، .ومع ذلك فقد وجد بارسونز بأنه لا يستطيع الإقامة في المدينة أو بناء كنيسة بروتستنتية فيها. كانت القدس تتمتع بمكانة خاصة لدى العثمانيين المسلمين، حيث المسجد الأقصى ومركز الديانات السماوية الثلاث. صحيح أن السلطات العثمانية سمحت للأجانب بزيارة القدس، إلا أنها كانت تحظر عليهم الإقامة فيها حفاظاً على الأغلبية المسلمة من سكانها. فقد قاتل المسلمون الصليبيين على مدار قرنين لاستعادة المدينة والأراضي المقدسة، ويريدون الحفاظ على وضعها الحالي كما هو. أمضى بارسونز **80** يوماً في القدس بدون أن يحقق أياً من الأهداف التي جاء من أجلها فعاد أدراجه إلى سميرنا .

كانت اليونان جزءاً من ممتلكات الإمبراطورية العثمانية المسلمة منذ القرن الخامس عشر. ومع الوهن الذي اعترى الدولة العثمانية، وبتحريض ومساعدة من القوى الأوربية، ثار اليونانيون ضد الحكم العثماني الأمر الذي ألقى بظلاله على بلدة سميرنا ذات الأغلبية الإغريقية، حيث نشبت فيها مواجهات طائفية بين المسلمين والمسيحيين، مما دفع بالسفينة الحربية الأمريكية يو أس أس أمريكا إلى التدخل لإجلاء القسين بارسونز وفيسك في سابقة تحولت إلى ممارسة تقليدية للأسطول الأمريكي في المتوسط، تقوم على نشر قوته البحرية في المنطقة طوال القرن التاسع عشر بهدف حماية البعثات التبشيرية من أي خطر أو عوائق تعترض طريقها. تم نقل المبشرين إلى الإسكندرية، وهناك توفي بارسونز متأثراً بمرض الدزنتاريا، تاركاً زميله فيسك وحيداً ولكن لوقت لم يطل.

أرسل المجلس الأمريكي بديلاً لبارسونز هو جوناس كينغ' الأستاذ في جامعة أمهيرز الذي جلب معه مطبعة وضعها في مالطا. وهناك التقى فيسك وكينغ بالمدعو جوزيف وولف وهو ابن لحاخام يهودي ادعى أمامهما بأنه تحول إلى الكاثوليكية قبل أن يعتنق البروتستنتينية . قرر الثلاثة التوجه إلى القدس مروراً بمصر حيث التقوا بالمدعو بشير الثاني، الذي وصف نفسه بأنه أمير درزي مسلم تحول إلى المسيحية ليصبح أحد رعايا الكنيسة المارونية. ونتيجة لاجتماعات سرية أجراها الأربعة في مصر حدث تغيير على خطط المجموعة حيث توجه الجميع إلى بيروت، التي قرر فيسك اختيارها كمقر أنسب له لأسباب عدة منها: موقعها على البحر حيث سيصبح من السهل إجلاؤه ورفاقه من

قبل سفن الأسطول الأمريكي المرابط بالجوار، إضافة إلى وجود بعثة دبلوماسية انجليزية قادرة ومستعدة لتقديم أي مساعدات للجماعات التبشيرية عند الحاجة، يضاف لذلك سبب أهم وهو أن ولاية جبل لبنان تضم عدداً كبيراً من السكان الدروز والمسيحيين الشرقيين، الأمر الذي يجعل المكان تربة خصبة لنشاط الجماعات التبشيرية طبقاً لما كان يعتقد القس الأمريكي. ولدعم محطة بيروت أرسل القس كينغ العائد للولايات المتحدة عام **1823** اثنين من المبشرين ليحلا محله هما: إسحق بيرد ، خريج جامعة ييل، ووليام غوودويل، خريج دارموث، اللذان حضرا برفقة عائلتيهما. كان الهدف من إرسالهما هو مساعدة فيسك في إقامة وإدارة أول مشروع تعليمي أميركي في المنطقة. يبدو أن فيسك نجح في إقناع المجلس الأمريكي بصعوبة تحويل البالغين، وعليه فسيكون من الأفضل التركيز على الأطفال ودفعهم للتكيف مع الحياة الأمريكية وصولاً إلى تخليص أرواحهم من خلال المسيح. وقتها أعلن المجلس الأمريكي حماسته للفكرة بالقول إن :" الآن تم إشادة منارة للحقيقة وللأخلاق القويمة". أما المرشد الروحي لمجلس الشيوخ الأمريكي فعلق بالقول: "يتوقع أن يأتي اليوم الذي يرى فيه البعثات التبشيرية المحملة بالكتب وهي تتلمس طريقها في دهاليز أبعد بقع الظلام في بلاد محمد". مثل هذه التعليقات لا تحتمل معاني أخرى غير القول بأنها إيذان بأنطلاق الحرب الصليبية الثقافية.

بداية محبطة...

لم تسر الأمور في السنوات الأولى لوجود فيسك ورفاقه المبشرين كما كان يأمل ويشتهي القس البروتستنتي الأمريكي المذكور. فلم يجد استجابة تذكر من قبل الأهالي حيث قاطع المسلمون والموارنة على حد سواء مدرسته الجديدة، ولم تستقبل صفوفها سوى عدد قليل من الأطفال اليهود الذين اعتادوا بيع نسخ الإنجيل التي زودتهم بها . أما المسلم الوحيد الذي نجحت جماعة فيسك في إغرائه للتحول للمسيحية فانتهى إلى السجن حيث مات فيه. وعليه فلم يكن أمام فيسك سوى إشغال نفسه بالسفر في حملات تبشيرية من حين لآخر. ففي عام**1825** غادر بيروت إلى القدس حيث ألقي عليه القبض متلبساً بتوزيع منشورات دينية في انتهاك لقانون يحظر مثل هذا النوع من الممارسات وانتهى به الأمر إلى السجن ليخرج منه ولكن بعد تدخل شخصي من القنصل الإنجليزي. وقبل سفره المخطط للولايات المتحدة في إجازة قرر فيسك زيارة الناصرة. وفي طريقه للمدينة حاول فيسك توزيع منشورات دينية مجدداً والتحدث مع بعض الأهالي على أمل اجتذابهم للمسيحية، فكانت النتيجة تعرضه لضرب مبرح من قبل جموع الغاضبين لدرجة أنه أعيد إلى بيروت في حالة صحية صعبة لم يكتب له الشفاء منها فمات وهو يعاني.

رحل فيسك تاركاً مشروعه التعليمي في حالة ركود، إلى أن جاءت تطورات قلبت الأمور رأساً على عقب بالنسبة للمدرسة التبشيرية التي خلفها القس البروتستنتي وراءه. فقد أدخل إبراهيم باشا الذي غزا سوريا ومن ضمنها جبل لبنان قواعد جديدة على النظام التعليمي لتجعله أقرب إلى النظام التربوي المطبق في الغرب. ومع أن الاحتلال المصري لبلاد الشام لم يكمل العقد من الزمان، إلا أنه أحدث تغييرات جذرية في الأوضاع بحيث يصعب الرجوع عنها وبخاصة في النظام التعليمي، والتي مكنت البعثات التبشيرية من تحقيق نتائج ملحوظة من هجومها الثقافي على مواطني الدولة العثمانية.. المسلمين.

وقف معظم الأمريكيين مع اليونانيين في ثورتهم لأسباب تتعلق بالمعتقدات الدينية، باعتبار أن اليونانيين المسيحيين هم جزء من الحرب الصليبية الجديدة الدائرة مع الإسلام . ظهرت في الجامعات والمدن الأمريكية الرئيسية جماعات الدعم، وانهالت المساعدات للثوار اليونانيين من أوروبا بصورة علنية. غير أن الموقف الأوروبي شهد التطور الفعلي مع توحيد القوات المصرية والعثمانية استعداداتها لسحق الثورة اليونانية، حيث قررت الدول الأوروبية حشد قوة بحرية مشتركة من بريطانيا وفرنسا وروسيا وشن هجوم كاسح لإغراق الأسطولين المصري والعثماني، وهو ما حصل في خليج نافارينو بتاريخ **20** اكتوبر **1827** مما قلب من ميزان المواجهة لصالح الإغريق. لم يقتصر التأييد الأمريكي للهجوم البحري الأوروبي في نافارينو على الشارع بل اتخذ طابعاً رسمياً، بوصف وزير الخارجية جون كوينسي آدمز الثورة اليونانية بأنها جزء من الصراع الأبدي بين المسيحية والمسلمين الذين يدينون بدين" متعصب ومخادع" يتبنى عقيدة يغلب عليها "العنف والشبق". لاشك في أن بيرنارد لويس كان يردد التصورات ذاتها أمام عملائه من المحافظين الجدد في إدارة الرئيس جورج دبليو. بوش.

جاء النجاح الذي حققته ثورة اليونانيين المدعومة من الغرب وما تلا ذلك من انفصال عن الإمبراطورية العثمانية بمثابة بداية اكتسبت زخماً متسارعاً لعملية تفكيك الإمبراطورية العثمانية، وقادت إلى صراع اتخذ شكل حروب بين الدول الأوروبية نفسها حول اقتسام الكعكة العثمانية. فقد تحرك الروس لالتهام أجزاء من بلغاريا، تلاهم الفرنسيون في إرسال **24** ألف جندي لاحتلال الجزائر. ومن جانبهم فرض الأمريكيون على السلطان العثماني الضعيف معاهدة الملاحة والتجارة، التي حصلت الولايات المتحدة موجبها على المزيد من حقوق إقليمية إضافية في الإمبراطورية العثمانية. وعليه فقد أصبحت البعثات التبشيرية والتجارية الأمريكية تحظى بحماية رسمية حتى داخل أراضي الإمبراطورية العثمانية، وكان يشرف على إجراءات الحماية ديفيد بورتر، أول قائم بالأعمال معين لدى اسطنبول، والذي أصبح لاحقاً أول سفير للولايات المتحدة لدى الإمبراطورية العثمانية. وكان قائد الأسطول الأمريكي في المتوسط هو من أدار المفاوضات التي أدت للمعاهدة. وبحلول **1830** كان حجم الوجود البحري الأمريكي في المتوسط قد تساوى مع، إن لم يكن تفوق، على حجم القوة البحرية البريطانية هناك.

حتى عام **1827** لم تكن البعثات التبشيرية قد حققت نجاحاً يذكر. وبالرغم من إقامة المبشرين العديد من المدارس في سوريا، إلا أن جهودهم لم تثمر في إقناع أحد في التحول للمسيحية. بعد الهزيمة العثمانية في نافارينو، شعر القائمون على المجلس الأمريكي للمهام الخارجية بوجود فرصة مواتية لمحاولة إقامة محطة تبشيرية في القدس مجدداً بعد الفشل الذي آلت إليه محاولة بارسونز وفيسك. اختار المجلس القس الشاب جوشيا برووير للقيام بالمهمة، التي تنص وطبقاً لما جاء في رسالة التكليف الصادرة عن المجلس على:" إقامة محطة دائمة في الأراضي المقدسة واطلاق عملية لم شمل اليهود". وصل برووير إلى فلسطين بعد معركة نافارينو مباشرة عام **1827**. في ذلك الوقت كان مسلمو فلسطين

يعتبرون أنفسهم رعايا مخلصين للدولة العثمانية، وكانوا ينظرون بكثير من الشك للأجانب الذين يصفونهم بـ: الفرنجة وأعداء الدولة الإسلامية وخاصة بعد معركة نافارينو. ولهذا ووجه بروير بالرفض والطرد من قبل الأهالي في كل قرية حاول ممارسة نشاطه التبشيري فيها، الأمر الذي أوصله لحالة من اليأس دفعته للتخلي عن مهمته والعودة أدراجه إلى بوسطن.

وفي محاولة لخطب ود الغرب للسكوت عن أو ربما مباركة احتلاله لسوريا ومن ضمنها فلسطين، ألغى إبراهيم باشا القوانين العثمانية التي كانت تحظر على الأجانب الإقامة في القدس، بل إنه منح غير المسلمين امتيازات غير مسبوقة. ومن جانبهم استغل الأمريكيون مبادرة إبراهيم باشا النابعة من موقف ضعف، وأوفد المجلس الأمريكي بعثة تبشيرية جديدة إلى فلسطين بقيادة وليام ثومسون وزوجته إليزا. وصل ثومسون إلى فلسطين عام **1834** عندما كانت القدس وعموم البلاد تشتعل بالثورة على إبراهيم باشا بسبب قوانينه الجديدة. وجد ثومسون نفسه في وضع صعب أجبره على الفرار من المدينة المقدسة، تاركاً خلفه إمرأته الحامل في شهرها التاسع. لجأ إبراهيم باشا للعنف في قمع الانتفاضة، مستخدماً سائر أنواع الأسلحة بما فيها المدافع . ولم يتسن للقس ثومبسون العودة للقدس إلا بصحبة رتل من قوات إبراهيم باشا ليجد المدينة في حالة دمار. وعندما توفيت زوجته بعدها بفترة قصيرة انتهت مهمته هناك، لتحل محل الزوجين بعثتان جديدتان ولكن دون تحقيق أي تقدم على صعيد العملية التبشيرية.

أخيراً توصل القائمون على المجلس الأمريكي للمهمات الخارجية إلى محصلة أجبرتهم على الاعتراف بحقيقة أن جهودهم التبشيرية لم تسجل ولا حتى حالة واحدة من التحول للمسيحية ، فكان أن قرر المجلس في عام **1834** التخلي عن برنامجه في فلسطين والتوقف عن إرسال المزيد من البعثات إلى هناك. ويبدو أن الفشل الذي حاق بالنشاط التبشيري في فلسطين هو الذي دفع أحدهم للقول بأن فلسطين ليست بتلك البلاد المباركة كما يعتقد، إنما هي أرض الشياطين.

بعد قمع انتفاضة الفلسطينيين ضد قوانين إبراهيم باشا الجديدة، بدأت مرحلة جديدة من تاريخ النشاط التبشيري في المنطقة وفي فلسطين على وجه الخصوص. ما فعله إبراهيم باشا كان في الواقع أقرب إلى فتح أبواب فلسطين للمبشرين الغربيين. فعندما وصل القس الأمريكي إدوارد روبنسون إلى القدس عام **1838** وجد في استقباله ثمانية مبشرين مع زوجاتهم، في تطور كبير لما كان يحدث قبل سنوات قليلة فقط. كان روبنسون أستاذاً في النحت ومغرماً بالحفريات الأثرية، ووجد في الربط بين المواقع الأثرية الفلسطينية والمواقع الأثرية العبرية القديمة، كما ورد ذكرها في التوراة وكتب اليهود الأخرى، المجال لخدمة تصوراته الدينية. بدأ روبنسون إعطاء المواقع الأثرية الفلسطينية أسماء عبرية. ووصل تدفق الأمريكيين للبلاد المقدسة حداً دفع واشنطن إلى تعيين قناصلة في سبع مدن فلسطينية. كان روبنسون أول من اخترع تعبير الحفريات الدينية اليهودية الذي تطور إلى علم في الغرب تم تسخيره لخدمة الأجندة السياسية.

لم يكن وضع البعثات التبشيرية في بيروت بأفضل منها في القدس، حيث كان الرفض والمقاطعة بل والحرب بأنتظار القائمين على هذا النشاط، وبخاصة من قبل الموارنة الذين هالتهم رسالة المبشرين البروتستنت. في مثل هذه الظروف وجدت البعثات التبشيرية نفسها في عزلة خانقة بل وعرضه لمخاطر جسمانية، فكان قرار القائمين عليها مغادرة المكان ولكن إلى حين.

بداية جديدة

يمكن القول بأن العام **1840** شكّل نقطة تحول في تاريخ الهجمة التبشيرية على المنطقة، وذلك بقرار بريطانيا إخراج إبراهيم باشا من سوريا بما فيها فلسطين بالطبع. كان البريطانيون يعتبرون محمد علي مصدر تهديد لخططهم في المنطقة، باعتباره كان يتطلع لإقامة إمبراطورية إسلامية ناطقة بالعربية. أصبح محمد علي في الواقع قوة عسكرية واقتصادية تجاوزت حدود القبول والاحتمال بالنسبة للقوى الأوروبية. يضاف لذلك أن وجود إمبراطورية عربية إسلامية قد يشكل تهديداً لوحدة بل ولاستمرار الإمبراطورية العثمانية كما يريدها العرب، ويحاول الحفاظ عليها بأنتظار اليوم المناسب لاقتسامها وبخاصة بريطانيا التي كانت تتوثب للاستيلاء على مناطق ترغب بها في المنطقة. . نجح البريطانيون وبمساعدة قوات السلطان العثماني في إخراج إبراهيم باشا من سوريا التي عاد إليها الاستقرار بعدها. ومن جانبهم منح العثمانيون، الذين استعادوا سلطتهم على سوريا وفلسطين، غير المسلمين حقوقاً متساوية ، وسمحوا للأجانب بالإقامة في القدس واعترفوا بالبروتستنتية كدين آخر (ملّة) الأمر الذي شكل نقلة كبيرة في نشاط ومستقبل الجماعات التبشيرية، فكان أن عاد المبشرون الذين هجروا بيروت وأعادوا افتتاح مدارسهم. وهذا إيلي سميث ينكب على ترجمة الإنجيل وطباعته مستخدماً المطبعة التي أحضرها معه من الولايات المتحدة، حيث اعتاد طبع **5000** نسخة منه في العام الواحد.

لم يمنع جو التسامح الذي تمتع به المبشرون في العهد الجديد من عودتهم لمهاجمة الدين الإسلامي ونعته بالخداع والزيف، بل إن المذاهب المسيحية الأخرى لم تكن في منأى عن حقدهم الدفين واصفين الكنيسة الشرقية بالانحطاط والتفسخ والتخلف. وبالطبع فإن رجال الكنيسة المحليين وبخاصة الموارنة لم يكونوا سعداء بعودة المبشرين، وفوق ذلك الجرأة الظاهرة التي بدأت تغلب على نشاطهم وطريقة تعاملهم، فكان أن رفع البطريرك الماروني عام **1841** للسلطان العثماني التماساً يطلب فيه إبعاد البروتستنت الدخلاء عن الإمبراطورية، وإصدار مرسوم طرد نهائي بحقهم يمنعهم من العودة في المستقبل. كان أول ما فعله السلطان طلب رأي السفير الأمريكي في الوضع. ومن جانبه طلب السفير من قادة الجماعات التبشيرية عدم إثارة حفيظة الموارنة أو المسلمين وإلا فإنهم سيجدون أنفسهم بدون حماية، وهو موقف أثار غضب المجلس الأمريكي للمهمات الأجنبية الذي بدأ تحركه الضاغط في واشنطن. فما كان من وزير الخارجية ويبستر إلا أن ألغى قرار السفير بورتر وطلب منه" عدم تفويت مناسبة... دون تقديم سائر المساعدة المناسبة" للبعثات التبشيرية. كان تحدي المبشرين الأمريكيين للسفير بورتر بداية لتحالف دائم بين زعماء الكنيسة وصناع القرار في واشنطن، لمبرر رئيسي على الأغلب وهو خدمة السياسة التوسعية التي شكلت أساس قيام أمريكا من البداية، وأصبحت أساس السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط منذ ذلك الحين. فهؤلاء السياسيون يستغلون اسم الله لأغراض لا علاقة لها بالدين وخاصة في عقد الأربعينات من القرن الثامن عشر.

قررت النخبة المالية والحاكمة في الولايات المتحدة غزو بقية أمريكا الشمالية متجاوزين حدود الولايات الـ: **26** التي كانت قائمة آنذاك، استناداً إلى أيديولوجية ترى فيما يفعلون تنفيذاً لما قدرته لهم السماء، معطين أنفسهم الحق في غزو واحتلال الأراضي جنوباً وغرباً للسيطرة على كل ما هو موجود من الساحل إلى الساحل. وبموجب هذه الإيديولوجية

"السماوية" تكون أمريكا قد منحت نفسها الحق بنشر مبادئها الدينية منها والعلمانية في أنحاء العالم وفرضها على الآخرين باسم الحرية والديمقراطية. وفي ذلك يقول المبشر إيلي سميث بأن الولايات المتحدة دولة قوية، وبأن الوقت حان لكي يدرك المسلمون ويلمسون هذه الحقيقة. وفي ظل التطورات الأخيرة التي أظهرت مدى نفوذ المجلس الأمريكي في واشنطن، لم يعد المبشرون في الشرق الأوسط يكتفون باللجوء لواشنطن طلباً للدعم الدبلوماسي، بل أخذوا في التوجه مباشرة للسفن الأمريكية في المتوسط طلباً للحماية واستعراض القوة كلما شعروا بالحاجة لذلك. كانت السفينة إندبندنس تتجول بين الموانئ السورية والمصرية وتفعل ذلك تنفيذاً لأوامر من القيادة السياسية تقضي بـ:" التأكد من سلامة واستقرار أمور البعثات التبشيرية ... ولتقديم المساعدة لهم في كل ما يحتاجونه". [1]

في عام **1840** حط المبشر سايروس هاملين برحاله في اسطنبول، حيث حصل على ترخيص بفتح مدرسة في بيبيك غير بعيد عن العاصمة. وعندما التحق بعض الأطفال الأرمن بالمدرسة المذكورة علت أصوات بطريرك الأرمن بالاحتجاج. ومع ذلك فقد تعاظم نفوذ المبشرين الأمريكيين داخل القصر السلطاني ، الأمر الذي تجلى في إهداء هذه الجماعات للسلطان مدرسة خاصة بأبناء الضباط أقيمت على نمط المدارس الأمريكية.

في العام التالي أوفد جوزيف سميث مؤسس الكنيسة المورومنية أحد مساعديه أورسون هايد كمبعوث شخصي إلى القدس للصلاة نيابة عن الطائفة المورمونية ، والتبهل إلى السماء طلباً " لعودة المملكة والقدس عاصمة سياسية لإسرائيل".

أصبحت أفكار أصحاب عقيدة الإعادة (عودة مملكة إسرائيل وإعادة بناء الهيكل) التي بشر بها ونشرها المهاجرون والمستعمرون الأمريكيون الأوائل، جزءاً أساسيا من إيديولوجية يؤمن بها السواد الأعظم من الأمريكيين بعد الاستقلال، وخاصة أتباع الكنيسة المنهجية، والكنيسة الأبرشية، والكنيسة المشيخية، والتي تقوم على التبشير بقيام إسرائيل وتحقيراً لشأن الإسلام . فهذا أستاذ اللغة العبرية في جامعة نيويورك، جورج بوش ، الجد الأكبر لرئيسين للولايات المتحدة حملا اسمه، يهاجم النبي محمد (صلعم) في كتاب تناول فيه سيرة حياة رسول الإسلام من منظوره الخاص ، واصفاً إياه بـ:" النبي المزيف". كما ودعا بوش في كتاب آخر له بعنوان: وادي الرؤية: عودة الحياة لعظام إسرائيل الرميم"، إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين، لأن مثل هذه الدولة ستكون حلقة بين الإنسانية والرب.

وفي بريطانيا لا عجب أن يكون لورد شافتسبوري ، أحد أبرز دعاة عقيدة العودة التي تنادي بعودة اليهود إلى أرض الميعاد، فهو صاحب المقولة الشهيرة" أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" التي أطلقها قبل سنوات من اعتمادها شعاراً للحركة الصهيونية لتسويغ ونشر إيديولوجيتها.

في عام **1844** تقدم ووردرغريسون، أحد المتحمسين لعقيدة الإعادة في الولايات المتحدة من وزير الخارجية جون كالهون طالباً تعيينه قنصلاً أميركياً في القدس. وعشية سفره بتاريخ **22** يونيو للالتحاق بوظيفته، كتب يقول بأنه ترك زوجته وأولاده ومزرعته " لأن وعد الرب فيما يتعلق بعودة اليهود كان أعظم وأنفس من أن لا أستجيب له .. لم أعد قادراً على البقاء في البيت".

[1] Power, Faith and Fantasy, Michael B. Oren, W.W. Norton & Co., New York, 2007, Pg. 143

ما إن وصل غريسون إلى القدس حتى سعى لتعميم الحماية الأمريكية لتشمل يهود المدينة. كان يضغط وعلى العلن من أجل إقامة دولة يهودية في فلسطين بطريقة أثارت مخاوف المسئولين في وزارة الخارجية ودفعتهم إلى التخلص منه. غير أن غيرسون اختار البقاء في فلسطين لعدة سنوات لاحقة. ولعل الطريقة التي وصفت بها وزارة الخارجية قنصلها السابق في القدس على أنه: شخص فقد نصف عقله بينما النصف الثاني يفتقر للاتزان، ينسحب على العديد من المهووسين الذين تدفقوا على الأرض المقدسة بعد سن إبراهيم باشا لقوانينه المتساهلة. برز من بين هؤلاء المهووسين المدعوة هاريير ليفرمور ابنة عضو مجلس الشيوخ عن ولاية نيو هامبشاير، والتي كانت تترأس جماعة دينية من المعمدانيين. وفي فلسطين التقت هاريير بسيدة أخرى لا تقل عنها هوساً بالدين وتدعى هيستر. قررت السيدتان توحيد جهودهما قبل أن تعصف الخلافات بينهما على قضية في "غاية الأهمية" وهي: من منهما سيكون لها شرف الإمساك بيد المسيح لدى دخوله القدس مجدداً !!!.

يمكن القول إن أول جهد يبذل على طريق الاحتلال الاستيطاني اليهودي لفلسطين يعود لعام**1851**عندما أبحرت كلورينا مانور، عضو الكنيسة الأسقفية البروتستنتينية متجهة إلى الأرض المقدسة، وهناك التقت بيهودي بريطاني يدعى جون ميشولام وقررا توحيد جهودهما لتشجيع اليهود على الانخراط في العمل الجماعي، الذي سيقربهم معاً في أجواء من المحبة . تلقى الثنائي مانور وميشولام الدعم المالي من رجل المال اليهودي البريطاني البارون موسى مونتيفيوري، وعدد من المصادر الأمريكية، مكنتهما من شراء قطعة أرض بالقرب من قرية أرتاس – بيت لحم حيث أقاما مدرسة زراعية لليهود. وبعد عامين من محاولة اجتذاب اليهود الراغبين في تعلم أصول الزراعة انتهت للفشل الذريع، تخلت مانور عن المشروع إلا أنها لم تيأس فانتقلت إلى مزرعة برتقال بالقرب من يافا قام البارون مونتيفيوري بتمويلها أيضاً. انتهى المشروع الجديد الذي أطلقت مانور عليه اسم: جبل الأمل للفشل بدوره ، ولم يطل الوقت قبل أن تختفي صاحبته من الوجود حيث توفيت عام **1855**. غير أن المشروع وجد من يحييه ولم يكن سوى القنصل الأمريكي السابق في القدس ووردر غيرسون ، الذي قرر البقاء في فلسطين بعد طرده من الخدمة. قرر غيرسون التحول عن المسيحية واعتناق اليهودية واتخذ اسماً عبرياً: مايكل بويز إسرائيل. وعندما فشل مشروعه الزراعي الاستيطاني بدوره قرر مغادرة فلسطين والعودة إلى عائلته في الولايات المتحدة.

بجوار مزرعة جبل الأمل، كان هناك أميركي آخر يدعى ديكسون يدير مشروعاً زراعياً آخر لليهود أطلق عليه اسم: الإرسالية الزراعية الأمريكية. وفي مواجهة العداء الذي أظهره الفلسطينيون القاطنون بالقرب من المشروع المقام على أراضيهم في الأساس، توجه ديكسون للأسطول الأمريكي في المتوسط طلباً للحماية ، ليلقى منهم الاستجابة على شكل تزويد مستوطنة ديكسون بالأسلحة لتصبح أول شحنة أسلحة أميركية يحصل عليها مشروع استعماري يهودي.

وبينما كان الأمريكيون وقتها ينفذون رسالتهم السامية في تعمير الأرض، تنفيذاً لمشيئة السماء، حتى وإن انطوت المهمة على عملية تطهير عرقية بحق سكان أمريكا الأصليين، وشن حروب توسعية عدوانية على الآخرين، وفي الوقت الذي كان فيه أكثر من سدس الأمريكيين عبارة عن عبيد محرومين من حقوق الإنسان ويعاملون كحيوانات في مزارعهم، كان الأمريكيون يملكون الجرأة الكافية للحديث عن الحرية وإنقاذ الأرواح،

متناسين مقولتهم الشهيرة بأن الصدقة تبدأ من البيت. مثل هذا النوع من الازدواجية والنفاق أصبح السمة الغالبة على الأمريكيين الذين "لم يكونوا ليغادروا الوطن بدونها". كان الزوار هؤلاء ينتمون لخلفيات اجتماعية ومهنية مختلفة، ويتطلعون كما هو الحال مع الجماعات التبشيرية، إلى رؤية الشرق الأوسط وقد خلا من المسلمين أو من الإسلام على الأقل، هذا الدين الذي يجمعون على نعته بالعقيدة الزائفة. ومن هذا المنطلق لا يبدو أن هناك فرقاً يذكر بين دعوة سارا هايت لـ:"شن حملة سياسية صليبية دولية" عن حملة جورج دبليو. بوش الصليبية بعد ذلك بأكثر من قرن ونصف، حيث كان الهدف واحد. وهنا يعبر القائد البحري وولتر كولتون (**1838**) عن هذا الموقف العدائي الصارخ للإسلام بالقول بأن الدين الإسلامي كان مقبرة للحقيقة والحرية" وأضاف كولتون قائلاً" ستكون النتيجة أن الصولجان والهلال والعرش ستغرق معاً". وهذا جايمس كوولي يرى بأن على المسلمين تبني عقيدة أكثر تنوراً وانفتاحا وتناغماً مع الآخرين" كشرط للانضمام " للدول المتحضرة". أما الفنان ويليام بارتليت فكتب يقول بعد زيارة قام بها للقاهرة عام **1849**:" وجدت مصر مريضة وعاجزة ومنحنية تئن تحت وطأة القمع والاضطهاد، وفوق ذلك أسيرة معتقدات دينية زائفة" بينما " أمريكا تزداد قوة يوماً عن يوم، أرض النور والحرية والمشاريع وفوق ذلك أرض المسيحية".

غير أن المبشرين أدركوا في النهاية، ولكن بعد تجربة صعبة و **30** عاماً من الجهود المضنية، بأن تحويل المسلمين عن عقيدتهم ليس بالأمر السهل إن لم يكن بالمستحيل، حيث إن حصيلة جهودهم طوال تلك الفترة لم تسفر سوى عن إقناع ثلاثة أشخاص- يشك في إسلامهم أصلاً- بالتحول عن دينهم واعتناق المسيحية. كان أفضل قرار اتخذه المبشرون بعدها بالنسبة لأهدافهم هو التركيز على ضرب القيم الإسلامية و.."أمركتها" ليبقى السكان المستهدفون مسلمين بالاسم فقط. كان استهداف القيم الاجتماعية وقلبها من الأساس يتطلب الشروع في غزو ثقافي جديد كلياً، يتم فيه التركيز على النشأة بدءاً من رياض الأطفال ووصولاً إلى الجامعات، لعل أن ينجح المبشرون في خلال جيل واحد في تحقيق ما فشلوا تماماً فيه حتى الآن وهو ما حصل بالفعل.

وهنا تحول الشرق الأوسط برمته إلى ساحة غزو ثقافي كاسح تضافرت فيه قوى التبشير الغربية القادمة ليس من أمريكا فحسب. فقد بدأ الناس هنا يعتادون على رؤية المؤسسات الثقافية والتعليمية التابعة لبلدان أوروبية عديدة ، مثل: بريطانيا وفرنسا وروسيا وروسيا البيضاء. غير أن الأمريكيين فاقوا غيرهم في هذا المجال سواء من حيث المصادر البشرية أو المالية.

الهدف الجديد: العلمانية عبر القومية

درس المبشرون تاريخ العرب جيداً، وعلموا بأن العرب، وحتى في مرحلة ما قبل المسيحية، تغلغلوا في سوريا والعراق وشكلوا هناك سلالات عريقة، وأقاموا ممالك في تدمر والحيرة في القرن الثالث قبل الميلاد. غير أن التأثير الثقافي للعرب قبل ظهور الإسلام كان محدوداً للغاية بحيث لم يحدث تغييراً على مفاهيم الناس؛ فبقيت تأثيرات الحضارات القديمة على حالها: حيث الحضارة اليونانية-الأرمينية هي الغالبة في سوريا، والحضارة الساسانية في العراق ، واليونانية القبطية في مصر.

جاء الإسلام ليقلب هذه المعادلة رأساً على عقب. فبعد أن اعتنقوا الإسلام أصبح العرب وبقوة الدين الجديد في وضع يمكنهم من التأثير على الآخرين بعد أن كانوا قبل ذلك في موضع تأثر، وبدأت التعاليم الإسلامية الانتشار في كل اتجاه. وخلال مئة عام من وفاة الرسول محمد (صلعم) وصلت الفتوحات الإسلامية حاملة رسالة الإسلام إلى تخوم الصين شرقاً والأناضول شمالاً لتقترب من أسوار القسطنطينية. احتلت جيوش الإسلام شمال إفريقيا بالكامل ، وعبر المجاهدون حاملين تعاليم الإسلام مضيق جبل طارق إلى إسبأنيا ومنها إلى فرنسا ليصلوا محيط باريس. وعلى عكس ما كان عليه الوضع مع العرب قبل الإسلام ممن قاوموا تأثير الثقافات الدخيلة، فإن الحضارات القديمة تراجعت أمام قوة تأثير الحضارة العربية الإسلامية الجديدة، لتصبح اللغة العربية لغة التخاطب الجديدة لشعوب المناطق التي اجتاحتها جيوش المسلمين، والممتدة بين المحيط الى الخليج والتي أصبحت تعرف بالعالم العربي. امتدت حدود العالم الإسلامي عبر أصقاع الأرض لتشمل ، إلى جانب العالم العربي ، العديد من الأقطار والشعوب التي اعتنقت الإسلام وإن لم تعتمد العربية لغة رسمية لها لتحافظ على لغاتها الأم. صاحب تحرك العرب المسلمين عبر البلاد نشاطان متداخلان ومتلازمان: نشر الإسلام واللغة والثقافة العربية ليحققا النجاح ولكن بدرجات متفاوتة في بلدان مختلفة. ولعل أحد الأماكن التي لم تحقق فيه عملية التعريب النجاح المأمول كان تركيا العثمانية. فقد اعتنق الأتراك الإسلام كدين وأبقوا على العربية لغة للقرآن والدراسة الدينية إلا أنهم لم يعتمدوها لغة رسمية للبلاد، الأمر الذي ساعد على نجاح الغزو الثقافي الأجنبي الذي اعتمدته الجماعات التبشيرية الغربية وسيلة للتغيير في العالم الإسلامي.

جاءت البعثات التبشيرية للشرق الأوسط وفي ذهن القائمين عليها تحقيق هدفين رئيسيين: تحويل المسلمين والمسيحيين الشرقيين" الفاسدين"، طبقاً لتعبير المبشرين، إلى المسيحية، وتفكيك الدولة الإسلامية التي كانت تشكل قلب العالم الإسلامي وقتها: الإمبراطورية العثمانية. كانوا يودون رؤية شرق أوسط علماني وقد تخلى عن رابطة الإسلام التي تسير شؤون الفرد الحياتية بالقوة نفسها التي تسير فيها شؤون الحكم، بما تشكله من ميزة ينفرد بها الإسلام عن غيره من الأديان. وكما أوضحنا آنفاً فقد اكتشف المبشرون وإن بعد طول عناء بأن تحويل المسلمين عن دينهم ليست بالمهمة السهلة على الإطلاق. وعلى حد تعبير الكاتب هنري فيلدس فإن" البعثات المسيحية لم تترك أثراً على الإسلام أكثر مما تتركه رياح الصحراء على الجرف الصخرية في سيناء". وتأتي الإحصائيات الخاصة بالنتائج التي حققها المبشرون لتؤكد على صحة تحليلات فيلدس. فعلى مدار أربعين هاماً من عمر النشاط التبشيري في الشرق الأوسط لم يتمكن المبشرون بكل ما أوتوا من عزيمة وإصرار وفوق ذلك من إمكانات مادية سخرها لهم أثرياء الغرب، من اجتذاب أكثر من أربعين شخصاً أي بمعدل شخص واحد في العام وبكلفة **16** ألف دولار لكل حالة تحول للمسيحية. مثل هذه النتائج المحبطة دفعت القائمين على الحملة إلى التفكير بخيار آخر وهو إبعاد المسلمين عن ممارسة الدين كأسلوب حياة عبر المناهج الدراسية والسياسة الإعلامية وغيرها. وهنا طرح تعبير " العلمانية" نفسه باعتباره الكلمة السحرية التي ستحقق للغزو التبشيري أهدافه بوقت أقصر وجهد أقل. وهكذا أصبح فصل الدين عن الدولة الهدف الرئيسي والشغل الشاغل للجماعات التبشيرية في العالم الإسلامي. في البداية تحرك المبشرون لتحقيق الفصل بين عملية "التعريب" وعملية "الأسلمة" باعتبار ذلك الطريق الأمثل لتدمير الخلافة الإسلامية التي تجسدها الدولة العثمانية المسلمة. أما المطية المبتكرة

التي سيصل بها المتآمرون لهدفهم فكانت حركة القومية العربية، وهذا يعني تدمير دولة الخلافة الإسلامية التي كانت تمثل- وإن بصورة غير مثالية- الرابطة الروحية الإسلامية. وقد تحققت هذه المهمة بالفعل عندما نجحت حركة تركيا الفتاة بتدمير الخلافة العثمانية الإسلامية ، ولتصبح العلمانية التعبير المشترك الذي تردد في دستور كل دويلة جديدة أضيفت من قبل الغرب على خريطة المنطقة بعد هزيمة الخلافة العثمانية. ولأن الإسلام كان الرابطة الفعلية القوية التي تجمع شمل العرب، فإن الفصل بين التعريب والأسلمة كفيل بتدمير الرابطة الرئيسية بين مناطق العالم العربي كما هو عليه واقع العرب هذه الأيام.

لجأ المبشرون لإنشاء المدارس الأجنبية كوسيلة مثالية ومغرية لنشر إيديولوجية العلمانية الغربية، مستخدمين القومية العربية مطية لتحقيق أهدافهم، والمدارس والجامعات أداة فعالة لهذا الغرض. ولعل في وجود ونشاط الكلية البروتستنتينية السورية التي برزت كأشهر مؤسسة تعليمية يقيمها المبشرون الأمريكيون، فيما عرفت لاحقاً باسم : الجامعة الأمريكية في بيروت، أكبر دليل على النجاح الذي حققته الحركة التبشيرية على طريق تنفيذ أجندتها في المنطقة. في الوقت نفسه أقام المبشر سايروس هاملين في مدينة أناتوليا التركية مؤسسة مماثلة تحول اسمها لاحقا إلى كلية روبرتس.

عندما وصل إلى بيروت عام **1855** كان المبشر الأمريكي دانييل بليس لا يزال شاباً في منتصف الثلاثينات من العمر، ومع ذلك نجح بليس وبسرعة في وضع يده على نقطة الضعف في العملية التبشيرية، التي حالت حتى ذلك الحين دون تحيقيق نتائج تذكر على صعيد تحويل الأهالي مسلمين ومسيحيين شرقيين إلى المذهب البروتنستنتي الذي يمثل المسيحية الأصلية المفترضة. فسرعان ما تخلى بليس عن مشروعه الذي جاء من أجله وهو إقامة مركز تبشيري في جبل لبنان خاصة مع الوضع المتفجر هناك بسبب المواجهة بين الدروز والموارنة. وفي بيروت وبعد مشاورات مع المبشرين من كبار السن استقر الرأي على الطلب من المجلس الأمريكي للمهمات الخارجية الذي يدير عملية التبشير من عن بعد، السماح له بإقامة كلية في بيروت بهدف شحذ المشاعر القومية لدى الشبأن العرب مسلمين ومسيحيين. حملت الكلية الجديدة التي اعتمدت العربية لغة التدريس فيها اسم الكلية البروتستنتينية السورية. كان رأي بليس كما عرضه أمام المجلس الأمريكي يقوم على المنطق التالي: بما أن البعثات التبشيرية عاجزة عن نشر المذهب البروتستنتي في المنطقة فليس أقل من العمل على فرض العلمانية والقيم الأمريكية هناك. كان بليس يرى بأن العلمانية من خلال القومية كفيلة بإيقاظ العنصرية النائمة، بل وحتى التعصب القبلي بين الجماعات العرقية العديدة والمختلفة التي تعج بها الإمبراطورية العثمانية ، وبهذا يمكن تحقيق الهدف الثاني من الحملة الصليبية الجديدة أي: تفكيك الإمبراطورية العثمانية. أصبحت الكلية البروتستنتينية السورية التي غيرت اسمها عام **1920** إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، مهداً فعلياً للقومية العربية حيث كان معظم قادة هذه الحركة من خريجي هذه الجامعة في القرنين التاسع عشر والعشرين. بعد النتائج الكبيرة التي تحققت من خطوة الجماعات التبشيرية في بيروت، جاء دور القاهرة لينال المصريون نصيبهم من الخير القادم من الغرب، فكان قرار الجماعات البروتستنتينية إنشاء الجامعة الأمريكية في القاهرة التي ستسير على خطى زميلتها في بيروت في نشر العلمانية من خلال القومية. وبالرغم من ارتفاع ميزانية المؤسسات التبشيرية سبعة أضعاف على مدار عشر سنوات(**1885-1895**) وزيادة عدد المدارس التابعة للجماعات التبشيرية إلى **400**

مدرسة يتربى فيها أكثر من**20** ألف طالب على مبادئ العلمانية، فإن المد القومي المستهدف لم يحقق سوى تقدم بطئ خلال القرن التاسع عشر. وعن ذلك كتب مايكل أورين في كتابه المعنون : السلطة، العقيدة والخيال، يقول:" بعد الرفض القاطع الذي أظهره العرب المسلمون للطروحات الدينية للجماعات التبشيرية، تعاملوا مع الأفكار القومية الجديدة بفتور.. فقد كان لديهم الأمة الإسلامية التي تمثلها الدولة العثمانية بالفعل ولم يكونوا بحاجة لجهة جديدة تلزمهم بالولاء.. وبدلاً من الانفصال عن الإمبراطورية ، وجد هؤلاء بأن من الأفضل لهم محاولة الحصول على حقوق إضافية ضمن الدولة وتحقيق الوحدة ليس من خلال فلسفة دخيلة بل بالعودة للإسلام" [1]

لم تحظ فكرة القومية بالترحيب سوى من عدد قليل من أتباع مذاهب ثانوية طوال معظم سنوات القرن التاسع عشر. فبالنسبة للعرب المسلمين ، لم يكن النداء الذي أطلقه إبراهيم اليازجي، الماروني الذي تحول إلى البروتستنتينية كما جاء في شعره:" انهضوا يا عرب واستيقظوا"، ليشد انتباه الكثيرين، فقد كانت الدولة العثمانية التي يترأسها خليفة مسلم تشكل حصن الإسلام الحقيقي. غير أن هذه المفاهيم تغيرت تماماً عام**1908** بعد إزاحة السلطان عبد الحميد عن الحكم واستيلاء جماعة الاتحاد والترقي على السلطة وفي اسطنبول، في انقلاب مدعوم من الماسونية اليهودية الغربية، وهو الانقلاب الذي لم يكتف بالترويج للأفكار الغربية فحسب ، بل شن حملة عنصرية ضد العرب والإسلام. وعندها كان قد فات الأوان على إقدام العرب على ردة فعل قوية.

إن العامل القومي لم يكن المحرك الفعلي للثورة العربية، الأمر الذي يتطرق له أورين في كتابه المذكور بالقول:" بينما نجح البريطانيون في إشعال فتيل الثورة العربية ضد تركيا وحشد العديد من القوميين لهذه القضية، فإن الثورة من الناحية الفعلية جاءت حصيلة الرغبة في إحياء الخلافة العربية المستقلة أكثر منها نتيجة لدوافع قومية ضد الأتراك المؤيدين للغرب.. كان قائد الثورة العربية الكبرى، الشريف حسين، على قناعة بأن الإسلام وحده القادر على توحيد العرب وليس تحت لواء ثقافي أو عنصري "قومي".[2]

بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية أراد البريطانيون تنصيب الشريف حسين كملك علماني، إلا أنه كان يسعى لأن يكون خليفة عربياً، الأمر الذي أفقده العرش والأرض حيث تمت الإطاحة به ونفيه إلى قبرص.

[1] Power, Faith and Fantasy, Michael B. Oren, W.W. Norton & Co., New York, 2007, Pg. 167 - 168
[2] Power, Faith and Fantasy, Michael B. Oren, W.W. Norton & Co., New York, 2007, Pg 169

"كانت القوى الأوروبية في ذلك الوقت تعتقد بقدرتها على تغيير آسيا المسلمة في صلب وجودها السياسي، وكانت النتيجة إدخال نظام الدولة المصطنعة في الشرق الأوسط لتؤول الأمور إلى تحويله إلى منطقة مليئة بأقطار، لا تزال حتى يومنا هذا، عاجزة عن التطور إلى دول بمعنى الكلمة. تعاملت القوى الأجنبية مع المنطقة من منظور الجاهل أو المتجاهل لحقائق الأمور فيها. فهؤلاء الروس يتعاملون مع الدين ، الذي يشكل أساس الحياة السياسية في الشرق الأوسط، بكثير من الشك من خلال محاولة إدخال الشيوعية، بينما لجأ البريطانيون لخيار القومية أو الولاء العائلي بديلاً عن الدين".[1]

"كان العديد من قادة الثورة البلشفية ينتمون لأصول يهودية، وكذلك الأمر بالنسبة لـ: هيلفاند الذي قدم من القسطنطينية حاملاً لهم المال والدعم من ألمانيا. كان هيلفاند على علاقة وثيقة بحزب تركيا الفتاة، هذا الحزب الذي يعتقد المسئولون البريطانيون بأنه يدار من قبل الماسونية العالمية ، التي لعبت الدور الأكبر في تحالف الإمبراطورية العثمانية مع ألمانيا في الحرب العالمية. كان هناك اعتقاد بريطاني لا يزال قائماً بأن اليهود والألمان كانوا على علاقة وثيقة، مما يكمل الصورة تماماً".[2]

[1] A Peace to End All Peace, David Fromkin, Henry Holt &Co, New York,1989, Pg 17
[2] A Peace to End All Peace, David Fromkin, Henry Holt &Co, New York,1989, Pg 247

الفصل الخامس

السلطان عبد الحميد الثاني والأيام الأخيرة...

تجديد الإمبراطورية من خلال أجندة إسلامية

في الثمانينات من القرن الثامن عشر فاق حجم الصادرات الأمريكية للشرق الأوسط الواردات من تلك المنطقة بأكثر من **14** ضعفاً. كانت أهمية الشرق الأوسط التجارية بالنسبة للولايات المتحدة باطراد يوماً عن يوم، ليضاف لذلك ما تمثله المنطقة من أهمية جغرافية وسياسية مع تعاظم القوة العسكرية والتجارية لواشنطن. في ذلك الوقت بدأت الولايات المتحدة العمل على تعزيز قوتها العسكرية والاقتصادية بما فيه استغلال الدين في خدمة هذه الأجندة. وفي ذلك أعلن الأبرشي جوزيف سترونغ قائلاً بأن على أمريكا: " تولي القيادة في الجولة الأخيرة من الحروب المسيحية من أجل تقدم العالم". ففي سبيل تبرير الحروب الأمريكية الإسبانية نجد بأن المبشرين، الذين وضعوا الكنيسة في خدمة الرأسمالية، تحدثوا بحماسة المدافع العنيد عن "الإمبريالية المتنورة" بالإضافة لما وصفوه بالأعباء الواقعة على كاهل الرجل الأبيض فيما يتعلق بخدمة الإنسانية وعقيدة القدرية في الكنيسة البروتستنتينية.

ولأن العسكر في الولايات المتحدة دائماً في خدمة المال والأعمال، فقد كانت هناك قناعة أميركية في ذلك الوقت بأن من يتحكم بالشرق الأوسط يتحكم بالعالم أجمع. ولهذا بدأت الولايات المتحدة ببناء **16** سفينة حربية متطورة أصبحت تعرف بـ: الأسطول الأبيض العظيم. تم تخصيص الأسطول الجديد للخدمة في البحر الأبيض المتوسط ليصبح أول قوة بحرية أميركية عالمية مقاتلة، لتحمل لاحقاً اسم الأسطول السادس. تلك كانت أمريكا عندما أصبح السلطان عبد الحميد الثاني سلطان الدولة العثمانية المسلمة.

عبد الحميد الثاني

هو السلطان العثماني الرابع والثلاثين، وتولى عرش الإمبراطورية بعد انقلاب أبيض أطاح بشقيقه مراد بتاريخ **31** أغسطس **1876** ، وبقي في الحكم حتى الإطاحة به في **27** أبريل**1909**. عرف عن السلطان عبد الحميد الورع والتواضع منذ البداية عندما امتطى العربة التي أقلته إلى مسجد السلطان أيوب لاستلام سيف عثمان ، رافضاً الحراسة والسير في موكب كما تقتضي مراسم التنصيب. وعندما تولى شؤون الإمبراطورية وجد خزانة الدولة فارغة، ووجد نفسه مجبراً على القبول بإخضاع ديون تركيا لإشراف أجنبي، مما جعل جزءاً كبيراً من عائدات الدولة تؤول لإدارة الدين العام لمصلحة حملة الصكوك الأجانب، كما يحصل مع مصر آنذاك وبرامج صندوق النقد الدولي هذه الأيام.

كان السلطان عبد الحميد في نظر الغرب معادياً لكل ما هو غربي. بل إن أحد المؤرخين الغربيين وصفه بأنه شخص يعاني من عقدة الكراهية بالقول:" بعد أن فقد حنان

أمه الشركسية، وهو في سن السابعة، قيل بأنه لم يعد يكن أي مشاعر حب تجاه أي أحد بمن فيهم نفسه".[1]

ولكن..من كان عبد الحميد الحقيقي؟

كان عبد الحميد شاعراً ونجاراً موهوباً لدرجة أنه كان يصنع أثاثه بنفسه كنوع من الهواية الشخصية، وهذا الأثاث الذي يدل على مهارة وذوق صانعه ما يزال يعرض في قصري: يلديز وبيلرباي في اسطنبول. كما أن السلطان عبد الحميد قام بترجمة العديد من المسرحيات الأوبرالية العالمية وألف شخصياً العديد منها. كما كان يحرص على التواصل مع فناني الأوبرا العالميين ، حيث اعتاد استقبال العديد منهم على مسرح دار الأوبرا الملحقة بقصر يلديز. وفي الوقت ذاته عرف عن السلطان حبه وتشجيعه للرياضة. فقد كان يجيد المصارعة واعتاد تنظيم دورات لها. كما عرف عنه ولعه بالسفر إذ نقلته جولاته إلى الدول الأوروبية كافة قبل أن يتولى شؤون السلطنة. وفوق ذلك كله، فقد كان السلطان عبد الحميد يتمتع بإرادة حديدية، عالماً بدقائق الحكم وأساسيات السلطة، وسياسياً واستراتيجياً من الطراز الأول، لم يكن عاجزاً عن تقييم واستيعاب المخاطر التي تحيط بإمبراطوريته، وأدرك جيداً مخططات القوى الغربية الخاصة بتفكيك الإمبراطورية العثمانية وقضم الإقليم تلو الآخر. وفي الوقت نفسه فقد كان السلطان عبد الحميد واعياً لحقيقة أن القوى المعادية أقوى منه ، وبأن مواجهتها لا تتحقق إلا من خلال الوحدة الإسلامية وهي وحدها الكفيلة بأنقاذ إمبراطوريته.

في **24** أبريل **1877** ،أي بعد توليه السلطنة بأشهر قليلة، أعلنت روسيا الحرب على السلطان عبد الحميد ولكن ليس قبل أن ضمنت حياد القوى الأوروبية. كانت النتيجة وطبقاً لمعاهدة سان ستيفانو فرض شروط قاسية على الإمبراطورية العثمانية أجبرتها على منح الاستقلال لكل من: رومانيا، صربيا، والجبل الأسود والحكم الذاتي لبلغاريا. كما نصت المعاهدة على تطبيق إصلاحات في البوسنة والهرسك، والتنازل عن دوبرجة وأرمينيا للروس، بالإضافة على دفع تعويضات كبيرة لتضيف المزيد من الأعباء على خزينة مثقلة بالديون. كانت النتيجة أن حظيت روسيا بنفوذ عظيم في الدول المستقلة حديثاً عن اسطنبول في جنوب شرق أوروبا.

جاء تعزيز النفوذ الروسي في المنطقة المذكورة نتيجة لمعاهدة سان ستيفانو ليثير حفيظة القوى العظمى، وبخاصة بريطانيا التي اعترضت على المكاسب الروسية، وضغطت لفرض إعادة النظر فيها، الأمر الذي تم في مؤتمر برلين، وصولاً إلى تقليص المكاسب الكبرى التي خرج بها الروس. ولإحداث توازن مع المكاسب الروسية الأخيرة، تحركت بريطانيا للسيطرة على قبرص واحتلت القوات البريطانية مصر والسودان عام **1882**، علماً بأن البلدين بقيا جزءاً من الأقاليم العثمانية من الناحية الفنية حتى عام **1914** عندما أعلنت بريطانيا ضمهما إليها رسمياً. في أوائل **1897** أبحرت قوة يونانية إلى جزيرة كريت في محاولة للإطاحة بالحكم العثماني هناك مما أشعل الحرب مجدداً بين تركيا واليونان انتهت بإلحاق العثمانيين الهزيمة باليونانيين. لم تتدخل القوى الكبرى

[1] The Ottoman Centuries, The Rise and Fall of the Turkish Empire, Lord Kinross, Perennial, 2002, Pg 533

بريطانيا وفرنسا وروسيا لنصرة اليونانيين هذه المرة إلا بعد مرور بضعة أشهر، وعينوا الأمير جورج الإغريقي حاكماً على كريت لتفقدها الإمبراطورية العثمانية أيضاً. وفي شمال إفريقيا وقعت معظم الولايات العثمانية تحت الاحتلال الفرنسي. أما على المستوى الداخلي فإن قوانين "الإصلاح" المتتالية التي فرضتها القوى الأجنبية على السلاطين العثمانيين ممن سبقوه إلى العرش، بما فيها الإصلاحات الاقتصادية والتجارة الحرة التي تخدم المصالح الأجنبية وتشكل المزيد من الضغوط على اسطنبول، لم تفت من عضد السلطان عبد الحميد ولم تدفعه للاستسلام.

أجندة المسيحيين الصهاينة الأمريكيين في أواخر القرن الـ: 19

شهد عقد الثمانينات من القرن الثامن عشر حركة هجرة مكثفة ليهود أوروبا الشرقية إلى الولايات المتحدة: أرضهم الموعودة الجديدة التي يطلق عليها باللغة العبرية "دي غولد مدينه" أي الأرض المعبدة بالذهب. أما الذين اختاروا التوجه لأرض الميعاد التوراتية .. فلسطين، وكانوا قلائل فقد وجدوا الأمور مهيأة تماماً لاستقرارهم هناك، حيث تولى أثرياء أمريكا عملية التمويل اللازمة لإقامة البينة التحتية الجيدة والأحياء السكنية لهؤلاء المهاجرين الجدد إلى فلسطين مكافأة لهم على اختيار الاستقرار في " أرض الأجداد" ، وتحقيق نبوءة العودة إلى أرض إسرائيل التوراتية. فهذا ناثان شتراوس يشتري قطعة أرض واسعة بالقرب من يافا حيث أقيمت عليها بلدة ناتانيا الساحلية لاحقاً وسميت على اسمه. غير أن الأغلبية العظمى من اليهود وقتها لم يختاروا الحياد فيما يتعلق بالأفكار والأجندة الصهيونية بل كانوا يعارضونها. ففي عام **1885** صدر عن اتحاد الأبرشيات الإصلاحية بيان جاء فيه القول:" لم نعد نعتبر أنفسنا أمة بل طائفة دينية". وهذا العالم اليهودي أبراهام إسحق يحذر اليهود من أن الصهيونية مرتبطة بعقيدة الإعادة التي ينادي بها المسيحيون البروتستنت، ممن يدعمون الجهود الرامية لتحويل اليهود عن دينهم واعتناق المسيحية. ولعل الوجود الضعيف لليهود الأمريكيين في المؤتمر الصهيوني العالمي الأول أكبر دليل على غياب الحماسة للصهيونية في أوساط اليهود الأمريكيين، حيث لم يحضر المؤتمر الذي استضافته مدينة بازل السويسرية سوى أربعة وفود من أصل مائتي وفد شاركوا في المؤتمر.

كان أتباع عقيدة الإعادة من غلاة الكنيسة البروتستنتينية الأكثر تحمساً للقضية الصهيونية، وهم الذين لم يتوقفوا عن دفع هذه القضية قدماً، وصولاً إلى تجميع أكبر عدد ممكن من اليهود في فلسطين وإقامة الدولة العبرية هناك تمهيداً لعودة المسيح.

تدين الحركة الصهيونية بالكثير للقس الأمريكي تي.دي. ويت تاماج وآخرين من رموز المسيحيين الصهاينة، ممن خدموا الحركة بحماسة وتفان. كان تاماج في القرن التاسع عشر أقرب إلى القس بيلي غراهام في القرن العشرين. حظي تاماج باهتمام بالغ من وسائل الإعلام التي تابعت نشاطه الديني وساهمت في زيادة شعبيته وعدد أتباعه ومريديه، مما أكسبه حظوة لدى الرئاسة ، حيث اختاره الرئيس غروفر كليفلاند مستشاراً روحياً له. كانت عظاته وأفكاره الدينية والسياسية تحظى باهتمام بالغ من الصحافة. زار تاماج القدس عام **1889** وكغيره من أبناء الكنيسة البروتستنتينية، لم يتردد في الإعراب عن كراهيته للإمبراطورية العثمانية، واصفاً إياها بـ:" لعنة الأمم، وكيس قمامة القرون". كما أدان القس المذكور الدين الإسلامي، واصفاً إياه بأنه نقيض الحضارة الغربية، وطالب الأمريكيين بقيادة العالم في الحملة الرامية لانتزاع فلسطين من المسلمين تمهيداً لتحويلها إلى وطن

لليهود. وهناك ويليام يوجين بلاكستون، القس البروتستنتي المتشدد، الذي خاطب الرئيس بنيامين هاريسون ووزير خارجيته، في رسالة مفتوحة بتاريخ 15 مارس 1891، بعد عودته من زيارة للقدس، يطالب فيها الإدارة الأمريكية بالعمل على انتزاع فلسطين لإعطائها لليهود، على غرار ما فعلت أوروبا عندما سلخت صربيا وبلغاريا عن الإمبراطورية العثمانية. ولعل الأغرب من الرسالة ما حملته من تواقيع كبار الشخصيات في عالم المال والأعمال والدين أمثال: جون روكفللر، جي.بي. مورغان.

وكان الرؤساء الأمريكيون قد شرعوا ومنذ 1881 في ممارسة الضغوط على السلطان عبد الحميد للسماح بهجرة المزيد من اليهود إلى فلسطين. غير أن الشخصيات الدينية البروتستنتينية المتحمسة لعودة اليهود وصولاً لعودة المسيح، ومعهم السفراء الأمريكيون اليهود في المنطقة مثل أوسكار شتراوس، شقيق ناثان الثري الأمريكي اليهودي الذي أسس بلدة ناتانيا الإسرائيلية حالياً، وكذلك سولومون هيرش، وجميعهم من اليهود، لم تنجح في النيل من عزيمة السلطان العثماني وتصميمه على عدم التفريط بالقدس. كان موقف السلطان عبد الحميد، كما أبلغه للوسطاء الأمريكيين، بأن فلسطين ليست ملكاً للسلطان بل هي ملك للمسلمين جميعاً، وبالتالي لا يملك السماح بإحداث أي تغيير في واقعها أو المساس بوحدتها.

كان حينها أخو ناثان ستراوس معيناً كسفير للولايات المتحدة في اسطنبول ويدير المؤامرات مع حركة الاتحاد والترقي ضد الدولة العثمانية.

وعلى المستوى الرسمي نجد بأن واشنطن حاولت، وعلى مدى عقد من الزمان، وتحديداً في أعقاب اندلاع المذابح الروسية عام 1881، الضغط على الباب العالي لفتح فلسطين أمام الهجرة اليهودية. وفي هذا الشأن طلبت وزارة الخارجية من السفير الأمريكي في اسطنبول، ليو والاس، بعرض القضية شخصياً أمام السلطان عبد الحميد الثاني. لم يتردد والاس- وهو الذي كان من أشد أتباع عقيدة الإعادة تحمساً- في ممارسة الضغوط على السلطان من أجل إعادة توطين اليهود الهاربين من أوروبا في فلسطين. هذه القضية نفسها كانت الشغل الشاغل، أوسكار شتراوس وسولومون هيرش اللذين، وإن كانا من اليهود غير الصهيونيين، إلا أنهما كانا من المتحمسين تماماً لقضية عودة اليهود إلى الأرض المقدسة من منظور ديني. لم تؤت جهود المبعوثين الأمريكيين ثماراً تذكر، بل إن العثمانيين، الذين كانوا يخشون الصهيونية ويعتقدون بتورطها في الخطط الأجنبية الخاصة بتفكيك الإمبراطورية، عمدوا إلى فرض المزيد من القيود المشددة على أشكال الهجرة اليهودية كافة إلى فلسطين. ومن جانبها، لم تظهر القوي الأوروبية رغبة في التدخل بالنيابة عن اللاجئين اليهود أو استعداداً للسير على خطى أمريكا إلى فلسطين. [1]

أدان الدبلوماسيون الأمريكيون الإجراءات التركية ضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين باعتبارها "تعسفية" و" بغيضة... في نظر دستورنا (الأمريكي)". واستغل دعاة هجرة اليهود قمع الأتراك للانفصاليين الأرمن لاتهام اسطنبول باقتراف المذابح. وهذا أبراهام إيلكوس، محام يهودي آخر من نيويورك الذي حل محل مورغنثاو كسفير للولايات المتحدة لدى البلاط السلطاني، يبلغ وزارة الخارجية بأن الأتراك ينتهجون"سياسة إبادة مفتوحة من خلال التجويع والمعاملة الوحشية غير المسبوقة حتى في التاريخ التركي". وفي

[1] Power, Faith and Fantasy, Michael B. Oren, W.W. Norton & Company, New York, London, P 279

حين أن المصادر الأرمنية والأخرى تتحدث عن مصرع أكثر من مليون ونصف المليون أرمني في المذابح المذكورة؛ فإن الحكومة التركية ترفض الاعتراف بوقوعها من الأساس فكيف بالاعتذار عنها كما يطالب الأرمن. غير أن إيلكوس وجد نفسه أمام مآس أخرى تستحق المتابعة، بما فيها الهجمات التركية المتصاعدة ضد السكان اليونانيين في سميرنا وغرب الأناضول.

أجندة مختلفة للسلطان عبد الحميد

كان السلطان عبد الحميد مصمماً على عدم السير على خطى أسلافه من السلاطين الضعاف نفسها ، وأظهر العزم على إعادة توحيد الدولة العثمانية تحت راية الإسلام، على عكس ما كان يرغب به المبشرون الأجانب، ويعمل الغرب على تجنبه على مدار العقود الماضية. وعليه فإن الظروف كانت مواتية لمواجهة وشيكة بل إن هذه المواجهة المحتومة كانت قيد الإعداد الفعلي. كان القائمون على الحملة التبشيرية يعتقدون بأن العلمانية، من خلال البرنامج القومي، مجرد البداية للحدث الكبير المتمثل في تفكيك الدولة العثمانية المسلمة. وفي هذا يقول المبشر المخضرم في بيروت هنري جيسوب:" في الحرب مع الإسلام.. نحن بصدد وضع الدرع ليس إلا.. فالوقت لا يزال مبكراً جداً على التلويح بإشارات النصر". في ذلك الوقت كان المبشرون قد نجحوا في إقامة أكثر من مئة كنيسة في أنحاء سوريا الكبرى ويديرون أكثر من200 مؤسسة تبشيرية، ومع ذلك فإن النتائج ظلت مخيبة للآمال بدرجة كبيرة.. فالمبشرون كانوا غير قادرين على إنقاذ الأرواح البشرية ولا إقناع احد بالتحول للدين المسيحي من المسلمين أو اعتناق المذهب البروتستنتي من المسيحيين الشرقيين. بل إن المبشرين وجدوا أنفسهم أمام حالات معاكسة، كما حصل مع القنصل الأمريكي لدى الفلبين ألكسندر راسل، الذي تحول للإسلام عام1888 بعد أن كان عضواً ملتزماً في الكنيسة المشيخية. عاد راسل إلى مسقط رأسه نيويورك ليبني أول مسجد على الأرض الأمريكية ويصدر أول جريدة إسلامية في تاريخ البلاد.

ما ميز السلطان عبد الحميد عن غيره من سلاطين القرن التاسع عشر كان إدراكه بأن حركة تركيا الفتاة وحركة الشبيبة العثمانية وغيرها كانت تحظى بدعم أجنبي، وتقوم على إيديولوجية أجنبية غريبة عن المجتمع التركي المسلم، مما يتناقض تماماً ومعتقداته ومبادئه كمسلم تقي ومخطط استراتيجي كذلك. فقد كان السلطان عبد الحميد يؤمن بالإسلام كإيديولوجية محلية أساسا لقيام الدولة العثمانية، وذلك عندما أصبح السلطان العثماني بدءاً من عام 1517 خليفة للمسلمين في الوقت ذاته، وعليه فقد أكد السلطان عبد الحميد الثاني على دور الإمبراطورية باعتبارها الدولة المحور في العالم الإسلامي والمجسد للخلافة الإسلامية. اعتبر السلطان الهجوم الذي تشنه القوى الكبرى على الإمبراطورية بمثابة هجوم على الإسلام.. ولم يتردد في تحجيم الامتيازات التي كان يتمتع بها الأجانب في الإمبراطورية باعتبارها اعتداءً على سيادة ووحدة وهيبة الدولة، وأوفد المبعوثين إلى أصقاع الإمبراطورية لحض المسلمين على الوحدة تحت راية الخلافة. كان السلطان عبد الحميد يقدم على عكس كل شيء يريده المبشرون منه، ويجسد كل ما هو مخيب للآمال بالنسبة لهؤلاء وللغرب وبخاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين . فقد رفض السلطان العرض المغري الذي تقدم به ثيودور هيرتزل لتسديد سائر ديون الإمبراطورية، مقابل صك يسمح لليهود باستيطان فلسطين. ومما جاء في رد السلطان عبد الحميد الثاني على عرض هيرتزل بهذا الشأن القول:" أن أسمح بتقطيع أجزاء من جسدي بمشرط، لهو أقل إيلاما لي من رؤية

فلسطين وهي تقتطع من دولة الخلافة وهو ما لن يحدث.. ليحتفظ اليهود بملايينهم وعندما تتمزق الخلافة يوماً ما سيكون باستطاعتهم الحصول على فلسطين بدون مقابل". [1]

طبقاً لبحث أعده د. وليد الخالدي، الأستاذ في جامعة هارفارد بعنوان: الحركة الصهيونية، فإن أدولف بوهم ، أحد أبرز المراجع فيما يتعلق بالحركة الصهيونية ، نشر النص الكامل لوثيقة هامة ونادرة من أرشيف هيرتزل في فيينا، وهي عبارة عن مسودة اتفاقية (صك أو عقد) مقترحة بين المنظمة الصهيونية العالمية والحكومة العثمانية تتعلق فيما وصفته الوثيقة بـ" امتيازات، وحقوق، ومسؤوليات، وواجبات شركة الأرض اليهودية- العثمانية، بشأن تسوية خاصة بسوريا وفلسطين". ومع أن الوثيقة لا تحمل تاريخاً محدداً إلا أنها كتبت على ما يبدو في وقت ما بين صيف 1901 وأوائل 1902.

من الجدير الالتفات هنا إلى حقيقة أن أول الاجتماعات للتآمر على السلطان عبد الحميد عقدت في باريس عام 1902بعد رفضه لعرض هيرتزل.

إصلاحات عبد الحميد الثاني

وجد السلطان عبد الحميد نفسه أمام خيارات محدودة لدرجة اعتقد فيها بإمكانية مصادقة الإمبراطورية الألمانية، فكان أن استضاف القيصر وليام الثاني في قصر يلديز بتاريخ 21 أكتوبر 1889. بعدها بتسعة أعوام، وتحديدا بتاريخ 5 أكتوبر 1898، بدأ ضباط الألمان عملية إعادة تنظيم الجيش العثماني ، في وقت استقدمت الحكومة العثمانية خبراء ألمان لإعادة تنظيم النظام المالي للإمبراطورية. كما زودت ألمانيا السلطان بالقروض السخية ومولت مشروع مد شبكة للخطوط الحديدية، بما فيها خط بغداد والخط الحديدي الحجازي.

وبالرغم من ادعاءات لورد كينروس بأن السلطان العثماني كان يعاني من عقدة نفسية بسبب فقدان والدته الشركسية منذ الصغر، لدرجة جعلته غير قادر على حب أحد بما في ذلك نفسه، فإن الكاتب نفسه لم يستطع إنكار الإنجازات والإصلاحات الكبيرة التي حققها عبد الحميد الثاني، فكان أن تحدث عنها في صفحات لاحقة من كتابه، ومن ذلك: إيجاد أول وزارة للبريد والبرق، وترتيب دورات تدريبية في المدارس لإعداد الطلبة للعمل كمشغلين لخدمة البرقيات. بالإضافة إلى ربط العاصمة بسائر أرجاء البلاد وأجزاء من الإمبراطورية بشبكة خطوط تلغرافية بطول2000 ميل، مما عمل على تطوير الاتصالات، ومكن السلطان عبد الحميد الثاني من السيطرة المباشرة على الدوائر الرسمية، بحيث لم يعد باستطاعة الحاكم إدارة شؤون ولايته كما يشاء، بل أصبح مسئولا أمام السلطان عن تصرفاته بصورة أكبر من ذي قبل.

وبالرغم من توخيه الحذر في التعامل السياسي مع الغرب، فإن السلطان عبد الحميد استعان بالغرب عندما تعلق الأمر بعملية التحديث في الحقل التكنولوجي، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالإصلاح القضائي والتعليمي، وصولاً إلى إعداد كادر وظيفي أكثر كفاءة وقدرة على إدارة الإمبراطورية ضماناً لتحقيق التقدم والتنمية. وعمل السلطان عبد الحميد على تطوير القطاع التعليمي بهدف تخريج كفاءات قادرة على إدارة شؤون الدولة بطرق حديثة، بعيداً عن الفساد والتخلف الذي يميز عمل المسئولين الحاليين. ولتحقيق هذه الطموحات، أعاد السلطان

[1] http://en.wikipedia.org/wiki/Abdul_Hamid_II

تنظيم "الملكية" وهو أول مركز عال للتعليم المدني يقام في البلاد، وطور الكلية الحربية وكليات البحرية والطب للأغراض المدنية والعسكرية. كما يعترف لورد كنروس في كتابه المعنون: "القرون العثمانية.. ظهور وسقوط الإمبراطورية العثمانية"، بأن "عبد الحميد عزز النظام التعليمي بأنشاء 18 مدرسة ثانوية ومهنية متخصصة جديدة غطت العديد من المجالات، مثل الاقتصاد والفنون الجميلة والهندسة المدنية والشرطة والأزياء. كما أسس جامعة اسطنبول، وأوجد الأسس الاقتصادية والتعليمية والمهنية الكافية لخلق طبقة متعلمة ونخبة من موظفي الخدمات المدنية المدربين وإداريين أكفاء لتدبير شؤون "النظام الحميدي".. والنظام الحميدي "المضاد" الذي سيعقبه بكل ما يحمله الأمر من مفارقة مثيرة".[1]

وبهدف الحد من الامتيازات التي يتمتع بها الأجانب بموجب "قانون امتيازات الأجانب"، فقد أوعز لوزارة العدلية بسن قانون جديد يقضي بتقليص أو إلغاء الامتيازات التي يتمتع بها الأجانب في الإمبراطورية، بموجب المعاهدات التي فرضتها القوى الكبرى على الدولة العثمانية، الأمر الذي لقي الرفض من قبل البعثات الأجنبية. كما عمل السلطان عبد الحميد على توسيع قاعدة القراءة العامة من خلال تشجيع النشر وظهور المزيد من المطبوعات من صحف ومجلات وكتب. وتكتسب هذه الإنجازات أهمية خاصة وإضافية في ظل حقيقة أن خزينة الدولة كانت فارغة والإمبراطورية تعاني من عجز في القدرة على الوفاء بديونها الخارجية الخانقة لدى تسلم السلطان عبد الحميد الثاني مهام الحكم.

ويضيف كنروس في هذا الشأن:" فيما يتعلق بالجانب المالي، أصبحت الإمبراطورية العثمانية تحت رحمة أوروبا أكثر من أي وقت مضى. ففي مؤتمر برلين وجدت القوى المعنية نفسها ولأول مرة في مواجهة مشكلة عجز اسطنبول عن سداد الديون المستحقة. وطبقاً للبروتوكول الذي خرج به المؤتمرون، فقد اتفقت الدول الدائنة على إنشاء مفوضية مالية دولية في اسطنبول مهمتها البحث عن وسائل لمعالجة الوضع المالي الصعب الذي يعاني منه الباب العالي، وبما يرضي حملة الصكوك. كانت النتيجة أن الإمبراطورية العثمانية وجدت نفسها أمام احتمال يبعث على الإذلال وهو: فقدان الكثير من سيادتها في الداخل بعد أن خسرت أراضيها في الخارج. في عام 1881 صدر عن السلطان عبد الحميد "مرسوم محرم" الذي ينص على إنشاء مجلس الدين العام. كانت مهمة المجلس الجديد، الذي يضم ممثلين عن الدولة والأطراف الأجنبية المعنية ، إدارة ديون الإمبراطورية، بما يكفل وفاء الدولة بما يستحق عليها من أقساط الديون. اتسمت صياغة المرسوم الإمبراطوري من قبل السلطان بطريقة ذكية للغاية تكفل إظهار قدر من حسن النوايا الأوروبية تجاه تركيا بدون المساس بالسيادة الوطنية واستقلالية سلطات السلطان.. كما أن نص المرسوم جاء لصالح الخزينة الإمبراطورية من خلال تخفيض حجم الدين العام إلى النصف ليصبح أعلى من مئة مليون جنيه بقليل، وبفائدة مخفضة لا تزيد عن 4% وتنخفض أحياناً إلى 1%. وبالمقابل تنازلت الخزينة للمجلس عن جزء كبير من العائدات السنوية للحكومة لتسديد الفوائد واستعادة صكوك الدين" . [2]

[1] The Ottoman Centuries, The Rise and Fall of the Turkish Empire, Lord Kinross, Perennial, 2002, Pg 536

[2] The Ottoman Centuries, The Rise and Fall of the Turkish Empire, Lord Kinross, Perennial, 2002, pg. 537

وفي ظل السلطان عبد الحميد تم ربط تركيا مع أوروبا الغربية بخط حديدي لأول مرة بوصول أول قطار من فيينا إلى اسطنبول، وكان ذلك في عام1888 فيما عرف لاحقاً بقطار الشرق السريع.... كانت إنجازات رائعة لسلطان تسلم مقاليد الحكم بخزينة فارغة.

أمريكا في مصر و.. فرنسا في شمال إفريقيا

لم تجذب مصر اهتمام البعثات التبشيرية معظم النصف الأول من القرن التاسع عشر. كما أن جواً من الفتور سيطر على العلاقات المصرية الأمريكية بإرسال مصر لقوات إلى المكسيك للمحاربة إلى جانب الفرنسيين خلال الحرب الأهلية الأمريكية في انتهاك لعقيدة مونرو.

عندما راودت الخديوي إسماعيل الشكوك تجاه دوافع البريطانيين والفرنسيين ، الذين كانوا وقتها المصدر التقليدي لتسليح القوات المصرية، قرر عام 1868 التحول إلى الولايات المتحدة طلباً للعون على شكل خبراء ومستشارين عسكريين. ولأن مثل هؤلاء الخبراء كانوا متوفرين بأعداد كبيرة بعد الحرب الأهلية، فقد وصل العديد من الضباط الأمريكيين إلى مصر لإعادة تنظيم الجيش المصري في وقت تدشين قناة السويس نفسه. وقتها كانت مصر في عهد الخديوي إسماعيل تنوء تحت طائلة الديون التي وصلت إلى مئة مليون دولار وهو مبلغ كبير في مقاييس تلك الأيام. شكل الأمريكيون أول هيئة أركان عامة في تاريخ الجيش المصري، وجلبوا معهم مطبعة ، وأقاموا مكتبة ثم أشادوا مدرسة للضباط وعائلاتهم في العباسية تدرس مناهجها بالعربية. بحلول 1873 كان لدى المصريين جيش حديث على الطراز الغربي بما في ذلك كلية حربية، ومراكز قيادة وتحكم، ونظام لنقل الأوامر، إلا أن الافتقار للقاعدة الاقتصادية في ظل تراكم الديون حال دون تمكين الدولة المصرية من الاستمرار على هذا النهج. وجاءت خطوة الخديوي إسماعيل ببيع أسهم مصر في قناة السويس لتشكل انتكاسة فعلية للسيادة المصرية، وفي يونيو 1878، أوصى الأوروبيون الذين يشرفون على إدارة اقتصاد البلاد، بتخفيض الإنفاق بنسبة كبيرة، بما في ذلك الاستغناء عما تبقى من المستشارين العسكريين الأمريكيين، وإغلاق المدارس التي بناها الأمريكيون بحجة تقليص الميزانية.

كانت النتيجة أن القوى الأوروبية عملت، وخلال أقل من ثلاث سنوات، على إعلان إفلاس مصر رسمياً ، وإزاحة الخديوي إسماعيل وتنصيب الخديوي توفيق مكانه. دفعت الإجراءات الاقتصادية الصارمة والنفوذ والتدخل الإنجليزي المباشر في شؤون البلاد بضباط الجيش المصري بقيادة العقيد أحمد عرابي للتمرد. وبحلول 1882 كانت ثورة عرابي قد أصبحت تهدد عرش الخديوي ناهيك عن قناة السويس بالطبع، الأمر الذي دفع الإنجليز للتحرك السريع، فكان إرسال سفنهم الحربية لمحاصرة وقصف الإسكندرية. سقط المئات من المصريين قتلى وتم إسكات المقاومة. وقعت بعدها مصر تحت الاحتلال البريطاني. في الوقت نفسه قامت القوات الفرنسية عام 1881 باحتلال تونس قادمة من الجزائر.

خلال حصار وقصف الإسكندرية شاركت ثلاثة قوارب حربية أميركية كانت تتواجد في المياه المصرية في الهجوم البريطاني. ولأن الأوامر الصادرة للقائد البحري البريطاني كانت حصار وقصف الميناء المصري دون النزول على الشاطئ، فقد أوكلت مهمة الإنزال للأميركيين بحجة حماية المدنيين.

السياسات العربية والإسلامية

لا يزال الغرب غير قادر على استيعاب حقيقة العلاقة بين الدولة والدين في الإسلام. فالإسلام الذي لا رهبأنية ولا كنيسة فيه، لا يضع حدودا فاصلة بين الدين والدولة إذ إن الدين وحده هو الذي ينظم سائر أوجه الحياة بالنسبة للمسلم. مثل هذا الجهل من جانب الغربيين هو الذي دفعهم للنظر إلى الخلافة على أنها نسخة إسلامية للبابوية المسيحية. وفي ذلك يقول جورج أنتونيوس في كتابه المعنون "اليقظة العربية": " مثل هذه النظرة للخلافة المستمدة جزئياً من تشبيه زائف بالبابوية كانت خاطئة جملة وتفصيلاً لأنها تتجاوز حقيقة أن المسجد والدولة نسيج واحد، وبأن تعبير الخليفة، من الناحية الفعلية، ليس سوى لقب آخر من الألقاب التي تطلق على الحاكم. كانت خطة السلطان عبد الحميد العمل على استعادة المكانة المناسبة للخلافة". [1]

في كتابه المعنون : سلام ينهي كل السلام، يوضح المؤرخ ديفيد فرومكين هذه المسألة، بالقول:" لم يتوقف العلماء عن محاولة شرح هذه المسألة أمام طلبة العلم الغربيين المهتمين بالإسلام والشرق الأوسط، وهي أن الفصل بين السلطتين الدنيوية والدينية والذي فجر صراعاً بين الملوك والبابا في أوروبا القرون الوسطى، غير معمول به في الإسلام. لقد اخطأ الكثيرون أمثال: كيتشنر، وينغيت، كلايتون، وستورز الاعتقاد بأن الخليفة ليس سوى زعيم روحي. ففي الإسلام تخضع جوانب الحياة المختلفة بما فيها الحكم والسياسة، لأحكام الشريعة. وعليه فإن المسلمين السنة أمثال السلطان العثماني وشريف مكة، يعتقدون بأن الخليفة هو مزيج من: الأمير والحاكم والقائد العسكري، بالإضافة إلى كونه الإمام الذي يقود المسلمين في الصلاة ، وهو أمر لم يدركه أو يستوعبه البريطانيون عندما احتلوا القاهرة". [2]

في العقد نفسه الذي شهد وصول السلطان عبد الحميد للحكم، عايش الشارع الإسلامي انتشار حركة تجديد ديني، كان الشيخ سيد جمال الدين الأفغاني أحد أبرز رموزها. كان الأفغاني خطيباً مفوهاً كرس معظم خطبه لدعوة المسلمين للتحرر من الهيمنة الأجنبية، والتجديد الأخلاقي والتوحد تحت راية زعيم واحد تتم مبايعته من الجميع كخليفة للمسلمين أجمع. في تلك المرحلة كان السلطان عبد الحميد الثاني منشغلاً في وضع الأساس لسياسته الإسلامية الجديدة الرامية لتجديد روح الدولة العثمانية. أدرك عبد الحميد وقتها بأن الجماعات التبشيرية والقوى الغربية تعمل جاهدة لتفكيك دولته، وبأن هؤلاء لا يخفون نواياهم ولا إصرارهم على رؤية نظام علماني في اسطنبول بدلاً من الدولة العثمانية الإسلامية.عاش السلطان عبد الحميد سنواته في الحكم وهو يشاهد القوى المذكورة وهي تعمل على تقطيع أوصال إمبراطوريته، بدءاً بالمناطق الأوروبية وصولاً إلى الولايات الإفريقية، من خلال تشجيع واستغلال النزعات القومية ليس في المناطق ذات الأغلبية المسيحية فحسب، بل في المناطق ذات الأغلبية المسلمة أيضاً. وفي حين غذت الجماعات التبشيرية نزعة العروبة في سوريا بما فيها جبل لبنان وفلسطين، فقد عمل المبشرون على تغذية النزعة التركية في الأناضول. توصل السلطان عبد الحميد إلى قناعة بأن الإسلام وحده الذي أسهم في عظمة الدولة العثمانية الإسلامية وأنه من خلال الإسلام فقط يستطيع توحيد وتعزيز قدرات الدولة في مواجهة الهجمة العدوانية على الدولة المسلمة. كان عبد الحميد عازماً على استخدام سلطة الخليفة كأداة لتعزيز سلطة وهيبة الأمة الإسلامية. وقتها

[1] The Arab awakening, George Antonius, Simon Publications, 2001, Pg 69
[2] A Peace to End All Peace, David Fromkin, Henry Holt &Co, New York,1989, Pg 104

كان المسلمون قد ضاقوا ذرعاً بالاستعمار الغربي والروسي ويتطلعون إلى الدولة العثمانية لتخليصهم من الاستعمار الأجنبي وإحياء الإسلام. عرف السلطان عبد الحميد بالتزامه الديني وبورعه وتطبيقه تعاليم الدين في القصر، بما في ذلك حظر سائر الممارسات التي يحرمها الإسلام بما فيها شرب الخمور. كما أحاط السلطان نفسه بعلماء الدين وكان يعمل بنصائحهم. كما أقام كلية دينية متخصصة في إعداد الدعاة وإرسالهم إلى أقصى بقاع الأرض للدعوة إلى سبيل الله، وخصص الكثير من الأموال للمدارس الدينية داخل أراضي الدولة العثمانية وخارجها. تركت سياسة السلطان أثرها الكبير على المسلمين غير الأتراك وبخاصة العرب الذين تجاوبوا معها والتزموا بها. ومن جانبه أنفق السلطان بسخاء على المؤسسات التعليمية العربية، وشكل وحدة حرس خاصة من العرب وعين الكثير منهم في مواقع رئيسية في الدولة بما فيها القصر، بل إن هناك من يؤكد بأن نفوذ الموظفين العرب فاق سلطة المسئولين الأتراك . ومن بين العرب الذين برزوا في خدمة السلطان وقتها عزت باشا العابد الذي خدم السلطان على مدار 13 عاماً حتى الإطاحة بعبد الحميد عام 1908. كان عزت باشا يعتبر أقوى المسئولين نفوذاً على مستوى الإمبراطورية، حيث أشرف شخصياً على مشروع مد خط الحديد الحجازي بدءاً من عام 1901 وحتى وصوله المدينة المنورة عام 1908، وهو المشروع الذي لم يكتمل بعد الإطاحة بالسلطان بعدم وصوله إلى مكة المكرمة طبقاً لما هو مخطط. كما أن الخط تعرض بعدها للتخريب المقصود من قبل لورنس العرب وعصاباته. وبالرغم من الاجتماعات المتكررة على مدى قرن كامل بين سوريا والأردن والسعودية، ما يزال خط الحديد الحجازي ينتظر قراراً سيادياً من هذه الدول بإعادة تشغيله.

عن هذا الموضوع يقول لورد كينروس في كتابه "القرون العثمانية": في أعين رعاياه، كان السلطان عبد الحميد هو من أعاد إرساء النظام الإسلامي التقليدي القوي المتحرر من التدخلات والنفوذ الأجنبي، نظام جدير بالفهم والاحترام باعتباره نابعاً من المفاهيم والتقاليد الإسلامية والمحلية. وجد الرعايا في خليفتهم السلطان عبد الحميد سمات جديرة بالاحترام كمسلم تقي ورع ومتقشف. وفي الوقت نفسه وجد الآخرون في السلطان ذلك الحاكم الجدير بالدعم والولاء ليس من قبل وزرائه والمحيطين به والمؤسسات الحاكمة مثل القوات المسلحة فحسب، بل ومن هيئة العلماء، ورجال الدين على كافة مستوياتهم. نجح عبد الحميد في جذب الاهتمام بعيداً عن الغرب باعتباره عالماً غريباً وبعيداً، ومصدراً للأفكار والآراء السياسية المضللة التي حاربها السلطان بفرض رقابة على الصحف. ومن جانبهم، اعترف القائمون على المعارضة مثل حركة الشبيبة التركية بأن أفكارهم الخاصة بإصلاح المؤسسات الإسلامية وتحديثها مستمدة من الغرب، على عكس عبد الحميد الذي اعتمد في إصلاحاته على القناعة بأن الحضارة العربية هي المصدر الفعلي للحضارة الأوروبية، التي اقتبست من الإسلام ليس نظامها الدستوري فحسب بل أخذت عن المسلمين العديد من العلوم والتكنولوجيا، مثل الجبر والكيمياء والفيزياء، وعدداً من الاختراعات مثل البوصلة والبارود، إضافة للآداب وكتابة التاريخ، بل وكل ما هو مفيد ومثير للإعجاب في الغرب. وعليه ما الشيء الذي احتاجه المسلمون من الأوروبيين وحاولوا بعدها تطويره ؟ وطبقاً لأحد الكتب الذي تطرق للنظرية نفسها فإن" أسس الحضارة المعاصرة ليست سوى ما أوثر عن النبي محمد من أعمال وتقاليد".

وهذا السفير البريطاني في اسطنبول يقول في رسالة له كتبها قبل سنة واحدة فقط من الإطاحة بالسلطان عبد الحميد بأن:" سياسة عبد الحميد الإسلامية هي التي مكنت

السلطان من طرح نفسه كخليفة وزعيم روحي أمام 300 مليون مسلم، وتنفيذ المشروع المثير لاهتمام، وإعجاب رعاياه من المسلمين الذين سيتمكنون قريباً بفضله من الوصول للمشاعر المقدسة في مكة والمدينة .. كانت النتيجة أن السلطان استحق، وبدرجة غير مسبوقة، نيل الطاعة العمياء من رعاياه واستمالتهم للقبول بنظامه السلطوي وبدرجة لم تسجل ربما على مدار التاريخ". [1]

شكل توحيد العالم الإسلامي تحت راية واحدة، حلم السلطان عبد الحميد الذي جهد في العمل على تحقيقه منذ اليوم الأول له في الحكم. شرع عبد الحميد الثاني في وضع إستراتيجيته موضع التنفيذ بكثير من الاجتهاد والهمة العالية، وذلك من خلال توسيع اتصالاته مع الطوائف الإسلامية المختلفة داخل الدولة وخارجها. وكانت قد اتضحت أكثر ما يكون ومن البداية بتعيينه الشركسي الجنرال خير الدين في منصب الوزير الأعظم (رئيس الوزراء هذه الأيام) وذلك في خروج على التقليد المتبع وهو وضع شخصية تركية على رأس الحكومة. ولم يخف السلطان الأسباب التي دفعته لمثل هذا التصرف؛ إذ شرحها في الفرمان الخاص بتعيين رئيس الحكومة، والذي جاء فيه القول بأن... من حقه كخليفة الاستفادة من خبرات أكفأ العناصر المسلمة في أي مكان من أرض الإسلام. ما فعله السلطان كان إيصال رسالة واضحة للمسلمين في كل مكان من أن خليفتهم سيختار تعيين كبار المسئولين من الأعراق كافة بدون إعطاء الأفضلية للأتراك بالضرورة. أظهر السلطان اهتماماً يرقى إلى حد الهوس بالمجتمعات الإسلامية في المناطق المسيحية السابقة من الإمبراطورية وفي البلدان الأبعد، وانتهت الأمور به لأن يصبح رجل آسيا القوي بدلاً من رجل أوروبا المريض... "غير أن السلطان بمثل هذه السياسة الإصلاحية والموحدة للمسلمين ما كان إلا وأن يثير المزيد من عداء أوروبا والعالم المتحضر تجاه الدولة العثمانية وبشكل أكبر من أي وقت مضى".

عن استخدام البريطانيين لعامل القومية والفرنسيين لعامل الدين في حملتهم الخاصة بتفكيك الإمبراطورية العثمانية المسلمة، كتب ديفيد فرومنكن في كتابه : "سلام ينهي كل سلام"، يقول: "كانت القوى الأوروبية في ذلك الوقت تعتقد بأنها قادرة على تغيير آسيا الإسلامية في عمق وجودها السياسي. كانت النتيجة أنهم، وبمحاولتهم فعل ذلك، أدخلوا نظام دولة مصطنعاً إلى الشرق الأوسط، الذي تحول بذلك إلى مجموعة من الكيانات التي لا تزال عاجزة وحتى يومنا هذا عن أن تصبح دولاً ذات هوية مميزة ومستقلة. ومن جانبها تجاهلت روسيا الاستعمارية أو شككت في قوة الدين الذي يشكل أساس الحياة السياسية في الشرق الأوسط لتقترح الشيوعية كبديل إيديولوجي ، بينما طرح البريطانيون القومية أوالعائلة الملكية بديلين للدين، وهي قضية لا تزال حية وتكتسب الكثير من الأهمية في المنطقة بفضل جهود إيران الخميني في الشارع الشيعي، وحركة الإخوان المسلمين في مصر وسوريا وغيرهما في العالم السني. ومع أن الحكومة الفرنسية سمحت ببقاء الدين أساساً للسياسة في الشرق الأوسط، إلا أنها عمدت إلى مناصرة مذهب ضد الآخر، الأمر الذي لا يزال ملموساً حتى يومنا هذا، خصوصاً في بلد مكتوٍ بصراع الطوائف مثل لبنان الذي عانى من حرب طائفية دموية في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي". [2]

---

[1] Gooch and Temperley, British Documents on the Origin of the War. Vol.V,p43

[2] A Peace to End All Peace, David Fromkin, Henry Holt& Co, New York,1989, Pg 17

تركيا الفتاة بدون تركيا والانقلاب الماسوني اليهودي

جاء في كتاب للسير مارك سايكس الشهير الذي ارتبط اسمه أكثر ما يكون باتفاقية سايكس-بيكو الإنجليزية الفرنسية السرية، الخاصة بتقاسم الإرث العثماني في المنطقة العربية وتفتيته إلى دول ودويلات، خاضعة للاستعمار والنفوذ الانجليزي الفرنسي، القول:" كم من الناس يدركون لدى الحديث عن تركيا والأتراك بأنه ليس هناك من مكان أو شعب بهذه الأسماء". مثل هذا القول لا يجانب الحقيقة في الواقع. وبالفعل فإن العثمانيين قدموا من تركستان في آسيا الوسطى وتخلوا عن الإرث التركي لاعتناق الإسلام قبل عدة قرون في أعقاب هجرتهم إلى الأناضول". غير أن الانقلابيين على الدولة العثمانية كانوا بحاجة لاسم جديد لتسويق أنفسهم جاهدين لإخفاء أجندتهم الفعلية.. وهكذا ظهرت تعبيرات تركيا والشبيبة الأتراك وتركيا الفتاة من المجهول. كانت القومية هي الشعار الذي تبناه الغرب وعملاؤه والبعثات التبشيرية في حملتهم لتدمير الدولة العثمانية المسلمة.

بعد أن اصطدمت جهودهم في إقناع عبد الحميد الثاني بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين برفض قاطع من السلطان، توصل الصهاينة إلى قناعة بأن "تغيير النظام" في اسطنبول هو وحده الكفيل بتحقيق حلمهم في فلسطين. وهكذا بدأ التخطيط للإطاحة بالسلطان، وكان أول اجتماع عقد في هذا الصدد مباشرة بعد رفض السلطان لعرض هيرتزل الخاص بمقايضة فلسطين بديون الإمبراطورية. وطبقاً لموسوعة ويكابيديا فإن:" أول مؤتمر تعقده المعارضة "التركية" كان ذلك الذي عقد بتاريخ 4 فبراير 1902 في منزل المدعو جيرماين انطوان ليفيفر-بونتاليس، الذي كان عضواً في المعهد الفرنسي.. كانت المعارضة تنشط بالتنسيق مع الحكومة الفرنسية بعيداً عن الأعين. أما المؤتمر الثاني للمعارضة فعقد في باريس عام 1907 وبهدف توحيد الأحزاب كافة بما فيها حزب:" لجنة الاتحاد والترقي"، تمهيداً لإشعال الثورة " . وقبل المؤتمر الثاني للمعارضة بعام ، أسس محمد طلعت (1906)،في سالونيكا حزب: حركة الحرية العثمانية ، والذي كان سباقاً في الدعوة الى توحيد المعارضة تحت راية حزب: "لجنة الاتحاد والترقي". وفي هذا الصدد أبدى طلعت اهتماماً خاصاً بتجنيد صغار الضباط من الجيش الثالث الذي كانت قيادته موجودة في سالونيك.

وأضافت ويكيبيديا:" مع أن الأوروبيين والعديد من الباحثين اعتادوا وصف قيادة حزب تركيا الفتاة بأنها مجموعة من السياسيين الدستوريين، خاصة وأن لغة الخطاب التي استخدمها هؤلاء ركزت على حكم الدستور ، غير أن الواقع يشير إلى أن زعماء الحزب المذكور كانوا يسيرون على نهج مغاير، يقوم على خلق نخبة مثقفة لحكم الإمبراطورية، بعيداً عن التفكير بإشراك الجماهير في صنع القرار أو حتى إدارة شؤون البلاد".

بعد مؤتمر المعارضة الثاني في باريس أنذرت قيادة حزب لجنة الاتحاد والترقي، السلطان بتاريخ 13 مايو 1908 بضرورة استعادة العمل بالدستور، علماً بأن هؤلاء أنفسهم بادروا لتعليق العمل به وفرضوا الحكم الدكتاتوري والإيديولوجية الغريبة لدى تسلمهم مقاليد الأمور في البلاد لاحقا. وفي 12 يونيو بدأ الجيش الثالث المتمركز في ماسيدونيا زحفه على القصر واستعيد العمل بالدستور بتاريخ 24 يوليو 1908.

مع أن قادة المعارضة وبخاصة حزب الاتحاد والتقدم واصلوا نهجهم الخاص بإخفاء أجندتهم المعادية للإسلام، إلا أن ممارساتهم كانت مكشوفة بدرجة كافية لفضح نواياهم الحقيقية، فكان أن تعرضوا لإدانة شديدة من العلماء الذين اتهموهم بـ:" محاولة تغيير الإسلام وتحويله إلى شيء، وإيجاد دين جديد وتقديمه للناس على أنه الإسلام الفعلي". كانت النتيجة

انفجار ثورة مضادة تلقائية ضد حزب الاتحاد والترقي عام 1909 انضم خلالها الجنود وصغار الضباط لصفوف جماهير المسلمين الغاضبة من جمعية محمد. نشبت على إثرها مواجهات مسلحة استخدم خلالها ضباط الحركة الانقلابية المدفعية الثقيلة ضد المعارضين المتآمرين من جنود ومدنيين. ومع أنه لم يكن للسلطان أي يد في العملية العسكرية التصحيحية التي قام بها العلماء والمسلمون المحتجون على أجندة الأحزاب العلمانية، إلا أن الانقلابيين وجدوها فرصة لتحميله المسؤولية والتحرك للإطاحة به واستبداله بشقيقه الذي سيخدم كرمز لا حول له ولا قوة، بأنتظار تسلم حزب الاتحاد والترقي الحكم، وحل الدولة العثمانية المسلمة واستبدالها بنظام جمهوري علماني. وفي ذلك يقول لورد كينروس في كتابه:" القرون العثمانية.." بأن:" الانقلابيين أبقوا على حياة السلطان، وتم نقله في ساعة متأخرة من الليل إلى محطة القطار ومن هناك إلى سالونيكا .. حيث أودع في فيلا الاتيني التي لم تكن سوى منزل أحد اليهود".[1]

في كتابه المعنون" سلام ينهي كل سلام"، تحدث ديفيد فرومكين أستاذ التاريخ في جامعة بوسطن، عن جذور حزب الاتحاد والترقي الذي نشط مع الأحزاب الصغيرة المتحالفة تحت اسم: حركة الشبيبة الأتراك. ومما قاله فرومكين بهذا الشأن:" كانوا (حزب الاتحاد والتقدم) يحظون بتعاطف وزارة الخارجية في لندن، ومع ذلك فقد كان للقنصلية البريطانية في القسطنطينية رأي مختلف، حيث كان السفير سير جيرارد لاوثر ينظر لقادة المعارضة بكثير من الازدراء. ويبدو أن السفير كان إلى حد كبير تحت نفوذ وتأثير مستشاره ومترجمه الرسمي لشؤون الشرق جيرالد فيتزموريس .. جاء تفسير الأخير لأحداث 1908 مقروناً بحقيقة هامة وهي أنها حدثت في سالونيكا، البلدة التي كان نصف سكانها إما من اليهود أو من طائفة "الدونمه" (أتباع مذهب يهودي تحولوا إلى الإسلام في القرن السابع عشر). كما عرفت سالونيك أيضا بأنها مركز نشط لمهاجع الماسونية . وكان إيمانويل كاراسو، المحامي اليهودي، قد أسس مهجعاً ماسونياً إيطالياً تحول إلى مركز للاجتماعات السرية لجمعية طلعت، عندما كان هذا الأخير مطارداً من قبل شرطة السلطان. توصل فيتزموريس لقناعة مؤداها أن حزب الاتحاد والترقي هو نتاج لمؤامرة لاتينية لعب الماسونيون الدور الأكبر في حياكة خيوطها، وقد نقل السفير لوثر هذا الرأي لوزارة الخارجية في لندن. وقد أشار السفير في تقريره المذكور إلى حزب الاتحاد والترقي مستخدماً تعبير:" اللجنة اليهودية للاتحاد والترقي...". ومن جانبه أجرى مستشاره فيتزموريس المزيد من التحري حول المعارضة التركية وتحديداً ما يتعلق بحزب الاتحاد والترقي، ولخص ما توصل إليه من نتائج في تقرير سري رفعه باسمه إلى سير شارلز هاردنغ بوزارة الخارجية بتاريخ 29 مايو 1910. أشار فيتزموريس في تقريره إلى أن الشعارات التي رفعها حزب الاتحاد والترقي، والتي تتلخص في: الحرية، المساواة والأخوة، والكلمات الثلاث مستمدة من الثورة الفرنسية تشكل في الوقت ذاته شعارات الماسونية الإيطالية، وأصبحت الآن،الشعار الذي ترفعه حركة تركيا الفتاة. ومما قاله فيتزموريس في تقريره إن الأحزاب التركية الجديدة تقلد في طروحاتها السياسية والاجتماعية الثورة الفرنسية وتنتهج الوسائل الدنيوية البعيدة ذاتها تماماً عن الدين... وفي تقريره المطول الذي تكون من أكثر من 5000 كلمة ادعى لاوثر بأن اليهود هيمنوا على شبكة ماسونية ومن خلالها على الإمبراطورية العثمانية.. ومما قاله السفير البريطاني بأن من

[1] The Ottoman Centuries, The Rise and Fall of the Turkish Empire, Lord Kinross, Perennial, 2002, Pg 578

أبرز المشاركين في المؤامرة الماسونية اليهودية على تركيا السفير الأمريكي في تركيا أوسكار شتراوس (يهودي أيضاً) الذي يملك أشقاؤه في نيويورك سلسلة متاجر مايسيز الشهيرة". [1]

من الجدير بالذكر الإشارة هنا إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية اختارت يهوداً لشغل مناصب سفراء وقناصل لدى الدولة العثمانية على مدار معظم سنوات القرن التاسع عشر، بما فيها آخر سنوات الدولة العثمانية. كما أن السفراء الذين خلفوا شتراوس في اسطنبول مع دخول القرن العشرين كانوا جميعاً من اليهود، ومنهم: هنري مورغنثا و وأبراهام إيلكوس.

وفي بحث أجراه المؤرخ فرومكن استند فيه الى ما جاء في وثائق سرية سمح بنشرها حديثاً، ورد القول:" كان العديد من القادة البلاشفة هم من أصول يهودية، وكذالك كان هيلفاند الذي جلب لهم الدعم والمال من ألمانيا. كان هيلفاند، القادم من القسطنطينية، صديقاً مقرباً من المعارضة التركية وبخاصة من قادة الشبيبة الأتراك. وطبقاً للاعتقاد السائد لدى المسئولين البريطانيين؛ فإن الشبيبة الأتراك كانوا تحت سيطرة الماسونيين اليهود ممن كانوا وراء دفع الإمبراطورية العثمانية للتحالف مع ألمانيا. الواقع أن البريطانيين كانوا على قناعة راسخة بوجود علاقة قوية بين اليهود والألمان في محصلة لها ما يبررها".

يصف اللورد كينروس مؤرخ الدولة العثمانية جذور حزب الاتحاد والترقي بالقول:" في سالونيك، سعى حزب الاتحاد والترقي للحصول على الدعم الخفي من جماعات منظمة مثل: الماسونية واليهود والدونمه(يهود تحولوا إلى مسلمين)، في تحرك عملي ومؤثر أكثر مما كان عليه الأمر مع نشاط المعارضة التركية في باريس، والتي انطوت تحت لوائه عام 1907".

هذا وتورد موسوعة الويكيبيديا معلومات مثيرة عن قادة حزب الاتحاد والترقي وكما يلي:

- مارسيل صامويل كوهين واسمه التركي الجديد " أغا تيكين ألب" 1881-1961، وهو مولود في سالونيك لعائلة يهودية، عندما كانت المدينة المذكورة تحت الإدارة العثمانية. وهو من المؤسسين الأوائل للحركة القومية التركية ويعتبر من المنظرين الإيديولوجيين للوحدة التركية.
- محمد كافيت بيه (1875-1926) وهو مسلم من أصل يهودي من طائفة الدونمه، وكان شخصاً ذكياً وصاحب عقلية مالية فذة ويعمل خبيراً بوزارة المالية.
- طلعت باشا، وليس هناك الكثير من المعلومات حول دوره قبل الثورة. ويقال بأنه كان المسئول عن تنظيم المعارضة، وفعل ذلك على طريقة "جماعة البيكتاشي" أو قوانين الماسونية أو كلا الطريقتين.
- إيمانويل كاروسو أفندي: يهودي من سالونيك ورئيس المهجع الماسوني المعروف بـ: "ماسيدونياريزورتا".

[1] A Peace to End All Peace, David Fromkin, Henry Holt &Co, New York,1989, Pg 41 - 42

ومن جانبه يقول ديفيد فرومكين، في كتابه" سلام ينهي كل سلام" عن مؤسسي المعارضة التركية:" لم يكن محمد طلعت يحظى باحترام الدبلوماسيين البريطانيين، حيث لم يكونوا ينظرون إليه كـ:جنتلمان، بل كانوا يعتبرونه سليل الغجر.. كان طلعت الذي شغل منصب وزير الداخلية وزعيم الجناح الأكبر في الحزب السياسي الحاكم ، هو الشخصية الأهم في الساحة السياسية التركية. لا يعرف الكثير عن أصول وخلفية المذكور باستثناء القول بأنه ينتمي لأصول متواضعة.. ويعتقد بأنه انضم لأحد المهاجع الماسونية وقام بتنظيم جماعة سياسية سرية، وقضى فترة في السجن على خلفية أنشطته السرية".

كان من بين أوائل من جندهم طلعت باشا في جماعته السرية ضابط شاب يدعى إسماعيل إينفر، الذي بادر للجوء للجبال بجنوده وسلاحه هرباً من الملاحقة عندما صدر له الأمر بالعودة لاسطنبول. سرعان ما انضم إليه الضباط الآخرون في تنظيم الاتحاد والترقي ليشكلوا قلب قوات التمرد الذي زحف باتجاه العاصمة لإخضاع، ومن ثم الإطاحة بالسلطان عبد الحميد.

وفي تحرك مواز سيطر الإنقلابيون على سالونيك. ومع الاستيلاء على مكتب البريد والبرق تمكنوا من إجراء الاتصال مع خلاياهم كافة المنتشرة في أرجاء الإمبراطورية.

جلب العام الأول للانقلابيين في السلطة نتائج كارثية على الإمبراطورية العثمانية، حيث منيت الجيوش العثمانية بهزائم متتالية في الحروب التي خاضتها دفاعاً عن وحدة البلاد وتماسكها في وجه الحركات الانفصالية العديدة، فكان فقدان المزيد من الأقاليم في البلقان. في البداية عمل الإنقلابيون، على إدارة الإمبراطورية من وراء ستار تاركين السياسيين القدامى في الواجهة. إلا أنهم قرروا عام 1913 ،وعلى حين غرة ، السيطرة على الحكومة وبطريقة دموية، عندها قاد الضابط نفسه (إينفر ، أول من تمرد على السلطان في سالونيك) وحدة للإغارة على مبنى الحكومة ،فقتل وزير الحربية لتتم ترقيته على إثرها إلى رتبة قائد ميداني (فيلد كوماند). وفي 4 يناير 1914 أصبح إينفر على رأس وزارة الحربية، ولم يكن قد تعدى الـ: 31 من العمر، ومن هناك قاد إينفر تركيا إلى الحرب العالمية الأولى أو إلى الكارثة.

تم تعيين جمال باشاً حاكماً عسكرياً للعاصمة اسطنبول ، ومحمد جاويد وزيراً للمالية، بينما تسلم طلعت باشا، زعيم حزب الاتحاد والترقي، وزارة الداخلية وليصبح رجل الدولة القوي في تلك المرحلة.

يقول موقع موسوعة ويكابيديا في وصف نظام تركيا الفتاة:" حرص النظام الجديد على فعل كل ما بالإمكان للاندماج في الثقافة الغربية، في الوقت نفسه الذي هاجم فيه الإمبريالية الغربية، وجمع مجلساً للأمة من أشخاص تم اختيارهم لا من سياسيين تم انتخابهم من قبل الجماهير التي يفترض أن يمثلوها. كان دور الشبيبة الأتراك في صياغة الإديولوجية الرسمية لتركيا الحديثة في بداياتها يتجاوز التغييرات السياسية التي أحدثتها".

الشباب العربي و"الثورة العربية"

أفرزت المؤامرة الماسونية اليهودية ، على حد تعبير السفير البريطاني في اسطنبول، إلى جانب الشبيبة الأتراك الذين أطاحوا بالخلافة العثمانية واستبدلوها بنظام

علماني في نهاية المطاف، حركة عربية مشابهة كان معظم قادتها من الماسونيين أو خاضعين لسيطرة الماسونية على أقل تقدير. ويعود تنظيم أول جمعية سرية عرفها العالم العربي إلى عام 1875 على يد خمسة من الشبأن العرب. لم يكن من قبيل المصادفة أن جميع الطلبة المذكورين كانوا من خريجي الكلية البروتستنتينية (الجامعة الأمريكية في بيروت لاحقاً)، وأنهم جميعاً من المسيحيين.

وفي ذلك يقول جورج أنتونيوس في كتابه المعنون:" اليقظة العربية"، بأن الماسونية على الطريقة الأوروبية" تكون بذلك قد وجدت طريقها إلى سوريا، وبأن مروجي الجماعة السرية هذه نجحوا، ومن خلال أحد الأعضاء، في إثارة اهتمام المحفل الماسوني الحديث العهد بالمنطقة بأنشطة الجماعة المذكورة". [1]

حققت الجماعة التي أوجدتها الماسونية من الناحية الفعلية أو أصبحت تحظى بدعمها على الأقل، الكثير من الانتشار، بدءاً من بيروت ووصولاً إلى دمشق وطرابلس وصيدا. بدأت الجماعة بتوزيع منشورات وتعليق لافتات في الشوارع دفاعاً عن القومية العربية، وتحمل هجوماً على الدولة العثمانية. وقتها كانت السلطات تشك في أن يكون الحاكم العام لسوريا مدحت باشا، والذي ينتمي لعضوية الشبيبة الأتراك، يشجع حركة القوميين العرب.وعندما تم استدعاء المذكور إلى اسطنبول من قبل السلطان، قامت الجمعية السرية بحرق ملفاتها وأمرت أعضاءها بالتفرق تحسباً من ملاحقة محتملة. ومما جاء في برقية أرسلها القنصل البريطاني في بيروت إلى وزارة الخارجية في لندن بتاريخ 28 يونيو 1880 القول:" ظهرت الشعارات الثورية المكتوبة في شوارع بيروت، وهناك شكوك بأن يكون مدحت هو الذي يقف خلف هذا الأمر.. مع ذلك لا يزال الهدوء سائدا.. التفاصيل تصلكم في البريد القادم".

أجرى الكاتب جورج أنتونيوس، مؤلف كتاب : اليقظة العربية، لقاءً مع أحد مؤسسي الجمعية السرية وهو د. فارس نمر باشا، وكان وقتها قد تجاوز الثمانين. والمذكور ماسوني من الدرجات العالية، هاجر إلى مصر عام 1883 حيث شارك في تأسيس صحيفة المقتطف وجريدة المقطم اللتين كانتا تصدران في القاهرة. وكان ضمن مجموعة من الموارنة والماسون الذين ارسلوا من الغرب الى مصر كجورجي زيدان الذي اسس دار الهلال.

كانت الجمعية السرية تطالب بالحكم الذاتي لسوريا على نمط ما حصل مع لبنان الذي منح حكماً ذاتياً محلياً عام 1865 تحت وطأة الضغوط الأجنبية، وبموجب نظام عرف وقتها باسم: Reglement Organique الذي جعل جبل لبنان تحت إدارة محلية، بالرغم من أنه انتزع من الإمبراطورية العثمانية من الناحية الفعلية. غير أن سياسة السلطان عبد الحميد جردت الجمعية السرية من أسباب الثورة على الدولة العثمانية المسلمة. فقد كان السلطان حريصاً على إعطاء العرب حصتهم في الحكم من خلال تعيين العديد من العرب في المناصب الرفيعة، عملاً بسياسة تعيين الرجل المناسب بغض النظر عن انتمائه العرقي، بما في ذلك موقع الوزير الأول (رئيس الحكومة).

[1] The Arab awakening, George Antonius, Simon Publications, 2001, Pg 79

مثل هذه السياسة النزيهة غير المنحازة حققت، وعلى حد تعبير جورج أنتونيوس " نجاحاً جزئياً ومؤقتاً على أقل تقدير. ومع أنها لم تقضي تماماً على الحركة أو توقف نموها الخفي إلا أنها قلصت من انتشارها إلى حد الوهن".

على مدار سنوات حكمه الثلاثين ، لم يواجه السلطان عبد الحميد معارضة عربية باستثناء مرتين: الأولى في بداية عهده في الحكم، وكان ذلك من قبل الجمعية السرية في بيروت، والثانية في أواخر أيامه وكانت من قبل حركة مشبوهة نادى صاحبها عبد الرحمن الكواكبي بأن يكون الخليفة عربياً بالضرورة، إيذاناً بظهور الأجندة البريطانية التي أصبحت سياسة ثابتة ومنهجية للإمبريالية البريطانية في المنطقة، والقائمة أكثر ما يكون على تفتيت الإمبراطورية العثمانية وإقامة دولة يهودية في فلسطين. ولتعظيم عوامل وأدوات تفكيك الدولة العثمانية المسلمة، برز دور حزب الاتحاد والترقي من الطرف الآخر في المطالبة بـ: "تتريك" الإمبراطورية؛ أي اللعب على وتر القومية، مما أعطى السكان العرب سبباً إضافياً للامتعاض والمطالبة بالانفصال عن الإمبراطورية العثمانية. وفي أفضل تقدير لم يكن الكواكبي سوى شخصية غامضة مشبوهة عمل على " التمييز الواضح إن لم يكن الفاضح بين الشعوب العربية وتلك المسلمة غير العربية.. من خلال المطالبة بإلغاء لقب السلطان واستبداله بالخليفة، الذي يشترط بأن يكون: عربياً قرشي المولد ومقره مكة"، طبقاً لما أورده أنتونيوس في كتابه : اليقظة العربية.

هل كان الكواكبي نبياً قادراً على استشراف الأجندة البريطانية الخاصة بدور الشريف حسين، أم كان مجرد بوق دعاية استخدمه الإنجليز لترويج هذه الأجندة؟

في الوقت الذي نجح فيه البريطانيون في إشعال الثورة العربية ضد تركيا، وحشد العديد من القوميين لصالح قضيتهم، فإن الثورة جاءت حصيلة الرغبة في إحياء الخلافة العربية النقية المستقلة عن الأتراك الغربيي الميول والأهواء، أكثر منها تأثراً بالدوافع القومية. كان متمردو مكة على قناعة بأن الإسلام هو وحده القادر على توحيد العرب الذين لا يمكنهم الالتئام تحت راية عرقية أو ثقافية. [1]

[1] Power, Faith and Fantasy, Michael B. Oren, W.W. Norton & Company, New York, London, P 369

الفصل السادس

تقطيع أوصال الشرق العربي إلى دويلات

الاتحاد والترقي وخطوات مقصودة لاستعداء العرب

بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد عام **1908** قرر الإنقلابيون بقيادة الاتحاد والترقي تعيين الشريف حسين بن علي-الذي كان في اسطنبول وقتها ممثلاً للحجاز- شريفاً أكبر على مكة. عن هذا الموضوع يقول جورج أنتونيوس في كتابه: اليقظة العربية:" كان الشريف حسين قد دخل في علاقات ودية مع السفارة البريطانية حيث بادلته الود ... وعلم بأن ترقيته إلى منصب الشريف الأكبر عام**1908** جاءت بدعم سري من انجلترا".[1]

قابل الشريف حسين الموقف البريطاني هذا بكثير من الإعجاب والامتنان، الأمر الذي انعكس على أجواء المفاوضات التي أجراها مع البريطانيين خلال الحرب وبعدها، إلى أن علمته التجارب بأن إعجابه بالبريطانيين لم يكن في محله.. غير أن استفاقته على حقيقة البريطانيين جاءت متأخرة وبعد انتهى الأمر به إلى المنفى في قبرص.

من المعروف بأن السلطان عبد الحميد نجح في تجريد أعداء الإسلام من ورقة إثارة الغضب العربي، من خلال سياساته الإسلامية والعربية الحكيمة والعادلة في المساواة بين أبناء الرعية، حيث لا فرق بين عرب وترك وغيرهم من الأعراق. كل ذلك تغير بعد تولي الاتحاد والترقي السلطة الحقيقية في اسطنبول، حيث بدأت سياسة تنفير واستعداء العرب بشكل سري في البداية، قبل أن تكتسب ممارسات السلطات الجديدة سمة العلن. كان الهدف من السياسات العنصرية التي استهدفت العرب بصورة رئيسية، إثارتهم ودفعهم للانقلاب على الإمبراطورية العثمانية. كان المتآمرون ينشطون من مهاجعهم وجمعياتهم السرية في أوروبا بكثير من التنسيق والتناغم لتنفيذ حكم الإعدام الصادر بحق الإمبراطورية العثمانية. الواقع أن القوى نفسها التي أوجدت المتآمرين والجمعيات السرية للشبيبة الأتراك تضافرت وحشدت قواها مجدداً لتكرار السيناريو نفسه في العالم العربي.

حققت سياسات الاستبداد والعنصرية التي انتهجها حكام تركيا الجدد أهدافها وانتشرت مشاعر الغضب والرفض المناطق العربية، التي بدأت تشهد تشكيل ونشاط الجماعات والمنظمات السرية. وفي الوقت الذي لا يمكن أو ينبغي فيه تبرئة ساحة هذه المنظمات، إلا أن أغلبية أعضائها هم أبرياء من التآمر. بل إن بعض القيادات لم تكن تدرك الكثير عن نوايا الغرب الفعلية، خاصة وأن هذه الجمعيات كانت تعمل في أجواء من السرية والتكتم على المعلومات التي لا تعطى إلا بقدر ويتم تداولها في أضيق نطاق.

لم يكن للعرب صوت يذكر في الاتحاد والترقي، إذ لم يحاول الحزب اجتذاب العرب لعضوية الحزب باعتباره معادياً للعرب من الأساس. أما القلائل منهم ممن انضموا

[1] The Arab awakening, George Antonius, Simon Publications, 2001, Pg 175

للحزب ففعلوا ذلك باعتبارهم مواطنين عثمانيين لا عرباً. وفي ذلك يقول جورج أنطونيوس:" كان حزب الاتحاد والترقي يضم خليطاً من أبناء الأعراق والأديان يتقدمهم الأتراك ويليهم اليهود في المركز الثاني..".[1]

ادّعى القائمون على الاتحاد والترقي بأن ثورتهم على السلطان بتاريخ **24** يوليو **1908** جاءت بهدف إعادة العمل بدستور**1776** الذي صاغه مدحت باشا وإعادة الحرية للبلاد. غلب التزوير على الانتخابات الأولى التي أجراها الانقلابيون الذين سيطروا على الماكينة الانتخابية لضمان فوز مرشحيهم. وبالرغم من أن مواطني الدولة من العرب كانوا يتفوقون على الأتراك من حيث العدد بنسبة **3** إلى **2**، فإن مجلس النواب الذي التأم في ديسمبر **1908** جاء مشكلاً من: **150** نائباً تركياً مقابل**50** نائباً من العرب. أما مجلس الأعيان الذي يتم اختيار أعضائه الـ:**40** بالتعيين، فلم يضم سوى ثلاثة أعضاء عرب. ولهذا لم يواجه الانقلابيون أي اعتراض يذكر من البرلمان لقرارهم الخاص بالإطاحة بالسلطان عبد الحميد بتاريخ **16** أبريل، بل إن أعضاء البرلمان صادقوا على القرار المذكور بكثير من الحماسة. أقدمت السلطات الجديدة في اسطنبول على حظر سائر الجماعات والتنظيمات غير التركية، وعمل حزب الاتحاد والترقي جاهداً على نشر وتعزيز المشاعر القومية في الشارع التركي بالتأكيد على الأصول الطورانية للأتراك، وبأن الوحدة يجب أن تكون مع الشعوب الطورانية التي تشكل جذور الأتراك (لا مع العرب المسلمين بالتأكيد). انتهج الانقلابيون سياسة مركزية قمعية لا مكان للعرب فيها بشكل عام، وأصبح واضحاً بأن كل ما يصدر عن السلطات الجديدة في اسطنبول هو إثارة مشاعر العرب واستعداؤهم وصولاً إلى دفعهم للثورة. كما أن الذين وقفوا خلف الشبيبة الأتراك دعماً وتنظيماً قرروا تكرار السيناريو نفسه مع الشبيبة العرب.

جمعيات "الفتاة والعهد" السرية

كانت "القحطانية" أول جمعية سرية يتم تشكيلها في إطار الانقلاب العربي على الإمبراطورية العثمانية، بتشجيع من بريطانيا وحكام اسطنبول العلمانيين الجدد. وقد تأسست الجمعية في السنة نفسها التي تمت فيها الإطاحة بالسلطان عبد الحميد، وبهدف معلن هو العمل على إقامة كيانين على أنقاض الإمبراطورية العثمانية: كيان تركي وآخر عربي طبقاً للنموذج النمساوي الهنغاري. لعل أكثر ما يثير الانتباه بشأن الجمعية المذكوره حقيقة أن رئيسها المدعو عزيز علي المصري كان العربي الوحيد العضو في حزب الاتحاد والترقي. ضم تنظيم الفتاة والعهد عدداً من كبار الضباط في الجيش التركي وكانت الجمعية المذكورة تعمل بالطريقة نفسها الماسونية من حيث السرية والتكتم واستخدام لغة الإشارات في تحديد هوية الأعضاء. وبحلول **1914** كان عزيز المصري قد تمكن من تحويل القحطانية إلى منظمة سرية جميع أعضائها من العسكريين، والتي أصبحت تنشط تحت اسم جديد هو: العهد.

وهناك أيضاً جمعية الفتاة، التي كانت تعتبر من أكثر المنظمات العربية الجديدة فعالية وتمسكا بالسرية، واجتذاباً للعضوية بين المدنيين، وتم تأسيس الجمعية المذكورة في

[1] The Arab awakening, George Antonius, Simon Publications, 2001, Pg 101

باريس (كما حدث مع حزب الاتحاد والرقي)، وكان لها الدور الأكبر في نشاط الحركة العربية ضد تركيا قبل الحرب العالمية الأولى وخلالها. كانت جمعية الفتاة أشبه بجمعية بيروت السرية التي ظهرت عام **1875** قبل أن تختفي بسبب القيود التي فرضت عليها من قبل السلطان عبد الحميد وحرمتها من الاتصال بالجماهير. وكان على الجمعيات المذكورة الانتظار حتى الإطاحة بالسلطان لتعاود نشاطها من جديد. أسس جمعية "الفتاة" سبعة من الطلبة العرب الدارسين في باريس، وبدعم من القوى نفسها التي أوجدت ودعمت الاتحاد والترقي. وعليه فإنه يمكن القول وبكثير من الثقة بأن الشبيبة الأتراك والشبيبة العرب ينبعان من الجذور ذاتها، بدون أن يدركا ذلك بالضرورة، بل إن القوى التي تحركهما وهي واحدة في كلتا الحالتين اعتادت على دفعهما للتصادم، ولكن من أجل تحقيق الهدف الأكبر: التخلي عن نظام الخلافة وتفكيك الإمبراطورية العثمانية المسلمة.

لم يكن برنامج جمعية الفتاة ليختلف في شيء عن جمعية بيروت السرية المدعومة من المحافل الماسونية في سوريا الكبرى. كانت الجمعيتان تعملان طبقاً للأسس التي تحكم تنظيم الماسونية وعملها. الأمر الذي يوضحه جورج أنطونيوس في كتابه: اليقظة العربية، بالقول:" كان الانضمام لهذه الجمعيات يتم بترشيح من الأعضاء الحاليين ممن أقسموا يمين الولاء. وقبل أن يتمكن الأعضاء الجدد من التعرف على زملائهم السابقين سيكون عليهم اجتياز الاختبارات اللازمة والبرهنة على قدراتهم، وذلك قبل استدعائهم لأداء قسم الولاء للجمعية لدرجة التضحية بالنفس في خدمتها إذا اقتضت الحاجة". [1]

بقيت جمعية الفتاة تعمل من مقرها في باريس حتى عام **1913** عندما انتقلت إلى بيروت، ومنها إلى دمشق في العام التالي في تزامن مع تأسيس جمعية العهد. وقتها لم يكن من السهل الوصول لقيادة أي من الجماعات السرية، حيث ظلت القيادة محصورة بعدد قليل جداً ومختار من الأشخاص لضمان عملية التنسيق والتناغم بين أعضائها. شكل التكتم والحذر كلمة السر في نشاط وعمل الجماعات السرية هذه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، واحتلال العالم العربي من قبل فرنسا وبريطانيا. وقتها لم تعد السرية مطلوبة لأن المهمة الفعلية كما أرادتها القوى الاستعمارية ومن يقف خلفها من الماسونية اليهودية قد أنجزت بالفعل.

تعميد فيصل في الجماعات السرية

كان أول اتصال للجماعات السرية الرسمية بالشريف حسين من خلال المدعو فوزي البكري، الذي يعمل في الحرس الخاص بالشريف الأكبر. والمذكور هو الشقيق الأصغر لأحد الأعضاء القياديين في جمعية الفتاة في دمشق: نسيب البكري الذي رتب لأخيه فرصة الالتحاق بخدمة الشريف حسين من الأساس، استعداداً لخدمة الجمعية وأهدافها عند اللزوم في المستقبل. طلب نسيب، العضو المحلف في الجمعية وبالاتفاق مع قيادتها، من أخيه تمرير رسالة سرية إلى الشريف الأكبر، مؤداها أن القادة العرب في الحركة القومية في سوريا والعراق يفضلون الثورة على تركيا، ويودون معرفة ما إذا كان على استعداد للقيادة، وبأن بإمكانهم إرسال وفد إلى مكة أو استقبال ممثلين عنه في دمشق لبحث هذا

[1] The Arab awakening, George Antonius, Simon Publications, 2001, Pg 112

الموضوع. وبالطبع فإنه لم يتم تحميل فوزي بالرسالة الشفهية إلا بعد أن تم تعميده رسمياً كعضو محلف في الجمعية.

في هذه الأثناء تم تعيين جمال باشا حاكماً وقائداً عاماً عسكرياً على سوريا. ويصف أنتونيوس في كتابه: اليقظة العربية، جمال باشا بأنه كان :" مدافعاً فذاً عن الإسلام"وبأنه" لم يكن ممثلاً لتركيا الفتاة التي كانت أداة في يد حزب الاتحاد والترقي". كان جمال باشا يؤمن بالقومية التركية ولكن تحت راية الإسلام الموحدة. ومع وصوله إلى دمشق كانت السلطات قد صادرت وثائق من القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق تجرمان شخصيات عربية مرموقة بالانتماء للجمعيات السرية. وكما جاء في كتاب جورج أنتونيوس، فإن الوثائق المصادرة" احتوت على أدلة على تورط البعض في أنشطة ترقى لمرتبة الخيانة، غير أن جمال الحريص على ترك انطباع جيد عنه في أذهان الأهالي والزعامات، اكتفى بإبلاغ الشريف (حسين) بالأمر وأخفى الأوراق موجهاً اهتمامه لمهمة تحرير مصر". [1]

أرسل الشريف حسين نجله الأمير فيصل لجس نبض القائمين على الجمعيات السرية في رحلة ستنقله إلى اسطنبول. وصل فيصل إلى دمشق بتاريخ **26** مارس **1915** ومكث هناك حوالي شهر، حظي خلالها بترحيب من جمال باشا الذي وجه إليه دعوة للإقامة في مقره، إلا أنه أبلغه برغبته في الحلول ضيفاً على عائلة البكري. كانت الفترة التي قضاها فيصل في دمشق كافية لإقناعه بالانضمام للجمعيات السرية. في البداية أعرب فيصل عن التخوف من النوايا والخطط الأوروبية، ومن أن العرب قد يجدون أنفسهم أمام عملية استبدال حكم يعرفونه باحتلال آخر مجهول بالنسبة لهم. وهنا أبلغه قادة الجمعيات بأنهم لن يترددوا في الانضمام إلى تركيا في حالة اكتشاف وجود خطط أوروبية سرية تجاه المنطقة. أصبح فيصل بعدها عضواً في الجمعيات السرية بدءاً بالفتاة ومن ثم العهد التي أبهره استعداد قادتها لتفجير الثورة في أي لحظة.

غير أن الخطط الأوروبية تجاه المنطقة العربية لم تكن بذلك السر الخفي. فعندما راودت الفرنسيين الشكوك حول وجود تحركات بريطانية مشبوهة في سوريا، زار موفد فرنسي لندن عام **1912**حيث تلقى هناك تأكيدات من أنه ليس للبريطانيين مطامع سياسية في سوريا، الأمر الذي أكده رئيس الوزراء الفرنسي أمام برلمان بلاده بتاريخ **21** ديسمبر من العام نفسه وذلك على سبيل إكسابه الصفة الرسمية. وقد جاء الإعلان المذكور مؤكداً على أن سوريا منطقة نفوذ فرنسية، مطالباً الآخرين بالتصرف على هذا الأساس. وفي العام التالي زار سلطان المغرب، الذي لم يكن سوى ألعوبة في يد الفرنسيين، دمشق ليعلن هناك أمام الصحافة بأن احتلال سوريا من قبل فرنسا خطوة" حتمية وضرورية ووشيكة"، وهي عبارات كررها موريس بارس عام **1914** . مثل هذه التصريحات العلنية على لسان مسئولين كبار تثير الكثير من التساؤلات حيال كيفية إقناع القائمين على جمعية الفتاة فيصل بن الحسين بعدم وجود نوايا وخطط غربية مبيتة تجاه المنطقة، واقتناع فيصل بهذا الأمر إلى درجة الانضمام لعضوية الجماعات السرية وتبني رؤيتها الخاصة بالتعاون مع البريطانيين والفرنسيين.

[1] The Arab awakening, George Antonius, Simon Publications, 2001, Pg 151

واصل فيصل رحلته إلى اسطنبول، حيث حظي باستقبال حار وحصل على الضمانات التي طلبها بشأن سلامة عائلة والده. لقي فيصل من المسئولين العثمانيين معاملة كبار الزوار، واستقبله السلطان في القصر وكذلك الوزير الأكبر والعديد من المسئولين. كان الطلب الرئيسي للحكومة العثمانية من فيصل وقوف الشريف حسين علناً إلى جانب تركيا في الحرب. غادر فيصل اسطنبول عائداً إلى دمشق، حيث كانت بأنتظاره خطة عمل أعدها زملاؤه في جمعيتي الفتاة والعهد، لحملها إلى والده وتقرير ما إذا كانت تصلح كأساس للتفاوض مع بريطانيا فيما عرف بعد ذلك بـ: إعلان دمشق. نصت الوثيقة على استعداد الدولة العربية الجديدة(القادمة) منح بريطانيا وضع الشريك الاقتصادي المفضل والدخول معها في تحالف عسكري، مقابل اعتراف لندن باستقلال الدول العربية بما فيها سوريا والعراق، وإلغاء الامتيازات الاستثنائية الممنوحة للأجانب.

تعاهد قادة الجمعيات السرية تحت يمين القسم، بقبول الشريف حسين ناطقاً باسم العرب، واحترام أي اتفاق يتم التوصل له مع بريطانيا على أساس بروتوكول دمشق. بدأت بعدها سلسلة من الاتصالات بين الشريف حسين والمكتب العربي البريطاني في القاهرة، انتهت بالتوصل إلى قبول بريطانيا ببروتوكول دمشق باستثناء ما يتعلق بالساحل السوري، الذي قالت بريطانيا بأنه محكوم بتفاهمات بريطانية مع أطراف أخرى، علماً بأن المقصود بالساحل السوري ما يمثل حالياً: فلسطين ولبنان وشريط اللاذقية الساحلي السوري. وقتها قال البريطانيون بأن أنسب وقت لحل هذه القضية بعد انتهاء الحرب. ولأن الشريف حسين عرف باحترامه البريطانيين وتصديقه لأي وعود تصدر عنهم، فقد وافق على الشروع بالثورة، بالرغم من الشروط التي وضعها الجانب البريطاني، وطلب من بريطانيا إصدار إعلان بذلك. جاء الإعلان البريطاني لينص على "إلزام بريطانيا نفسها بعد استتاب السلام بالاعتراف بالجزيرة العربية دولة مستقلة تمارس سيادتها الكاملة على الأماكن الإسلامية المقدسة، وليشير ضمناً إلى استعداد الحكومة البريطانية بالترحيب بإقامة خلافة عربية.. وقد تم نشر هذا التعهد في يونيو."

الواقع أن إقامة خلافة عربية كان لا يفارق بال الشريف حسين طوال الوقت، وإن كان يختلف مع الشبيبة الأتراك، الذين انحرفوا عن طريق الإسلام القويم باعتبار أن الخلافة شكلت أحد أعمدة الدين منذ الرسول محمد (صلعم). ولهذا كان البند المتعلق بهذا الموضوع هو الوحيد الذي أضافه الشريف حسين على بروتوكول دمشق، عشية شروعه في المفاوضات مع البريطانيين، الذين حرصوا بدورهم على عدم حسم هذا الموضوع، بل وإضفاء الكثير من الغموض والضبابية على موقفهم بهذا الشأن.

في النهاية اتفق الطرفان على توزيع الأدوار وتحديد التزامات كل طرف كالتالي: سيترتب على الشريف الأكبر استغلال موارده كافة في الحرب لإلحاق الهزيمة بالأتراك. وسيعمل البريطانيون على دعم قواته بما تحتاجه من أموال وأسلحة ومعدات. على الصعيد السياسي التزم الشريف حسين بإعلان الثورة على الأتراك باعتبارهم أعداء للإسلام (قول صحيح في جزء منه لأن حزب الاتحاد والترقي كان كذلك)، بينما تعهدت بريطانيا بأمرين: الاعتراف بالخلافة العربية في حال إعلانها، والاعتراف باستقلال العرب ضمن منطقة تعمد البريطانيون عدم الإفصاح عن حدودها . ومع أن فلسطين لم يتم استثناؤها بالاسم من المنطقة المعنية كما فعل البريطانيون مع المنطقة التي أصبحت لبنان حالياً، فقد تحولت وكما قصد البريطانيون بالفعل إلى قضية شائكة حتى الآن. وعلى هذا الأساس تم الإعلان عن الثورة العربية بتاريخ **5** يونيو **1916**، اليوم نفسه الذي قضى فيه كوتشنر نحبه.

كانت اليد البريطانية حاضرة في كل ما يتعلق بالثورة العربية الكبرى، بما في ذلك اختيار أبعاد وألوان الراية التي سترفعها قوات الشريف حسين بن علي والمؤلفة من: الأسود والأبيض والأخضر والأحمر. بل إن الراية جاءت من تصميم مارك سايكس الشريك الإنجليزي في اتفاقية المؤامرة التي عرفت بـ: سايكس بيكو.

جمال باشا يشد اللجام

بدأ جمال باشا بتلقي تقارير من استخباراته عن وجود جمعيات قومية تنشط بالسر، وبأن عملاء بريطانيين وفرنسيين يوجدون في سوريا استعداداً لإشعال ثورة على الحكم العثماني، وبأن الجمعيات السرية هذه استطاعت التغلغل في الجيش وزرعت فيه الكثير من الخلايا الثورية. شعر جمال باشا بأن الظروف تحتم عليه تغيير سياسته من اللين والتسامح إلى الشدة والحسم. فتح الحاكم العثماني الدرج واخرج منه الوثائق الدامغة التي سبق وأن صودرت من القنصلية الفرنسية في كل من بيروت ودمشق، وألقى القبض على أصحاب الأسماء الواردة فيها وقدمهم للمحاكمة، وحكم على **11** منهم بالإعدام شنقاً بمن فيهم عدد من قادة جمعية الفتاة، بالإضافة إلى سجن ونفي عدد آخر.

خلال سنوات الانتداب على سوريا وتنصيب فيصل على عرش العراق، واصل أعضاء الجمعيات السرية القيام بدور كبير في الحياة العامة في ظل الحكم الفرنسي والبريطاني للمنطقة. وبرز من بين قادة الجمعيات السرية شكري القوتلي الذي أصبح رئيساً لسوريا لاحقاً، وفارس خوري الذي تولى رئاسة الحكومة السورية، ونوري السعيد الذي أصبح رئيساً للوزراء في العراق.

بعد أن انكشف أمر اتفاقية سايكس بيكو السرية في أعقاب ثورة أكتوبر الروسية، تحرك العملاء البريطانيون وبسرعة للادعاء بأن كل ما يقال عن وجود مثل هذه الاتفاقية هو محض افتراء، وبأن بريطانيا كانت ولا تزال مخلصة للقضية العربية، غير أن حالة من البلبلة والغضب اجتاحت العالم العربي بعد إعلان بلفور. طالب الشريف حسين، الذي أصبح الآن ملكاً، البريطانيين بتفسير. سارع المكتب العربي في القاهرة إلى إرسال الكوماندر هوغارث إلى جدة في مهمة لتهدئة مخاوف الشريف- الملك، حيث قال له بأن توطين اليهود في فلسطين لن يكون على حساب الحقوق السياسية والاقتصادية للسكان العرب هناك، باعتبار أن وعد بلفور نص على: " حماية الحقوق المدنية والدينية للسكان من غير اليهود". لم تكن أكثر من رسالة شفهية ومع ذلك نجحت في إقناع الملك حسين بصدق النوايا البريطانية. طلب الملك من أبنائه نقل الرسالة المذكورة للشخصيات العربية وتهدئة المخاوف في الشارع العربي. مثل هذا التكليف مكّن الأمير فيصل من توجيه دعوة لعرب فلسطين، من خلال جريدة القبلة الناطقة باسمه، يطالبهم فيها بالهدوء والتسامح بل والترحيب بالضيوف اليهود، ومعاملتهم معاملة الأخوة تطبيقاً لتعاليم ديننا الحنيف ووفقاً لتقاليدنا العربية الأصيلة.

كان الملك حسين رجل مبادئ حتى وهو يخطئ في تقديره للأمور. كان يؤمن بصدق نوايا الإنجليز ويتوقع منهم الوفاء بتعهداتهم. أما ابنه فيصل فكان شاباً ويفتقر للخبرة في شؤون السياسة والحياة، الأمر الذي حولّه إلى أداة طيعة في يد الجمعيات السرية والبريطانيين على حد سواء. ومع مرور الوقت أصبح فيصل رجل بريطانيا الفعلي في المنطقة مفضلين إياه على والده المتطلب. كان الملك حسين يلح على إعلان الخلافة العربية

طبقاً لما تعهد به البريطانيون قبل الثورة ولا يعتزمون الوفاء به، فقد كانوا خلف تدمير الخلافة من الأساس ولن يسمحوا بعودتها بالتأكيد.

حسين.. من شريف مكة إلى ملك عربي ومن ثم للمنفى

لم يكن وارداً في بال الشريف حسين، في يوم من الأيام، أن يكون أداة لتدمير مؤسسة الخلافة الإسلامية الموجودة من أيام الرسول محمد (صلعم) حتى أيامه. غير أن شخصية ابنه فيصل التي يغلب عليها التشكك والسذاجة، وخاصة فيما يتعلق بتصديق الوعود البريطانية، إضافة لسياسات الاتحاد والترقي العنصرية ، تضافرت جميعاً لإقناعه بالسعي وراء إعادة الخلافة للأيدي العربية وليس تدميرها كما كان يخطط الإنجليز والقوميون العرب منهم والأتراك. مثل هذه القناعة لم تتغير وكانت سبباً لإسقاطه عن العرش ونفيه إلى قبرص.

أوكلت لندن إلى كليتون من المكتب العربي في القاهرة مهمة الاتصال مع قادة الانفصاليين العرب في دمشق وبغداد، والتوصل إلى تفاهم معهم بشأن رفضهم الخضوع لحكم الأجنبي، غير أن مهمته باءت بالفشل، بل إن كليتون عاد من مهمته وهو على قناعة بضرورة القبول بالملك حسين خليفة عربياً جديداً، فكتب إلى رؤسائه للأخذ بزمام المبادرة وإقناع الملك بالقبول بمنصب الخليفة، ووجدت الفكرة قبولاً من كوتشينر. وبالفعل أبلغ الملك حسين المايجور كورنويل في يناير **1918** بأنه على وشك إعلان نفسه خليفة على المسلمين.

عن هذا الموضوع يقول ديفيد فرومكين، في كتابه المعنون: سلام ينهي كل سلام، " بحلول يناير **1918** حدث تغيير جذري في موقف المكتب العربي في القاهرة من الملك حسين. فحتى ذلك التاريخ لم يكن المسئولون عن المكتب يظهرون الكثير من الاحترام تجاه الملك العربي. فهذا كورنواليس يوضح للملك، وهو يحاول ثنيه عن فكرة تنصيب نفسه خليفة، بأن خطوته تلك تنطوي على مخاطر كبيرة. ولدى تلقيه تقرير كورنواليس بشأن اجتماعه مع الملك، كتب المفوض العالي سير ريجينالد وينغييت لوزارة الخارجية يتحدث فيها عن وجود فرصة لإجهاض أي عمل أو تصرف ينطوي على تهور أو سلبية من قبل الملك حسين. وبالطبع فإننا نتحدث هنا عن الشخص نفسه (ونينغيت) الذي أرسل للملك بتاريخ **17** نوفمبر **1915** بشخصية دينية مرموقة تحمل له رسالة مؤداها بأنه" الشخص المناسب للاضطلاع بإرثه المشروع، وتحقيق آمال شعبه العرب المسلمين باستعادة الخلافة التي سلبها الأتراك منه، ودعوة الزعيم الهاشمي لإقامة" الخلافة العربية الهاشمية". ويضيف المؤرخ فرومكين :" وجد أتباع كيتشينر بأن من غير المريح تذكر حقيقة أنه سبق لهم ولرئيسهم تشجيع الملك حسين على إعلان نفسه خليفة وفضلوا محو تلك الحقيقة من الذاكرة ، بل إنهم تجاهلوها تماماً في مذكراتهم وكتبهم لاحقاً كما وحذفوها من الوثائق الرسمية . ففي مذكراته التي صدرت بعدها بثلاثة عقود، حرص سير رونالد ستورز على حذف الجزء الخاص بالخلافة من برقية كيتشنر التاريخية التي أرسلها للملك حسين عام **1914**. وكتب تي. إي. لورنس يقول بأن كيتشنر وأتباعه كانوا يؤمنون بالقومية العربية منذ البداية، بينما تقول الحقيقة غير ذلك تماماً. فقد كان هؤلاء يعتقدون بأن الخلافة هي عنصر القوة الذي يجب السماح للملك حسين اختطافه لصالحهم، وبأن عنصر القومية في الشرق لا قيمة له أمام قوة الدين التي تشكل كل شيء.

الواقع أن السياسة والرغبة في إعادة كتابة التاريخ عام **1918** هما اللتان أملتا التحول الحاصل في اهتمام وتركيز البريطانيين: فقد بدأ فيصل، ممثل الحسين، في الظهور كزعيم عربي مفضل في نظر المكتب العربي في القاهرة، خاصة وأن فيصل أظهر استعداداً، لم يلمسوه لدى والده، لقبول النصح والإرشادات من البريطانيين". [1]

تشير برقيات ومراسلات الملك حسين التي تم اعتراضها إلى أن الملك اشتكى قائلاً" لقد دفعوا ابني للانقلاب علي ... فقد تمرد على أبيه وخانه"، وأضاف حسين" إن العيش تحت وطأة تلقي الأوامر من قبل ابن عاق وخائن والشعور بالبؤس يثقل كاهلي".

لم يعد فيصل يتلقى أوامره من والده بل من البريطانيين. وجاء إصرار الملك حسين على إقامة الخلافة وعلى ضرورة وفاء البريطانيين بتعهداتهم، ليكلفه عرشه وليجد نفسه يعيش في المنفى في قبرص في نهاية الأمر. وعلى الأغلب فإن الملك حسين لم يكن يدرك حقيقة تورط أبنائه مع الجمعيات السرية، أو أنه كان على علم بطبيعة أجندة وخطط هذه الجمعيات والقوى الحقيقية التي تحركها بالاتجاه الذي كان يعارضه الأمر الذي دفع المتآمرين للتخلص منه بالنفي.

الاتحاد والترقي تجرّ الإمبراطورية العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى

لعب حزب الشبيبة الأتراك أو حزب الاتحاد والترقي "اليهودي" طبقاً لتعبير السفير البريطاني في اسطنبول، الدور الرئيسي في جرّ الإمبراطورية العثمانية للحرب العالمية الأولى، والتي انتهت بتفكيك الدولة العثمانية الإسلامية إلى الأبد. فما إن دخلت اسطنبول الحرب حتى بدأت المعارضة بشن حملة منظمة ضاغطة لتمكين الصهاينة من تحقيق ما عجزوا عن الحصول عليه من السلطان عبد الحميد: إقامة المستوطنات اليهودية في فلسطين كمقدمة لإقامة الدولة اليهودية هناك. وفي ذلك كتب ديفيد فرومكين يقول:" مباشرة بعد دخول تركيا الحرب كتب أتش. جي . ويلز في رسالة له متسائلاً: ما الذي يمنع اليهود الآن من الحصول على فلسطين وإحياء يهودا الحقيقية؟؟". [2]

في يناير**1915** ، وبعد دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب، رفع صامويل هيربرت-وزير دولة يهودي في حكومة آسكويث- إلى رئيس الوزراء بمذكرة في محاولة لترويج فكرة تحويل فلسطين إلى محمية بريطانية لتسهيل هجرة أعداد كبيرة من اليهود إليها تمهيداً لتحويلها إلى وطن قومي لليهود. ادّعى هيربرت في مذكرته بأن في مثل هذه الخطوة خدمة للمصالح البريطانية في المقام الأول. وقتها لم ترق الفكرة لرئيس الحكومة الذي وجد في مذكرة هيربرت تكراراً لما طرحه بنيامين ديزرائيلي في روايته المعنونة: **Tancred** التي تروج لفكرة عودة اليهود إلى فلسطين. يذكر أن ديزرائيلي كان على رأس الحكومة البريطانية عندما اشترت بريطانيا أسهم مصر في قناة السويس، وهو مولود لأبوين يهوديين. ومن جانبه وصف رئيس الحكومة مذكرة هيربرت بأنها:" نسخة محدثة عن رواية ديزرائيلي .. أقر بأنني لم أشعر بأنجذاب تجاه اقتراح كاتبها الذي يضيف لمسؤولياتنا هناك".[3]

---

[1] A Peace to End All Peace, David Fromkin, Henry Holt&Co, New York,1989, Pg 327

[2] A Peace to End All Peace, David Fromkin, Henry Holt&Co, New York,1989, Pg 269

[3] A Peace to End All Peace, David Fromkin, Henry Holt&Co, New York,1989, Pg. 269

ولدى توزيع نسخة منقحة من مذكرة هيربرت على الوزراء في مارس **1915**، لم يجد اقتراحه دعماً يذكر سوى من وزير واحد هو لويد جورج. كان وزير الحرب كيتشنر من أشد المعارضين للفكرة، مشدداً على أن فلسطين لا تمثل أهمية إستراتيجية لبريطانيا.

محض مصادفة!.. أم ماذا ؟

لم يكن للمشروع الصهيوني في فلسطين أن يتحرك قدماً قبل التخلص من المعارضين الرئيسيين له: رئيس الوزراء البريطاني آسكويث ووزير حربيته كيتشنر... وهو ما حصل بالفعل. فقد تمت إزاحتهما من الطريق وإن بطريقين مختلفين. تم استبدال آسكويث بالشخص الوحيد داخل الحكومة الذي أبدى تحمسه للمشروع منذ اليوم الأول لعرضه على الحكومة في مارس **1915**. وفي الوقت نفسه فقد تم ترتيب رحلة بحرية لوزير الحرب كيتشنر وعدد من مساعديه إلى منطقة تعج بسفن العدو، كانت رحلة ذهاب دون إياب للوزير، بالرغم من أن الاستخبارات البريطانية تلقت تحذيرات من المخاطر المحدقة بالوزير، ولم تجد التحذيرات هذه سوى الإهمال المقصود على الأغلب.

يروي ديفيد فرومكين ما حدث للوزير كيتشنر بالقول:" في سكابا فلو، الواقعة على الحافة الشمالية للساحل الأسكتلندي، حيث مركز قيادة الأسطول الكبير،استقل الوزير كيتشنر ومساعده المقرب فيتزجيرالد السفينة الحربية هامبشاير ، وكان ذلك عصر الخامس من يونيو**1916**، وأبحرت بهم باتجاه ميناء آرشجانجل الروسي. ومع ورود أنباء عن تحركات للغواصات الألمانية قريباً من الخط البحري الذي ستسلكه السفينة هامبشاير ، فقد كان ينبغي تغيير خط سيرها كإجراء طبيعي وحتمي، وهو أمر لم يحصل. وكانت استخبارات الأسطول قد اعترضت رسالة لاسلكية ألمانية للغواصة الألمانية يو-**75** المتخصصة في زرع الألغام البحرية تفيد : أن الغواصة كانت في مهمة لتلغيم مسار السفينة البريطانية التي تقل الوزير كيتشنر ومساعديه. كما تأكد لاستخبارات الأسطول الخطر المحيق بالوزير من رسالتين أخريين تم التقاطهما بهذا الشأن، بالإضافة إلى أنه تم رصد وجود الغواصة الألمانية في المكان نفسه".[1]

كتب المؤرخ فرومكين يقول بأن الاستخبارات البريطانية اختارت التكتم على معرفتها بتلغيم خط إبحار سفينة الوزير كيتشنر، وبقي الأمر سراً حتى نشر الوثائق السرية عام **1985** أي بعد مرور حوالي سبعين عاماً على الحادثة.

مع وجود لويد جورج على رأس الحكومة وبلفور وزيراً للخارجية تكون الظروف السياسية في بريطانيا، قد أصبحت مواتية لاتخاذ خطوة حاسمة باتجاه وضع اقتراح هيربرت صامويل موضع التنفيذ. فبعد تمرير الاقتراح داخل الحكومة صدر عن وزير الخارجية بلفور وعده الشهير، وتم تعيين هيربرت صامويل نفسه ليكون أول مفوض عال بريطاني في فلسطين تحت الانتداب.

لم يكن لويد جورج يخفي ميوله الصهيونية؛ فقد اعتاد وصف نفسه بأنه: صهيوني. بل إن رئيس الوزراء البريطاني في فترة ما كان ممثلاً لثيودور هيرتزل والحركة الصهيونية. فبعد أن يئس هيرتزل من إمكانية إقناع السلطان عبد الحميد بالسماح لليهود بالاستيطان في فلسطين، قرر التحرك على المسار البريطاني واختار الاتصال بوزير

[1] A Peace to End All Peace, David Fromkin, Henry Holt & Co, New York,1989, Pg. 217

المستعمرات جوزيف تشامبرلين عام**1902**، والذي يوصف بأنه الأب الروحي للاستعمار البريطاني المعاصر. في البداية اقترح هيرتزل إقامة كيان سياسي لليهود عبر حدود فلسطين إما في العريش أو في قبرص. كان رد تشامبرلين استبعاد قبرص، وقال بأنه سيطلب رأي المسئولين عن سيناء في وزارة المستعمرات بهذا الشأن، وجاءه الرد منهم برفض الفكرة. وعليه اقترح الوزير البريطاني فكرة إقامة وطن لليهود في أوغندا، التي كانت وقتها ضمن نطاق مسؤوليته القانونية كوزير للمستعمرات. تم رفع الاقتراح لرئيس الوزراء الذي كان لورد بلفور وقتها ولقي اقتراح تشامبرلين الموافقة من قبل هيرتزل، الذي كلف "شريكه" لويد جورج في دار المحاماة التي كانت تحمل اسم الأخير، بمتابعة الأمر. قام لويد جورج بإعداد نص "ميثاق توطين اليهود" تم رفعه للحكومة البريطانية للموافقة.. وجاء الرد الرسمي البريطاني بالإيجاب ليأخذ شكل ما عرف لاحقاً باسم: وعد بلفور الأول. ومن جانبه عرض هيرتزل اقتراحه أمام المؤتمر الصهيوني العالمي. غير أن وفاة هيرتزل عام **1904** أحدثت تغييراً في خطط الصهاينة، حيث عادت القيادة المنقسمة للحركة إلى الطلب من لويد جورج متابعة الاقتراح الأول الخاص بإقامة كيان لليهود في العريش، الأمر الذي رفضته وزارة الخارجية مجدداً. وعليه فقد كان واضحاً بأن لويد جورج عمل ممثلاً للحركة الصهيونية منذ أوائل **1903** قبل أن يترقى ليصل إلى سدة الحكم الفعلي في أكبر قوة استعمارية في ذلك الوقت. وعليه، فإذا كان السلطان عبد الحميد متمسكاً برفضه التخلي عن فلسطين، فإن الوطن الموعود يجب أن لا يبقى تحت يد السلطان. وطبقاً للعديد من المؤرخين أمثال ويلينغتون، وكاننغ، وبالمرستون، فإن سياسات ديزرائيلي استندت إلى حقيقة أن الحفاظ على وحدة وتماسك الإمبراطورية العثمانية ، إنما يمثل أهمية لبريطانيا وأوروبا بشكل عام، باعتبارها منطقة عازلة عظمى وخاصة في المناطق العربية. قرر البريطانيون بأن الوقت قد حان للتحرك، خاصة وأن سياسيات السلطان عبد الحميد بدأت في إذكاء المشاعر الإسلامية وإعادة التناغم للإمبراطورية.

عن التحرك البريطاني للاستيلاء على فلسطين تقول إليزابيث مونرو في كتابها المعنون: لحظة بريطانيا في الشرق الأوسط، بأن" فكرة استيلاء بريطانيا على فلسطين وجدت هوى كبيراً لدن لويد جورج لأسباب تتعلق بنشأته الدينية.. وخلال أيام من توليه رئاسة الحكومة سارع إلى بث حياة جديدة في الخطط الخاصة بالتحرك باتجاه فلسطين انطلاقاً من مصر.، طلب لويد جورج من مارك سايكس الانضمام للحملة كضابط سياسي كبير. وفي**5** من أبريل **1917**، اجتمع لويد جورج بمارك سايكس عشية توجهه للمنطقة، وزوده بتعليمات بضرورة بذل كل جهد ممكن لتحويل فلسطين إلى مستعمرة بريطانية، وعدم قطع أي تعهدات للعرب، وفي الوقت نفسه عدم الإقدام على أي تصرف قد يثير حفيظة الحركة الصهيونية".[1]

احتلال العراق..أحد الأهداف الرئيسية للحرب

منذ بداية الحرب العالمية الأولى ونية ضم بلاد الرافدين (العراق حالياً) على أجندة بريطانيا الاستعمارية. وقتها كانت لندن تحتفظ بقوات لها في مصر باعتبارها محمية

[1] Britain's Moment in the Middle East 1914-71, Elizabeth Monroe, The Johns Hopkins University Press,2nd edition 1981, P 38

بريطانية، وترتبط بترتيبات مع مشيخات الخليج وشبه الجزيرة العربية، حيث ضمنت من خلال مساعداتها المالية ونشاط عملائها مصالحها هناك. وحتى ظهور اهتمام الحركة الصهيونية بها، لم تكن فلسطين تمثل أهمية إستراتيجية بالنسبة للمسئولين البريطانيين أمثال وزير الحرب كيتشنر، وبالتالي فإن مصيرها ظل يكتنفه الغموض. ومع بدء الحرب العالمية الأولى، شكلت الحكومة البريطانية لجنة وزارية داخلية للبحث في مستقبل المناطق العثمانية. كان رأي اللجنة بأن فلسطين لا تمثل أهمية إستراتيجية وبالتالي فإن اللجنة لم توص باحتلالها. لم تجد الحكومة وقتها من خيار سوى تأجيل مشروعها باحتلال فلسطين، خاصة وأن كيشتنر المعارض القوي للإستراتيجية الصهيونية في فلسطين كان يحظى بشعبية عالية في أوساط البريطانيين؛ لدرجة أن رئيس الحكومة لم يكن يجرؤ على تجاوز رأيه. كان البعض يرى في فلسطين الجسر الذي يربط إفريقيا العربية بسوريا الكبرى، وعليه فإن أي قوة معادية فيها تستطيع قطع الطريق إلى الهند عبر أرض الرافدين وعبر قناة السويس أيضاً، أضف إلى ذلك أن المسيحيين الصهاينة أمثال جورج لويد وبلفور كانوا يريدون تحويلها إلى دولة يهودية، وهو تخطيط يصطدم بعائق رئيسي يدعى: كيتشنر.

اختفى كيتشنر في المياه العميقة بعد أن أغرقت توربيدات العدو سفينته، واختفت معه سياسته المغايرة لسياسة ومشاريع الحركة الصهيونية ومناصريها، تبع ذلك تغيير الحكومة في بريطانيا ليبادر المسئولون الجدد على إثرها إلى وضع فلسطين والشرق الأوسط على رأس قائمة الأولويات، في تطور بررره لويد جورج ومارك سايكس وأتباعهما بالقول بأنه جاء حصيلة النفوذ الهائل الذي يتمتع به اليهود، الذين لم يكن بالمستطاع كسب الحرب بدون ما قدموه من دعم مالي وسياسي. ادّعى لويد بأنه أدرك الأهمية العالية للمصالح اليهودية في فلسطين خلال اتفاقية سايك-بيكو-سازانوف، التي أصبحت سايكس – بيكو بعد الثورة الروسية. في أوائل **1917** شعر سايكس بأهمية الالتقاء بشخصية صهيونية لأغراض التنسيق، وعليه فقد تم ترتيب لقاء له مع حاييم وايزمان، شرح سايكس خلاله لوايزمان بأن التفكير السائد حالياً يدور حول إقامة كيان يهودي في فلسطين تحت حكم بريطاني فرنسي مشترك. اعترض وايزمان على مشاركة الفرنسيين في المشروع، وتم الاتفاق من خلال رئيس الوزراء لويد جورج على استئثار البريطانيين بفلسطين بعد الحرب. أبلغ لويد جورج وايزمان بأن فلسطين بالنسبة له هي" الجزء المهم الوحيد بالفعل من الحرب". ومما قاله له أيضاً بأن: قضية فلسطين مسألة يتم التفاهم عليها بين بريطانيا واليهود فقط. وفي الوقت الذي عمل فيه جورج على وضع احتلال فلسطين على رأس الأهداف البريطانية في الحرب، على عكس ما فعله سلفه وكوتشينر، كانت الماكينة الصهيونية تقوم بواجبها في فرنسا بكثير من الهمة والنشاط، بما في ذلك إحداث تغييرات سياسية هيكلية لدرجة دفعت سايكس إلى مخاطبة لورد بلفور بتاريخ **9** أبريل **1917** مؤكداً له بأن فرنسا أصبحت تعترف الآن بالتطلعات الصهيونية في فلسطين. كانت الصهيونية تطالب الحكومة البريطانية بإصدار بيان علني تعترف فيه بهذه الحقوق، وجاء الموقف الفرنسي الجديد ليعزز من هذا المطلب. وقتها جاءت المعارضة القوية لمشروع البيان البريطاني من عضو يهودي في الحكومة وهو وزير الدولة لشؤون الهند إيدوين مونتاغو، الذي ينتمي لعائلة من أرباب المال. وكغيره من اليهود الكثيرين فقد كان مونتاغو يرى في اليهودية ديناً أكثر منها قومية، وبأن نشرها بحماسة قد يقود إلى نتائج سلبية، من خلال تحولها إلى أداة لتعظيم معاداة السامية، ولم يكن وحده في هذا الشأن. وفي ذلك يقول وولتر لاكويور في كتابه المعنون: تاريخ الصهيونية، " بدءاً من عام **1913** وهو أحدث

تاريخ تتوفر فيه إحصائيات، فإن **1**% فقط من يهود العالم كانوا يظهرون الولاء التام للصهيونية".[1]

ما بعد كوتشينر..

بعد موت كوتشينر المفاجئ والغامض، أصبحت وزارة الحرب للشرق الأوسط، المستحدثة، تحت إدارة ليو أميري ومارك سايكس وعضو ثالث هو: ويليام أورمسبي غوور. ناشد الكولونيل جون باترسون، الذي درس الإنجيل قبل التحاقه بالجيش ويقود اللواء اليهودي في حملة غاليبولي، ليو أميري الطلب من وزارة الحرب السماح بتشكيل فيلق يهودي للقتال تحت الراية البريطانية عندما غزت بريطانيا فلسطين. جاءت فكرة تشكيل الفيلق اليهودي من صحفي روسي يدعى فلاديمير جابوتنسكي، الذي أثار المسألة لأول مرة عام **1915**. وقتها علق مسئول بريطاني كبير بالقول:" حتى ذلك الوقت، لم يكن أحد يعرف متى سنذهب إلى فلسطين، بل إن لورد كوتشينر كان يرى بأن ذلك لن يحدث أبداً".

تم إرسال أورمسبي غوور للشرق الأوسط لإدارة المكتب العربي في القاهرة. وهناك وجد نفسه مسئولا وبصورة مباشرة عن شبكة تجسس يهودية تنشط في فلسطين برئاسة آرون آرونسوهن، وكان البريطانيون يعتمدون على الشبكة المذكورة في رصد تحركات القوات التركية. ما إن تولى لويد جورج رئاسة الحكومة البريطانية حتى بادر أميري إلى تفعيل خطة وضع فلسطين تحت الاحتلال. وكان لويد جورج قد روّج مشروع تحويل فلسطين إلى دولة يهودية، وعليه فقد بدأت عملية وضع الخطط اللازمة ولتتحول هذه الفكرة إلى هدف منشود للإمبراطورية البريطانية. وفي هذا الصدد تم تشكيل الفيلق اليهودي، وليدخل فلسطين مع الجيش البريطاني الزاحف.

لم يكن يهود أمريكا وقتها متحمسين كثيراً للصهيونية. ففي نيويورك التي تعتبر الآن المعقل الرئيسي لليهود في الولايات المتحدة، لم يكن هناك أكثر من**200** صهيوني في ذلك الوقت، كما أن أكبر تبرع تلقته الحركة الصهيونية من يهود أمريكا قبل عام **1914** لم يتجاوز الـ: **200** دولار. مثل هذا الوضع تغير بأنضمام لويس دي. براندیس للحركة الصهيونية عام **1912** ليصبح رئيساً لها بعد ذلك بعامين. كان براندیس على علاقة سياسية قوية بمحام من بوسطون، الذي أصبح لاحقاً أول يهودي يرأس المحكمة العليا ومستشاراً مقرباً من الرئيس ويلسون. وعندما زار بلفور الولايات المتحدة عام**1917** حرص على الاجتماع ببراندیس. الواقع أن وعد بلفور ساعد براندیس في المهمة التي كرس لها معظم وقته، وهي حشد يهود أمريكا حول مشروع محدد أصبح هدفاً للحرب. في البداية أظهر الرئيس ويلسون تردداً في دعم وعد بلفور، إلا أن موقفه تغير بفضل جهود براندیس وغيره من اليهود المتنفذين ، حيث أعلن ويلسون موافقته على المشروع البريطاني على شكل رسالة موجهة ليهود أمريكا بمناسبة السنة اليهودية الجديدة في سبتمبر **1918**.

حملة أرض الرافدين

[1] Walter Lacqueur, A History of Zionism, New York, Holt, Rinehart & Winston, 1972 p 184

بحلول عام **1914** كانت فارس، إيران حالياً، تشكل المصدر الرئيسي للبترول بالنسبة للإمبراطورية البريطانية. ومع تأكد شركة النفط البريطانية من وجود احتياطات نفطية هائلة في أرض الرافدين، وتحديداً في أقاليم بغداد والموصل والبصرة، أصبح العراق هدفًا حربياً اكتسب الأولوية القصوى في نظر الحكومة البريطانية.

قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بشهر واحد فقط، حشدت بريطانيا قوة احتياط لاحتلال شط العرب والبصرة في جنوب العراق كخطوة أولى. وفي اليوم التالي لإعلان بريطانيا الحرب على تركيا، قامت القوارب الحربية البريطانية بقصف القلعة التركية في شبه جزيرة الفاو ثم احتلالها. وبعدها بأسبوعين قامت قوة بريطانية تضم عدة آلاف من الجنود باحتلال البصرة، وطلب القائد العسكري البريطاني من قواته الزحف باتجاه بغداد.

لم تواجه قوات الجنرال تاونشند مقاومة تذكر وهي تتقدم شمالاً حتى وصلت على بعد **25**كم من المدينة، حيث دخلت بتاريخ **25** نوفمبر في معركة شرسة مع القوات التركية، فقد خلالها الجنرال البريطاني أكثر من نصف قواته قبل أن يجبر على التقهقر باتجاه كوت العمارة لإعادة تجميع قواته. حاول تاونشند شن سلسلة من الهجمات باءت جميعها بالفشل، وانتهت المواجهة مع الأتراك باستسلام القوة البريطانية بعد أشهر من الحصار.

بعد تغيير في القيادة وإرسال المزيد من التعزيزات في مواجهة الجيش التركي الضعيف التسلح، سقطت بغداد في يد قوات الهند البريطانية بقيادة الجنرال ستانلي ماودي في **11** مارس **1917**.

الاحتلال البريطاني لفلسطين

خاض البريطانيون حملة أرض الرافدين من خلال حكومة الهند، مما يعني بأن معظم إصاباتهم في العراق كان من الهنود. وفي حملته لاحتلال فلسطين بدأ الجنرال اللنبي تحركه بنشر **56** ألف عامل و**3500** جمل لمد خطوط سكة الحديد وخطوط التزود بالمياه خلف قواته. ومع اكتمال احتلال فلسطين، كان الجنرال اللنبي قد نشر **350** ألف جندي، منهم **100** ألف مصري وعشرات الآلاف من الهنود، بالإضافة إلى آلاف من الاستراليين والنيوزيلنديين، إلى جانب **160** ألف حصان وجمل. كما انضمت قوات فيصل لحملة الجنرال لتجد نفسها تشارك في الحملة البريطانية إلى جانب فيلق جابوتنسكي اليهودي، الذي لم يقم بمهمات قتالية باعتباره سيكون نواة الجيش اليهودي في فلسطين.

قد يكون أقوى تعبير عملي على قبول ويلسون بوعد بلفور قد جاء على شكل الدعم الذي حظي به الفيلق اليهودي من قبل الأمريكيين. تم تشكيل الفيلق كوحدة من الجيش البريطاني، في معظمه من متطوعين يهود يعيشون على الأرض الأمريكية برضا وربما بمباركة إدارة ويلسون التي لم تظهر أي اعتراض عندما بدأ جابوتنسكي تجنيد اليهود الأمريكيين. وإلى جانب بن غوريون وعدد من اليهود الفلسطينيين الذين يعيشون في المنفى في الولايات المتحدة، تطوع ما يزيد على **1720** يهودياً أميركياً _ أكبر كتيبة عرقية في القوة البريطانية _ للمشاركة في غزو فلسطين. وفي نيويورك وبالتيمور وبوسطون كان المتطوعون يتغنون بالنشيد الوطني اليهودي "هاتيكفا" (الأمل) وهم يتوجهون بخطى ثابتة وبحماسة وسط جموع المودعين من الأهالي والسياسيين والفرق الموسيقية، إلى السفن التي

حملتهم لمعسكرات التجمع والتدريب في كندا. لم يقدر للفيلق التاسع والثلاثين من فرقة المشاة في الجيش البريطاني تذوق طعم القتال عندما تعرض أفرادها للنيران خلال عبور مياه نهر الأردن بالقرب من أريحا، أي قبل شهر من العمليات العسكرية في فلسطين. ومع ذلك فإن مجرد وجود قوة قتالية يهودية _ هي الأولى منذ حوالي ألفي عام_ وهي تحمل الأعلام المطعمة بنجمة داوود، شكّل دفعة معنوية رئيسية لليهود المشتتين في بقاع الأرض، ونموذجاً للمنظمات العسكرية الصهيونية اللاحقة. وقتها برز المتطوعون اليهود القادمون من الولايات المتحدة كمقاتلين على قدر عال من الحماسة والاندفاع؛ أو كما يقول مايكل أورين في كتابه: القوة، العقيدة والخيال، " جلب اليهود الأمريكيون معهم اهتماماً قوياً إلى درجة الهوس بفلسطين وبكل ما هو فلسطيني" . كان من بين المتطوعين القادمين من أمريكا النحات جاكوب إيبستاين، ورئيس بلدية القدس لاحقاً غيرشون أغرون (أغرونسسكي)، ونيهيميا رابين الذي سيتبوأ ابنه اسحق مواقع عالية في الدولة العبرية القادمة، بما فيها قيادة الجيش ورئاسة الحكومة.[1]

في معركة القدس نشر البريطانيون **26** ألف جندى، منهم **8** الاف من سلاح الفرسان، سقط منهم خلال المواجهة الشرسة مع العثمانيين **1667** جندياً وأكثر من **5** آلاف حصان. أبدى جنود الجيش العثماني مقاومة شرسة بالرغم من تفوق الغزاة عدداً وعدة، وعانى البريطانيون خسائر بشرية جسيمة، بل إن الاستيلاء على بعض المواقع لم يكن ليتم بدون اللجوء إلى القصف المدمر، الذي أدى إلى مسح مدينة غزة عن بكرة أبيها قبل سقوطها وصولاً لخلق حقائق على الأرض، أمر لويد جورج الجيش البريطاني في مصر بغزو فلسطين. فكان أن زحفت القوات البريطانية بقيادة الجنرال سير ارشيبالد موراي باتجاه فلسطين ولكي تمنى بهزيمة في أول معركة في غزة، المدينة الرئيسية على الطريق الساحلي إلى فلسطين. كانت الخسائر في صفوف الجيش البريطاني ضعف ما كانت عليه في صفوف المدافعين. وبعد إعادة تجميع للقوات وورود المزيد من التعزيزات، شن موراي هجوماً جديداً بتاريخ**26** أبريل **1917** ليحصد الفشل مجدداً، غير أن خسائر القوات البريطانية هذه المرة بلغت ثلاثة أضعاف ما أصاب المدافعين عن غزة، الأمر الذي أجبر القائد الإنجليزي على الانكفاء بقواته عائداً إلى مصر، حيث تم استبداله بالجنرال إيدموند اللنبي في يوليو **1917**، الذي وجد نفسه أمام مهمة محددة من حيث المكان والزمان: فقد كانت الأوامر الصادرة تقضي باحتلال فلسطين ودخول القدس قبل الكريسماس المقبل.

تم تعيين ريتشارد ميمرتزباجن على رأس وحدة الاستخبارات العسكرية، يساعده في ذلك ويندهام ديدس كضابط سياسي وخبير في الشؤون العثمانية، وتدعمهما خلايا تجسس يهودية بقيادة ليفين وآرون آرونسهون. وبالطبع فقد شارك في عملية الغزو الجديدة اللواء اليهودي بقيادة فلاميدير جابوتنسكي، والقوات العربية بقيادة الأمير فيصل التي كانت تناوش القوات التركية على الجناح الأيمن للجيش البريطاني الغازي.

كان الجنرال اللنبي ومعظم جنرالاته من القراء المتحمسين للإنجيل أو من المسيحيين الصهاينة، ممن أداروا حملة فلسطين بأندفاع ديني محموم وروح صليبية وقادة.

[1] Power, Faith and Fantasy, Michael B. Oren, W.W. Norton & Company, New York, London, P 363

فقد لجأ اللنبي إلى القساوسة المبشرين لإذكاء روح القتال لدى الجنود حتى وهم على أرض مصر الإسلامية، استعداداً للزحف على فلسطين. ومن بين المبشرين هؤلاء القس البروتستنتي أوزوالد تشامبرز صاحب كتاب: "أقصى ما أملك.. للرب الأسمى"، الذي اعتاد جورج دبليو بوش قراءته وهو يستعد لشن حملته "الصليبية" المعاصرة على العراق. وعندما قابل موشيه سميلانسكي أحد جنود اللنبي بالقرب من يافا ويدعى سيد شيرسون القادم من أستراليا، قال عنه سميلنسكي:" ترك هذا الراعي الشاب قطعان غنمه وراءه ليتطوع في الجيش الذي سيغزو فلسطين، متأثراً بقراءة الإنجيل الذي اعتاد عليه منذ الصغر، والذي علمه بأن أرض الإنجيل اغتصبت من شعب الإنجيل".

عملت الحرب العالمية الأولى على تغيير وضع فلسطين كلياً. فقد بقيت الأرض المقدسة تنعم بالحكم الإسلامي لأكثر من **700** عام، قبل أن تنتقل للأيدي المسيحية اليهودية، بفعل الإندفاع الاستعماري البريطاني في الشرق الأوسط عام **1917**. الواقع أن الكثيرين من جنود اللنبي وقتها كانوا يقارنون أنفسهم بالصليبيين.[1]

كان للحلف الماسوني اليهودي دوره الكبير في حرب فلسطين، بما في ذلك قيام الخلايا الماسونية هناك بتزويد اللنبي بالمعلومات الاستخباراتية الحيوية. ومن أبرز هذه الخلايا تلك التي قادها ألتر ليفين، الذي كان ينشط تحت غطاء العمل في تسويق بوالص التأمين. وعندما انكشف أمره للاستخبارات التركية التي حاولت اعتقاله لجأ إلى حماية خليل السكاكيني- المدرس الفلسطيني المسيحي – الذي آواه في بيته. وطبقاً لما ورد في كتاب: فلسطين واحدة كاملة، للمؤرخ الإسرائيلي توم سيجيف، فإن السكاكيني " انضم للمحفل الماسوني في القدس وكان ليفين أحد أعضاء المحفل المذكور".[2]

عن هذا الأمر كتب ضابط الاستخبارات التركي زكي بيك في مذكراته يقول بأن ليفين كان يدير شبكة للتجسس عبر سوريا الكبرى بما فيها فلسطين. ومن خلال مجموعة دور بغاء، استطاع الجاسوس اليهودي جمع معلومات قيمة، مستخدماً أسلوب الابتزاز في جمع المعلومات من الضحايا، وكثير منهم شخصيات سياسية وعسكرية. بل إن حاكم القدس التركي كان متزوجاً من فتاة يهودية عرفها الناس في شوارع القدس كمومس.."[3]

وبعد احتلال القدس استقر المقام باللواء اليهودي في فلسطين ليشكل نواة القوات المسلحة الإسرائيلية في المستقبل، بينما واصلت قوات فيصل تقدمها شمالاً لمقاتلة القوات التركية المتراجعة. سقطت القدس مجدداً بتاريخ **11** ديسمبر **1917** ودخلها الجنرال اللنبي مع ضباطه من باب يافا، حيث أعلن منها الأحكام العرفية والحكم العسكري على فلسطين. وفي ذلك تقول فيفيان جيلبرت، من الإدارة العسكرية البريطانية:" اثنان فقط من حملة الصليب نجحا في تحرير المدينة المقدسة..: القائد الصليبي غودفري من بويلون، وإدموند اللينبي". وفي لندن دقت أجراس كاتدرلئية ويستمينستر لأول مرة منذ ثلاث سنوات ابتهاجاً بعودة القدس إلى حظيرة الكنيسة.

---

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 4

[2] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg. 29

[3] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg. 17

بعد الاستيلاء على القدس، وفي مارس **1919** شهدت مسارح نيويورك افتتاح عرض مسرحي من إعداد الشاب ثوماس لوويل، من أوهيو، حمل عنوان: "الحملة الصليبية الأخيرة". بدأ عرض المسرحية على مسرح سينتشوري قبل أن ينتقل بها أصحابها المتأثرون بالإقبال الجماهيري الهائل إلى مدرج حديقة ماديسون سكواير الضخم. ومن نيويورك وجدت المسرحية طريقها إلى أوروبا، حيث تجاوب معها الجمهور اللندني الذي تابعها على أضخم مسارح المدينة، لدرجة أن حجم المشاهدة للمسرحية المذكورة سجل أرقاماً قياسية وصلت إلى مليون مشاهد خلال ستة أشهر.

حيث أن الفرنسيين لم يكونوا على القدر نفسه من الحماسة التي غلبت على البريطانيين عامة ولويد جورج خاصة، فيما يتعلق بمشروع إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين، فقد ركز الصهاينة جهودهم لدفع بريطانيا لاحتلال فلسطين وإبقائها تحت سيطرتها حصراً في خروج عما نصت عليه اتفاقية سايكس- بيكو. وفي أبريل **1917** أبلغ لويد جورج سفيره لدى فرنسا بعزم بريطانيا النكوص عما توصلت إليه من اتفاق مع الفرنسيين فيما يتعلق بفلسطين، وقال له بالنص الواضح:" سنتوجه إلى هناك كغزاة وسنبقى فيها. لم يكن أمام الفرنسيين سوى القبول بالموقف البريطاني كأمر واقع، حتى وإن كان ذلك يناقض الاتفاقية الأنجلو- فرنسية.[1]

تصاعدت الضغوط على الحكومة البريطانية لإعلان دعمها لفكرة قيام كيان يهودي في فلسطين على الملأ، وأشرك اليهود الصحافة في اللعبة. فهذه التايمز تنشر تقريراً لها بتاريخ **26** أكتوبر **1917** كشفت فيه النقاب عن أن بريطانيا تدرس إصدار بيان رسمي حول المسألة الفلسطينية، تؤكد فيه على دعمها لفكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وبأن الوقت حان لإصدار الإعلان المطلوب. بعدها بأيام قررت الحكومة البريطانية في اجتماعها المنعقد بتاريخ**31** أكتوبر تخويل وزير الخارجية إصدار مثل هذا البيان. سارع سايكس ليكون أول من يزف البشرى لوايزمان، إلا أنه فوجئ بردة فعل غير متوقعة من الزعيم الصهيوني. فقد أظهر وايزمان عدم ارتياح لما جاء في البيان البريطاني الذي طال انتظاره. فلم يأت البيان بالقوة التي يتوقعها قادة الحركة الصهيونية. وقتها جاء النص الذي أعده بلفور والموجه إلى أشهر يهودي بريطاني يقول:

"عزيزي لورد روتشيلد،،

إنه من دواعي سعادتي أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة صاحب الجلالة التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني اليهود والصهيونية وقد عرض على الوزارة وأقرته:

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يكون مفهوماً بشكل واضح أنه لن يؤتى عمل من شأنه أن ينتقص الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى، وسأكون ممتناً لو أحطتم اتحاد الهيئات الصهيونية علماً بهذا التصريح.

المخلص آرثر بلفور

[1] A Peace to End All Peace, David Fromkin, Henry Holt&Co, New York,1989, Pg. 267

لم يكن مفاجأة أن يعتبر الكثيرون، ليس أقلهم الفلسطينيون، الإعلان المذكور محض هراء. فقد كان الأمر يتعلق بسياسي بريطاني يعد مواطنه رجل المال العالمي ببلاد طرف ثالث. وهنا لم يجد آرثر كيسللر في وصف الإعلان البريطاني عبارة أبلغ من" زنجي ابيض".

الواقع أن تشريد الفلسطينيين تحت أي مسمى وبأي طريقة شكل محور المشروع الصهيوني منذ البداية. وكما يقول ديفيد فرومكين:" أدرك معدو المشروع الصهيوني منذ البداية بأن إقامة الدولة اليهودية في فلسطين سيأتي بالطبع على حساب تشريد العرب الفلسطينيين وإبعادهم عن فلسطين. كان تشيرتشل، وزير المستعمرات عام **1919** يشعر بالقلق تجاه حقيقة أن" اليهود الذين تعهدنا بإدخالهم إلى فلسطين يفترضون جازمين بأنهم سيجدون المكان وقد أخليناه لهم من الأهالي المحليين بما يتلاءم وراحتهم".[1]

حمل جيش اللنبي معه إلى فلسطين: جيشاً يهودياً بقيادة جابوتنسكي، وحكومة ظل يهودية تحت مسمى المفوضية اليهودية برئاسة حاييم وايزمان. وطبقاً للمؤرخ الإسرائيلي توم سيجيف فإن:" تشكيل المفوضية الذي تم قبل قرار الحكومة البريطانية البقاء في فلسطين بوقت طويل، وقبل منح بريطانيا الانتداب على فلسطين من قبل عصبة الأمم بوقت طويل أيضاً، وفي تجاهل لرأي القادة الميدانيين في الجيش البريطاني ، كان في الواقع انعكاساً للقوة المفترضة للصهيونية... في لندن".[2]

طلب وايزمان من الصهاينة الأمريكيين جمع ملايين الدولارات لتمويل عمل المفوضية. وخلال السنوات الثلاث والنصف التي أعقبت استقرارها في القدس، بلغ حجم ما أنفقته المفوضية **4** ملايين دولار، حيث طورت نشاطها من توزيع العطاءات لليهود الفقراء مباشرة إلى خلق فرص العمل لهم من خلال تمويل المشروعات. كان وايزمان عازماً على استخدام المساعدات في محاولة اجتذاب اليهود المتدينين للمشروع الصهيوني الذي لم يكونوا يؤيدونه من الأساس، ولاعتماد العبرية بديلاً من اليديدية **Yiddish** لغة للتدريس. كان وايزمان يريد خلق لغة قومية يصعب إنشاء الدولة الجديدة بدونها.ولهذا نجد أن من أوائل القرارات التي اتخذها المؤتمر الصهيوني العالمي الأول المنعقد عام **1897** هو إقامة جامعة في القدس، هدفها العمل على إحياء اللغة العبرية والقومية اليهودية. وتحقيقاً لهذا الهدف قامت المفوضية اليهودية بشراء قطعة من الأرض في القدس، وحدد وايزمان تاريخ **24** يوليو **1918** موعداً لوضع حجر الأساس في المشروع وسط أجواء احتفالية كبيرة. ومع أن اللنبي أظهر اعتراضاً في البداية باعتبار أن الحرب لم تكن قد وضعت أوزارها، وبأن الظروف السياسية غير مواتية بعد، إلا أن وايزمان تجاوز القائد العسكري باللجوء إلى وزير الخارجية بلفور في لندن. كانت النتيجة أن الحفل أقيم في موعده وقام وايزمان بوضع **12** حجراً تمثل قبائل إسرائيل، وحجراً آخر يمثل الحركة الصهيونية في أساس المبنى. كان اللنبي على رأس ضيوف الحفل الذي تجاوز عددهم الـ**6** آلاف شخص،

[1] A Peace to End All Peace, David Fromkin, Henry Holt&Co, New York,1989, Pg. 494

[2] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 65

بل إن اللنبي حرص على أن يحضر للموقع في سيارته الرولز رويس وبجانبه وايزمان. أما بلفور فلم يكن ليفوت المناسبة بدون إرسال برقية تهنئة حارة!

نزل وايزمان بإعتباره رئيساً للمفوضية اليهودية في معسكر اللنبي في الرملة. وعندما دعاه اللنبي إلى دخول القدس معاً، رفض وايزمان العرض على أساس أن الوقت ليس مناسباً ، وبأن من شأن ذلك إثارة الحساسيات وقتها، ولخص موقفه من القائد البريطاني وقتها بالقول: " اللنبي منا وإلينا". استمر الحكم العسكري البريطاني لفلسطين عامين ونصف كان الجنيه المصري خلالهما هو عملة التداول القانونية. كان الرجل الثاني في الإدارة العسكرية البريطانية ويندام ديبدز مسيحياً صهيونياً ملتزماً وكذلك الأمر بالنسبة للعديد من كبار الضباط البريطانيين الذين كانوا يخدمون في فلسطين. كان ديبدز يؤمن يقيناً بأن سرعة عودة المسيح مرهونة باستيطان اليهود في فلسطين، وبأن هناك تحالفاً غير مدون بين بريطانيا ويهود العالم، وبأنه كقائد عسكري إنما يتصرف على هذا ألأساس. مثل هذا الرأي كان يلقى معارضة من قبل البعض داخل القيادة العسكرية البريطانية. فهذا الجنرال سير وولتر كونغرييف الذي خدم في مصر وفلسطين، كان يرى في اليهود أناساً:" عدوانيون، مشاكسون ويفتقرون للانضباط"، وكثيراً ما تحدث عن مخاوفه من تحول وعد بلفور إلى سابقة في العلاقات الدولية قائلاً: " قد نعترف ذات يوم بأن إنجلترا تنتمي لإيطاليا لأن الرومان احتلونا في الماضي". شعر كونغرييف بأن اليهود يريدون إغراق فلسطين بالمهاجرين القادمين من روسيا ورومانيا وبولندا لتحقيق الأغلبية السكانية في البلاد حتى : "يتمكنوا من سحق العرب وطردهم من أرضهم وكذلك التخلص من الإنجليز" .

لاحظ الجنرال كونغرييف بأن المفوضية اليهودية كانت تملك الهيكل الفعلي لحكومة موازية للإدارة العسكرية البريطانية في فلسطين، وفي ذلك كتب يقول:" إن وجود المفوضية اليهودية بشكلها الحالي إنما يمثل إهانة للإدارة البريطانية". الواقع أنه كان للمفوضية اليد الطولى في فلسطين. وفيما يتعلق بتعارض المصالح مع الإدارة العسكرية البريطانية. اعتادت المفوضية تمرير مواقفها باللجوء إلى لندن مباشرة، ومن ذلك على سبيل المثال، عندما صرح وايزمان في أحد اجتماعات المفوضية بأن إدموند فيفيان غابرييل يعتبر عدواً للصهيونية، وبأنه لا يجوز بقاؤه في فلسطين. كانت القيادة اليهودية تتهمه بدعم مصالح الكنيسة الكاثوليكية والعرب. وبالفعل، فإن غابرييل ذهب في رحلة إلى لندن ولم يعد منها، حيث تحدث وايزمان مع هيربرت صامويل الذي تحدث بدوره مع تشيرتشل بهذا الشأن. لم ينجح وايزمان في إبعاد كل من يعتقد بعدم ولائه فحسب بل تمكن من استبدالهم بضباط موالين تماماً للأجندة الصهيونية. وهنا يصف كبير ضباط الإدارة العسكرية البريطانية الجنرال لويس جون بولس، المفوضية الصهيونية بأنها إدارة ضمن الإدارة. عندما تولى منصبه كان الجنرال بولس من أشد المؤيدين للصهيونية إلا أنه، وبعد مرور خمسة أشهر، بدأ يطالب بحل المفوضية. كان الجنرال يشعر بإهانة كبيرة وهو يجد نفسه يتلقى الأوامر من المفوضية بدلاً من أن يكون الأمر عكس ذلك.

في هذه الأثناء كان هناك شاب عربي فلسطيني في العشرينات من عمره يتلقى العلم في القاهره ويعد نفسه لخلافة والده في منصب مفتي القدس.. وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى تطوع للخدمة في الجيش التركي، إلا أنه سرعان ما طلب إعفاءه لأسباب صحية. كان الشاب يدعى الحاج أمين الحسيني" الذي استعاد عافيته سريعاً على ما يبدو، إذ ما إن وصلت القوات البريطانية إلى مشارف القدس حتى كان قد حشد أكثر من ألفي متطوع

ليس لمقاومة الغزاة الجدد بل لخدمتهم" ولعل ذلك كونه يؤازر الامير فيصل وثورته وقواته الغازية مع الجنرال اللنبي.

قبل توجهه للقاهرة في زيارة علاقات عامة، أمر أعضاء المفوضية الصهيونية بتجنب الحديث عن هدف الصهيونية الخاص بإقامة دولة يهودية مستقلة في فلسطين. كان وايزمان يؤمن بأن" العرب بدائيون ومن السهل عليهم تصديق أي شيء يقال لهم".[1]

كان وايزمان يخطط للقاء الأمير فيصل في معسكره القريب من العقبة في يونيو **1918** بهدف إقناعه بالتعاون المشترك. أراد وايزمان إقناع فيصل بأن اليهود واليهود وحدهم هم القادرون على مساعدته في بناء المملكة العربية على أسس عصرية. وللعمل على إعداد فيصل للقاء الزعيم الصهيوني، كتب مارك سايكس إلى فيصل يقول:" أدرك أن العرب يكرهون ويحتقرون ويدينون اليهود.. ولكن صدقني.. فأنا أتحدث عن الحقيقة عندما أقول بأن هذا العرق، الضعيف المكروه، عالمي ومتنفذ ولا يمكن القضاء عليه ..." اضاف سايكس في رسالته بأن اليهود:" موجودون في كل دولة، وفي كل بنك، وفي كل قطاع تجاري بل وفي كل مشروع". [2]

في اجتماعهما بالقرب من العقبة وفي الموعد الذي حدده الزعيم الصهيوني، أبلغ وايزمان الأمير فيصل بأن اليهود لا يعتزمون طرد العرب، وطلب منه اعتباره حليفاً كما فعل رئيس الحكومة البريطانية لويد جورج. ومع أن فيصل استقبل "ضيفه" بود إلا أنه لم يلزم نفسه بوعود أو اتفاقيات. غير أن وايزمان خرج من لقائه المذكور وهو على قناعة بأن الأمور ستكون على ما يرام بوجود فيصل على رأس حركة القومية العربية.

في مواجهة المهاجرين اليهود

تعود أولى المواجهات بين المستوطنين الصهاينة والمزارعين الفلسطينيين إلى أوائل الثمانينات من القرن الثامن عشر، عندما أقام اليهود مستوطناتهم الزراعية في الأراضي المشتراة حديثاً. فقد تم طرد المستأجرين ممن اعتادوا فلاحة الأراضي بالعنف في معظم الأحيان وبقوة السلاح في بعض الحالات، مما أدى إلى سقوط العديد من الفلسطينيين. ومنذ مستهل الهجمة الاستيطانية اليهودية، والصراع في فلسطين يدور بين الأهالي وهم العرب الفلسطينيون والمشروع الجديد الذي يعتزم إقامة دولة للأجانب على أرضهم.

في كتابه المعنون: حقيقة من فلسطين، يتحدث الكاتب اليهودي آحاد حاعام عن المواجهة بين الفلسطينيين والمستوطنين الأوائل بالقول:" تعامل المستوطنون مع العرب بعدوانية وقسوة، وتعدوا على أملاكهم وحرماتهم بكثير من الظلم، ولجأوا للضرب لأتفه الأسباب بل وفعلوا ذلك بافتخار". ويعيد حاعام خلفية هذا الظاهرة المشينة لأسباب نفسية بالقول:" كان اليهود أقرب إلى عبيد في أرض المنفى، ووجدوا أنفسهم وعلى حين غرة أحرارا بدون أي قيود وبصورة لم تكن لتتوفر لهم في أرض أخرى خارج تركيا.. مثل هذا التغير الجذري والمفاجئ ولد في نفوسهم ميلاً نحو الاستبداد القمعي كما يحدث دائماً عندما يؤول الحكم للعبيد". وحذر حاعام فائلاً:" اعتدنا على النظر للعرب كسكان صحراء

---

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 109

[2] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg. 111

بدائيين، وكشعب من الحمير ممن لا يرون ولا يفهمون ما يدور حولهم.. ونحن بذلك نقترف خطأً كبيراً . فالعرب، وكما هو الحال مع جميع أبناء سام، يتمتعون بالذكاء الحاد والذهنية الخلاقة.. وإذا ما قدر لشعبنا في فلسطين الفرصة لفرض الهيمنة على الأهالي المحليين بشكل او بآخر.. فسنكتشف بأنه لن يكون من السهل إلحاق الهزيمة النهائية بهم".[1]

في عام **1899** لخص أحد الوجهاء العرب في القدس وجهة نظر شعب فلسطين تجاه المشروع الصهيوني بالقول:" العالم كبير بما فيه الكفاية.. هناك أراض واسعة غير مأهولة يمكنها استيعاب الملايين من اليهود المساكين.. بحق الله اتركوا فلسطين وشأنها".

وفي عام **1891** رفع العرب الفلسطينيون التماساً إلى السلطات مطالبين بفرض قيود على دخول اليهود إلى فلسطين وحظر بيع الأراضي لليهود الأجانب. بالنسبة للفلسطينيين أصبحت المسألة في غاية الوضوح: فالأجانب يتوافدون على فلسطين لطردهم من وطنهم والاستيطان فيه. وعلى الأغلب فإن ديفيد بن غوريون لم يجانب الصواب بالحديث عما طالما حاول الجميع في بريطانيا والغرب تجاهله بالقول:" ليس هناك من لا يعلم بوجود مشكلة بين اليهود والعرب، ولكن ليس الجميع بالضرورة يرى صعوبة في إيجاد حل لهذه المشكلة. الواقع أنها مشكلة تستعصي على الحل.. فصراع المصالح بين اليهود والعرب في فلسطين من النوع الذي لا يمكن حله بالفلسفة.. لا أعتقد أن هناك من عربي يوافق على أن تكون فلسطين ملكاً لنا، حتى وإن اعتمدنا العربية لغة لنا وهو أمر لا استطيع تصوره أو احتماله.. وفي الوقت نفسه لا أرى من سبب يوجب على "مصطفى" تعلم العبرية .. نحن هنا أمام مسألة انتماء قومي.. نحن نسعى لكي تكون فلسطين بلدنا والعرب يريدونها لهم".[2]

في شتاء **1918** عاد وايزمان إلى لندن حيث دعاه رئيس الحكومة لويد جورج للقاء على الغداء بتاريخ **11** نوفمبر، وهو اليوم الذي شهد نهاية الحرب العالمية ألأولى. كان وايزمان وقتها قد قطع شوطاً في الإعداد لوضع الحركة الصهيونية في مؤتمر السلام القادم الذي سيعقد في يناير **1919**. وصلت إنجازات وايزمان السياسية ذروتها في المؤتمر المذكور .. فهو لم ينجح في ضمان التأييد العالمي لإعلان بلفور بل نجح في الحصول على تصديق دولي على الإعلان. فقد جاء منح بريطانيا صك الانتداب على فلسطين حصيلة لهذه الجهود في المقام الأول، وهو الصك الذي حمل في طياته تفويض القوة الاستعمارية في فلسطين مسؤولية العمل على مساعدة اليهود في إقامة دولتهم القومية هناك. وهكذا يكون وعد بلفور الذي قطعه لورد بريطاني للورد بريطاني آخر قد اكتسب الشرعية الدولية. وبذلك يكون وايزمان قد حصل على كل ما أراده، في تطور لا يجب أن يثير دهشة أحد خاصة وأن:" رئيس الوزراء لويد جورج ووزير الخارجية بلفور استمرا في النظر إلى وايزمان كزعيم يتمتع بقوة غامضة عالمية قادرة على التحكم بخيوط التاريخ. وبالرغم من أن بريطانيا وسائر أوروبا عاشت ظروفاً هي الأصعب في تاريخها حيث: تجاوزت خسائر بريطانيا وحدها في الحرب مليون قتيل وضعف هذا الرقم من المصابين، وانتشر وباء الأنفلونزا الأسبانية عبر أوروبا، وانضم الملايين من الأوروبيين للعاطلين عن

---

[1] [1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg. 104. Ahad Ha'am, "Truth from Palestine", in the Complete Works of Ahad Ha'am (in Hebrew) (Tel Aviv: Dvir, 1949), P. 24

[2] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 116. Pollock to his father, 21 Dec. 1919, Proni D/1581/5

العمل، ووجدت بريطانيا نفسها في حالة صدمة ومجبرة على مواجهة عالم جديد وقيم جديدة وأساليب حياة جديدة تتسبب لها بكثير من المعاناة، بالرغم من هذا كله ظلت الأبواب مشرعة أمام وايزمان .. ووجد رئيس الحكومة وغيره من كبار المسئولين الوقت الكافي لاستقباله والاستماع لمطالبه في الوقت الذي يراه هو مناسباً."

لم يكن لويد جورج وبلفور وحدهما على قناعة بأن اليهود يحكمون العالم، فهذا الكولونيل هاوس، مستشار الرئيس الأمريكي ويلسون، يعتقد بأن حصول اليهود على دولتهم سيكون مكافأة مناسبة يستحقونها على دورهم في لجم الثورة البلشفية التي كانت تهدد بالانتشار في الدول لأخرى. وفي مذكراته الشخصية لخص الكولونيل هاوس حديثاً جمعه مع بلفور بالقول:" يميل "بلفور" للاعتقاد بأن البلشفية وغير ذلك من الأفكار والممارسات الفوضوية هي من صنع اليهود. وعندما اقترحت تجميعهم أو وضع النخبة منهم في فلسطين وتحميلهم مسؤولية ضبط ممارسات اليهود في أرجاء العالم ، لمست تجاوباً من بلفور الذي أعرب عن الاعتقاد بأن هذه الفكرة قابلة للتحقيق". وأضاف هاوس بأنه ناقش الفكرة لاحقاً مع ويلسون شخصياً.

بالرغم من كل ما حققوه من نجاح تاريخي، فإن الصهاينة لم يخفوا خيبة الأمل وهم يرون بأن الحدود الإقليمية لدولتهم الموعودة جاءت دون الحد الأدنى المقبول من جانبهم. فقد كانت الخارطة الصهيونية المقدمة للمؤتمر تضم جنوب لبنان ومرتفعات الجولان، وجزءاً كبيراً من الأرض الواقعة شرق نهر الأردن، علماً بأن المساحة التي غطاها الانتداب البريطاني لم تتجاوز نصف المساحة التي وردت في الخارطة الصهيونية. كان من بين المقترحات التي بحثت في مؤتمر السلام تشكيل لجنة تكلف باستمزاج رأي الفلسطينيين في سلطة الانتداب التي يريدون أن تحكم بلادهم. تم تشكيل اللجنة المذكورة التي عرفت باسم لجنة كينغ -كرين برئاسة هنري تشيرتشيل كينغ ، رئيس كلية أوبيربين في أوهيو، الذي عرف بنشاطه الديني والتبشيري والتجاري، ومعه شالرز كرين رجل الأعمال والصناعي من شيكاغو والصديق المقرب من الرئيس ويلسون. خرجت اللجنة بنتيجة مؤداها أن الأغلبية العظمى من الفلسطينيين يفضلون الحكم الأمريكي وبالتالي فقد جاءت توصيتهم على هذا الأساس. لم يتح للرئيس ويلسون الاطلاع على تقرير اللجنة، حيث كان يعاني وقتها من المرض واختفى التقرير في أحد الملفات، ولم يسمع أحد به إلا بعد أن عثر عليه أحد الصحفيين الأمريكيين لاحقا ونشره كسبق صحفي.

فيصل بعد الحرب العالمية الأولى

اجتمع الأمير فيصل مع وايزمان مجدداً ولكن في أوروبا هذه المرة، حيث ادعى الصهاينة بأنه وقع وثيقة قبل فيها إيجاد أغلبية يهودية في فلسطين بشرط منحه مملكة عربية مستقلة واسعة. غير أن المايجور كامب، نائب كبير الضباط السياسيين في الإدارة العسكرية البريطانية في فلسطين، قال بأن الوثيقة لا قيمة لها، وبأنها لا تستحق حتى الورقة التي كتبت عليها لأن الكشف عنها سيجعلها الأنشوطة التي ستلف حول عنق الأمير. وأضاف موضحاً بأن القوميين سيحافظون على ولائهم للأمير ما دام لم يقدم تنازلات للصهيونية لأن ذلك سيجعل منه خائنا.

بعد الحرب سافر فيصل إلى أوروبا لحضور مؤتمر السلام في وقت كانت فيه كامل المنطقة(الشرق ألوسط) تصنف كمنطقة عدو محتلة وتخضع للحكم العسكري. وصل فيصل إلى مرسيليا بتاريخ **26** نوفمبر، حيث كان في استقباله ضابطان فرنسيان أبلغاه

برسالة من الحكومة الفرنسية مؤداها أنه سيكون مرحباً به كزائر غير رسمي. وبعد جولة في المدينة تابع الأمير سفره إلى لندن، حيث حظي باستقبال حار يشتم منه رائحة التملق، لم ينجح في تخفيف وطأة الأنباء السيئة التي أخذت تتوالى عليه بعدها تباعاً. سرعان ما اكتشف فيصل بأن اتفاقية سايكس بيكو كانت حقيقة واقعة وليست شائعات مغرضة مصدرها البلاشفة كما أفهموه سابقاً. ومن جانبهم احتج الفرنسيون بشده على مشاركته ورفضوا تمثيله للحجاز في مؤتمر السلام. طلب منه المؤتمرون المصادقة على المشروع الصهيوني في فلسطين بموجب اتفاق بينه وبين وايزمان. وجد فيصل نفسه في موقف حرج لا يستطيع معه التصرف. فقد كان شاب في الثلاثينات من العمر لا يجيد الإنجليزية ولا الفرنسية، ولا يملك خبرة أو حتى معرفة دبلوماسية تذكر. كان البريطانيون متمسكين بموقفهم من القضية الفلسطينية، ويريدون من الأمير فيصل الخضوع لمشيئتهم وللضغوط الصهيونية للتوقيع على اتفاقية رسمية. لم يكن فيصل قادراً على التصرف، فقد كانت الاتفاقية المطلوب منه توقيعها خارج أجندة رحلته الأوروبية، ومن شأن توقيعه عليها إشعال غضب عرب الشمال. وفي الوقت ذاته لم يكن فيصل قادراً على رفض طلب رعاته وأولياء نعمته: البريطانيين، خاصة بعد الطريقة التي عامله بها الفرنسيون. وعليه فإن فيصل لم يجد بداً من الرجوع لوالده طلباً للمشورة. جاء رد الشريف حسين واضحاً ومختصراً: عليه عدم القبول بأقل من وفاء البريطانيين بتعهداتهم، بما فيها تلك الخاصة بفلسطين كما سمعها من البريطانيين. كانت تعليمات الشريف حسين واضحة ولم تعط فيصل أي مجال لحرية التصرف بأي شيء. كلفت وزارة الخارجية البريطانية لورنس التفرغ لإقناع فيصل بالتعاون، وكان فيصل حريصاً تماماً على عدم استعداء البريطانيين بأي حال.. فقد كان يرى فيهم أمله الوحيد. وعليه وعلى عكس تعليمات والده، وافق فيصل على التوقيع على الاتفاقية، الأمر الذي كان يريد الصهاينة تحقيقه قبل انعقاد مؤتمر السلام. غير أن فيصل طلب إقران الاتفاقية بملحق يشير إلى أن موافقته عليها مرهونة بوفاء البريطانيين بتعهداتهم بشأن استقلال العرب. ومع أن فيصل اعتبر فكرة الشرط الذي وضعه التزاماً بتعليمات والده باعتبار موافقته على الاتفاقية سيعتبر لاغياً في حالة نكوص البريطانيين عن تعهداتهم لأبيه، إلا أن الدعاية الصهيونية قللت ممن أهمية تحفظات فيصل، وادعت بأنه وافق على المشروع الصهيوني.

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى رسمياً، حصل الكثير من المساومات والمقايضات بين الحلفاء حول كيفية تقاسم الغنائم، وبخاصة فيما يتعلق بالمناطق العربية من الدولة العثمانية، على غرار المفاوضات السرية التي جرت خلال الحرب وانتهت بما عرف باتفاقية سايكس بيكو، التي قسمت بموجبها الدول الثلاث المناطق العثمانية المحتلة فيما بينها.

شرق أوسط جديد في مؤتمر القاهرة

بتاريخ **12** مارس **1921** عقد في فندق سمير أميس في العاصمة المصرية ما عرف لاحقاً بـ: مؤتمر القاهرة، شارك فيه ما بين **40** إلى **50** خبيراً في شئون الدبلوماسية البريطانية في الشرق الأوسط. ناقش المؤتمرون وعلى رأسهم وينستون تشيرتشل عددا من القضايا. غير أن قضيتي: أرض الرافدين والمسألة الفلسطينية كانتا أكثر

ما يهم تشيرشل الذي غادر القاهرة إلى القدس في اليوم التالي لانتهاء أعمال المؤتمر التي امتدت حتى **22** مارس .

ناقش مؤتمر القاهرة القضية الأكثر إلحاحا والأشد إزعاجاً بالنسبة للبريطانيين، وهي تصاعد المقاومة الوطنية في أرض الرافدين وفلسطين، فقد كانت كلفة مواجهة المتمردين هناك تستنزف موارد الإمبراطورية. وفيما يتعلق بقضية أرض الرافدين توصل المؤتمرون إلى أن أفضل سياسة يمكن انتهاجها هناك هي العمل على خفض كلفة الاحتلال ما أمكن، وتقوم الإستراتيجية التي اقترحها تشيرتشل على: التركيز على القوة الجوية البريطانية في توجيه ضربات للمقاومة، مع تكليف حكومة عربية محلية خوض حرب وحكم البلاد بالنيابة. كان هناك إجماع على اختيار الأمير فيصل باعتباره أفضل من ينوب عن البريطانيين في القيام بهذه المهمة. كما اتفق الجميع على ضرورة توخي الحذر تماماً في عملية تنصيب فيصل ملكاً على العراق، بحيث تبدو العملية كما لو كانت تتويجاً لإرادة وطنية محلية وخياراً لا دخل لبريطانيا فيه. تم استدعاء فيصل من لندن وإبلاغه بالقرار. غادر المفوض السامي البريطاني في العراق المؤتمر عائداً إلى بغداد لاتخاذ الترتيبات المناسبة، والتي كانت أقرب إلى مؤامرة ليس إلا. فمن ضمن الترتيبات هذه كان توجيه دعوة لكبير المعارضين العراقيين للمشروع الإنجليزي، الذي تمخض عنه مؤتمر القاهرة، لتناول الشاي في منزل المفوض السامي في بغداد بحضور عدد من المسئولين والشخصيات العراقية. وقبل وصول الضيوف غادر المفوض السامي بيرسي كوكس المنزل تاركاً مهمة استقبالهم لزوجته. وبينما كانت الليدي كوكس تقدم الشاي انقض بعض الحضور على المعارض العراقي الضيف واعتقلوه وتم إخراجه من البلاد إلى منفاه في سيلان. صوت مجلس الوزراء العراقي المعين من قبل الإنجليز على إثرها وبالإجماع على تنصيب فيصل ملكاً على أرض الرافدين التي أصبح اسمها الآن: العراق.

أصرّ الجنرال اللنبي، الذي أصبح المفوض السامي البريطاني في مصر، على ضرورة منح مصر قدراً من الاستقلال كوسيلة لتخفيف حدة الثورة وأعمال العنف ضد الاحتلال. وبالرغم من أن تشيرتشل رفض الفكرة في البداية، إلا أن الغلبة كانت لرأي اللنبي في المؤتمر، حيث اعتمدت الفكرة وتم إعلان استقلال مصر عام **1922** ولكن من جانب واحد حيث، لم يجد البريطانيون طرفاً مصرياً يقبل بالشروط الملحقة بوثيقة إعلان الاستقلال، ومنها: احتفاظ بريطانيا بقواعد عسكرية وحرية الحركة العسكرية عبر البلاد، إضافة إلى بقاء القرار السياسي المصري الخارجي رهينة بيد البريطانيين.

في هذه الأثناء كان شرق نهر الأردن_ الذي كان يطلق الصهاينة عليه شرق فلسطين- يعاني من الاضطراب. ولتهدئة الوضع، كان البريطانيون بحاجة إلى نشر كتيبتين هناك طبقاً لتقديرات رئيس الأركان العامة الإمبراطورية الذي أضاف قائلاً " الأمر الذي نفتقر له بالطبع". جاء اقتراح تشيرتشل بتكرار السيناريو نفسه الذي طبقه البريطانيون في العراق من خلال وضع الأمير عبد الله، شقيق الملك فيصل، حاكماً مؤقتاً على شرق الأردن لفترة ستة أشهر، الأمر الذي اعترض عليه هيربرت صامويل بشدة قائلاً بأن المنطقة المذكورة تقع ضمن أرض فلسطين كما حددها صك الانتداب الصادر عن عصبة الأمم. غير أن تشيرتشل رد بأن فلسطين الجغرافية لم تحدد في وعد بلفور، وبأن اقتراحه يحترم التعهدات البريطانية. ويبدو أن صامويل رفع الأمر إلى الدوائر الصهيونية في لندن حيث إن تشيرتشل تلقى على إثرها برقية من رئيس الوزراء لويد جورج جاء فيها القول:" ناقش مجلس الوزراء مقترحاتكم بشأن شرق الأردن والتي أثارت الكثير من الهواجس لدى

الأعضاء". غير أن تشيرتشل ومؤيديه استطاعوا فرض رؤيتهم في مؤتمر القاهرة. وفي القدس اجتمع تشرتشيل بالأمير عبد الله أربع مرات، وتوصل معه لاتفاق قبل أن يرفع تقريراً للحكومة في لندن بهذا الشأن جاء فيه القول بأن موقف عبد الله اتسم بـ:" الاعتدال والود والتحلي بمسؤولية رجل الدولة". أما فيما يتعلق بالمتظاهرين العرب ضد الصهيونية فقد أظهر عبد الله " الموقف اللائق، حيث أدان المتظاهرين وقال بأن البريطانيين أصدقاء، وأعرب عن ثقته بوفاء الحكومة البريطانية بتعهداتها تجاه اليهود وتجاه العرب على حد سواء". وافق عبد الله على تولي الحكم لستة أشهر كفترة تجريبية، يساعده خلالها عميل سياسي بريطاني، ويحظى خلالها بدعم مالي ولكن بدون دور عسكري ظاهر لبريطانيا في الإمارة الجديدة. شكل ذلك الخطوة الأولى على طريق إعلان قيام إمارة شرق الأردن التي أصبحت المملكة الأردنية الهاشمية بعد ذلك بعقدين.

قبل أسبوع من الغزو الأمريكي للعراق وتحديداً في**10** مارس **2003**، وضمن تقرير خاص على حلقات تحت عنوان " بوش والرب"، كتب هوارد فاينمان في النيوزويك يقول:" ينهض جورج دبليو. بوش من النوم قبل الفجر معظم الأيام .. وينزوي في ركن هادئ ليقرأ وحيداً.. ماذا يقرأ بوش؟.. ليس ملخصات لتقارير الاستخبارات عن آخر التطورات في أمريكا والعالم.. وليس قراءة ترويحية بل، وكما أسرّ لأصدقائه، كتاب ديني يتضمن مجموعة مواعظ قصيرة لقس بروتستنتي يدعى أوزوالد تشامبرز تم جمعها تحت عنوان: أقصى ما أملك للرب ألأسمى. الواقع أن لحديث بوش عن مرجعه الديني المفضل أصداء تاريخية مدوية. فقد قضى هذا القس والمبشر المعمدان الأسكتلندي نحبه في نوفمبر**1917** وهو يقوم بواجبه المقدس في شحن همم الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين المتطوعين في جيش اللنبي الزاحف على فلسطين انطلاقاً من مصر. فبحلول الكريسماس كان أتباع القس تشامبرز والمتأثرين بأفكاره قد ساعدوا على انتزاع فلسطين من أيدي الأتراك المسلمين.. والآن هناك حديث عن حرب جديدة في الشرق الأوسط".[1]

[1] Oil Crusades, America through Arab eyex, Abdulhay Zalloum, Pluto Press, London, 2007, Pg 50-51

في عام 1907 كتب التربوي اليهودي إسحق إبيشتاين يقول:" يبدو أنه غاب عن أذهان الكثيرين شيء صغير وإن كان في غاية الأهمية.. فهناك في أرضنا الحبيبة شعب كامل يحتلها منذ مئات السنين، ولا يخطر على بال أي منهم الخروج منها .. ونحن إنما نقترف خطأً سيكولوجياً جسيماً تجاه شعب حازم غيور.. نسينا حقيقة أن الشعب الذي يعيش هناك(فلسطين) اليوم يملك مشاعر حساسة وروحاً محبة .. العرب لا يختلفون عن غيرهم من البشر في التعلق الشديد بأرضهم ووطنهم الذي يرتبطون به بأواصر قوية" .

****

لا شك في أن حرجاً شديداً انتاب اليهود وهم يرون هانز هيرتزل، ابن مؤسس الحركة الصهيونية ثيودور هيرتزل وقد اختار التحول إلى المسيحية.. عن ذلك كتب إيتيمار بن أفي ، رئيس تحرير صحيفة دوعار حا يوم يقول معلقاً: على الأقل لم يكن هيرتزل ابن زنا كما كان يسوع الناصري .

الفصل السابع

الانتداب: بناء مؤسسات الدولة اليهودية

في صباح يوم الاثنين الموافق الأول من مارس **1920** تجمع عدد من العرب المحتجين أمام بوابة مستوطنة يهودية في الجليل الأعلى تدعى تل حاي، مطالبين الدخول لتفتيش المكان بحثاً عن جنود فرنسيين يعتقدون بأنهم مختبئون في المستوطنة. وطبقاً لادعاء اليهود فإنهم لم يظهروا مقاومة وسمحوا للعرب بالدخول إلا أن أحد المستوطنين أطلق الرصاصة الأولى، وقيل وقتها بأن المستوطن أراد بذلك إرسال إشارة إلى مستوطنة كفار جيلادي القريبة طلباً للإسناد، حيث لبى النداء عشرة مسلحين من سكان السمتوطنة الثانية بقيادة يوسف ترومبيلدور، الضابط السابق في الجيش الروسي. وما إن اقتربت قوة الإسناد من مستوطنة تل حاي حتى فتح أفرادها النار على العرب. رد الفلسطينيون بإطلاق النار وأوقعوا ستة قتلى من اليهود بينهم ترومبلدور. كانت النتيجة إخلاء المستوطنتين المذكورتين. ولأن ماكينة الدعاية الصهيونية كانت بحاجة إلى حادثة لتمجيد النشاط الاستيطاني والكفاح المسلح، فقد خلقت من حادثة تل حاي أسطورة تروى للأجيال القادمة. وفي ذلك كتب المؤرخ الإسرائيلي يقول:" التزاماً بالمبدأ القائل بأنه لا ينبغي التخلي عن أي مستوطنة، فقد لقيت عملية إخلاء المستوطنتين بعد المواجهة في الجليل الأعلى التجاهل بشكل عام. حولت الدعاية الصهيونية الهزيمة إلى انتصار".[1]

انتفاضة النبي موسى

يوم الأحد الموافق **4** أبريل **1920**، تجمع أكثر من **70** ألف عربي في القدس للاحتفال بعيد النبي موسى، الذي يتصادف دوماً مع عيد الفصح لدى أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الإغريقية، حيث جرت العادة أن يتجمع المسيحيون في المدينة المقدسة في ذلك اليوم قادمين من أنحاء العالم. كان من التقاليد المعمول بها في اليوم المذكور التواجد في القدس استعداداً لأي احتمال. في ذلك اليوم من عام **1920** ألقيت الخطب الوطنية من على شرفة بلدية القدس أدان فيها المتحدثون الصهيونية وطالبوا بالاستقلال. في تلك المناسبة قيل بأن أحد اليهود بصق على علم عربي كان يرفعه أحد الفتية العرب لتشتعل على إثرها أعمال العنف في أنحاء المدينة تعرض خلالها الحي اليهودي للهجوم. فرضت سلطات الاحتلال البريطاني حظر التجول واعتقلت وسجنت العديد من المواطنين العرب، إلا أن حدة التوتر تضاعفت في اليوم التالي، واجتاح المتظاهرون الحي اليهودي في القدس. سقط اثنان من المارة طعناً بالسكاكين وتم فرض إغلاق كامل على المدينة القديمة وإعلان الأحكام العرفية. ومع ذلك تم إشعال النيران بعدد من المساكن هناك. وفي بوابة يافا استخدم جابوتنسكي ورفاقه المتشددون الرصاص ضد العرب، ولدى تفتيش شقته تم العثور على

[1] One Palestine Complete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 125

بعض الأسلحة. صدر عليه حكم بالسجن لمدة **15**سنة وتم إرساله لقضاء العقوبة في مصر. وفي القطار قام مرافقوه من الشرطة بإجلاسه في مقصورة الدرجة الأولى، وفي اليوم التالي له هناك صدرت الأوامر (من لندن على الأرجح) بإعادته إلى فلسطين لتمضية العقوبة المفترضة في سجن عكا. انتهت انتفاضة النبي موسى بمصرع خمسة وجرح **216** من اليهود مقابل **4** قتلى و**23** جريحاً من العرب. وفي صفوف الجنود فقد أصيب **7** منهم من جراء التعرض للضرب من قبل المتظاهرين. تم تقديم أكثر من **200** من العرب للمحاكمة وصدرت أحكام بالسجن على قادتهم منهم الحاج أمين الحسيني وعارف العارف اللذان عوقبا بالسجن**10** سنوات بتهمة تحريض الجمهور، في حين أزيح موسى كاظم الحسيني من منصبه كرئيس بلدية القدس. وفي تعليق على انتفاضة الفلسطينيين المبكرة كتب المؤرخ جوزيف كلاوسنر في صحيفة هآرتز يقول:" إذا تخيل العرب بأن بإمكانهم دفعنا للحرب والانتصار علينا بسهولة لأننا أقل منهم عدداً الآن، فإنهم بذلك يقترفون خطأً جسيماً. فحملتنا ستضم جميع ألـ: **13** مليون يهودي المنتشرين في أنحاء العالم، في وقت يدرك فيه الجميع مدى ما نتمتع به من ذكاء ونفوذ وثراء في أوروبا وأمريكا على وجه الخصوص".

تم تشكيل لجنة تقصٍّ في أحداث النبي موسى ضمت في عضويتها : اثنين من الجنرالات وضابطاً برتبة عقيد ومستشاراً قانونياً. جاء تقرير اللجنة ليشير إلى أن "وعد بلفور كان وبلا شك نقطة البداية في اندلاع أعمال العنف ككل". ومما جاء في التقرير القول بأن اللجنة توصلت لقناعة بأن حاييم وايزمان فقد السيطرة لصالح العناصر المتشددة في الحركة الصهيونية، التي أضحت أسيرة للتيار الدكتاتوري القومي الذي يخطط صراحة لطرد العرب من فلسطين، وعليه فإن مخاوف العرب لها ما يبررها. ومضى تقرير لجنة التقصي للقول بأن البلشفية بأسلوبها وممارساتها متجذرة في عقل قلب بعض اليهود المتطرفين أمثال أتباع جابوتنسكي من حزب بوالار زيون . غير أن تقرير اللجنة لم يجد طريقه للنشر، خاصة وأنه لم يطل المقام للإدارة العسكرية البريطانية في فلسطين بعدها، حيث تم حلها عام **1920**.

الإدارة المدنية البريطانية.. واستمرار التوتر

حلت إدارة مدنية محل الإدارة العسكرية البريطانية في تطور لقي الرضا والقبول من لدن وايزمان، الذي كان أول شيء فعله لدى وصوله لندن على إثرها، الطلب من تشيرتشل التدخل لإطلاق سراح جابوتنسكي من السجن. تقرر تكليف هيربرت صامويل الذي عين على رأس الإدارة المدنية الجديدة كمفوض سام في فلسطين، والذي كان سيتوجه إلى هناك بعد أسابيع لحل قضية جابوتنسكي. وبالفعل فقد كان أول شيء فعله هيربرت لدى وصوله هو إطلاق سراح المتشدد اليهودي. جاء تعيين هيربرت صامويل ليثير غضب العرب الفلسطينيين، الذين يعرفونه كيهودي صهيوني متعصب شارك في جميع مراحل عملية إصدار وعد بلفور، ولعب دوراً كبيراً في دعم موقف الحركة الصهيونية في مؤتمر السلام وتكليف بريطانيا بالانتداب على فلسطين.

تصاعدت حدة التوتر بين العرب واليهود منذ ذلك اليوم، وإن كانت العلاقة بين الجانبين قد بدأت في التدهور قبل ذلك في عام **1919**. فعندما سافر وايزمان إلى أوروبا

للتحضير لمؤتمر السلام، حل مينا حيم يوشيكين محله في رئاسة المفوضية الصهيونية ليجد نفسه ذات مرة في مواجهة مع رئيس بلدية القدس موسى كاظم الحسيني. فعندما سأل الحسيني يوشيكين عن أخبار مؤتمر السلام رد الأخير، وهو مهاجر يهودي، بأنه بالرغم من عدم توقيع معاهدة بعد، إلا أنه تم التوصل لاتفاق على القضايا كافة وبأن فلسطين ستبقى في يد البريطانيين بينما أعطيت سوريا للفرنسيين. علق الحسيني بالقول بأن العرب لن يقبلوا بها الأمر، فما كان من يوشيكين إلا وأن قاطعه قائلاً: أنظر.. لقد قلت بأنه تمت تسوية الأمور كافة"، وأضاف يوشكين بأن فيصل موافق على ذلك. رد الحسيني عليه بأن الفلسطينيين لم يفوضوا فيصل بتقديم تنازلات بالنيابة عنهم. وعندما ذكّر يوشيكين موسى الحسيني بأن اليهود تاهوا في الصحراء أربعين عاماً قبل الوصول إلى فلسطين، أجابه موسى الحسيني بأن ذلك كان ثمن عدم الإنصات للنبي موسى، وبأنكم قد تتيهون أربعين سنة أخرى إذا لم تنصتوا إلى هذا الموسى(في إشارة إلى شخصه). وقتها رفع يوشيكين إلى المفوضية الصهيونية بتقرير أكد فيه على أن رئيس بلدية القدس موسى الحسيني شخص معاد للصهيونية. لم يطل الوقت بعدها قبل إزاحة الحسيني عن منصبه ليحل محله راغب النشاشيبي الذي كان أكثر تعاوناً.

عندما زار تشيرتشل القدس في ربيع **1921** طالبه رئيس بلدية القدس السابق موسى كاظم الحسني بالتراجع عن وعد بلفور، ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإلغاء الحدود مع سوريا، وهي أمور قال تشيرتشل بأنه لا يستطيع التجاوب معها. وقبل مغادرة تشيرتشل فلسطين توفي مفتي القدس وعين المفوض السامي الحاج أمين الحسيني، الذي كان صامويل قد أصدر عفواً، مكانه. وخلال سنوات صامويل كمفوض سامي، هيمن اليهود الفلسطينيون والصهاينة البريطانيون على المناصب الرئيسية في الحكومة الفلسطينية، مما دفع بمدير الأمن العام في فلسطين الليفتنانت كولونيل بيرسي براملي للشكوى قائلاً بأن إدارة صامويل كانت:" حكومة يديرها الصهاينة".

انتفاضة يافا...

بعد انتفاضة النبي موسى ووصول المفوض السامي البريطاني إلى فلسطين، بدت البلاد هادئة في نظر هيربرت صامويل، كما لو أن أحداث العنف الدموية بين اليهود والمسلمين مضى عليها قرون. إلا أن التفاؤل هذا لم يدم طويلاً. ففي الأول من مايو **1921** دعا الحزب الشيوعي اليهودي إلى المسيرة التقليدية التي تقام بمناسبة يوم العمال، ورفع فيها شعارات تنادي بالإطاحة بسلطة الانتداب البريطاني وإقامة نظام شيوعي سوفيتي في فلسطين. لم يحصل منظمو المسيرة على ترخيص من البوليس الذي منح الترخيص في الوقت نفسه لحزب العمل اليهودي المنافس، الذي كان وقتها يحمل اسم: أخوت حاآفودا. وخلال المسيرتين اللتين أقيمتا بالتزامن نشبت مواجهات بالأيدي بين اليهود من أتباع الحزبين وقامت الشرطة بملاحقة الشيوعيين في شوارع يافا ذات الأغلبية الفلسطينية. وقتها كانت تل أبيب لا تزال جزءاً من يافا وانفصلت عنها ببلدية مستقلة بعد أحداث مايو مباشرة. تبين للجنة تحقيق شكلتها المحكمة بأن القتال اليهودي الداخلي ذلك اليوم كان السبب الرئيسي في إشعال فتيل انتفاضة فلسطينية جديدة من يافا هذه المرة. بدأت أعمال العنف ضد اليهود بمهاجمة جموع العرب الغاضبة دار ضيافة مخصصة لاستقبال المهاجرين الجدد وتديرها المفوضية الصهيونية، وكان يوجد فيها في ذلك الوقت أكثر من مئة مهاجر. كما هاجم العرب منازل ومتاجر اليهود وكل يهودي يجدونه أمامهم، مطالبين بوقف الهجرة.

وقتها ادعى اليهود بأن رجال البوليس العرب شاركوا في الهجمات على اليهود. أرسل صامويل أقرب مساعديه من المسئولين الصهاينة إلى يافا، واتصل بالجنرال اللنبي في القاهرة طلباً للتعزيزات، فاستجاب له بإرسال مدمرتين إلى ميناء يافا وثالثة إلى حيفا. أعلن صامويل حالة الطوارئ في فلسطين، واجتمع بممثلين عرب في محاولة لتهدئة الشارع العربي، ومن هؤلاء رئيس بلدية القدس السابق موسى كاظم الحسيني الذي طالبه بتعليق فوري للهجرة اليهودية. أرسل صامويل أوامر لمفوض الرمله بإصدار بيان يعلن فيه تعليق الهجرة اليهودية، حيث أعيد عدد من القوارب التي كانت تحمل دفعة من المهاجرين الجدد إلى اسطنبول قبل وصولهم إلى شواطئ فلسطين، وذلك بعد رفض اللنبي طلب صامويل تحويل مسار القوارب المذكورة إلى بور سعيد كإجراء مؤقت. طلب ناحوم سوكولوف من المفوض السامي العودة عن قراره تعليق الهجرة لأنه قد يتهم بالخنوع للإرهاب، إلا أن صامويل كان يخشى من تحول فلسطين إلى إيرلندا أخرى. وعندما قال سوكولوف بأن مجموعة صغيرة من الإرهابيين العرب هي التي وراء أعمال العنف أجابه صامويل:" أنت مخطئ.. نحن أمام حرب عربية تشن ضد اليهود".

في معسكر صرفند حيث ترابط الكتيبة اليهودية التي دخلت فلسطين كجزء من الجيش البريطاني، غادر العديد منهم القاعدة متجهين إلى الأماكن التي شهدت الاضطرابات، وقاموا بمهاجمة بيوت العرب في يافا وقتل عائلات بأكملها بمن فيها النساء والأطفال، لتنتشر أعمال العنف إلى المستوطنات المجاورة . عندها أمر صامويل بمهاجمة العرب من الجو. كانت حصيلة أعمال العنف الأخيرة **47** قتلى في صفوف اليهود و**48** في صفوف العرب، بالإضافة إلى **147** مصاباً من اليهود و**73** من العرب.

مفوضية صهيونية سامية تعيد النظر في وعد بلفور

جاء تقرير لجنة التقصي المعينة في التحقيق بأعمال العنف في فلسطين ليؤكد على أن ما يحصل من مواجهات هناك لا علاقة له بالعداء لليهود بل للصهيونية التي تثير مخاوف العرب في المقام الأول. وفي تحليل للعقلية التي تتحكم بردة الفعل لدى الطرفين العربي واليهودي، انتهت اللجنة إلى قناعة مؤداها أن العرب أكثر انقياداً وإطاعة للأوامر، إلا أنهم يميلون للعنف في حالات محددة، بينما اليهود أكثر ميلاً للعنف وأقل استعداداً للانقياد. وفي خطاب له بمناسبة عيد ميلاد الملك خاطب صامويل الوجهاء الفلسطينيين بالقول بأنه يعتزم الشروع في تطبيق الجزء الثاني من وعد بلفور، الذي ينص على عدم الإقدام على أي شيء من شأنه المساس بحقوق السكان غير اليهود. وأضاف صامويل بأن الهجرة اليهودية ستكون في نطاق محدود وبالتالي لن تشكل مصدر ضرر لاقتصاد البلاد. أثار خطاب صامويل غضب المفوضية الصهيونية، وأعرب وايزمان عن إدانته للمفوض السامي البريطاني واصفاً إياه بـ: الجبأن. بدا واضحاً بأن الحركة الصهيونية المتطرفة آخذة في التجذر عميقاً في الوسط اليهودي في فلسطين. واعترف وايزمان وقتها بأن عدوه الحقيقي في الوطن الجديد ليس العرب بل بن غوريون وجابوتنسكي اللذان قررا تحدي وايزمان على قيادة اليهود في فلسطين. هناك من يقول بأن صامويل بدأ يعيد النظر في ميوله الصهيونية بعد أن عايش الواقع على الأرض، بينما أكد آخرون على أن صامويل بقي على عهده كصهيوني ملتزم، إلا أنه كان واعياً للمصاعب التي رافقت الإيديولوجية الصهيونية وخاصة حيال السكان المحليين.

بتاريخ **22** يوليو **1921** دُعي وايزمان إلى بيت بلفور لمناقشة الوضع في فلسطين بحضور رئيس الوزراء لويد جورج ووزير المستعمرات تشيرتشل. وفي اللقاء انتقد وايزمان خطاب صامويل المذكور، مشيراً إلى أنه بدون الهجرة لن يتمكن اليهود من تشكيل الأغلبية في فلسطين، بينما أوضح لويد جورج وبلفور بأن وعد بلفور يعني ومن البداية خلق دولة يهودية في نهاية المطاف. إلا أن جورج وبلفور حملّا وعد بلفور أكثر مما يحتمل كما قال تشيرتشل، الذي فوجئ بما سمعه منهما، مضيفاً بأن **9** من أصل **10** من المسئولين البريطانيين يعارضون وعد بلفور، وبأن المسألة تتعلق بإقامة حكومة في فلسطين تمثل السكان بصورة نسبية وعادلة. اعترض وايزمان بشدة لأن اليهود وقتها كانوا لا يزالون أقلية، الأمر الذي وافقه عليه جورج. غير أن وايزمان خرج من الاجتماع بمكسب كبير، حيث سمح للمفوضية- الصهيونية التي غيرت اسمها ليصبح السلطة التنفيذية الصهيونية – يتهريب السلاح إلى فلسطين. وعندما سأله بلفور عما إذا كان بحاجة إلى أي شيء آخر، طلب إعفاء الجنرال كونغرييف من منصبه على رأس القيادة العسكرية في فلسطين، واصفاً إياه بأنه عدو للصهيونية. وافق تشيرتشل على طلب وايزمان. وكان وايزمان ومن خلال اتصالاته مع الاستخبارات البريطانية قد حصل من مكتب الجنرال في مقر القيادة العسكرية في لندن على مذكرة تتحدث عن ضرورة انحياز الجيش البريطاني لجانب معين في المواجهة الدائرة في فلسطين، باعتبار أن تجربة إيرلندا علمته أن لا يكون حيادياً في مثل هذا النوع من الصراع، وعليه فإن كونغرييف كان في نظر وايزمان منحازاً للعرب.

في أوائل **1923** زار ألبرت آينشتين القدس ضمن حملة ترويجية لصالح مشروع توسعة وتطوير الجامعة العبرية. استمع العالم الفيزيائي اليهودي الشهير وبصبر للعديد من الخطب بالعبرية دون أن يفهم منها شيئاً، وقد تكفلت الصهيونية بتكاليف رحلته علاوة على أن معظم تمويل الجامعة كان يأتي من الولايات المتحدة.

المزيد من الهجرة اليهودية... وانتفاضة حائط المبكى

جاء تعاظم حركة الهجرة إلى فلسطين ليكسب سلوك اليهود هناك المزيد من الثقة والعدوانية ويدفعهم للكشف صراحة عن أهدافهم النهائية، كما أن الحركة الصهيونية نفسها انقسمت إلى تيارات في غاية التطرف، على نمط مدرسة المجددين اليهود التي أسسها المهاجر الروسي المتعصب جابوتنسكي. مثل هذا التطرف لم يكن موجها ضد المسلمين وحدهم بل كان للمسيحية وأتباعها نصيب منه. فقد انتاب اليهود شعور بالحرج الشديد وهم يرون هانز هيرتزل، ابن مؤسس الحركة الصهيونية ثيودور هيرتزل وقد اختار التحول إلى المسيحية.. عن ذلك كتب إيتيمار بن أفي ، رئيس تحرير صحيفة دوعار حا يوم يقول معلقاً: على الأقل لم يكن هيرتزل ابن زنا كما كان يسوع الناصري.

ينظر المسلمون إلى حائط المبكى الذي يعرف عندهم باسم حائط البراق، باعتباره جزءاً من أملاك الوقف الإسلامي وله مكانته المقدسة، وقاوموا مراراً محاولات اليهود شراءه. غير أن المسلمين وعلى مدار القرون العديدة الماضية لم يتدخلوا لمنع اليهود من الصلاة في المكان مادام ذلك لا يغير من وضعه . وعندما قرر اليهود المس بواقع المكان بتاريخ **23** سبتمبر **1928**، من خلال إقامة حاجز هناك، بدأ القلق يساور المسلمين من وجود نوايا مبيتة لدى اليهود، كما سبق وأن أوضحوا لمحافظ القدس البريطاني الجديد،

رافضين طلبه الخاص بالسماح لليهود بوضع كراسي في منطقة الحائط الغربي. وقتها قال ممثلو المسلمين في القدس للمحافظ البريطاني بأن اليهود، وفي ظل روح وعد بلفور، سيحاولون الاستيلاء على المكان تدريجياً بدءاً بوضع كراسي وبعدها مقاعد، ومنها إلى إقامة الجدران الفاصلة وأسقف اتقاء حر الشمس صيفاً والمطر شتاءً، ولن يطول الوقت قبل أن يستفيق المسلمون على وجود معبد في المكان، وصولاً إلى الادعاء بأن المسجد الأقصى ومسجد عمر أماكن يهودية مقدسة ينبغي إعادتها لهم من عهدة المسلمين. بمثل هذه الطريقة لم يتوقف اليهود عن قضم فلسطين قطعة، بعد قطعة بدءاً بإقامة مستوطنات صغيرة ومنها إلى المدن وصولاً إلى الهدف الأكبر وهو احتلال كامل فلسطين. ومما ضاعف من القلق العربي اكتشاف العلم الصهيوني (علم إسرائيل حالياً) وقد ظهر بين أعلام دول العالم في الموسوعة البريطانية باعتباره علم فلسطين. وعندما احتجت إحدى السيدات اعتذر المحرر عن التصرف باعتباره سابقاً لأوانه- حيث كان على المسئولين الانتظار لبعض الوقت ريثما تقام الدولة اليهودية في فلسطين- وليس لأنه خطأ ينبغي تصحيحه !!

الواقع أن تطلعات الصهاينة لبناء الهيكل الثالث على أنقاض المسجد الأقصى لم تكن خفية في يوم من الأيام ، حيث وجدت طريقها لمن يقرأ من خلال العديد من المطبوعات الصهيونية العالمية. وعلى سبيل المثال أظهر ممثلون عن العرب الفلسطينيين للقنصل الأمريكي في القدس وقتها رسماً نشرته صحيفة داس يديشفولك التي كانت تصدرها الحركة الصهيونية في أمريكا آنذاك يظهر مبنى ذا قبة ضخمة في ساحة المسجد الأقصى أو جبل الهيكل كما يطلق عليه اليهود. وقبل أشهر قليلة فقط من إقامة اليهود لجدار جديد في حائط المبكى، وخلال احتفال بيوم الغفران اليهودي، أعلن ميناحيم يوسيشكين، أحد كبار المسئولين في اللجنة التنفيذية الصهيونية قائلاً:

" ما يريده الشعب اليهودي هو دولة يهودية بدون أي تنازلات أو حلول وسط، دولة تمتد من دان شمالاً إلى بئر السبع جنوباً، ومن البحر الكبير غرباً إلى الصحراء شرقاً بما فيها شرق الأردن.. دعونا نقسم بأن لا يرتاح الشعب اليهودي ولن يصمت قبل أن يرى رمز وطنه القومي وقد أقيم على جبل موريه العائد لنا" في إشارة إلى جبل الهيكل".[1]

جاءت مثل هذه التطورات لتؤكد على صدق مخاوف العرب. فقد أثارت قصة بناء الجدار في موقع حائط المبكى ردة فعل قوية جديدة في أوساط العرب، الذين عبروا عن غضبهم بالاحتجاجات وإرسال البرقيات منها واحدة إلى عصبة الأمم. كان التوتر في تصاعد مولداً عدداً من حوادث العنف. وقتها كتب حاييم شالوم هاليفي يقول:" إنهم (العرب) يكرهوننا ولهم عذرهم في ذلك لأننا نبادلهم الكراهية أيضاً، بل إننا نكرههم كراهية الموت"، وأضاف بأن ما من شيء يستطيع إخفاء هذه الحقيقة بما في ذلك لغة الخطاب المنمقة للصهاينة. ومما قاله هاليفي بأن: "تحقيق الحلم الصهيوني يعني طردهم من البلاد بالضرورة.. وبأنه لن يبقى لهم شيء (للعرب)".

بتاريخ **14** أغسطس **1929** ، وهو اليوم الذي يصادف ذكرى تدمير الهيكل طبقاً للحسابات اليهودية، شهدت ساحة المبكى تجمع آلاف اليهود. وفي اليوم التالي تحول الاحتفال إلى تظاهرة قام بها المئات من الشبأن اليهود الغاضبين، رفعت خلالها شعارات سياسية ولوح الشبأن بالعلم الصهيوني منشدين النشيد الوطني هاتيكفا في تحد لأوامر

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 304

البوليس واستثارة لمشاعر العرب. في مثل هذه الأجواء المتفجرة سقط يهودي قتيلاً بالقرب من قرية لفتة في محيط القدس ورد اليهود بمهاجمة أحد المارة العرب. وفي يوم الجمعة الموافق **23** أغسطس **1929** أخذ الآلاف من العرب في التدفق على القدس قادمين من أنحاء البلاد كافة وهم مسلحون بالعصي والسكاكين، في رد على مظاهرات حائط المبكى التي قام بها اليهود في الأسبوع السابق. وقتها كان المسئول عن القدس المفوض السامي بالإنابة هاري لووك، وهو ابن ليهودي أميركي من أصل هنغاري. كان لووك يحاول جاهداً إخفاء معتقداته الدينية مما أكسبه سمة الجبن في نظر وايزمان. حاول لووك نزع فتيل الانفجار القادم، من خلال محاولة التوصل إلى اتفاق بين الشخصيات القيادية لدى الجانبين خلال اجتماعه بهم غير أن جهوده انتهت إلى الفشل. وفي ساعة الظهيرة من اليوم المذكور كان اثنان من العرب قد لقيا حتفهما في الحي اليهودي ميا شعاريم، ليبدأ العرب بعدها في التدفق على الأقصى مع خروج المصلين منه بعد أداء صلاة الجمعة. وعلى ما يبدو فإن اليهود الذين شكلوا تنظيم الهاغانا المسلح بعد أحداث يافا كانوا مستعدين للمواجهة إن لم يكن قد خططوا لها بالفعل.

لدى وصول الأخبار إلى الخليل عن طريق المصلين من أبناء المدينة العائدين من القدس، من أن اليهود يقتلون المسلمين هناك، بدأ المئات من "الخلايلة" في التدفق على محطة الباصات المتاخم لمبنى البلدية بنية التوجه إلى بيت المقدس. كانت الخليل في ذلك الوقت تضم طائفة من اليهود منهم بضع عشرات يعيشون وسط المدينة والبعض الآخر في الضواحي، وظل التسامح والتعايش الودي هو السائد في العلاقة بين العرب واليهود القلائل في الخليل حتى وصول البريطانيين ومعهم أتباع الحركة الصهيونية. كانت حصيلة مواجهات الجمعة في القدس مقتل خمسة وجرح سبعة من العرب، ومصرع ثمانية وجرح **15** من اليهود، في حين وصل عدد القتلى اليهود في الخليل **67** قتيلاً وعشرات الجرحى، وتم إجلاء ما تبقى من يهود الخليل إلى القدس . لم تقتصر المواجهات في انتفاضة المبكى على القدس والخليل. فقد هاجم أهالي قرية كولونيا العربية مستوطنة موتزا القريبة وقتلوا عدداً من سكانها وحرقوا الباصات فيها. كما حاول العرب التسلل إلى تل أبيب. وفي صفد حصدت أعمال العنف أرواح العديد من الأشخاص، كانت حصيلة انتفاضة المبكى: **116** قتيلاً من العرب وسقوط **133** قتيلاً في صفوف اليهود، وإصابة**339** يهودياً مقابل **133** عربياً.

يبدو أنه كتب على اليهود البقاء أسرى لعقلية الغيتو التي تتحكم بحياتهم منذ قرون. ففي أعقاب الأحداث الأخيرة كتب شمويل يوسف أغنون يقول:" في رأيي المتواضع ينبغي علينا الآن بناء غيتو واسع لحوالي نصف مليون يهودي في فلسطين، لأننا إن لم نفعل فسينتهي بنا الأمر، لا قدر الله إلى ضياع مؤكد". الحاصل حالياً هو أن إسرائيل تعيش اليوم في غيتو أكبر مما توقعه أغنون قبل قيام الدولة اليهودية..غيتو محاط بجدار عازل وكيان مسلح بأحدث ما توصلت إليه تكنولوجيا صناعة السلاح، ناهيك عن امتلاكه للسلاح النووي منذ عدة عقود.. ومع ذلك يبقى غيتو غير آمن كما كان عليه دائماً. ففي حرب تموز **2006** أجبر بضع مئات من مقاتلي حزب الله اللبناني سكان هذا الغيتو على البقاء أسرى الملاجئ تحت الأرض لأكثر من شهر، ولم يجد جدار الفصل الممتد على طول مئات الكيلومترات ولا القوة الجوية ولا مئات القنابل النووية في توفير الأمن للإسرائيليين.

تبين للجنة تحقيق شكلتها الوكالة اليهودية صحة الاتهامات الموجهة لليهود من أنهم" تجاوزوا حدود الدفاع عن النفس بطريقة معيبة". تابعت اللجنة بعض الادعاءات التي تتهم اليهود باقتحام أحد المساجد وحرق نسخ من القرآن، وخرجت بنتيجة مؤداها" أن ما قيل بهذا الشأن للأسف..صحيح". تحدثت اللجنة عن اتهامات لليهود بإعدام أحد المارة، وقتلهم نساء وأطفالاً بل وحتى مهاجمة العرب ممن وفروا لهم الملجأ. وهذا الأرشيف الصهيوني يحتفظ بأسماء **435** عربياً من أهل الخليل ممن ساهموا في حماية اليهود، مما أدى إلى إنقاذ ثلثي يهود الخليل من موت محقق. وطبقاً لشهادة أحد اليهود فإن عرباً من جيران اليهود هناك "أصيبوا وهم يدافعون عن جيرانهم اليهود". ومن جانبه أعاد سير هاري تشارلز لووك، المفوض السامي بالإنابة، أعمال العنف إلى وعد بلفور واصفاً إياه :" كما لو كان الخطيئة الأولى"، وتوقع استمرار حرب فلسطين.

المفوض السامي في حيرة من أمره...

وجد المفوض السامي البريطاني الذي أشرف على محاكمة **700** عربي و**160** يهودياً متهمين بإثارة أعمال العنف الأخيرة، وجد نفسه في حيرة بعد صدور حكم بالإعدام على **25** عربياً وعلى اثنين من اليهود فقط تم تخفيض الحكم عليهما إلى السجن المؤبد. كان من شأن تنفيذ حكم الإعدام بالمتهمين العرب وحدهم إثارة لمشاعر العرب والتسبب بمزيد من المشاكل للاحتلال، وعليه فقد قرر تنفيذ الحكم بثلاثة عرب وتعديل الحكم على الآخرين إلى السجن المؤبد. شعر المفوض السامي بانزعاج كبير أمام الضغوط التي مارستها المنظمة الصهيونية على إدارته، ووصف اليهود بأنهم" سلالة ناكرة للجميل"، علماً بأنه شخصياً ينتمي لأصول يهودية. شعر المسئول البريطاني بمزيد من الانزعاج عندما أبلغه القنصل الأمريكي في القدس، بأنه أصبح لليهود شبكة استخبارات خاصة بهم، وبأن اتصالاته كافة مع لندن تصل الصهاينة أولاً. عندها توصل المفوض السامي البريطاني إلى قناعة مؤداها أن الوضع الحالي لم يعد قابلاً للاحتمال، وبأن فلسطين لا يمكن أن تكون بلداً واحداً لشعبين، وعليه فقد كتب إلى لندن مطالباً بلاده بالتنصل من وعد بلفور. اقترح المفوض في تقريره منح الفلسطينيين العرب حكماً ذاتياً بينما سيكون باستطاعة اليهود النظر إلى فلسطين كوطن قومي بدون أن يكون دولة بالضرورة. كما أوصى المفوض بتقييد أعمال بيع الأراضي لليهود والحد من زخم الهجرة اليهودية إلى فلسطين. تم إرسال نسخة من التقرير إلى الملك.كما لقي تقرير المفوض السامي الاهتمام في وزارة شئون المستعمرات، ودفعت المسئولين هناك إلى محاولة تشكيل سياسة بريطانية جديدة تجاه فلسطين.

سياسة جديدة بناء على ورقة بيضاء..

رسمت الورقة البيضاء التي أصدرها وزير المستعمرات باسفيلد معالم السياسة الجديدة التي قررت بريطانيا انتهاجها في فلسطين. وقد نصت الورقة إلى أن وعد بلفور يلزم بريطانيا بتعهدات ثنائية ومتساوية تجاه العرب واليهود، وعلى ضبط الهجرة اليهودية بصورة لا تجعل منها مصدر إضرار بسكان فلسطين من العرب. استندت الورقة على افتراض بديهي بأن يبقى اليهود يشكلون أقلية هناك، وعليه فإن أقصى ما سيحصلون عليه

هو شكل من الحكم الذاتي وليس دولة مستقلة بالضرورة. وفي الوقت نفسه وعدت الحكومة البريطانية باستثمار سبعة ملايين جنيه على مشاريع تنموية من شأنها خلق فرص عمل لعشرات الآلاف من الأهالي في فلسطين. ولأن المشروع الصهيوني يقوم على الهجرة في المقام الأول فإن وقف الهجرة أو تقليصها إلى الحد الأدنى سيقوض المشروع من أساسه ويوجه لخطط الحركة الصهيونية ضربة قاصمة، الأمر الذي دفع بالصهاينة إلى التحرك السريع. وقتها كان بن غوريون وغيره في الحركة يتابعون باهتمام التغيرات الحاصلة في ألمانيا النازية وقرر اغتنام الفرصة المتاحة. وفي ذلك قال بن غوريون: " صحيح أننا نتوق لليوم الذي نرى فيه دمار هتلر ونظامه، إلا أننا مهتمون باستغلال وجوده ما أمكن لصالح مشروعنا في فلسطين".[1]

قبل ذلك ببضعة أعوام صدر عن بن غوريون التصريح التالي بشأن إنقاذ أطفال أليهود:" لو خيرت بين إمكانية إنقاذ جميع الأطفال من ألمانيا بنقلهم إلى إنجلترا أو إنقاذ نصفهم بنقلهم إلى فلسطين لاخترت الخيار الثاني.. لأننا لسنا أمام المسئولية عن هؤلاء الأطفال فحسب، بل أمام المسئولية التاريخية عن الشعب اليهودي بكامله".[2]

حظيت الورقة البيضاء بالقبول والدعم من قبل المسئولين البريطانيين في فلسطين، في حين وصفها اليهود بـ: الخيانة البريطانية. ولأن ما يريده اليهود يحصلون عليه، فقد تراجع البريطانيون عما جاء في الورقة البيضاء من توصيات. وكما قال القنصل الأمريكي في القدس للمفوض السامي البريطاني: فإن الصهاينة كانوا يطلعون على رسائله وتقاريره التي يرسلها إلى لندن حتى قبل أن يطلع عليها المسئولون في وزارة المستعمرات بل وحتى قبل أن تصل لندن من الأساس، غير أن الصهاينة كانوا على علم مسبق بما كان يدور في مواقع أعلى في الحكومة. ولأن هؤلاء كانوا على قناعة بأن من الخطأ الوثوق بأي أحد وبأن الأصدقاء والأعداء متساوون في هذا الأمر، فقد كانوا يعتمدون على حلفاء متنفذين من المسيحيين الصهاينة مثل بلانتشي دوغدالي، ابنة أخت لورد بلفور التي كانت على علاقة غرامية بوولتر إليوت الذي خدم في مواقع عدة في الحكومة البريطانية طوال الثلاثينات. ومن خلال صديقها استطاعت بلانتشي الاطلاع على معلومات حساسة وقيمة كانت تجد طريقها للمسئولين الصهاينة أولاً بأول.

أوفد بن غوريون رئيس الحركة الصهيونية السابق ميناحيم وايزمان إلى لندن بهدف إقناع رئيس الوزراء البريطاني بأنتهاج سياسة متوازية بين اليهود والعرب بحيث يتمتع الطرفان بتمثيل متساو بغض النظر عن الرقم الإحصائي لكل منهما. كان من شأن قبول رئيس الوزراء البريطاني بهذا الطلب بمثابة انقلاب سياسي فعلي لصالح اليهود، وهو ما حصل بالفعل طبقاً لتأكيدات بن غوريون شخصياً.

كانت الخطوة التالية وصول بن غوريون وأحد أصدقاء وايزمان المقربين المدعو لويس ناميير إلى لندن بهدف الاجتماع برئيس الحكومة ماك رونالد. وفي اليوم التالي كان الاثنان ضيفين على الفطور في منزل دونالد الواقع على بعد ساعتين ونصف من القيادة خارج لندن. وصل بن غوريون وزميله في سيارة وضعها المليونير اليهودي البريطاني إسرائيل سييف تحت تصرفهما. استقبلهما رئيس الحكومة وعائلته بترحاب،

---

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 393

[2] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 394

وعندما اشتكى ناميير لمضيفهما من تصرفات المفوض السامي، أجاب رئيس الحكومة قائلاً بأنه يتفهم تماماً القلق اليهودي، وأبلغهما بأنه كان يعتزم طرد المفوض السامي من منصبه إلا أنه عدل عن ذلك باعتبار أن المذكور سيترك موقعه من تلقاء نفسه قريباً. بل إن رئيس الحكومة البريطانية تحدث عن قلقه من انغماس المفوض في أنشطة مؤيدة للعرب لدى عودته إلى لندن. وفي الوقت نفسه هاجم الحضور بمن فيهم رئيس الحكومة وزير المستعمرات باسفيلد لموقفه المؤيد لسياسة التمثيل النسبي في الحكومة القادمة في فلسطين، وأعرب رئيس الحكومة عن رأيه بضرورة منح اليهود أكثر من الصوت المساوي للعرب بل منحهم الأفضلية. وعندما طلب بن غوريون منه التأكيد على ذلك كتابة لم يتردد ماكدونالد في توقيع مذكرة بهذا الشأن. تكللت مهمة بن غوريون في لندن بالنجاح، وكانت سويسرا محطته التالية. وعندما لم تتوفر للمبعوث اليهودي رحلة طيران إلى زيوريخ في الموعد المطلوب، عرض عليه رئيس الحكومة البريطانية وضع إحدى طائرات سلاح الجو الملكي تحت تصرفه، إلا أن الأمر استقر على سفر بن غوريون بالقطار. ولتأمين تأشيرة دخول لفرنسا ذلك اليوم الذي صادف يوم أحد، اتصل رئيس الحكومة بالسفير الفرنسي في لندن الذي أصدر التأشيرة المطلوبة فوراً.

ما من شك في أن مثل هذا التصرف من قبل أكبر مسئول بريطاني يثير أكثر من علامة تعجب. فما الذي يدفع برئيس حكومة أكبر قوة وقتها للتوسط لدى سفارة في بلاده لإصدار تأشيرة دخول لمواطن أجنبي سوى وجود قوة خفية كانت ولا تزال تتمتع بنفوذ هائل، مع فارق واحد بين الأمس واليوم وهو: تغيير مسرح النفوذ الرئيسي من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ليس هناك من فرق يذكر بين لويد جورج وجورج دبليو. بوش فكلاهما يؤدي دوراً على المسرح العالمي بإيعاز وتوجيه وتحكم قوى الظل وفي خدمة أجندتها الخاصة.

المفوض السامي الجديد.. صهيوني عتيد

في أغسطس**1934** زار بن غوريون موسى العلمي- محام فلسطيني خريج جامعة كامبريدج ويعمل في مكتب النائب العام- في منزله في شعفاط، إحدى ضواحي القدس. جاء بن غوريون إلى منزل الوجيه المقدسي، حاملاً اقتراحين أراد منه نقلهما إلى المفتي: الأول ويتعلق بإقامة حكم ذاتي يهودي عربي يتقاسم طرفاه الحكم على قدم المساواة، والثاني دمج دولة يهودية تقام ضمن حدود أرض إسرائيل التاريخية "التوراتية" في كونفدرالية تضم الدول العربية، مما يسمح للفلسطينيين العرب بالانتماء للأغلبية العربية في الدولة الكونفدرالية. ومما قاله بن غوريون وقتها بأن الصهيونية تعمل على تطوير فلسطين لصالح اليهود والعرب على حد سواء. رد العلمي على اقتراحات بن غوريون ، بطرح اقتراح يقضي بإقامة دولة حكم ذاتي لليهود حول تل ابيب تشكل كانتون ضمن الدولة الفلسطينية العربية وتلبي التطلعات الصهيونية بوطن قومي لليهود. وأضاف العلمي بأن الفلسطينيين العرب سعداء بالانتظار مئة سنة أخرى لتطوير أرضهم بأنفسهم عند اللزوم.

عندما اطلع المفوض السامي البريطاني الجديد آرثر واوتشوب، على ما دار بين بن غوريون والعلمي علق هذا الصهيوني المتشدد قائلاً بأنه لا يمكن تجسير الفجوة الهائلة بين التطلعات الوطنية للجانبين.. وهي حقيقة لا تزال قائمة حتى يومنا هذا وستبقى كذلك إلى الأبد إلى أن تؤول السيادة هناك إلى هذا الطرف أو ذاك.

القسام وثورة 1936

ولد محمد عز الدين القسام في قرية جبلة القريبة من اللاذقية على الساحل السوري، وتخرج من جامعة الأزهر قبل أن يتطوع في الجيش التركي خلال الحرب العالمية الأولى. بعد الحرب شكل وقاد القسام قوة دفاع في منطقته لمحاربة الفرنسيين، قبل أن يقرر التوجه إلى حيفا حيث عين إماما لمسجد الاستقلال وليواصل هناك ما بدأه في مسقط رأسه : تنظيم وقيادة العمل العسكري ضد الاحتلال، ولكن البريطاني هذه المرّة. بدأ القسام جهاده في فلسطين بتنظيم المقاومة المحلية وحركة الشبيبة. تعلم أتباعه كيفية الحصول على السلاح والشروع في مهاجمة المستوطنات اليهودية. كانت نتيجة أول عملية لجماعة القسام مصرع ثلاثة من أعضاء كيبوتز ياغوور، تلا ذلك قتل اثنين من كيبوتز ناحال. هاجم الثوار خطوط سكك الحديد وخربوا مزارع اليهود. تعاظمت أعمال العنف سواء في منطقة القسام أو غيرها؛ ليعكس حجم الإحباط في الشارع الفلسطيني أمام تزايد وتيرة الهجرة اليهودية والسياسة البريطانية المنحازة تماماً لليهود. اقترح القسام على المفتي إصدار نداء مشترك للجهاد والثورة العامة، إلا أن المفتي لم يتجاوب مع دعوة القسام الذي قرر اللجوء إلى الجبال في نوفمبر **1935** ومعه عدد من أنصاره ممن اصطدم بعضهم بالبوليس البريطاني. لم تنته المقاومة باستشهاد القسام بعد فترة، إلا أن الانقسام والتشرذم غلب عليها حيث كانت هناك العديد من الجماعات التي تنشط منفردة بدون قيادة مركزية. بدأت جماعات المقاومة وببعض التنسيق بين المناطق استهداف القوات البريطانية، سواء على شكل كمائن أو الدخول معها في معارك وجهاً لوجه. لاحظ المراقبون بأن معظم المقاتلين كانوا من المراهقين ممن نضجوا خلال الاحتلال البريطاني. تصاعدت الأمور بصورة دفعت بأحد المسئولين في الإدارة البريطانية للقول:" الوضع الفلسطيني اليوم أسوأ من أي وقت مضى" فقد أصبح من الصعب استخدام الطرقات بدون السير في قوافل. وحتى القوافل العسكرية البريطانية المدرعة لم تكن في منأى عن الهجمات، كما حصل مع القافلة البريطانية التي هوجمت أكثر من مرة على طريق حيفا وأجبرت قائدها على طلب النجدة. امتدت المقاومة إلى المدن. ففي ليلة الأحد الموافق **16** مايو **1936** لقي ثلاثة يهود مصرعهم في القدس. وأطلق شاب في التاسعة عشرة من عمره النار على دورية بريطانية ليصيب ضابطاً عرف بعدائه الشديد للعرب. وقبل أن يقضي الشاب الذي كان يعمل مدرساً للغة الإنجليزية متأثراً بجراح أصيب بها في احدى العمليات خاطب أخاه قائلاً: لا تحزن علي.. فقد أديت واجبي. وفي اليوم التالي كانت عائلة الشاب تتلقى التهاني باستشهاده.

يمكن القول بأن ثورة **1936** اندلعت بتاريخ **19** أبريل، علماً بأن الصهاينة كانوا ولا يزالون حريصين على عدم وصف أعمال المقاومة بالثورة، بل اعتادوا الإشارة لها بكلمة "الأحداث"، كما فعلوا بعدها بعقود باختراعهم تعبير "الانتفاضة" للإشارة إلى ثورة الحجارة التي أطلقها الفلسطينيون في عقد الثمانينات الماضي. ففي اليوم المذكور سقط تسعة قتلى بالإضافة إلى أربعة من الجرحى في صفوف اليهود. وخلال الفترة الفاصلة بين **1929** واندلاع الحرب العالمية الثانية، شهدت فلسطين مصرع حوالي **2000** نصفهم من العرب، إضافة إلى **150**جندياً بريطانياً وذلك في أكثر من**1000** حادثة مسجلة في تلك الفترة.

في عام **1936** أنشأ المفتي اللجنة العربية العليا التي عملت كحكومة فلسطينية. وفي استجابة منها للنداء الصادر عن حزب الاستقلال في نابلس، دعت اللجنة إلى إضراب عام في أبريل **1936** شمل كامل فلسطين واستمر ستة أشهر. لم يتوقف إضراب الفلسطينيين إلا بعد تدخل عدد من الملوك العرب. تحول عرب فلسطين الآن للمطالبة بالاستقلال ورحيل البريطانيين، الذين أظهروا انحيازا لليهود وربطوا أنفسهم بالمشروع الصهيوني. وكما يقول بن غوريون فإن الفلسطينيين العرب خرجوا من الإضراب كـ:" طائفة منظمة ومنضبطة، مظهرين إرادة وطنية ونضوجاً سياسياً وقدرة على تقييم الذات". وفي الوقت الذي بدت فيه الحركة الفلسطينية بدائية مقارنة مع الحركة الصهيونية، إلا أنها وعلى حد اعتراف بن غوريون " لم تكن تفتقر للتفاني والمثالية واحترام النفس".[1]

الإرهاب اليهودي وإرهاب الدولة البريطاني

قد يرى البعض في إرهاب الدولة أسوأ أنواع الإرهاب على الإطلاق، وهو ما أثبته البريطانيون في فلسطين عام **1936**. ففي العام المذكور أقدمت قوات الاحتلال البريطاني على تدمير **800** بيت عربي في يافا القديمة. لم يجد الأهالي وقتها حتى الوقت الكافي لإخراج أمتعتهم من المنازل التي تقرر هدمها كعقاب جماعي. وجد أصحاب البيوت المستهدفة أنفسهم في سباق مع عقارب الساعة للخروج من بيوتهم بعد إسقاط الطائرات البريطانية أوامر الإخلاء من الجو، ولينشغل هؤلاء بعدها عن بيوتهم وأمتعتهم بالبحث عن مأوى في المدارس وعلى الشواطئ. ومع أن السلطات الاستعمارية ادعت بأن عملية الهدم جاءت في سياق مشروع للتطوير الحضري، إلا أن الحقيقة كانت غير ذلك تماماً، حيث قرر البريطانيون هدم المنازل المذكورة لأسباب أمنية بحجة أنها كانت تستخدم كمخابئ من قبل القناصة وقاذفي الحجارة من المقاومين العرب. غير أن رئيس المحكمة العليا القاضي سير مايكل مكدونيل وجّه سيلاً من الانتقادات المحرجة للحكومة للجوئها للكذب المتعمد والتهرب من المسئولية. ومن جانبه أظهر المفوض السامي واوتشوب غضبه الشديد من تصرف مكدونيل قائلاً بأن ما صدر جلب الضرر الشديد على موقف الإدارة البريطانية. لم يطل الوقت قبل صدور القرار المتوقع بإخراج القاضي من فلسطين. وجاءت حادثة يافا لتشعل فتيل ثورة العرب الجديدة في البلاد.

لم يشعر اليهود في فلسطين بهذا القدر من الأمان كما فعلوا تحت إدارة المفوض السامي واوتشوب على حد اعتراف بن غوريون. فقد كان واوتشوب ينافس بلفور في التزامه بالصهيونية. كان على رأس القرارات التي اتخذها المفوض السامي البريطاني الجديد السماح للسلطة التنفيذية الصهيونية بتشكيل جيش يهودي: الهاغانا. واتخذ القرار المذكور "بسرية تامة وحصيلة نقاش بين أصدقاء". شرعت الهاغانا في توفير الحماية للمستوطنات، وحصلت على أسلحتها من السلطات في وقت كان فيه العربي يتلقى حكماً بالإعدام في حالة العثور على السلاح معه أو في حوزته. اعتاد بن غوريون ومساعدوه الاجتماع مع المفوض السامي البريطاني كلما دعت الحاجة للتنسيق فيما بينهم، وخاصة بشأن التحرك المشترك لقمع انتفاضة العرب. في غضون ذلك لم يقتنع المجددون اليهود

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 370-371

بوجود الهاغانا كقوة يهودية كبيرة وموحدة، فعمد تلامذة جابوتنسكي إلى تشكيل قوتهم الخاصة التي أطلقوا عليها اسم: المنظمة العسكرية القومية أو "إيتزل" اختصاراً أو "الأرغون" كما أطلق عليها الإنجليز. وكما يليق بنهج جابوتنسكي المتطرف فقد بدأت الأرغون نشاطها بعمليات إرهابية، مثل تفجير القنابل في الأسواق والمقاهي العربية ليسقط العرب خلالها بالعشرات. وبالمقارنة كانت الهاغانا منضبطة نسبياً وتلتزم بالأوامر الصادرة لها من بن غوريون، بينما كانت الأرغون "إيتزل" منظمة دموية متطرفة تسير على نهج جابوتنسكي. وفي ظل التناقض النسبي والخلافات في التكتيك وليس الإستراتيجية بين المنظمتين، فقد كان من الطبيعي حدوث العديد من المواجهات بينهما.

في عام **1939** ومن موقعه على رأس الوكالة اليهودية، أوجد بن غوريون "وحدات العمليات الخاصة" وجعلها تحت إمرته. كانت مهمة الوحدات العسكرية الجديدة الانتقام من العرب ثأراً للقتلى اليهود، بالإضافة إلى تصفية اليهود الخونة والبريطانيين المتورطين في أي أعمال ضد اليهود. وفي ذلك يصف ناخوم شادمي، قائد إحدى الوحدات المذكورة ، عملية الهجوم على قرية لوبيا في الجليل الأعلى بالقول:

" تسلل رجال الوحدة إلى داخل القرية بهدوء تحت جنح الظلام وهم يضعون أحذية رياضية، ويحرصون على سكب بعض الكاز خلفهم لمنع الكلاب من تعقبهم. وما إن دخلوا القرية حتى اختاروا منزلاً هدفاً لهم.. كانت الأضواء لا تزال مشتعلة في الداخل، وعندما نظروا من النافذة كان هناك ثلاثة رجال وامرأتان جلوساً على الأرض حول جثمان شخص ميت. دخل عدد من رجال الوحدة المنزل بينهم إيغال آلون الذي أصبح لاحقاً من أبرز القادة العسكريين والزعماء السياسيين في إسرائيل. تبين لاحقا وجود عدد من الأطفال في المكان.. انتهت العملية بقتل ثلاثة أشخاص رجلين وامرأة، وإصابة ثلاثة آخرين منهم طفل في الثانية وفتاة في العاشرة".[1]

توصلت لجنة برئاسة لورد بيل، وعرفت بنفس الاسم، إلى قناعة مؤداها أن:" الفجوة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية بين العرب واليهود في فلسطين أصبحت أكبر من أن يتم تجسيرها"، وبالتالي فقد أوصت اللجنة في تقريرها المرفوع إلى وزير المستعمرات بضرورة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. كانت الرسالة التي حملها تقرير لجنة بيل لليهود والعرب تنص على أن نصف الرغيف خير من عدمه، وعليه فإن أفضل حل للطرفين هو القبول بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية وأخرى يهودية. اقترحت اللجنة الإبقاء على القدس تحت الإدارة البريطانية. أما أكثر ما أثار إعجاب بن غوريون بتقرير اللجنة حقيقة أنه أوصى بعملية نقل العرب من المناطق المخصصة لليهود.

جاءت توصيات لجنة بيل الخاصة بالتقسيم لتحدد حصة كل طرف على الأرض بواقع **20**% من مساحة فلسطين لليهود (الجليل وجزء كبير من السهل الساحلي)، بينما أعطت **70**% للعرب (الضفة الغربية والنقب) والتي ستضم في النهاية لشرق الأردن لتوسيع رقعة الدولة التي أعطيت للأمير عبد الله، بينما يبقى **10**% من مساحة فلسطين تحت الإدارة البريطانية، بما فيها مدن القدس وبيت لحم وممر يربطها بالبحر بالقرب من يافا. غير أن العرب كانوا يمثلون الأغلبية في الرقعة المقترح منحها لليهود والتي ستقام

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, pg 386-387

عليها دولتهم، وعليه فقد أوصت اللجنة بالقيام بعملية ترحيل جماعي "ترانفسير" للسكان العرب- وكان يقدر عددهم وقتها بحوالي **350** ألف نسمة- من منازلهم وأراضيهم في ما أطلقت عليه اللجنة تعبير: المقايضة، علماً بأن عدد اليهود الذين سيتم ترحيلهم من الدولة العربية المقترحة طبقاً لصفقة المقايضة هذه لم يكن يتجاوز **1500** شخص. عن ذلك يقول المؤرخ بيني موريس، في كتابه المعنون: **1948** الحرب العربية الإسرائيلية، الأولى،

"ما إن أعطت لجنة بيل موافقتها على الفكرة "التراتنسفير" حتى فتحت بوابات التحكم على مصراعيها، ودخل زعماء اليهود أمثال بن غوريون ووايزمان وشيرتوك وغيرهم في سباق لإعلان الدعم لفكرة الترانسفير، بدءاً من اجتماع المؤتمر الصهيوني العشرين المنعقد في زيوريخ في أغسطس **1937** وما تبعه من لقاءات ومؤتمرات".[1]

غير أن الثورة العربية شكلت التهديد الأكبر للمشروع الصهيوني، واستمرت في التصعيد الأمر الذي قرر البريطانيون معه اتخاذ إجراءات قاسية. فكان أن أرسل البريطانيون كبير خبراء مكافحة الإرهاب سير شارلز تيغارت إلى جانب **25** ألف جندي ورجل شرطة إلى فلسطين، وهي أكبر قوة تغادر بريطانيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. بالإضافة لذلك فقد شرع البريطانيون مع بداية خريف **1937** في تفعيل المحاكم العسكرية لقمع الثورة العربية. وفي الوقت نفسه تم استبدال آرثر واوتشوب بهارولد ماك مايكل القادم من السودان.

اتخذ شارلز تيغارت العديد من الإجراءات لمواجهة التمرد . ولمنع تسرب المجاهدين من سوريا ، أقيم سياج أمني كالذي يبنى حالياً على طول الحدود الإسرائيلية مع الضفة الغربية. كما نشر تيغارت حواجز التفتيش على الطرقات، وأقام العديد من مراكز الشرطة في جميع أنحاء البلاد، بالإضافة إلى مراكز التدريب في القدس لتأهيل المحققين وتدريبهم على طرق التعذيب. بل إن تيرغات أكمل طاقم أدوات التعذيب بعدد من الكلاب المستوردة من جنوب إفريقيا من نوع دوبرمان والمدربة في هذا المجال.

يتحدث المؤرخ الإسرائيلي توم سيغيف في كتابه المعنون: إسرائيل واحدة كاملة، عن أساليب التعذيب التي انتهجها تيغارت في التحقيق مع الفلسطينيين بالقول: " كان المشتبه بهم يتعرضون لعملية استجواب وحشية باستخدام أساليب الإذلال النفسي والتعذيب الجسماني والضرب المبرح، بما في ذلك الفلقة التركية الشهيرة. ويورد رئيس شرطة القدس دوغلاس داف في مذكراته وصفاً لأساليب الاستجواب التي طبقها المحققون البريطانيون في عهد تيغارت بالقول: إذا كان الضرب المبرح يترك آثاره الدائمة ربما على جسد المعتقل، فقد أدخل تيغارت أسلوب كتم الأنفاس باستخدام علبة الماء، وهي طريقة لا تترك آثارها الدامغة على الجسد. اعتاد البوليس تمديد المعتقل على ظهره وحشر رأسه بين وسادتين، والمباشرة في صب الماء على وجهه حيث يتسرب الماء ببطء إلى أنفه من خلال الوسادة المبللة ويشكل ضغطاً هائلاً على مجراه التنفسي... ومن ذلك أيضا إجبار البعض على الوقوف تحت الدش البارد لفترات طويلة".[2]

---

[1] 1948, The First Arab-Israeli War, Benny Morris, Yale University Press, New Haven, London,2008, Pg 18

[2] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, pg 416-417

عملت سياسة "العدالة السريعة" التي أدخلها تيغارت في التعامل مع عرب فلسطين على مضاعفة المعتقلين العرب ليتجاوز تسعة آلاف شخص عام **1939** أي عشرة أضعاف الرقم المسجل قبل عامين. كانت أحكام الإعدام بحق العرب تصدر بمعدل حالة إعدام كل أسبوع، وليلقى أكثر من **30** عربياً حتفهم على منصة الإعدام من أصل مئة حكم عليهم بالإعدام في أقل من عام(**38-1939**). وهنا يورد سيغيف وصفاً لعملية إعدام شاب فلسطيني- في سجن عكا الذي شهد ثلاث عمليات إعدام في يوم واحد- كما ورد على لسان مفوض إقليم الشمال كيركبرايد:

"أخذ مدير السجن بتلاوة الحكم إلا أن الشاب قاطعه صارخاً: دعك من هذا الهراء .. هيا لننه الأمر بحق السماء. تم اقتياد المحكوم وهو مكبل اليدين خلف ظهره حيث باب المقصلة الموصول برافعة تفتحه للأسفل ليهوي المحكوم الواقف فوقه. هوى الشاب بثقله عبر الباب الذي فتحه الجلاد فجأة إلا أن الشاب لم يمت فوراً على ما يبدو، حيث واصل جسده الانتفاض عدة دقائق، وانفرجت ساقاه بالرغم من أن الجلاد ربطهما بعد وضعه فوق منصة الإعدام. اقترب الطبيب العسكري من الجثمان لفحصه ولوحظ وقتها بأن الدم كان يتساقط من رقبة الشاب من تحت القناع الأسود الذي يغطى وجهه. مزق الطبيب قميص الشاب من الأمام واستمع لنبض قلبه الذي كان لا يزال ينبض بصورة شبه طبيعية. انتظر الطبيب بعض الوقت قبل أن يعلن عن وفاة الشاب.. وبأنتظار عملية الإعدام التالية في التاسعة جلس مفوض الإقليم في مكتب مدير السجن ليتناول إفطاره".[1]

العقوبات الجماعية

يعود الشرف في المبادرة بتطبيق "نظام العدل" الفريد الذي جعل من الفلسطينيين مسئولين بصورة جماعية عن أعمال الثوار، فيما عرف بالعقاب الجماعي، للقاضي غاد برومكين. وطبقاً للنظام المذكور الذي وجد طريقه للتطبيق بعد ثورة النبي موسى واضطرابات يافا، فقد أصبحت قرى كاملة، وأحياء واسعة من المدن مسئولة عن أنشطة الثوار، وتم تطبيق الافتراض القائل بأن كل عربي مذنب إلى أن يبرهن على عكس ذلك. مثل هذا النظام العدلي لا يزال يطبق من قبل الإسرائيليين حتى يومنا هذا.

ومن الأمثلة على نظام العدل البريطاني في فلسطين ما روته هيلدا ويلسون، المدرسة الإنجليزية في بير زيت، عن مشاهداتها حول تفتيش القرى من قبل الجنود البريطانيين، ومن واقع ما تعرضت له القرية التي كانت تعيش فيها. تقول هيلدا طبقاً لما ورد في كتاب: فلسطين واحدة كاملة، للمؤرخ الإسرائيلي توم سيغيف:

" في البداية تظهر طائرة في سماء القرية، ويلقي أحدهم منشورات تفرض منع التجول في المكان. بعدها يظهر الجنود بأعداد قد تصل المئتين على متن العشرات من العربات العسكرية. لم يكن هناك ما يؤكد على طبيعة المهمة التي جاء من أجلها الجنود.. هل هو تفتيش القرية أم إن العملية تتعلق بأنزال العقاب بالأهالي وإذلال القرويين. كانت ويلسون تحب الناس في بير زيت، وعندما دخل الجيش القرية في عملية يصعب تحديدها ورأت بأعينها الطريقة المهينة التي يتعامل بها الجنود مع السكان، انتابها الخجل وحاولت

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, pg 419

التدخل لكبح جماح عدوانية الجنود. وفي إحدى المرات أجبرها الإغلاق الكامل الذي فرضته القوات البريطانية على بير زيت على الخروج من القرية عبر الطرق الجبلية الوعرة سيراً على الأقدام للوصول إلى رام الله".[1]

وفي مذكراته يصف سائق الشاحنة البريطاني أليكس موريسون عملية من هذا النوع تمت في إحدى قرى طولكرم الصغيرة الوادعة.. في صورة مأخوذة من الإنجيل على حد وصف موريسون الذي افترض في البداية أن الجيش دخل القرية للقبض على أحد الإرهابيين المطلوبين. غير أن الجنود اكتشفوا بأن رجال القرية غادروها جميعاً قبل وصول الجيش، تاركين خلفهم النساء والأطفال وبعض كبار السن ومنهم مختار القرية. طالب قائد الوحدة من خلال مترجم معرفة مكان الرجال، إلا أن المختار رفض الكشف عن مكان وجودهم في تصرف معروف عن العرب كما قال موريسون الذي أضاف: طالما أعجبت بشجاعة العرب، فقد رأيتهم يفضلون الموت على خيانة أي أحد". ومع أن القائد البريطاني عفا عن المختار هذه المرة إلا أنه أمر النساء بالوقوف صفاً وتعرية صدورهن للتأكد من عدم وجود رجال بينهن يتخفون في زي نساء. انتهت عملية تفتيش القرية بدون العثور على أي شيء".[2]

يقول سيغيف في كتابه:" مثل هذه العمليات كانت روتينية وتستهدف كل قرية في أي لحظة. وفي العادة فقد كان الجنود يقومون بجمع الرجال في مكان مغلق أو "قفص" طبقاً لتعبير البريطانيين. ومع وجود الرجال قيد الاحتجاز، يشرع الجنود في عملية مداهمة للبيوت بحثاً عن السلاح، يقومون خلالها بخلع الأبواب وتحطيم الأثاث والأواني الفخارية والزجاجية، وتمزيق أكياس الرز والطحين والسكر، التي تشكل المئونة السنوية للفلاحين، وإلقاء محتوياتها على الأرض لتختلط ببعضها وبالزيت المدلوق من الأواني الفخارية المحطمة. بل إن الجنود كثيراً ما كانوا يتصرفون بحقد ولؤم بالقيام بنثر الخليط فوق الفراش، إمعانا في إلحاق الضرر بالأهالي".

وفي بعض الحالات كان الجيش يعمد إلى تفريغ القرية من سكانها والبقاء فيها لأشهر طويلة. كان تدمير البيوت عملاً روتينياً ضمن إجراءات العقاب الجماعي في تصرف كان يلقى الاستحسان من الحكومة البريطانية. وفي إحدى المرات تلقى "مفوض السامرة " رسالة شكر وتقدير على تدمير **53** بيتاً في قرية باقة الغربية. وقد بلغ عدد البيوت التي دمرها الاحتلال البريطاني خلال الفترة من **1936-1940** أكثر من **2000** بيت. ولعل من المثير مجدداً عقد مقارنة بين ماقام به البريطانيون قبل أكثر من سبعين عاماً وما تفعله إسرائيل اليوم، لنجد أنفسنا أمام الممارسات والطريقة ذاتها في النفي والتنصل من التهم. فقد اعتاد البريطانيون نفي حقيقة انتهاكاتهم لحقوق الفلسطينيين المدنية، والتأكيد على أن ما كان يصل الصحافة الغربية من معلومات كانت تتعلق بحالات منفردة لا تتناسب وأخلاق وشخصية جنود صاحب الجلالة. وفي تفسير مثير للإقدام على حرق جثث الثوار القتلى ادعى البريطانيون بأن مثل هذا التصرف كان بهدف منع اندلاع أعمال العنف خلال تشييع جنازاتهم.

---

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, pg 420

[2] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, pg 420-421

ويضيف توم سيغيف قائلاً:" مع تعاظم الجهود الرامية لقمع الإرهاب، اكتسبت العلاقة بين الوكالة اليهودية والسلطات البريطانية في فلسطين المزيد من القوة، لدرجة أن الوكالة في تلك الفترة بدت أقرب إلى فرع أمني من الإدارة تخدم كعميل وكمقاول من الباطن وكجاسوس. بل إن الجيش البريطاني بدا في بعض الحالات كما لو كان يتلقى تعليماته من الوكالة اليهودية، ويتصرف كما لو كان قوة من المرتزقة أو شركة أمن مستأجرة تعمل لحساب اليهود. بل إن الوكالة كانت تتكفل ببعض النفقات الأمنية"

جذور عقيدة المواجهة العسكرية للجيش الإسرائيلي

يجسد ضابط الاستخبارات أوردي تشارلز وينغيت شخصية المسيحي المتعصب للصهيونية لدرجة الهوس. وعندما وصل إلى فلسطين للمشاركة في قمع ثورة **1936** كان يعرف البلاد من خلال الإنجيل، ودفعت خدماته الجليلة لليهود بن غوريون وآخرين إلى وصفه بـ: الصديق.

وفي بيان أصدرته وزارة الدفاع الإسرائيلية بعد وفاته، استذكر الإسرائيليون مناقب صديقهم الإنجليزي الوفي بالقول: كانت تعاليم أوردي شارلز وينغيت وشخصيته وقيادته تمثل حجر زاوية بالنسبة للعديد من قادة الهاجاناه . وما يزال تأثيره بصمة واضحة في عقيدة المواجهة لدى قوات الدفاع الإسرائيلية". وطبقاً للمؤرخ الإسرائيلي توم سيغيف فإن " الرجال الذين خدموا تحت إمرته يتحدثون عنه بمزيج من الإعجاب والاشمئزاز، واعتادوا وصفه من وراء ظهره بالرجل المجنون". [1]

غير أن هذا الرجل المثير لاشمئزاز الكثيرين بمن فيهم بعض المعجبين بقدراته وعبقريته القتالية، أصبح نموذجاً يحتذى للجيش الإسرائيلي، لدرجة أن العقيدة العسكرية الحالية بنيت على خطى وينغيت. كان وينغيت هو صاحب فكرة تشكيل الوحدات الليلية الخاصة التي حولت الجليل إلى مسرح عمليات خاص بها. كانت الوحدات تضم في كل منها **200** جندي، منهم **150** يهودياً، تقوم بمهمات قتالية وأخرى خاصة بتوفير الحماية لخط أنابيب شركة نفط العراق الذي يصل حقول نفط كركوك بميناء حيفا، وكذلك حراسة جدار تيغارت العازل. غير أن وحدات وينغيت كانت تؤدي عملاً آخر لا يقل أهمية وهو التنكيل بالفلسطينيين بحجة ملاحقة الإرهابيين. وفي ذلك كتب صهيون كوهين، أحد أفراد الوحدات الليلية الخاصة يقول عن تجربته في العمل مع وينغيت:" كنا نقترب من القرية التي يتعرض انبوب النفط المار بجوارها لعمل تخريبي، وننتظر هناك حتى الفجر، ثم ندخل القرية ونجمع الرجال ونجبرهم على الاصطفاف في مواجهة الحائط وأيديهم إلى الأعلى، ثم نترك للضابط البريطاني ورجاله مهمة إنزال العقاب بهم، مفضلين عدم الظهور في الصورة لأننا لم نكن نرغب بزيادة مشاعر الكراهية في نفوس العرب تجاهنا. ثم ينزل وينغيت العقاب التقليدي بالشبان العرب، ومن ذلك جلدهم على ظهورهم العارية في مشهد رهيب على حد تعبير أحد أفراد الوحدة. في البداية كان وينغيت يعتلي صخرة ويخاطب رجال القرية موبخاً إياهم بلغة عربية مكسرة قبل أن ينزل عقابه بهم، هذا العقاب الذي أصبح أكثر قسوة مع مرور الوقت. فقد اعتاد الضابط البريطاني إجبار الرجال على التمرغ في التراب المغموس

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, pg 430

بالنفط. وفي بعض الأحيان كان وينغيت يطلق النار عليهم ليموتوا جميعاً. ويضيف كوهين: لقد علمنا وينغيت كيف نكون جنوداً متحلين بالقيم". [1]

ويصف كوهين رد الوحدة على قتل الثوار لـ **15** يهودياً في طبريا بالقول: اختار وينغيت قرية حطين لعمليته الانتقامية. وبعد جمع رجال القرية كافة، اختار عشرة منهم ،وأمرهم بالتقدم للأمام، ثم خاطبهم من خلال كوهين كمترجم قائلاً: لقد قتلتم النساء والأطفال والعجائز وهم نائمون.. إنكم أناس تخلون من الرحمة وجبناء.. وقد حكمت عليكم بالموت عقاباً لكم على جرائمكم. بعدها أطلق الجنود النار على الرجال العشرة الذين سقطوا قتلى جميعاً. كان أحد المشاركين بالعملية إيغال آلون (نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع لاحقا).[2]

الواقع أن الوكالة اليهودية هي التي كانت تتكفل بدفع رواتب منتسبي الوحدات الليلية الخاصة، وسائر النفقات الخاصة بالتدريب والعربات والخيول والاسطبلات وإلى ذلك من أوجه تمويل.

مونتغمري يتولى مهمة قمع الثورة

لم تجد إجراءات القمع البريطانية من إعدامات وإرهاب شارك فيها **25** ألف جندي جديد وصلوا البلاد لإنهاء انتفاضة الفلسطينيين التي تواصلت بوتيرة متعاظمة. وجدت القيادة العسكرية البريطانية نفسها مجبرة على إرسال قائد دموي جديد إلى فلسطين لتنفيذ المهمة التي عجز عنها وينغيت. وقع الاختيار على القائد الشهير الجنرال بيرنارد مونتغمري، الذي كان يختلف مع المسئولين العسكريين والسياسيين البريطانيين فيما ينبغي اتخاذه من إجراءات في فلسطين. كان القائد الجديد في فلسطين يرى ضرورة تصعيد الإجراءات البوليسية بل وتبني إجراءات أشد قسوة لسحق الثورة، وهو المونتغمري نفسه الذي قاد الجيش البريطاني في معركة العلمين لاحقاً. رفض مونتغمري تقبل وجهة نظر الإدارة البريطانية في فلسطين، القائلة بأن الثورة الفلسطينية كانت تعبيراً عن رؤية حركة وطنية طبيعية، وكان يرى بأنها حرب بمعنى الكلمة ينبغي التعامل معها بدون تهاون أو رحمة، وبأن الطريقة الوحيدة للتعامل مع الثورة هي قتل القائمين عليها وهو ما أمر جنوده بفعله. كانت تعليمات مونتغمري تنص على عدم إطلاق سراح المعتقلين من الثوار على أسس سياسية، حيث سبق فشل مثل هذه السياسة في أيرلندا. وهكذا وجد ثوار فلسطين أنفسهم في مواجهة جيش نظامي كبير تدعمه الهاغاناه اليهودية بالتعاون الكامل مع الوكالة اليهودية.

الورقة البيضاء..

مع تعاظم احتمالات نشوب الحرب العالمية الثانية ، بدأ شعور بالقلق يساور الساسة البريطانيين من تبعات الاستمرار في النهج المعادي للعرب والمؤيد لليهود في فلسطين، وبعد فترة من المشاورات والدراسات ، صدر عن الحكومة البريطانية في مايو

---

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, pg 430

[2] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, pg 430-431

1939 ما عرف بالورقة البيضاء، التي تتحدث عن إقامة دولة مستقلة ثنائية الجنسية في فلسطين في غضون عشرة أعوام. كما نصت الورقة على فرض قيود على الهجرة اليهودية تحدد العدد المسموح به عند **75** ألف مهاجر في السنوات الخمس التالية، وبما يسمح برفع عدد اليهود إلى الحد الذي يشكلون فيه ثلث عدد سكان فلسطين، وعلى أن تخضع أي زيادة مستقبلية لموافقة الجانب العربي. واقترحت الورقة البيضاء فرض قيود على نقل ملكية العقارات العربية إلى اليهود. وبالطبع لم يكن لمثل هذه التوصيات التي تضمنتها الورقة البريطانية أن تحظى بقبول الجانب اليهودي، بل إنها لقيت إدانة صريحة من تشيرتشل الذي وصفها بأنها: "تصرف جبأن واستسلام للعنف العربي".

وعن السبب في إصدار الورقة البيضاء في هذا الوقت بالضبط أي قبل نشوب الحرب ، يقول وزير المستعمرات ماك دونالد:" أي اضطرابات في فلسطين لا بد وأن تنعكس سلباً على الأوضاع في إمارة شرق الأردن والعراق والسعودية ومصر، بل إن عواقبها قد تترك تأثيرها على القلاقل في الهند".[1]

اتسمت ردة فعل بن غوريون حيال الورقة البيضاء بالغضب الشديد فكتب يقول معلقاً:" من الصعب تصور سياسة أكثر إثماً وحماقة وافتقاراً لبعد النظر". كان بن غوريون يعتقد بأن الورقة البيضاء شكلت تراجعاً واضحاً من قبل الحكومة البريطانية عن وعد بلفور. وعن ذلك كتب في مذكراته يقول:" لا بد وأن الشيطان نفسه يعجز عن ابتداع كابوس أشد إزعاجاً وإثارة للرعب". أجمع اليهود وفي كل مكان على رفض السياسة الجديدة للحكومة البريطانية كما اقترحتها الورقة البيضاء. وفي هذا الشأن كتب موشيه شيرتوك يتحدث عن اقتراح تقدمت به فتاة يهودية من بولندا كانت تدرس في أكسفورد، ويقضي بأن تتوجه لمبنى البرلمان البريطاني وتغتال رئيس الوزراء وبعد ذلك تنتحر. لم يطل غضب بن غوريون إذ تلقى تطمينات من رئيس الحكومة نيفيل تشامبرلين من أن الورقة البيضاء لن تصمد أكثر من فترة الحرب، الأمر الذي دفعه للكتابة في مذكراته قائلاً بأن الورقة البيضاء ليست بـ "الكلمة النهائية". ولدى تولي تشيرتشل رئاسة الحكومة، أظهر معارضة شديدة للورقة البيضاء لدرجة أشاعت الكثير من الإحباط لدى المفوض السامي الذي لم يعد قادراً على فهم ما يدور في لندن، وعاجزاً عن التوفيق بين السياسة الرسمية وآراء تشيرتشل، الذي وإن لم يتراجع رسمياً عن الورقة إلا أنه عمل على تجريدها من أي أهمية.

بعد مرور شهر على صدور الورقة البيضاء التي ساهمت مع إجراءات مونتغمري القمعية في تهدئة الانتفاضة في فلسطين، اعتقد الجنرال البريطاني بأنه قضى على الثورة الفلسطينية مرة واحدة وإلى الأبد، إلا أن الأمر كان غير ذلك. فهذا وزير المستعمرات أورسمبي غوور يقول:" العرب يقتلون اليهود وهؤلاء بدورهم يقتلون العرب، هذا ما يحدث في فلسطين حالياً وهذا ما سيبقى قائماً حتى بعد **50** عاماً على الأغلب.. وإذا كان الغدر وعدم الوفاء بالعهود سمة العرب فإن الطمع هي السمة الغالبة على اليهود كلما وجدوا أنفسهم في وضع لا يتعرضون فيه للقمع والعداء.. أنا على قناعة بأنه من الصعب أن تثق بحكم العرب لليهود، بالقدر نفسه الذي لا يمكن فيه الوثوق بحكم اليهود للعرب". ومن جانبه أعرب المفوض السامي ماكمايكل عن قناعته من أن مليون جندي عاجزون عن وقف

[1] 1948, The First Arab-Israeli War, Benny Morris, Yale University Press, New Haven, London,2008, Pg 22

الإرهاب في فلسطين".الأمر الذي يضفي الكثير من الشك على إعلان مونتغمري بأنه نجح في القضاء على الانتفاضة العربية هناك. [1]

قررت الوكالة اليهودية ضم الصفوف مع البريطانيين والقتال إلى جانب القوة العالمية الرئيسية آنذاك في الحرب العالمية الثانية ضد ألمانيا، ليكتسب بذلك تعاونهم مع الجيش البريطاني في فلسطين الصفة الرسمية. كانت الوكالة اليهودية تخطط لاستغلال ظروف الحرب لتعظيم قوتها العسكرية من حيث الكم والنوع. بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية بأربعة أشهر زودت الوكالة اليهودية السلطات البريطانية بقوائم تضم أسماء **123** ألف يهودي يرغبون في القتال تحت العلم البريطاني في الحرب. ومن نيويورك حيث كان يقيم مؤخراً، أعلن زييف جابوتنسكي بأن حركة المجددين الصهيونية التي يتزعمها تدعم بريطانيا في الحرب. تم استخدام اليهود في أعمال التجسس والتخريب في سوريا والعراق وهناك فقد موشيه دايان إحدى عينيه.

جاء زحف الألمان باتجاه مصر واحتمال وصولهم إلى فلسطين ليثير الرعب في صفوف يهود فلسطين، لدرجة أن زعماء الوكالة اليهودية فكروا بمغادرة فلسطين والتوجه للمنفى، كما أن بعض اليهود حرصوا على التزود بالسم. بل إن " ناطقاً باسم إحدى الجماعات الدينية المحافظة أعد رسالة استرحام عاطفية موجهة للعرب تطلب منهم الرأفة باليهود الذين لم يؤيدوا الصهيونية". غير أن مونتغمري الذي أنقذ اليهود من الثورة الفلسطينية هو الشخص نفسه الذي أنقذهم من الألمان في العلمين.

رؤساء حكومات إسرائيليون .. إرهابيون سابقون

وصل ميناحيم بيغن ، الصديق المقرب من جابوتنسكي منذ أيام بولندا، إلى فلسطين (**29**عاما)، وهو أشد اليهود إيماناً بمدرسة جابوتنسكي الصهيونية، وتحمساً لإقامة الدولة اليهودية من النيل إلى الفرات. وفي فلسطين أسس المهاجر البولندي المتقد حماسة لإقامة إسرائيل التوراتية بالقوة كما كان يعتقد، حركة إيتزل **Etzel** التي اتخذت من البندقية على خلفية خارطة فلسطين الممتدة من البحر إلى حدود العراق، شعاراً لها وتنادي بإعادة بناء الهيكل الثالث . شكلت التبرعات القادمة من أمريكا أحد مصادر تمويل الحركة، إلا أن الجزء الأعظم من هذا التمويل كان يتم تأمينه عن طريق ابتزاز التجار والسطو على البنوك. في الوقت نفسه برزت جماعة يهودية أخرى تدعى ليهي **Lechi** بزعامة إسحق شامير لتنافس إيتزل في التشدد القومي والعنف المنظم. فقد حاولت ليهي اغتيال المفوض السامي البريطاني مرتين، وقتلت لورد موينيس، كبير ممثلي بريطانيا في مصر. أعلنت حركتا إيتزل وليهي الحرب على البريطانيين، واعتادت الإذاعات السرية لهاتين الحركتين الإرهابيتين وصف القيادة اليهودية في فلسطين بالجبن والخيانة، وأعلنتا تحديهما لحزب العمل على قيادة الشارع اليهودي، ومنهما امتدت جذور حزب الليكود الذي ظهر على الساحة السياسية بعد قيام إسرائيل.

تصاعدت المواجهة بين المنظمات الإرهابية الصهيونية من جهة والوكالة اليهودية وحركة العمل من جهة أخرى، لدرجة دفعت بالوكالة اليهودية إلى مطالبة المفوض السامي

---

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, pg 442

البريطاني تأسيس إدارة خاصة بمحاربة الإرهاب اليهودي، ومع ذلك فإن الوكالة لم تكن تظهر استعداداً للتحرك الحاسم ضد هذه المنظمات قبل تقديم الإدارة البريطانية تنازلات فيما يتعلق بالهجرة، باعتبارها انجازاً من شأنه دعم موقف الوكالة في نظر اليهود عندما تحين ساعة المواجهة مع الحركات المتشددة. وفي حديث مع بن غوريون علق المفوض السامي البريطاني بالقول إن اليهود سلالة غريبة.. فهم لا يقدرون حقيقة أن بريطانيا هي البلد الوحيد الذي يقدم لهم كل شيء، ومع ذلك لا يتورعون عن الافتراء على هذه الدولة وإذلالها بدون كلمة شكر!! وبدلاً من التحرك ضد العصابات الإرهابية اختارت الهاغاناه، الذراع المسلح للوكالة اليهودية، ضم الصفوف مع إيتزل وليهي لتشكيل حركة المقاومة اليهودية، وظلت كذلك إلى حين عملية نسف فندق الملك داوود في القدس، والتي أدت إلى مصرع **90** شخصاً منهم عدد كبير من الجنود البريطانيين.

الخبراء البريطانيون: حان وقت الرحيل عن فلسطين

عندما عاد إلى فلسطين بعد الحرب، كان الجنرال مونتغمري على رأس أركان القوات المسلحة الإمبراطورية، ووصل البلاد في مهمة محددة وهي تقييم الوضع. وجد مونتغمري القوات البريطانية في فلسطين وعددها **100** ألف جندى مقيدة الأيدي غير قادرة على التحرك بحزم لسحق الإرهاب اليهودي، فكان أن رفع التوصية المختصرة التالية لرئيس الحكومة أتلي **Attlee** :" إذا كنا غير مستعدين للحفاظ على النظام والقانون في فلسطين، فإنه سيكون من الأفضل لنا الرحيل ". فبالرغم من استهداف المنظمات اليهودية المتطرفة البريطانيين في فلسطين ظلت سياسة لندن على عهدها من الانحياز لليهود. ولهذا السبب وجد القائد العسكري البريطاني في فلسطين الجنرال باركر نفسه خارج البلاد على خلفية صدور تعليق عنه اعتبره اليهود مبعث سخرية بهم وإساءة لهم. فقد قال الجنرال وقتها بأن العمل العسكري ليس بالطريقة المثالية لضرب اليهود، بل إن أفضل طريقة لمواجهة السلالة اليهودية هي التركيز على.. جيوبهم. بعد عودته إلى لندن تلقى الجنرال المذكور رسالة ملغومة اكتشفها قبل أن تنفجر في وجهه. وفي حادثة أخرى تدل على مدى تجرؤ اليهود على ولي نعمتهم، فقد أرسلت عصابة إيتزل إلى لندن فريق اغتيال من شخصين أحدهما عازر وايزمان، ابن أخ حاييم وايزمان، (رئيس إسرائيل لاحقا) ، في مهمة لقتل رئيس شرطة حيفا السابق ريموند كافيراتا المتهم بمعاداة الصهيونية.

انضم وزير الخزانة هيو دالتون إلى الجنرال مونتغمري في التوصية بالانسحاب البريطاني من فلسطين. وقد جاءت نصيحة دالتون على خلفية الكلفة الاقتصادية العالية للبقاء هناك أو هذا ما كان يبدو عليه الأمر في الظاهر على الأقل.

نهاية الانتداب البريطاني وقرار التقسيم

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عاد الإرهاب اليهودي لاستهداف الوجود البريطاني في فلسطين ضمن توجه مقصود. بل إن تطوراً مثيراً طرأ على العمل العسكري اليهودي بانضمام الهاغاناه، الذراع العسكري الرسمي للوكالة اليهودية، إلى النشاط الإرهابي لعصاباتي إيتزيل وليهي اللتين كانتا، قبل الحرب، موضع إدانة الوكالة. وفي حين أن الوكالة اليهودية طلبت من السلطات البريطانية التحرك الجدي لملاحقة مصادر الإرهاب اليهودي، نجد أن الوكالة نفسها تساوم الإدارة البريطانية للسماح بإدخال مئة ألف مهاجر

جديد إلى فلسطين مقابل تعاونها الأمني. انضمت الهاغاناه والبالماخ **Palmach** إلى إيتزيل وليهي في تنفيذ سلسلة من العمليات الإرهابية، ومنها نسف **11** جسراً ليلة **17** يونيو **1946** كانت تربط فلسطين بشرق الأردن وسوريا ولبنان ومصر. كما أغارت وحدات بالماخ على سجن عتليت ونجحت في تحرير السجناء اليهود. وبعدها بأيام قامت وحدات تابعة للحركة نفسها بتدمير قارب دورية ومحطتين لخفر السواحل البريطاني. أما عصابة ليهي فأقدمت على توجيه ضربة مؤلمة للبريطانيين بتفجيرها فندق الملك داوود في قلب القدس، حيث المقر الإداري والعسكري للقيادة البريطانية.

أمام هذا التطور في موقف الوكالة اليهودية من الداعم الأكبر والطرف الأشد حماسة لقضية اليهود، نجد أنفسنا أمام تناقض مثير للدهشة وللكثير من التساؤلات. فقد بذل البريطانيون الدم والمال لمساعدة الصهيونية على إقامة بنية تحتية متكاملة: عسكرياً واقتصادياً واجتماعياً وصحياً، لتكون جاهزة للتحول إلى مؤسسات الدولة اليهودية القادمة.. لتكون النتيجة حصاداً محبطاً ومشاعر خيبة أمل تسيطر على البريطانيين وهم يرون اليهود وقد أخذوا في التعامل معهم كقوة احتلال ينبغي طردها من فلسطين بسائر الوسائل بما فيها الإرهاب. الواقع أنه لولا هذا الاحتلال لما قامت لليهود دولة أو حتى وجود في فلسطين من الأساس. فقد تعامل الاحتلال مع الوكالة اليهودية كحكومة لديها سائر المؤسسات بانتظار إعلان الدولة اليهودية الموعودة، ومن ذلك: إقامة نظام وطني للرعاية الصحية، والجامعة العبرية و"وزارة" التربية، وقوة عسكرية شبه نظامية (الهاغاناه التي شكلت أساس الجيش الإسرائيلي). كما عمد البريطانيون إلى إعادة تنظيم شبكة الاستخبارات اليهودية التي ساعدت جيش اللنبي، لتصبح وكالة استخبارات الهاغاناه التي شكلت المصدر الرئيسي للمعلومات بالنسبة لسلطات الانتداب، وفي الوقت ذاته كانت تراقب عن كثب تصرفات المسئولين البريطانيين في فلسطين. وفي الوقت الذي كان فيه العرب منشغلين في تضميد جراحهم وإحصاء خسائرهم من ثورة **1936**، لم يضع اليهود خلال الحرب أي وقت للتحضير لدولتهم القادمة. فقد انضم ما لا يقل عن**26** ألف يهودي، من الرجال والنساء، للجيش البريطاني سعياً وراء اكتساب الخبرة العسكرية الجيدة. وفي هذه الأثناء كانت الهاغاناه منشغلة بجمع السلاح بأي طريقة، حيث لم تتردد هذه الحركة في سرقة السلاح الذي يتعذر شراؤه. وفي عام **1941** جاء تشكيل حركة البالماخ بتعاون بريطاني رسمي.

في الولايات المتحدة كان النفوذ اليهودي في تصاعد لتصبح الصهيونية قوة يحسب لها حساب. وهناك اعتمد الصهاينة على عامل العداء للسامية كسلاح يرفع في وجه كل من يجرؤ على معارضة المشروع الصهيوني، في وقت كان فيه الأمريكيون يتعاطفون مع معاناة اليهود في أوروبا خلال الحرب. في البداية، وتحديدا خلال الثلاثينات وأوائل الأربعينات، لم يشأ روزفلت الكشف عن التزام أميركي صريح ومباشر تجاه مشروع إقامة الدولة اليهودية في فلسطين، بغض النظر عن قوة النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة. ففي عام**1943** أكد روزفلت للملك عبد العزيز آل سعود بأنه ستتم مشاورة العرب واليهود قبل اتخاذ القوى العظمى قراراً بشأن مصير فلسطين. وحتى عندما كان الكونغرس على وشك إصدار قرار مشترك في **14** مارس **1944** يتضمن دعوة الحكومة البريطانية التراجع عن الكتاب الأبيض ودعم مشروع إقامة الدولة اليهودية ، تدخل البيت الأبيض بناء على توصية من عدة جهات حكومية وأقنع الكونغرس بسحب القرار. وخلال النصف الثاني من

العام نفسه كان الحزبان الجمهوري والديمقراطي قد تبنيا شعارات مؤيدة للصهيونية، بل إن المرشح الجمهوري الحاكم ديوي **Dewey** صرح علناً بأنه يؤيد إقامة كومنويلث يهودي في فلسطين. بل إن روزفلت شخصياً كان صهيوني الميول وإن كان يمتنع عن الكشف عن ذلك على الملأ. وهنا يقول بيني موريس، في كتابه المعنون: **1948** الحرب العربية الإسرائيلية الأولى: " ومع ذلك ففي حديث جمعه مع جوزيف ستالين على هامش قمة يالطا، في فبراير **1945**، وصف روزفلت نفسه بـ: الصهيوني، فما كان من ستالين إلا وأن أجاب قائلاً: وأنا كذلك. غير أن ستالين أضاف بأن اليهود " سماسرة واستغلاليون وطفيليون".[1]

بريطانيا تخطط للتخلص من العبء الفلسطيني

في بريطانيا، خرج تشيرتشل قسراً من السلطة، وتولت مقاليد الأمور حكومة عمالية برئاسة كليمنت أتلي ووجود إيرنست بيفين على رأس الخارجية. وقبل سقوطه كتب تشيرتشل بتاريخ **6** يوليو **1945** يقول:" لا أعتقد بأنه ينبغي علينا أخذ مسؤولية إدارة هذا المكان الصعب على عاتقنا، بينما يكتفي الأمريكيون بالجلوس في الصفوف الخلفية وتوجيه الانتقادات.. لا أرى أي مكاسب تذكر خرجت بها بريطانيا من هذه المهمة المؤلمة التي لا تجد تقديراً يذكر من أي أحد. أعتقد أنه جاء الدور على فريق آخر لتولي المهمة "[2]

وصل هاري ترومان إلى البيت ألأبيض بعد موت روزفلت المفاجئ، وكان الرئيس الجديد "غير ميال لدعم برنامج حزبه المؤيد للصهيونية . وقد أبلغ ترومان حكومته في يوليو **1944** بأنه "ليس بحاجة لهم "اليهود" ولا يهمه ماذا سيحدث لهم". غير أنه سرعان ما غير موقفه عندما أعلن في بوتسدام في أغسطس بأنه مع إعادة توطين اللاجئين اليهود في فلسطين.

بتاريخ **13** نوفمبر **1945** أعلن عن تشكيل لجنة أنجلو-أميركية **ACC**، وعندما طلب الجانب البريطاني حذف أسماء **100** ألف لاجئ يهودي مفترض لفلسطين من المقدمة إلى اللجنة ووجه الطلب بالرفض من الجانب الأمريكي. ومن جانبه أعرب رئيس الوزراء البريطاني بيفيين عن أمله في أن تقترح اللجنة إعفاء بلاده من مهمة الانتداب ووضع فلسطين تحت الوصاية الدولية، يتم بعدها إقامة دولة مستقلة ذات أغلبية عربية. أوصت اللجنة بالسماح بدخول المئة ألف لاجئ يهودي الذين طلبت بريطانيا استبعادهم. كانت النتيجة أن موجة من الغضب على الموقف الأمريكي اجتاحت الشارع العربي. ففي بيروت اقتحم المتظاهرون مركز الإعلام الأمريكي وأشعلوا فيه النار. وفي بغداد دعت الصحافة إلى إعلان الجهاد لإنقاذ الأرض المقدسة. ومن جانبها رفضت الوكالة اليهودية كل ما جاء في خطة اللجنة الأنغلو – أميركية باستثناء البند الخاص بالسماح باستئناف الهجرة اليهودية.

---

[1] 1948, The First Arab-Israeli War, Benny Morris, Yale University Press, New Haven, London,2008, Pg 24

[2] 1948, The First Arab-Israeli War, Benny Morris, Yale University Press, New Haven, London,2008, Pg 30

وفي محاولة أخيرة قام بها البريطانيون للتوصل إلى حل وسط، وبعد مناقشة تقرير اللجنة، خرج المجتمعون بالخطة الخاصة بالسلطة المؤقتة أو كما عرفت بـ:خطة موريسون غرادي. نصت الخطة المذكورة على ترك شؤون الدفاع والسياسة الخارجية في يد بريطانيا مع منح العرب واليهود الحكم الذاتي. كما نصت الخطة على نقل **100** ألف لاجئ يهودي فوراً إلى فلسطين، ووعدت الفلسطينيين بالاستقلال في نهاية المطاف. وبعد أن أعلن الصهاينة رفضهم للخطة، اتخذ ترومان الموقف نفسه منها.

بتاريخ**27** يناير **1947** دعا البريطانيون لعقد مؤتمر في لندن، لمناقشة المسألة الفلسطينية.. وصل الوفد العربي إلا أن الصهاينة امتنعوا عن إرسال أحد، وكذلك فعل الأمريكيون كما لو أن قراراً أميركياً يهودياً مشتركاً اتخذ بهذا الشأن، وبذلك وصلت الدبلوماسية البريطانية إلى طريق مسدود، فكان أن قررت لندن بتاريخ **14** فبراير **1947** رفع المشكلة برمتها إلى الأمم المتحدة التي شكلت لجنة لدراسة القضية. خرجت اللجنة الدولية بتقرير تضمن توصية للجمعية العامة بتقسيم فلسطين. وفي ذلك يقول المؤرخ الإسرائيلي توم سيجيف:

" خلق القرار حراكاً سياسياً محموماً على المستوى العالمي، رافقته حملة إعلامية شرسة تضمنتها ممارسات لا أخلاقية من الضغوط والتهديدات والرشوات والوعود. فقد رصدت الوكالة اليهودية ميزانية خاصة لرشوة المسئولين تحت بند: أنشطة سياسية غير نظامية". [1]

حصل القرار على تأييد **33** صوتاً مقابل اعتراض **13** وامتناع **10** بلدان عن التصويت بما فيها بريطانيا. ومع أن المساحة التي خصصتها الخطة لإقامة الدولة اليهودية، جاءت ضعف ما اقترحه البريطانيون قبل الحرب العالمية الثانية، فإن عدد العرب في المنطقة الجديدة تجاوز نصف مليون نسمة أي أكبر من السكان اليهود في فلسطين. غير أن اليهود على قلتهم كانوا أفضل تدريباً وتنظيماً وأكثر عدة وأغنى بالمصادر، بالمقارنة مع العرب الذين خسروا أكثر من ستة آلاف ناشط مقاتل وناشط سياسي في ثورتهم، يضاف لذلك أن العرب كانوا يفتقدون للقيادة الموحدة والتنظيم، وكان العديدون منهم يقضون أحكاماً بالسجن أو يعيشون في المنفى، ناهيك عن شح الموارد المالية وضعف التدريب والتسليح.

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, pg 496

يؤثر عن بن غوريون القول:" الكل ينظرون إلى المشكلة من زاوية العلاقات بين العرب واليهود.. غير أنه ليس هناك إجماع بالضرورة على أنها مشكلة بدون حل.. الواقع أنها كذلك بالفعل.. ليس هناك من حل قومي هنا .. نحن نريدها بلاداً خالصة لنا.. والعرب يريدونها بلاداً خالصة لهم" .[1]

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 116

الفصل الثامن

دولة يهودية في فلسطين (1949-1967)

عشية تصويت الأمم المتحدة على قرار التقسيم، رفعت استخبارات الهاغاناه، للوكالة اليهودية تقريرها التقييمي عن الميزان العسكري، جاء فيه القول بأنه في حالة اختار العرب الحرب فإن الدول العربية أبعد ما تكون عن التوحد، وعرب فلسطين أبعد ما يكونون عن الاستعداد للحرب.. فقد كانوا يفتقرون تماماً للموارد المالية اللازمة، ولا تتوفر فيهم القدرات القيادية والتنظيمية مقابل مصادر مالية مفتوحة تحت إمرة يهود فلسطين. وفي ذلك يقول بيني موريس في كتابه المعنون: **1948** .. الحرب العربية الإسرائيلية الأولى " كان العرب الفلسطينيون فقراء بشكل عام.. ولهذا كان الفشل الذريع والمؤكد بانتظار جهود عزت طنوس الجبارة، التي بدأها في يونيو **1947**، لجمع الأموال من خلال الضرائب والتبرعات الطوعية من الناس المقتدرين. . فبعد خمسة أشهر من العمل الدؤوب لم تتجاوز حصيلة حملة طنوس الـ: **25** ألف جنيه فلسطيني" [1]

بالمقارنة فقد كان الصهاينة في فلسطين يملكون القدرة على الوصول إلى جيوب أثرياء اليهود في جميع أنحاء العالم وفي مقدمتهم: يهود الولايات المتحدة. فعندما أرسل بن غوريون مساعدته غولدا ميرسون إلى أمريكا في حملة لجمع التبرعات لصالح الهاغاناه، كان المبلغ المأمول جمعه بحدود **20** مليون دولار. كانت النتيجة أن غولدا استطاعت جمع **50** مليون دولار خلال شهرين فقط (يناير إلى مارس **1948**). وعندما عادت إلى الولايات المتحدة للغرض نفسه نجحت غولدا في جمع مبلغ مماثل خلال شهري مايو ويونيو فقط، وذهب المبلغ الأخير لتمويل صفقة الأسلحة التشيكية التي كان لها دور محوري في قلب ميزان القوى لصالح الهاغاناه في حرب **1948**.

على الجانب العربي لعبت الأنظمة العربية آنذاك دوراً في انتصار اليهود. فهؤلاء المتطوعون القادمون من شمال إفريقيا يردون على أعقابهم من قبل مصر. كانت الدول العربية الخارجة تواً من الانتداب البريطاني والفرنسي ضعيفة عسكرياً واقتصادياً وحتى معنوياً، ناهيك عن التمزق والتناحر السائد في العلاقات فيما بينها. وبالمقابل كان لليهود حكومتهم داخل الحكومة لها بنيتها الدفاعية والمالية والتعليمية والصحية، بل كان لها استخباراتها الكفؤة. كان الأمر أقرب ما يكون لحكومة قائمة بالفعل بوزارات ومؤسسات متكاملة، وقيادات ملتزمة وموحدة لا ينقصها التأهيل والتنظيم من الطراز الأول.

---

[1] 1948, The First Arab-Israeli War, Benny Morris, Yale University Press, New Haven, London,2008, Pg 81

قوى عسكرية ومالية وسياسية غير متوازنة

استعداداً للحرب الحتمية، أقامت الوكالة اليهودية صناعات عسكرية سرية وضعتها بعيداً عن الأعين في المستوطنات المنتشرة في مواقع عدة. وبينما كان حكم بالإعدام بانتظار أي عربي قد يملك مسدساً، كانت صناعة السلاح تحت إدارة الهاغاناه قد أنتجت خلال الفترة مابين **1** أكتوبر **1947** و**31** مايو **1948** ما مجموعه: **15468** بندقية رشاشة نوع ستين، و**200** ألف قنبلة يدوية، **125** مدفع مورتر عيار **1** إنش مع **130** ألف قذيفة، وحوالي **40** مليون رصاصة لاستخدام الرشاش ستين. كانت الهاجاناه جيشا نظاميا بمعنى الكلمة: له رئاسة أركان وأفرع متخصصة بما فيها الاستخبارات، والقوة البشرية، واللوازم والوحدات الطبية بل وحتى سلاح الجو الذي كان حمل في البداية اسم: الخدمات الجوية. في المقابل كان الفلسطينيون يفتقرون لكل شيء: القيادة والموارد والتنظيم والسلاح. الواقع أن هذا الحال كان ينطبق في معظمه على الجيوش العربية المشكّلة حديثاً. لم تجد الهاغاناه صعوبة في التحول السريع من قوة شبيهة بالميليشيا إلى جيش نظامي، وبحلول مايو **1948** كانت الهاغاناه قد نشرت **12** فرقة منهما ثلاث مشاة واثنتان مدرعة. في غضون ذلك كانت الصورة على الجانب العربي تدعو إلى الرثاء.

وفي ذلك كتب اللواء إسماعيل صفوت، رئيس اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية، في نوفمبر **1947** يقول: " لم يكن تحقيق انتصار على اليهود- المسلحين والمدربين جيداً- باستخدام حرب العصابات بالأمر القابل للتحقيق، وعليه فقد كان لزاماً الزج بقوات نظامية إلى المواجهة، قوات تكون على قدر عال من التسليح والتدريب... ولأن الدول العربية لم تكن تملك مقومات الدخول في حرب مطولة، فقد كان المطلوب فعل كل ما يمكن لإنهاء الحرب في فلسطين في أقصر وقت ممكن".[1]

ولعل استراتيجية جنرالنا هذا كانت الخطيئة الكبرى. فكما اثبتت احداث جنوب لبنان وغزة كان ينبغي تطوير ودعم المقاومة الفلسطينية لصد عدوان القوات النظامية الاسرائيلية.

وجدت القوات العربية نفسها أمام مهمة مستحيلة. والأسوأ من ذلك أن صفوت لم يكتف بإخراج الجماعات الفلسطينية المقاتلة من المعادلة، بل منع قائدها عبد القادر الحسيني من إعادة تسليح المجاهدين بعد أن نفدت ذخيرتهم. عاد الحسيني إلى القدس محبطاً وإن كان قد نجح في تسجيل عدة انتصارات على اليهود في محيط القدس.

كانت القوة العربية الوحيدة التي يحسب لها اليهود حساباً في ذلك الوقت هي: فيلق الجيش العربي. غير أن تلك القوة كانت تحت إمرة بريطانية وتتلقى تمويلها من البريطانيين. ومع أن البعض ادعّى وجود خطة عسكرية عربية عامة، فإن الجنرال جون باغوت غلوب المعروف بـ: غلوب باشا قال مستذكراً: " لم يكن المسئولون العرب جادين في الذهاب للحرب.. إلا أنهم دخلوا (فلسطين) في النهاية وأمروا قادتهم العسكريين بالتقدم تحت وطأة الضغوط الشعبية والرغبة في تهدئة الشارع".

---

[1] 1948, The First Arab-Israeli War, Benny Morris, Yale University Press, New Haven, London,2008. Pg 180

اعتقد آلان كننغهام بأن غزو الجيوش العربية لفلسطين كان بالأمر المستيعد على الأغلب لأن:" هذه الجيوش كانت تفتقر تماماً للتدريب والسلاح والاحتياط اللازم من الذخيرة للإبقاء على جيش في الميدان بعيداً عن قواعده لفترة قد تطول".[1]

ومن جانبهم كان البريطانيون والفرنسيون الذين أسسوا الجيوش العربية من البداية، يدركون جيداً بأن هذه الجيوش لم تبن على أساس خوض الحروب، وبأنها مهيأة للقيام بمهمة أخرى وهي حفظ الأمن الداخلي وحماية الأنظمة غير الشعبية التي نصبتها سلطات الانتداب قبل رحيلها عن المنطقة، وحتى هذه اللحظة ما تزال حماية الأنظمة تشكل المهمة الرئيسية لهذه الجيوش.

عن بدايات الجيوش العربية والدور البريطاني في تشكيلها، يقول بيني موريس في كتابه: الحرب العربية الإسرائيلية الأولى:" لم تتحرك بريطانيا لمحاولة تطوير الجيوش المصرية والعراقية والأردنية سوى عام **1945-1946**، وعلى خلفية ظهور الحرب الباردة، وبهدف تحويلها إلى قوى قتالية قادرة على الإسهام في المواجهه مع القوات السوفياتية عند اللزوم وبالإنابة عن الغرب، إلا أن الافتقار للأموال والعجز والفقر وفوق ذلك الشك في النوايا البريطانية، أفشلت عملية تطوير الجيوش في العراق ومصر. كما واجه الفرنسيون المشاكل نفسها مع الجيشين السوري واللبناني حديثي العهد. وحده الجيش الأردني بدأ يشهد عملية تحديث فعلية بدءاً من مايو **1948** أي في وقت متأخر للمشاركة بفعالية في المواجهة الحاسمة مع اليهود". [2]

يلخص جمال عبد الناصر، الذي شارك في القتال في فلسطين، استعدادات ونوايا الجيش المصري، لاحقاً بالقول:" لم يكن هناك حشد فعلي للقوات ولا تكديس للذخيرة أو المعدات العسكرية.. لم يكن هناك استطلاعات أو نشاط استخباراتي ولا حتى خطط عسكرية ..(كان يراد منها أن تكون حرباً سياسية ليس إلا).. كان المطلوب تحقيق تقدم بدون انتصار وتراجع بدون هزيمة". [3]

الجيوش العربية والجيش اليهودي.. مقارنة القوة

حتى قبل أيام فقط من الانسحاب النهائي للقوات البريطانية من فلسطين، كانت أبرز معالم الوضع العسكري هناك كما يلي:

- قبل يومين فقط من الموعد المحدد لدخول الجيوش العربية فلسطين، تم إعفاء القائد العام للقوات العربية النظامية منها وغير النظامية، وتعيين اللواء نور الدين محمود مكانه مع وجود الملك عبد الله قائدا أعلى من الناحية الاسمية.
- في اللحظة الأخيرة، وبتاريخ **14** مايو **1948** قرر الرئيس اللبناني بشارة الخوري ورئيس أركان الجيش فؤاد شهاب البقاء بعيداً عن الحرب. وقتها كان لبنان المستقل حديثاً يملك جيشاً متواضعاً يضم **3500** عنصر فقط موزعين على أربع كتائب مشاة.

---

[1] Alan Cunningham to secretary of state, 28 December 1947, Pro Fo 371 – 61583

[2] 1948, The First Arab-Israeli War, Benny Morris, Yale University Press, New Haven, London,2008. Pg 183

[3] Nasser, “Memories”, 10

- طبقاً لقائد الجيش الأردني وقتها، غلوب باشا، فإنه لم يكن هناك من تخطيط عربي مشترك من أي نوع. ومع ذلك فإن الإسرائيليين ادّعوا لاحقاً بأنهم كانوا على علم بوجود خطة عربية رئيسية تجمع إستراتيجية الجيوش العربية كافة. الواقع أنه لم يكن هناك وجود للخطة المذكورة بل لم تكن هناك حتى محاولة لإعداد مثل هذه الخطة". [1]
- لم تحقق سوريا الاستقلال سوى عام **1946** ، أي في وقت متأخر لإعداد جيش قادر على المشاركة الفاعلة في حرب فلسطين بعدها بعامين. على الورق كان الجيش السوري يضم **10** آلاف عنصر، غير أن" الواقع أشار إلى أن الافتقار للأسلحة والذخيرة جعل الجيش السوري الحديث يقتصر على فرقة واحدة بقيادة العقيد عبد الوهاب حكيم. وحتى هذه الفرقة لم تكن مهيأة لخوض أي حرب، وباعتراف قائدها حكيم. ضمت الفرقة حوالي ألفي جندي وتوزعت على كتيبتي مشاة وأخرى مدرعة تضم عدداً من دبابات رينو **35** ورينو**39** الفرنسية الصنع.." [2]
- قرر الفيلق العربي (الأردني) الذي كان يعتبر وقتها أفضل جيوش العالم العربي، ولاعتبارات عدة، تغيير هدفه من الحرب ليصبح الاستيلاء- إنقاذ الجزء المخصص للعرب من فلسطين، طبقاً لقرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة. كان الملك عبد الله واعياً للقوة اليهودية في فلسطين وفي الساحة الدولية. ولم يكن يخفى عليه مدى محدودية جيشه الصغير، وتوفير الذخيرة ومصدرها البريطانيون. يضاف لذلك حقيقة أن قائد الجيش، غلووب باشا وكذلك كبار ضباطه كانوا جميعاً من البريطانيين. كما لم يفت الملك عبد الله مدى محدودية الجيوش العربية، بغض النظر عن الخطاب الحماسي الذي كان يغلب على حديث القادة والمسئولين العرب، وبالتالي فقد قرر حصر هدفه بـ: إنقاذ والحفاظ على الجزء المخصص للعرب الفلسطينيين في قرار التقسيم. غير أن قرار عبد الله المذكور ارتبط وإلى حد كبير بالاتفاق الذي توصل إليه مع غولدا ميرسون بعد مفاوضات سرية جرت بينهما بتاريخ **17** نوفمبر **1947** انتهت بموافقة الملك على التقسيم، مقابل عدم اعتراض الدولة اليهودية على ضم الملك للجزء العربي من فلسطين، كما ورد في خريطة قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود.
- وفي المقابل نجد على الجانب اليهودي وضعاً مختلفاً إلى درجة التناقض الصارخ، يتمثل بالاستعداد التام للحرب من جانب الوكالة اليهودية وكما يلي:

✓ نجح بن غوريون ومنذ **1945** في توفير التمويل اللازم لتسليح وتدريب قوات الهاغاناه من خلال الهبات التي التزم بها **18** مليونيراً يهودياً. ومع ظهور مؤشرات قوية على قرب صدور قرار بتقسيم فلسطين ، في نهاية **1947** ، تسارعت وتيرة جهود الوكالة اليهودية لتحقيق عملية إعادة هيكلة وتنظيم الجماعات اليهودية المسلحة. وقتها كانت الهاغاناه تملك قوة مدربة من **35** ألف عنصر

[1] Glubb, Soldier, 93

[2] 1948, The First Arab-Israeli War, Benny Morris, Yale University Press, New Haven, London, 2008. Pg 251

مبعثرين على المستوطنات. وحدها البالماخ كانت تشكل قوة عسكرية نظامية تضم **2000** جندي متفرغ.

- ✓ بتاريخ **7** نوفمبر **1947** أصدر يعقوب دوري، رئيس هيئة الأركان ورئيسه السياسي إسرائيل غاليلي، رئيس أركان حركة الهاغاناه الوطنية، القرار الخاص بتشييد الجيش اليهودي أو ما عرف بـ: قرار التشييد الوطني، وجاء فيه القول:" إن مخاطر تعرض البلاد لهجوم من جيوش الدول العربية المجاورة يحتم علينا القيام بعملية هيكلة ونشر مختلفة للقوات.. ففي مواجهة الجيوش النظامية لا بد من إعداد قوة عسكرية (مختلفة عن الميليشيا) تكون على قدر عال من التدريب والتسليح والتنظيم على أسس عسكرية حديثة".
- ✓ مع نهاية**1947** كانت عملية التجنيد للخدمة العسكرية النظامية، بالإضافة لحشد المتطوعين، وكذلك برامج التدريب قد بلغت أوجها، وتتم على ساق وقدم من خلال المكاتب التابعة للجنة التجنيد المنتشرة في كل المدن والبلدات.
- ✓ " مع نهاية ديسمبر، كان اليهود قد استطاعوا وضع **7500** عنصر تحت السلاح (منهم **2500** من البالماخ)، ومع حلول أبريل كان العدد قد وصل إلى **24** ألف جندي ليرتفع إلى حوالي **30** ألف في منتصف مايو نصفهم مقاتلون مخضرمون من الهاغاناه. وفي يوليو كانت القوات اليهودية الموحده والنظامية تضم **64** ألف عنصر(بتحول الهاغاناه إلى قوات الدفاع الإسرائيلية). [1]
- ✓ في غضون ذلك كانت الهاغاناه تجوب العالم سعياً وراء السلاح، حيث نجح عملاؤها بالالتفاف حول الحظر البريطاني المفروض على توريد السلاح إلى فلسطين، وكذلك تحدي الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة في **29** مايو **1948**. تعاون عملاء الهاغاناه مع شبكات المسئولين الصهاينة والمتعاطفين مع القضية اليهودية في تأمين السلاح، سواء من الدول أو من خلال تجار السلاح. وبالطبع كان لقوة المال اليهودي المقرونة بوسائل الخداع والشركات الوهمية الدور الأساسي في إنجاح مهمة العملاء اليهود.
- ✓ حرصت الهاغاناه ولأسبابها الخاصة على تضخيم قوة الجيوش العربية بالحديث عن حشد العرب لأكثر من **165** ألف جندي استعداداً لغزو فلسطين بهدف القضاء على اليهود. وهذا بن غوريون يدّعي بأن الفيلق العربي وحده يضم ما بين **15-18** ألف جندي تدعمهم**400** دبابة، بينما لم يكن يتجاوز حجم القوة العسكرية الأردنية هذه ثمانية آلاف عنصر وبدون دبابات. ويمكن القول بأن إجمال حجم القوات العربية مجتمعة في **15** مايو **1948** لم يكن يتجاوز **20** ألف جندي يتوزعون على: **5500** مصري، و**4500-6500** جندي في الفيلق العربي، و**2750** سورياً، و**2700** عراقي، بالإضافة إلى ألف متطوع من الإخوان المسلمين ، و**3000** متطوع من جيش التحرير العربي. كانت القوات العربية

[1] 1948, The First Arab-Israeli War, Benny Morris, Yale University Press, New Haven, London,2008. Pg 200

تفتقر إلى سائر مقومات الدخول في حرب: القيادة الموحدة والذخيرة والمعدات المناسبة، بل إن معظم ما كان لديها من معدات لم تكن تعمل.

- ✓ نظراً لأن **22**% من يهود فلسطين كانوا من فئة الشباب (**20-40** عاماً)، فقد استطاعت الدولة اليهودية الجديدة وضع ما لا يقل عن **13**% من سكانها تحت السلاح. ففي يوليو **1947** كان اليهود قد حشدوا **65** ألف جندي، وارتفع الرقم إلى **88** ألف في أكتوبر ليصل إلى **108**آلاف جندي في يناير **1948**. ومع الإعلان عن تحول الهاغاناه إلى جيش نظامي، أصبح الجيش الذي يحمل اسم: قوات الدفاع الإسرائيلية، يملك **120** ألف جندي نظامي. ومع أن حجم القوات العربية ارتفع قليلاً بانضمام كتائب صغيرة من اليمن والسعودية والمغرب، إلا أن ذلك لم يغير شيئاً في ميزان القوى، إذ كانت القوات الجديدة لا تختلف في شيء من حيث الافتقار للتنسيق والسلاح الحديث والتدريب، وفوق ذلك خطة للحرب.

إذا كان اليهود قد نجحوا في الالتفاف على الحظر البريطاني والدولي المفروض على تزويد الطرفين المتحاربين بالسلاح، فإن هذا الحظر تسبب بشلّ قدرة الجيوش العربية التي تعتمد في تسلحها على بريطانيا وفرنسا اللتان التزمتا تماماً بقرار الحظر. كانت النتيجة أن الجيوش العربية التي لا تملك مخزوناً من الذخيرة، وجدت نفسها عملياً بدون قذائف ورصاص أو قطع غيار، على عكس ما كان عليه الحال مع القوات اليهودية التي كانت لا تعتمد في هذا المجال على مصادر خارجية، بل كانت تنتج احتياجاتها من الذخيرة، بينما لم تتقطع بها السبل فيما يتعلق بالسلاح والمعدات الثقيلة التي استمرت في التدفق عليها من الشرق والغرب، ومن المصادر الحكومية والخاصة على حد سواء، بالرغم من إجراءات الحظر. كانت الدول العربية المستقلة حديثاً لا تملك المال ولا جهاز المشتريات الكفء للتعامل مع الحظر.

ربما كان الفيلق الجيش العربي القوة الوحيدة التي أثارت القلق لدى القيادة اليهودية التي اعتبرتها على قدر عال من الكفاءة والمهنية. ويصف الضابط الشاب في الفيلق معن أبو نوار، المعنويات العالية التي كان يتمتع بها منتسبو القوة الأردنية، بسبب الشعبية الكبيرة التي كانت تحظى بها في الشارع الأردني، خاصة وهي تزحف على فلسطين بالقول:" كانت المشاعر ملتهبة.. أتذكر أن والدي ووالدتي كانا بين الجموع التي احتشدت في وداعنا في عمان. فمع مروري في العربة العسكرية سمعت أمي وهي تصيح بأعلى صوتها: الله معكم يا ولدي.. لا تعودوا .. الشهادة يا ولدي. كان الفيلق بقيادة **50-70** ضابطاً معظم الكبار منهم بريطانيون، وعلى رأسهم القائد غلوب باشا ونائبه نورمان لاش، وكانت القوة مدرعة في معظمها وتدعمها وحدات خدمة فعالة. غير أنه كان من بينهم بعض الأردنيين ممن قاموا بواجبهم بشجاعة ومهنية عالية مثل : حابس المجالي، وعبد الله التل، وشاركت المدفعية في المواجهة بقوة وفعالية. وبالرغم من الظروف الصعبة فإن الهزائم الأولية التي أحاقت بالقوات اليهودية جاءت في معظمها على يد الفيلق العربي، وخاصة في القدس واللطرون وباب الواد وكفار عصيون. إلا أنه" سرعان ما أصبح الفيلق يعاني من نقص الذخيرة، وبخاصة قذائف المدفعية والمورتر بسبب الحظر البريطاني بوجه خاص. وفي **30** مايو وجدت الكتيبة الرابعة التي كانت تقاتل في اللطرون نفسها بدون ذخيرة بعد أن نفذت قذائف مدفعيتها".

وهنا يقول بيني موريس في كتابه: **1948**.. الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، "خلال الأشهر التالية، وبخاصة مع تصاعد حدة القتال في منتصف يوليو، أرسل غلوب باشا إلى لندن متوسلاً الإمدادات ليلقى طلبه الرفض، بحجة أن خرق الحظر من شأنه أن يدفع الأمريكيين لفعل الشيء نفسه، وتزويد إسرائيل بالسلاح والذخيرة بكميات أكبر"

1948-1967 .. المشروع الصهيوني أمام طريق مسدود

نجح اليهود في إقامة دولتهم المستقلة على أرض الفلسطينيين أطلقوا عليها الاسم التوراتي: إسرائيل. لم تكن هزيمة العرب في حرب **1948** وضياع فلسطين بالمفاجأة لأسباب تحدثنا عنها سابقاً. لم يكن لعملية بناء الدولة التي لم تتوقف على مدى ثلاثة عقود من الانتداب البريطاني من جهة، وسياسة القمع والملاحقة التي تعرض لها الفلسطينيون والعجز العربي من جهة أخرى ، ليفرز نتائج مختلفة.

غير أن الدولة الجديدة وجدت نفسها أمام تحديات كبيرة وعديدة: اجتماعية-عقائدية، وجغرافية، وسكانية، واقتصادية شكلت تهديداً لها منذ الأيام الأولى لتتعاظم مع الوقت لتصل مرحلة الخطر بحلول عام **1966**، وامتداداً لأوائل **1967**. شكلت الهجرة العامل الرئيسي وراء نمو الجالية اليهودية في فلسطين. لم يكن نمواً طبيعياً، وبالتالي فقد تسبب بالكثير من المشاكل الاجتماعية والسكانية والاقتصادية، لدرجة كادت معها أن تجهض المشروع الصهيوني من الأساس لولا حرب **1967**. ومن أبرز هذه المشاكل:

- ✓ تعرضت الثقافة الغربية التي سادت المجتمع اليهودي في الأيام الأولى للدولة بفعل غلبة الأشكناز لتهديد كبير.
- ✓ وجود عدد كبير من الفلسطينيين العرب في الدولة العبرية وما يمثله الجيل الأول من أبناء اللاجئين الفلسطينيين.
- ✓ الظروف الاقتصادية الصعبة التي خلقت أجواء محبطة وتسببت بهجرة عكسية.

الثورة الديموغرافية اليهودية: غلبة الميزراحي على الأشكناز

تعود بدايات شكوى اليهود الغربيين (الأشكناز) تجاه ما اعتبروه تهديدات مدمرة تتعرض لها الثقافة الإسرائيلية من تدفق المهاجرين اليهود القادمين من الدول العربية، وبخاصة من العراق ودول شمال إفريقيا، إلى مرحلة مبكرة من عمر الدولة وتحديداً لعام**1950**، أي بعد عامين فقط من حصول اليهود على دولتهم. وهنا يقول يوسف وييتز أحد كبار مسئولي المؤسسة "بالفعل كان هناك سبب قوي للقلق". سرعان ما تعالت الأصوات المحذرة من تنامي قوة اليهود الشرقيين، والإعراب عن رفضهم للثقافة الميزراحية التي بدأت تتغلغل في الثقافة الإسرائيلية:" لا نستطيع التحول إلى شعب ميزراحي كما يقول المؤلف حاييم حازاز، الذي أضاف موضحاً: إنني اعترض بشدة على هذا الأمر.. لقد عشنا حياة شتات على مدار ألفي عام قبل أن يصبح لنا كيان ثقافي أوروبي.. لا نستطيع إعادة العجلة إلى الوراء ونقبل بثقافة اليمن والمغرب والعراق. ومضى حازاز محذراً: نحن إنما نقترب من جرف الهاوية فيما يتعلق بالثقافة الشرقية".

وفي ظل ارتفاع معدلات الخصوبة في أوساط اليهود الشرقيين، أعرب العديد من الأشكناز عن خشيتهم من ظهور جيل يصبح فيه ثلاثة أرباع الإسرائيليين من اليهود المنكرين للثقافة الغربية. وفي ذلك يقول شابتاي تيفيث بأن مثل هذا الجيل سيكون أقرب إلى " ثقافة المحيطين بنا".

لم يقتصر القلق من تنامي خطر اليهود الشرقيين على الهوية الإسرائيلية على النخبة. فهذا ليفي إيشكول، أحد أبرز الزعماء الأوائل في إسرائيل يشعر بأن اليهود الشرقيين تحولوا إلى عبء على الدولة والمجتمع على حد سواء وعليه فقد طالب وقتها بالتركيز على تشجيع هجرة اليهود الغربيين. الجدير بالذكر أنه وبالرغم من عقلية إيشكول البراغماتية التي دفعته للقبول بالتقسيم، إلا أنه كان يريد من إسرائيل الامتداد على أكبر مساحة ممكنة. ولهذا نجده يكتب في عام **1927** قائلاً:" كانت الضفة الشرقية لنهر الأردن ولا تزال الحلم الدائم الذي يراود كل شاب وشابة في أرض إسرائيل منذ قديم الزمن". [1]

في منتصف الستينات، شهدت إسرائيل ثورة ديموغرافية .. فلأول مرة منذ إقامة الدولة يصبح عدد اليهود الغربيين أقل من اليهود الشرقيين، الميزراح. في عام **1950** كان الإشكناز يمثلون **80**% من السكان اليهود ليتغير الوضع بعدها بسنوات، حيث أصبح الميزراح هم الأغلبية في البلاد. ففي عام **1967** كان **60**% من تلامذة المدارس الجدد مولودين لأبوين من الميزراح . وفي العام التالي تراجعت نسبة التلامذة المنتسبين لعائلة أشكنازية إلى **30**%.

التمييز يطال اليهود الشرقيين أيضاً !

تحدث تقرير رفعه السفير الأمريكي لدى إسرائيل وولورث باربوور، إلى رؤسائه في واشنطن، عن تفرقة عنصرية تمارس ضد اليهود الشرقيين – الميزراح – لصالح اليهود الغربيين – الأشكيناز_. ومما أكده السفير فإن من السهل تمييز مظاهر هذه التفرقة في معظم مناحي الحياة: التعليم، الإسكان والتوظيف. الواقع أن هناك نوعاً من الفصل العنصري بين اليهود الغربيين والشرقيين، حيث تعيش الفئة الأخيرة في مناطق غيتو منعزلة. وتوصل السفير في تقريره لقناعة مؤداها أن الانتماء العرقي، أكثر من أي شيء آخر، هو الذي يحدد مستقبل الفرد في إسرائيل، وأضاف السفير بأن هذه القضية تشكل مصدر الخطر الأكبر على مستقبل دولة إسرائيل. وتشير الإحصائيات إلى أن العائلة الأشكنازية تكسب أكثر من العائلة المزراحية، وفي قطاعات العمل كافة وبمعدل **55**% على الأقل . صحيح أن الأشكناز مؤهلون أكثر من غيرهم إلا أن الفرق في المستوى الاجتماعي والاقتصادي بين الطائفتين يعود في الأساس للتفرقة العنصرية المعمول بها في إسرائيل. ومن المؤشرات الصارخة على هذا التمييز حقيقة أنه حتى **1967** لم يكن هناك جنرال في الجيش الإسرائيلي من اليهود الشرقيين، وكذلك الأمر بالنسبة لرئيس المحكمة العليا. وفي العام المذكور لم تتجاوز حصة الشرقيين في الكنيست**25** عضواً من أصل **120** يشكلون عدد أعضاء المجلس، أما حصتهم في الحكومة آنذاك فلم تتجاوز حقيبتين ثانويتين.

[1] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007. Pg 87

إذا كان هذا حال اليهود القادمين من البلدان العربية في إسرائيل، فإن التمييز العنصري الذي يعاني منه العرب الفلسطينيون ممن قرروا الصمود في أرضهم، اتخذ أشكالاً وأبعادا غير مسبوقة. فهذا بن غوريون يعلن عام[1] **1950** رفضه وجودهم في إسرائيل بالقول: " هؤلاء العرب لا يجب أن يعيشوا هنا، بالقدر نفسه الذي لا ينبغي فيه على اليهود الأمريكيين العيش في أمريكا." وعليه ومن خلال انتهاج أساليب الترهيب المختلفة والتخطيط الدقيق الذي قامت به لجنة التهجير اليهودية، أصبح أكثر من**80**% من عرب فلسطين لاجئين خارج حدود الدولة اليهودية. أما من صمد هناك فأصبح يحمل الجنسية الإسرائيلية، إلا أنه لا يزال مواطناً من الدرجة الثالثة في دولة ذات لغة وثقافة ودين غريب عنهم. بحلول عام **1967** كان العرب الفلسطينيون قد أصبحوا يشكلون **12**% من سكان إسرائيل أو **312** ألف نسمة **60**% منهم ولدوا بعد قيام إسرائيل.[2]

وفي ذلك يقول المؤرخ الإسرائيلي توم سيغيف: "باعتبارهم مواطنين إسرائيليين، فإنه يحق لهم التصويت والترشح لعضوية الكنيست، ومع ذلك فهم لا يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها اليهود، كما أنه ليس عليهم الواجبات نفسها، فالقليل منه من يخدم في الجيش. والدولة ترى فيهم مصدر خطر على الأمن القومي، كما أنهم يخضعون للأحكام العرفية منذ قيام إسرائيل." [3]

الواقع أن قانون الأحكام العرفية الذي طبقته إسرائيل على من تبقى من العرب فيها، هو القانون نفسه الذي حاول المحامون اليهود محاربته خلال سنوات الانتداب وقارنوه وقتها بالسياسة النازية. وتجلت قوانين الأحكام العرفية هذه بفرض قيود مشددة على حركة المواطن العربي من خلال فرض التصاريح التي لا يستطيع بدونها الانتقال من مكان لآخر مهما كانت الأسباب: سواء أكان ذلك للعلاج أو للعمل أو زيارة أو حتى المشاركة في جنازة الأقارب. وفي هذا الشأن يقول توم سيغيف:

" كان الحصول على تصريح بالحركة يتطلب الوقوف مطولاً في الصفوف. كانت نوعاً مختلفاً من التصاريح تصدر في استمارات يتم تغييرها من وقت لآخر، ولا يتم الحصول عليها في العادة إلا بعد عملية استجواب مطول. كما أن المزاج الشخصي للمحافظ أو الحاكم العسكري يلعب في الغالب دوراً أساسيا في عملية إصدار التصريح، كما أن الرشاوى تلعب دوراً في بعض الحالات، فلم يكن سائر المحافظين في منعة من قبولها. ومن الطبيعي أن تكون تصاريح الحركة شكلاً من أشكال القمع وأداة من أدوات الهيمنة والتحكم: فقد جرت العادة على استخدام التصاريح في إجبار الناس على التجسس على بعضهم، بل وحتى الإدلاء بشهادات مزورة ضد البعض عند الضرورة. كانت النتيجة إنزال العقاب بالآلاف من العرب الإسرائيليين، من خلال حرمانهم من التصاريح وبالتالي من الحركة والتنقل سعياً وراء لقمة العيش أو للدراسة أو للعلاج أو للتواصل مع الآخرين، ناهيك عن أوامر الإبعاد التي كانت تجبر عرب إسرائيل على مغادرة أماكن سكناهم تحت حجج مختلفة وبخاصة الأسباب الأمنية .. غير أن الأحكام العرفية لم تفرض لاعتبارات أمنية فحسب، بل

[1] Zeev Sternhell, Nation Building or Society mending (in Hebrew) (Tel Aviv; Am Oved, 1986); Eyal Kafkafi, Lavon: Anti-Messiah (in Hebrew) (Tel Aviv: Am Oved, 1998), P. 102

[2] Establishment's Attitude Toward Arabs in Israel: Policy, Principles and Actions: The Second Decade, 1958 – 1968" (in Hebrew) (diss., Haifa University, 2002), p. 15ff

[3] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 67

إن مصادرة الأراضي من العرب والسيطرة على أنشطتهم السياسية من الأهداف الحاضرة على الدوام. فخلال السنوات التالية لقيام إسرائيل، قامت الدولة بمصادرة أكثر من نصف أراضي العرب وحولتها لسلطة الصندوق القومي اليهودي. ومن موقعه كرئيس للصندوق، كان يوسف وويتز يملك صلاحيات واسعة في تخصيص الأراضي الجيدة لفئات معينة من المجتمع اليهودي. يضاف لذلك أن الصندوق القومي يشارك في الحملة الوطنية الخاصة بتدمير بقايا القرى العربية التي تم تفريغها من سكانها خلال حرب الاستقلال" [1]

ومضى توم سيغيف يقول:" حتى بعد سنوات من قيام الدولة لم تكن **74**% من القرى العربية في إسرائيل قد تم ربطها بالشبكة الكهربائية، و**75**% لم يكن يحظى سكانها بمياه صالحة للشرب، بل إن**20**% من هذه القرى لم تكن مربوطة بالطرق الرئيسية، ولم تكن هناك قرية عربية واحدة تعرف الشوارع المعبدة، أو شبكة للصرف الصحي. كان معظم العرب محرومين من برامج الإسكان ومن خدمات التأمين الصحي. وفي مجال التعليم، نجد بأن**3**% فقط من ميزانية التعليم تذهب لقطاع التعليم العربي في وقت كانت فيه نسبة الطلاب العرب في المدارس الإعدادية تصل إلى **16**% على مستوى البلاد. التفرقة نفسها نجدها في قطاع العمل والأجور، حيث يصل أجر عامل البناء اليهودي ضعف ما يتقاضاه العامل العربي. وخلال فترة الركود التي أصابت الاقتصاد الإسرائيلي في ربيع **1966**، تجاوزت نسبة البطالة في صفوف العمال العرب ضعف تلك المسجلة في صفوف نظرائهم اليهود. حتى ذلك الحين كان معظم الإسرائيليين يميلون إلى تجاهل مأساة العرب، إلا أن الأمر أصبح أوضح وأكبر مما يمكن تجنبه، ليستفيق الإسرائيليون مع الوقت على الحقيقة المرّة وهي أن قصة النجاح الإسرائيلي ليست سوى أسطورة". [2]

مصاعب اقتصادية!!

يرى الخبراء الاقتصاديون بأن السبب الرئيسي وراء دخول الاقتصاد الإسرائيلي مرحلة من الركود عام**1965** كان التباطؤ الكبير في نسبة الزيادة السكانية بين الإسرائيليين من **4**% عام **1964** إلى صفر بالمئة عام **1966**، وذلك نتيجة للتراجع الكبير في معدلات الهجرة. لم تكن الرسائل التي يبعث بها الإسرائيليون إلى أقاربهم في الخارج تبعث على التشجيع للالتحاق بهم في إسرائيل. وبالطبع فقد تركت معدلات النمو السكاني الضعيفة أثرها الكبير على النشاط في قطاع الإسكان، الذي يؤثر بدوره على الوضع في القطاعات الاقتصادية الأخرى كافة. كانت النتيجة حالات إفلاس كثيرة طالت العديد من الشركات، وهبوطاً في النشاط الاستثماري بمعدلات بلغت **20**% في القطاع الصناعي، و**30**% في الإنشاءات. بل إن الاستثمارات الأجنبية تراجعت عام **1964** بنسبة **40**% ووصل التراجع إلى **55**% في **1966**. وأمام الجمود الذي آلت إليه حركة المشاريع الجديدة، وجد العديدون في إسرائيل أنفسهم بدون عمل.

---

[1] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 68
[2] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 69

وصل الوضع الاقتصادي في إسرائيل حداً دفع برئيس الوزراء ليفي أشكول في فبراير **1966** إلى التحذير من أن الإسرائيليين يعيشون خارج حدود إمكانياتهم، في وقت لا تلعب فيه العوامل المحلية دوراً في تحريك العجلة الاقتصادية، التي كانت تعتمد بشكل رئيسي على الاستثمارات الخارجية القادمة من الولايات المتحدة وألمانيا ويهود العالم. ومما قاله إيشكول وقتها بأن الناس في إسرائيل يعيشون في فردوس الواهمين. جاءت كلمات إيشكول التي أراد منها تحفيز همم الإسرائيليين بنتائج معاكسة، إذ عملت على مضاعفة مشاعر الإحباط المسيطرة عليهم. وجاء في تقرير للسفير الأمريكي القول بأن الأمور خرجت عن نطاق سيطرة الحكومة، فيما يتعلق بمحاولة تسريع وتيرة الاقتصاد، وكانت النتيجة ارتفاعاً مخيفاً في معدلات البطالة التي سجلت نسبة **12**% لتترك أكثر من **100** ألف بدون عمل كان معظمهم من اليهود الشرقيين الأشد تأثراً بحالة الركود.

المثير في الأمر أن الدولة أقدمت في نوفمبر **1966** على قرارها الخاص بتمديد فترة الخدمة العسكرية للرجال لتصل إلى عامين ونصف، بينما أبقت عليها بحدودها السابقة للنساء وهي **20** شهراً. كان ذلك قبل حرب يونيو**1967** بسبعة أشهر فقط! وفي فبراير أعلنت الحكومة الإسرائيلية عن توفير وظيفة لكل من يرغب في العمل، إلا أنها لم توضح أماكن توفر هذا العدد المفتوح من فرص العمل.

لم تكن مشاعر الإحباط لدرجة اليأس مقتصرة على الشارع الإسرائيلي، بل دقت أبواب رموز البلاد السياسيين، أمثال بن غوريون الذي دوّن مشاعره في مذكراته بالقول بأن الإسرائيليين: فقدوا الثقة بالمستقبل كما لو أن "الوضع أصبح ميئوسا منه". جاء يوم العمال ليمنح الناس فرصة للتعبير عما يجيش في أنفسهم من مشاعر يأس وإحباط، فخرج العاطلون عن العمل إلى شوارع أسدود ودخلوا في مواجهة مع رجال الشرطة سقط خلالها العشرات من المصابين من الطرفين. يومها بدت الأمور في أسدود كما لو أن المدينة على وشك أن تعيش انتفاضة حقيقية، وتكرر المشهد ذاته في العديد من المدن الإسرائيلية الأخرى.

كان من الطبيعي أن تجد إسرائيل، وكما هو الحال عادة مع البلدان الرأسمالية في أوقات الأزمات الاقتصادية الخانقة، في الحرب المخرج المفضل من أزمتها. وجاءت حرب الأيام الستة بتاريخ**5** يونيو **1967** لا لتنقذ الاقتصاد الإسرائيلي فحسب، بل لتشكل الحدث الذي قلب حياة الإسرائيليين رأسا على عقب. لم يكن من قبيل المصادفة أن يهبط جاسوس عراقي وهو طيار حربي بطائرته الميغ في إسرائيل قبل أشهر قليلة فقط من اندلاع الحرب، فقد كان الجزء الأعظم من سلاح الجو في كل من مصر والعراق وسوريا يتألف من طائرات الميغ السوفيتية الصنع. وكان الحصول على طائرة من هذا النوع بمثابة الفرصة الذهبية لتحليل قدرات ونقاط ضعف الطائرة التي تشكل العمود الفقري في أسلحة جو الدول العربية الأشد عداءً لإسرائيل.

إسرائيل خططت لحرب 1967 وخلقت مسوغاتها

هناك الكثير من الأدلة على أن حزب العمل لا يختلف في سياساته وطروحاته التوسعية عن المجددين من معسكر اليمين المتطرف، سوى في الأسلوب بعيداً عن الجوهر، الذي هو واحد في كلتا الحالتين. فحزب العمل لم يكن ليفوت أي فرصة للاستيلاء على

المزيد من الأراضي كلما سنحت الفرصة، وإن كان قادة العمل يؤمنون في التخطيط الخفي والتقليل ما أمكن من الشعارات الطنانة.

ففي يونيو **1963** وبعد توليه رئاسة الحكومة مباشرة، سارع ليفي إشكول لطرح قضية توسيع حدود إسرائيل على بساط البحث مع رئيس أركان الجيش زفي توور ونائبه إسحق رابين. وقتها قال الجنرال توور لرئيس الحكومة بأن الحدود المثالية لإسرائيل ستكون نهر الأردن شرقاً ونهر الليطاني شمالاً وقناة السويس كحد فاصل مع مصر. ومن جانبه علق رابين بأن هذه الحدود ستكون مثالية إذا سنحت الفرصة لفرضها. بعدها بأسابيع قليلة عرضت القيادة العسكرية على رئيس الوزراء خطة حملت اسم: السوط، لاحتلال الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية. وفي خطة ثانية حملت اسم: "بناي أور"، تحدث القادة العسكريون بالتفصيل عن إعادة رسم الحدود الجديدة مع كل من مصر وسوريا، وكيفية البقاء فيها إلى أن توافق البلدان على توقيع اتفاقيات سلام نهائية مع إسرائيل، تتضمن إجراء تعديلات على الحدود الحالية وصولاً لخلق حدود آمنة جديدة. كما طلب إيشكول من الجيش إعداد خطة خاصة باحتلال جبل المكبر وربطه بالقدس الغربية، باعتبار أن السيطرة على جبل المكبر يعتبر مفتاح السيطرة على كامل الضفة الغربية.

يقول المؤرخ الإسرائيلي توم سيغيف بهذا الشأن:

" لم يكن توسيع حدود إسرائيل مجرد حلم أخذ شكل الحديث العام لرجال السياسة، بل إن عدداً من الجنرالات ممن يؤمنون بهذه الفكرة عمدوا إلى طرحها للنقاش الفعلي والجاد، لدرجة أن الحديث دار حول ما الذي سينبغي على إسرائيل فعله بالضفة الغربية بعد احتلالها.. كانت الخيارات المتاحة إما ضمها لإسرائيل أو إقامة دولة فلسطينية تحت السيطرة تخدم كمنطقة فاصلة... كان النقاش يدور بسرية وتكتم ولذلك لم يجد صدى في الشارع الإسرائيلي". ومضي سيغيف للقول:" غير أن فكرة إسرائيل الكبرى لم تكن غائبة عن أعين وأذهان تلامذة المدارس ممن هضموها، من النظر إلى اللافتات والكتيبات التي كانت توزعها الكتائب التربوية التابعة للجيش الإسرائيلي في المدارس عام **1959** . كان بعض الكتيبات يتحدث عن دولة إسرائيل الممتدة من النيل إلى الفرات، بينما يظهر البعض الآخر خارطة إسرائيل التي تضم غزة وسيناء والضفة الغربية." [1]

يشعر أحد الجنرالات، الأمر الذي يشاركه فيه العديد من الجنود، بأن بن غوريون هو من حال دون استيلاء اليهود على القدس الشرقية والضفة الغربية وغزة في حرب **1948**. وفي ذلك يقول الجنرال المذكور:" لن أسامح الحكومة الإسرائيلية في ظل بن غوريون لعدم سماحها لنا بإكمال المهمة عام **48-1949** على المستويين العسكري والسياسي"، ويدّعي الجنرال آلون بأنه طلب من رئيس الحكومة قبل توقيعه على اتفاق حدود الخط الأخضر، بمنح إسرائيل العمق الاستراتيجي حتى نهر الأردن. كان الجنرال يشعر بأنه يجب الاستيلاء على غزة أيضاً، وكان كل ما يحتاجه هو بضعة أيام أخرى لتحقيق هذه الأهداف. الواقع أن العديد من زملاء آلون كانوا يشاطرونه شعوره العامر بالإحباط تجاه بن غوريون، الذي ينظرون إليه باعباره المسئول عن حصر اليهود في " دولة مفتتة غير مكتملة يصعب بقاؤها على قيد الحياة".

---

[1] Analysis of possible developments in the Jordanian situation, 9 May 1936m ISA, HZ 10/4094l Shlomo Gazit The carrot and the Stick: Israeli Governance in Judah and Samaria (in Hebrew) (Tel Aviv : Zmora – Bitan, 1985) p. 23

منذ العشرينات وحزب حيروت الذي يتزعمه مينا حيم بيغن ملتزم تماماً بطروحات زييف جابوتنسكي الخاصة بإسرائيل الكبرى، لدرجة أن الحزب اعتمد كلمات معبرة لهذه الرؤية كنشيد خاص بالحزب تنص على:" لنهر الأردن ضفتان.. إحداهما لنا والثانية كذلك لنا". وفي اليوم التالي لإعلان بن غوريون عن استقلال الدولة اليهودية عام **1948** نقل عن بيغن القول:" الآن أقيمت دولة إسرائيل، لكن دعونا لا ننسى بأن الوطن لم يتحرر بعد.. لا يزال أمام جنود إسرائيل مهمة رفع علمنا فوق برج داوود وسيعمل محراثنا على شق حقول جلعاد". وكثيراً ما طالب بيغين بـ "تحرير" المناطق الواقعة خلف الخط الأخضر، وكان على قناعة تامة بأن الخليل وبيت لحم وشكيم " نابلس" بل وحتى عمان هي جزء لا يتجزأ من الوطن اليهودي"

قبل عشرين يوماً من اندلاع حرب يونيو **1967** وقف الحاخام زفي يهودا كووك أمام طلبته في المدرسة الدينية: مركاز هارف يشيفا في القدس، واصفاً لهم مدى شعوره بالألم لدى إصدار الأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين قائلاً:" أين مدينتنا الخليل.. هل نسيناها؟ أين شكيم؟ هل نسيناها أيضاً؟ وأين أريحا.. هل نسيناها؟ وأين الضفة الشرقية أو الأردن؟"

وهذا إيغال يادين ، رئيس الأركان السابق الذي شارك في حرب **1948**، والذي نادراً ما يتحدث للصحافة، يُظهر، في مقابلة مع صحيفة معاريف أجرتها معه قبل الحرب حرب الأيام الستة بثلاثة أسابيع، مدى ما يعتصره من ألم وخيبة أمل لبقاء القدس خارج السيطرة الإسرائيلية طوال هذا الوقت، ولتفويت فرصة الاستيلاء عليها في حرب **1948**.

الاستعداد للحرب

في نوفمبر**1966**، أي قبل سبعة أشهر فقط من اندلاع الحرب، شكلت الحكومة الإسرائيلية مجموعتي عمل للمراجعة السياسية والإستراتيجية. أوكلت للجنة الأولى مهمة دراسة العلاقة مع الأردن، بينما تولت الثانية مهمة تقييم الوضع على الجبهة الجنوبية مع مصر، وشارك في اللجنتين ممثلون عن : الموساد واستخبارات الجيش، ووزارة الخارجية. استكملت اللجنتان عملهما في يناير**1967** ورفعتا التقارير إلى الحكومة حيث حظيت بموافقة إيشكول ورابين.

تحديد مستقبل الضفة قبل احتلالها

يلخص شلومو غازيت من استخبارات الجيش (محلل للشؤون العسكرية في الصحافة الإسرائيلية لاحقا) موقف الجيش الإسرائيلي تجاه الضفة الغربية بالقول:

" كان البعض يرى بأن نظام حسين يشكل مصدر ضرر لإسرائيل لأنها لن تستطيع غزو الضفة الغربية ما دام على رأس الحكم، وكانوا يعتقدون بأن أوضاع الضفة غير المستقرة آنذاك تمثل "كارثة لإسرائيل". غير أنه هناك من خالف هذا الرأي بالتأكيد على أن وجود حسين شيء "جيد بالنسبة لإسرائيل". وهنا اتخذ غازيت موقفاً وسطاً بالقول" يقبل الجيش بالوضع الحالي بأنتظار الفرصة لتغيير الأمر الواقع وخلق وضع مريح وموات لإسرائيل". وأضاف غازيت بأن الخط الأخضر في الظروف الحالية من الوجود المشترك المعادي يمثل تهديداً لقلب إسرائيل. غير أن احتلال الضفة يتطلب التفكير فيما ستفعله إسرائيل بها أو بالأحرى ما إذا كان باستطاعتها ضمها إليها بدون أن تتحول مع الوقت إلى

سرطان يهدد وجودها من الداخل. خاصة وأن إسرائيل في هذه الحالة لن تضم منطقة فارغة من السكان. ولتحييد المخاطر التي تمثلها الضفة الغربية فإن على إسرائيل ، وكما يقول غازيت، العمل على إقامة دولة فلسطينية مستقلة ولكن تعتمد على الجيش الإسرائيلي فيما يتعلق بالدفاع والأمن الداخلي، يضاف لذلك الإشراف على السياسة الخارجية للدولة الفتية. وهنا ردّ عليه شقيقه موردخاي غازيت، ممثل وزارة الخارجية في اللجنة بلهجة غير المتحمس للفكرة بالقول بأن الضفة الغربية ستكون بذلك تحت " نظام العوبة".[1]

كان رأي ممثلي الجيش بأن الحدود ستفقد الكثير من أهميتها بدخول المنطقة العصر النووي، إلا أن الأعضاء الآخرين في المجموعة اعترضوا على هذا الرأي، باعتبار أن امتلاك القدرة النووية لا يعني امتلاك الردع أمام الإعمال الإرهابية. وفي وقت لاحق قال موردخاي غازيت وعضو آخر من مجموعة الدراسة، في محاضرة في كلية الدفاع الوطني، بأن احتلال الضفة الغربية أصبح احتمالاً قائماً. وأضاف غازيت بأن أي تردد أو عدم رغبة في احتلال الضفة لدى البعض إنما مرده للمشكلة الديمغرافية التي ستواجهها إسرائيل نتيجة لهذه الخطوة. وتساءل غازيت قائلاً:

" ماذا سنفعل إن لم يبادر سكان الضفة، أعداءنا المؤكدون للفرار عبر الحدود؟"

ومن جانبها عرضت كلية الدفاع الوطني دراستها الخاصة بهذا الشأن انتهى معدوها إلى نتيجة مؤداها بأن الاحتلال سيكون مُجدياً لإسرائيل من الناحية الاقتصادية، إلا أن اليهود سيكونون في هذه المعادلة أرباب عمل، بينما سيكون العرب مجرد أيد عاملة. وفي دراسة ديمغرافية أخرى لمدير الكلية، حذر إيلعاد بيليد من أن السكان العرب في إسرائيل في تعاظم وبأنهم سيلحقون باليهود- وربما يتجاوزوهم من حيث العدد في موعد لا يتعدى **2035** بل وقبل هذا التاريخ في بعض المناطق التي يتركز فيها العرب. وفي حالة عدم تجريد العرب من حقوقهم المدنية فإن العرب سيكونون أصحاب ثاني وربما أكبر حزب سياسي في البلاد، مما سيقود إلى تجريد الدولة من هويتها اليهودية: " ومما قاله بيليد بأن العرب قد يشكلون حركات معارضة، وقد تضفي الإجراءات التي ستتخذها إسرائيل ضدهم عليها صفة: الدولة البوليسية. وفي حالة عدم إخضاع العرب لنظام الخدمة العسكرية فإن ابناءهم الشبأن قد يتحولون إلى نواة لمقاتلي حركة تحرر وطني، وربما تتحول مناطق تركز السكان العرب إلى ملاذ وقواعد للإرهابيين. كما سيكون مطلوباً من إسرائيل توفير سبل التعليم للعرب، وستبرز، في وقت قد لا يطول، طبقة متعلمة عربية تنافس اليهود على الوظائف المريحة. وبأن نظام الفصل بين العرب واليهود لا يمكن استمرار العمل به لفترة طويلة.. وسيبدأ العرب الانتقال للمدن الكبرى على طول الساحل، حيث ستنمو جيوب الفقر المزدحمة بالعرب حيث البيئة المثالية لتنامي المشاكل الاجتماعية التي يتطلب حلها مخصصات هائلة.. ويبدأ العرب في ترك بصمتهم على ثقافة الإسرائيليين من أصول عربية وتحديداً المزراح. وحذر بيليد من التزاوج المحتمل بين اليهود والعرب في المستقبل".[2]

قبل اندلاع حرب يونيو **67** بوقت قصير وبعد انتخابه رئساً لبلدية القدس، ألغى تيدي كوليك خططاً أعدها سلفه لنقل مكاتب البلدية من مواقعها القريبة من الخط الفاصل بين القدس الشرقية والغربية، وقال على إثرها بأن القدس ستتوحد قريباً لتصبح المكاتب في قلب

[1] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 184

[2] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 186. Peled to the Chief of Staff, 12 Dec. 1966, with the kind permission of Elad Peled

المدينة!! وفي ديسمبر **1966** تحدث كوليك لصحيفة يصدرها طلبة الجامعة العبرية بأن خطته الرئيسية للمدينة في حالة انتخابه رئيساً للبلدية تأخذ بعين الاعتبار وجود قدس موحدة وربط سلس مع المدينة القديمة.

إسرائيل..واستفزازات الحرب

بدأت إسرائيل حملتها الخاصة باستفزاز الدول العربية ودفعها للحرب، وأمام عينيها تحقيق جملة من الأهداف أبرزها: الخروج من حالة الركود الاقتصادي والإحباط النفسي التي بدأت تدفع بالإسرائيليين للهجرة المعاكسة، وإشباع رغبة الجنرالات في احتلال ما لم يستطيعوا أو لم يسمح لهم باحتلاله في حرب **1948**، وكذلك توجيه ضربة استباقية لأعداء إسرائيل وبخاصة عبد الناصر. كان المطلوب استفزاز سوريا أولاً لجر ناصر للحرب التي لم يكن يرغب دخولها في الواقع. كانت هناك منطقة منزوعة السلاح بين سوريا وإسرائيل، شكلت بالنسبة للقادة للإسرائيليين نقطة بداية جيدة.

عن هذه النقطة يقول المؤرخ الإسرائيلي توم سيغيف:" لم يكن السوريون مسؤولين عن الحوادث كافة في المنطقة العازلة بالضرورة، بل إن موشيه دايان اعترف لاحقاً بأن **80**% من المواجهات كانت نتيجة لمحاولات الإسرائيليين زراعة الأراضي هناك في خطوة غير ضرورية.. كانت الحوادث في كل مرة تأخذ السيناريو التالي: نرسل بأحد الجرارات لحراثة الأرض وفي موقع لا يحق لنا التحرك فيه، أي: المنطقة العازلة المنزوعة السلاح مع السوريين، ونحن نتوقع تماماً بأن السوريين سيبادرون لإطلاق النيران.. نطلب من سائق الجرار التقدم بعيداً لاستفزاز السوريين ما أمكن، إلى أن يفقد السوريون أعصابهم ويبدأوا أخيراً بإطلاق النار، وعندها نرد عليهم بالمثل قبل أن نرسل سلاح الجو لاحقاً. غير أن دايان أوضح بأن التوتر الذي اعتادت إسرائيل التسبب به على الحدود السورية لم يكن ليعكس أي إستراتيجية من الجانب الإسرائيلي، بل حقيقة أن إسرائيل لم تكن تأخذ اتفاقية وقف إطلاق النار مع دمشق على محمل الجد. ومما قاله دايان بهذا الشأن:" كنا نعتقد وقتها- واستمر هذا الاعتقاد لفترة- بأننا نستطيع تحريك خطوط وقف إطلاق النار إلى الأمام من خلال عمل عسكري واسع ولكن لا يرقى لمستوى الحرب.. مما يعني الاستيلاء على بعض الأرض والبقاء فيها إلى أن ييأس العدو ويسمح لنا بالاحتفاظ بها". قد يقول البعض بأن مثل هذا التصرف يعكس نوعاً من "السذاجة من الجانب الإسرائيلي" كما يعترف دايان، إلا أنه ينبغي على من يرى ذلك أن يتذكر بأن إسرائيل دولة فتية. وعلى أي حال، كما يقول دايان، فقد كنا "نرى في خطوط وقف إطلاق النار مجرد ترتيبات مؤقتة". وادعى دايان بأن السوريين بدورهم لم يتعاملوا مع الاتفاقية بجدية".[1]

على الحدود الأردنية في الضفة الغربية، صدقت توقعات الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، حيث عمد بعض الشبأن الفلسطينيين من أبناء لاجئي **1948**، إلى تنظيم أنفسهم على شكل وحدات كوماندو اعتادت عبور الحدود وزرع بعض المتفجرات. كان هذا آخر ما يرغب الإسرائيليون في رؤيته أو السماع به. ومع ذلك فإن مثل هذا التطور لم يكن بالأمر المفاجئ بالنسبة للمسئولين في إسرائيل. وطبقاً لبحث صدر في الخمسينات شارك في

[1] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 193

إعداده فريق يضم جنرالاً في الجيش، ورئيس جهاز الاستخبارات العسكرية، وأستاذاً في شؤون الشرق الأوسط، فإن إسرائيل مطالبة بالاستعداد لمواجهة جيل جديد من الفلسطينيين.. جيل نشأ وترعرع في مخيمات اللاجئين ممن يعدون أنفسهم لجولة ثانية من المواجهة المتواصلة. ففي المخيمات اعتاد اللاجئون الاحتفاظ بمفاتيح منازلهم وتوريثها لأبنائهم ومنهما للأحفاد.. ويعتقد هؤلاء بأنه إذا كان اليهود احتلوا فلسطين تحت شعار العودة إلى أرض الأجداد بعد مرور ألفي عام، فإن حقهم لن يضيع وبأن بإمكانهم الانتظار لأن النصر حليفهم في نهاية المطاف. وتوصل معدو الدراسة الأمنية هذه والتي رفعت لمكتب رئيس الوزراء إلى نتيجة مؤداها أن على إسرائيل الاستعداد لمواجهة الإرهاب ما دام هناك لاجئون فلسطينيون. وفي دراسة أعدها أبا أيبأن، توصل وزير الخارجية الإسرائيلي إلى قناعة تقول بأن حرب العصابات هي سلاح الضعيف، وبأنه لا يجدي شئ ولا حتى الردع النووي مع السلاح الخفيف.

أقدمت إسرائيل على خطوات أخرى لزيادة حدة التوتر على الحدود مع سوريا، بما في ذلك الحرب الإعلامية التي شارك فيها كبار الشخصيات السياسية والعسكرية ممن لجأوا لإطلاق التصريحات النارية. وشارك رئيس الأركان إسحق رابين بهذه الجهود، عندما قال في مقابلة مع صحيفة الجيش "باماهاني": إن الرد على الأعمال السورية سواء الإرهابية أو تحويل مجرى المياه أو الاعتداءات عبر الحدود، يجب أن يستهدف منفذي الهجمات، وكذلك النظام الذي يقف خلفهم..إن المشكلة مع سوريا في الأساس تكمن في صدام مع النظام"

بدأت إسرائيل بإطلاق النار على المزارعين والرعاة، الأمر الذي أدى إلى تفاقم حدة التوتر وخاصة بعد أن رد السوريون بإطلاق النيران. وهذا رابين يعترف في كتاب نشرته وزارة الدفاع لاحقاً بأن التوتر مع السوريين لم يكن ليتصاعد لولا إطلاق القوات الإسرائيلية النار على المزارعين والرعاة السوريين.

خطط الحرب ضد سوريا

أوكلت مهمة مناقشة الوضع مع سوريا للجنة نفسها التي أعدت التوصيات الخاصة بالأردن. وقتها ادّعى ممثلو الجيش الإسرائيلي بأن إسرائيل ستقف عاجزة عن القضاء على ظاهرة تسلل عناصر فتح عبر الحدود ما لم يتم شن حرب على سوريا. واستعداداً لهذه الخطوة اقترح رابين زيادة عدد الجواسيس المتحدثين بالعربية، وتلغيم الحدود بصورة مكثفة أو، في حالة شن السوريين لحملة مضايقات ضد إسرائيل،" إشعال الوضع على الحدود، واستغلال ذلك كمسوغ للتحرك ضد سوريا، ووصف الحوادث المتزايدة على الحدود بأنها بمثابة منجم ذهب بالنسبة لإسرائيل".

وكان المخططون العسكريون الإسرائيليون قد أعدوا عدداً من الخطط لمهاجمة سوريا هي:

- ✓ العملية **AX** وتنص على الزحف على دمشق واحتلالها.
- ✓ العملية **Tongs** وتدور حول احتلال مرتفعات الجولان وصولاً إلى شرق القنيطرة.

- ✓ العملية **Concoction** وهي خطة تكتفي بالاستيلاء على منطقة بأنياس. [1]

شرع الإسرائيليون في تنفيذ خطة تصعيد الوضع على الجبهة السورية. وطبقاً للخطة أرسل الجيش الإسرائيلي يوم الجمعة الموافق **7** أبريل **1967** بجرارين إلى الأرض المحايدة..وما إن فتح السوريون النار حتى رد الإسرائيليون بنيران مماثلة، وسرعان ما تطور الأمر إلى لجوء الطرفين لاستخدام الدبابات. طلب رابين من إيشكول الموافقة على استخدام سلاح الجو، دارت على إثرها معركة جوية خسر فيها السوريون طائرتي ميغ. وعلى حد قول جنرال إسرائيلي فإن البداية الحقيقية لحرب الأيام الستة كانت في ذلك اليوم. وفي ذلك يقول المؤرخ توم سيغيف:

"علم أرييل جيناي، المعلق العسكري لصحيفة أحرنوت، ، المعروف بمصادره العليمة، وبأنه يعكس مواقف الحكومة والموساد والقيادة العسكرية، من تصريحات رئيس الحكومة إيشكول ورئيس الأركان إسحق رابين، بأن إسرائيل كانت بذلك تستعد لعملية عسكرية واسعة النطاق."

علمت إسرائيل بأن إدارة ليندون جونسون لا تمانع من توجيه إسرائيل ضربة لسوريا. وجاءت حملة التصريحات التي توالت على لسان المسئولين الإسرائيليين ضد سوريا ضمن هذا السياق، وبهدف خلق الأجواء المواتية لتوجيه الضربة المخطط لها. ولأن هيبة عبد الناصر لم تكن لتسمح له بترك سوريا وحيدة، فإن ذلك سيكون كافياً لجر رجل مصر لفخ الحرب.

شعرت إسرائيل بأن علاقاتها مع إدارة جونسون كانت مثالية، وبأن الوقت موات تماماً للتحرك دون توقع ردة فعل سلبية من واشنطن. وفي ذلك تحدث وزير الخارجية الإسرائيلي أبا إيبأن عن الرسالة التي عاد بها من زيارة لواشنطن في نوفمبر **1966**، وشكلت موافقة ضمنية أميركية على العمل العسكري القادم ضد سوريا. يقول أبا إيبأن بأنه خلال اجتماع مع وزير الخارجية دين راسك لم يصدر عن الوزير الأمريكي أي تعليق سلبي لدى التطرق لموضوع السياسة الإسرائيلية تجاه سوريا. في تلك الفترة كانت الإسرائيلية الفاتنة ماتيلدا كريم، عميلة الموساد السابقة وزوجة ملياردير هوليوود آرثر كريم حالياً، من المترددين المنتظمين على البيت الأبيض، حيث قضت ليالي عديدة في الطابق الثالث. كانت ماتيلدا على علاقة شخصية حميمة بالرئيس جونسون، وشوهدت عدة مرات بلباس السباحة في قاربه، وقضت بعض الوقت في مزرعته في تكساس منفردين أحيانا، بدون زوجها وبدون زوجته.

بعد أشهر من دراسة الوضع في مصر وسياسة وشخصية عبد الناصر، توصل خبراء كلية الدفاع الوطني إلى أن :" النظام الحالي في مصر يرى في القضاء على إسرائيل أحد الأهداف الرئيسية للسياسة المصرية". ومع ذلك فإن الاستخبارات العسكرية كانت على قناعة بأن مصر لم تكن في وضع يمكنها من شن هجوم على إسرائيل قبل عام **1970** على الأقل. وعندما تحركت قوافل القوات المصرية عبر

[1] Natityahu Mayzel, The Battle over the Golan; June 1967 (in Hebrew) (Ma'arachot, 2001), P. 93ff

شوارع القاهرة في طريقها إلى سيناء، علق رئيس الحكومة الإسرائيلية ليفي إيشكول قائلاً بأن ذلك مجرد استعراض للقوة لردع إسرائيل عن مهاجمة سوريا. وعندما طلب ناصر من الأمين العام للأمم المتحدة والمدرس السابق من بورما، يو ثانت، بتحريك القوات الدولية إلى غزة، لم يكن الرئيس المصري، كما قال أبا إيبأن، يطالب بسحب القوات الدولية. بل كان يو ثانت هو الذي أصر على بقاء القوات الدولية في مواقعها كما هي بدون تغيير، أو سحبها بالكامل ليضع عبد الناصر بذلك أمام خيارين أحلاهما مرّ. الواقع أن التخلص من القوات الدولية كان هدفاً إسرائيلياً -غير معلن- منذ بعض الوقت. وعندما اشتكى دايان من الهدف الإسرائيلي الخفي هذا، أجابه ليفي إيشكول بلهجة توبيخية غاضبة:" ما الذي تشتكي منه؟ ألم يكن أنت من طالب منذ زمن بأن نفعل شيئاً ما للتخلص من قوات الأمم المتحدة؟".

كانت الحكومة الإسرائيلية على يقين من أن عبد الناصر لم يكن راغباً في الحرب، الأمر الذي أكده العديد من الجنرالات، مثل أهارون ياريف والجنرال دايان اللذان أعربا عن الاعتقاد بأن عبد الناصر لم يكن يعتزم مهاجمة إسرائيل، إلا أنه كان مهتماً بردع إسرائيل عن الهجوم على سوريا.

أوجدت إسرائيل الظروف كافة وأقدمت على أقصى ما يمكن من استفزازات للوصول بالمنطقة إلى حرب الأيام الستة، حرب يونيو **1967**. فقد أعدت الخطط العسكرية اللازمة، وتم تمديد الخدمة العسكرية لشهرين إضافيين قبل الحرب. كما أن إسرائيل كانت في أمس الحاجة للحرب من الناحية الاقتصادية للخروج من حالة الركود الخانق التي يمر بها الاقتصاد الإسرائيلي، وبالتالي معالجة ظاهرة الهجرة المعاكسة، بالإضافة لهدفها الأكبر وهو توسيع رقعة الدولة. وبالطبع فقد كان وجود صديق كبير لإسرائيل في البيت الأبيض يشكل ميزة إضافة ينبغي الاستفادة منها ما أمكن.

الحرب وانتصار سهل ورخيص لدرجة الخيال

انتهت حرب الأيام الستة بأنتصار سريع وسهل وكامل، لدرجة يمكن معها القول بأنها كانت حرب الساعات الست، لأن الأسلحة الجوية للجيوش العربية تم تدميرها في أول ساعتين من الحرب، لتجد الجيوش العربية نفسها بدون غطاء جوي، عاجزة عن القتال وتحت إمرة قيادات نالت منها "الصدمة والرعب" قبل أن يدخل هذا التعبير المفردات العسكرية بعد غزو العراق. وبالطبع فقد أضفى المتدينون المتشددون في الحركة الصهيونية الطابع الديني على الانتصار السريع الذي تحقق في الحرب، باعتبارها إرادة الرب التي حققت النصر للشعب المختار. متجاهلين الحقائق الدالة على أنه كان للسي أي إيه والموساد اليد الطولى في النصر، إلى جانب القيادات العربية العاجزة حتى وإن كانت حسنة النوايا. هناك من القادة العرب من وجد نفسه مدفوعاً للمشاركة في الحرب تحت وطأة ضغوط الرأي العام، علماً أنهم لم يكونوا مستعدين لها ولا راغبين فيها في المقام الأول. ومع ذلك فإن هناك من القيادات العربية من كان يتمنى الهزيمة لعبد الناصر أكثر مما تمناه لإسرائيل، مع الحرص على استخدام الخطاب الوطني الحماسي لتهدئة الشارع الوطني.

الواقع أنه يصعب تصور حقيقة ما حدث ليلة الخامس من يونيو **1967** .. فقد قضى معظم الطيارين المصريين تلك الليلة في سهرة نظمتها القيادة العامة للقوات المسلحة، مستمتعين بوقتهم حتى ساعات الفجر الأولى، كذلك من تكون تلك "الأيدي الخفية" التي خططت لوجود رئيس أركان القوات المسلحة المصرية في الجو ومعه معظم كبار قادته العسكريين، في وقت كانت فيه المطارات والطائرات المصرية تتعرض للتدمير، والاتصالات مع مقر القيادة معطلة. وقتها لم يجد رئيس الأركان مطاراً للهبوط فيه. بعد تدمير سلاح الجو تحول الجيش المصري في سيناء إلى لقمة سائغة للطائرات الإسرائيلية وللفوضى والافتقار للتموين والإسناد.. هناك اقترف الإسرائيليون أبشع المجازر ليس في معركة غير متكافئة فحسب بل بحق الآلاف من الأسرى المصريين، الذين أنهكهم الجوع والعطش. وفي ذلك يقول توم سيجيف في كتابه الخاص بحرب **1967**:

".. غير أن الشائعات سرعان ما أخذت بالانتشار خلال أيام قليلة. " لقد حولّنا شبه جزيرة سيناء إلى واد للموت..إلى مقبرة كبيرة" كما جاء في رسالة الجندي كوبي رابينوفيتش، من كيبوتز ناعان، إلى صديقته. وأضاف الجندي قائلاً:" شاهدت كيف أن رجالاً غير مسلحين يرفعون أيديهم عالياً فوق رؤوسهم قبل أن يتساقطوا برصاص جنودنا التي انهمرت عليهم بدون أوامر.. لقد شاهدت الكثير من الجرائم لدرجة لم أعد قادراً معها على ذرف المزيد من الدموع". ومع ذلك فقد كان الجندي رابينوفيتش في حالة صدمة كبيرة، حيث أضاف في رسالته :" من الواضح أن الأمر لا يحتاج لسنوات طويلة من التربية النازية لتحويل الناس إلى مجرد حيوانات".[1]

ومن الأمور الأخرى التي يصعب تصورها ما حدث مع موقع الرادار الأردني في عجلون. فقد استطاع رصد الطائرات الإسرائيلية وهي تنطلق في أول مهمة لها في مصر، وأرسل إشارة بذلك إلى القيادة المصرية. غير أن الشيفرة المصرية كانت قد تغيرت في اليوم السابق ولم يتم إبلاغ أحد بالأمر.

هذا يدل إلى أي مدى استطاع الموساد مع **CIA** التغلغل في المؤسسات الدفاعية العربية، وهو أمر توضحه قصة النجاح الأسطوري الذي حققه الجاسوس إيلي كوهين. كان كوهين يهودياً مصرياً أرسله الموساد إلى أمريكا الجنوبية للتدرب على مهمته القادمة، وهي تقمص شخصية سوري مسلم يخطط للعودة إلى وطنه: سوريا. كان أول ما فعله "المهاجر السوري" العائد الانضمام لصفوف حزب البعث الحاكم، حيث استطاع وبقدرة قادر الترقي السريع في صفوف الحزب ليصبح أحد أعضاء القيادة الرئيسيين. ولولا تدخل الموساد الذي طلب منه رفض المنصب لكان كوهين قد أصبح "أول يهودي" يترأس المؤسسة العسكرية في إحدى دول المواجهة مع إسرائيل، حيث كانت النية تتجه لتعيينه وزيراً للدفاع في سوريا. هناك في العالم العربي من يعتقد جازماً بأن أكثر من كوهين استطاع اختراق القيادات العربية، سواء من عملاء الموساد مباشرة أو من السي أي إيه، في وقت لم يعد من السهل معرفة الحد الفاصل بين الجهازين: الإسرائيلي والأمريكي منذ الحرب العالمية الثانية. وعندما سقطت القدس بيد الجيش الإسرائيلي في حرب يونيو **1967** كانت ماتيلدا كريم الجاسوسة وملكة

[1] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 375

الجمال الإسرائيلية، زوجة منتج هوليوود الصهيوني الملياردير آرثر كيرم، والصديقة الشخصية للرئيس جونسون، توجد في الطابق الثالث من البيت الأبيض لحشد تأييد جونسون خلف الموقف الإسرائيلي.

لعل من المهم هنا عقد مقارنة سريعة ولكن مثيرة بين حرب يونيو **1967** التي ألحقت فيها إسرائيل هزيمة منكرة بأقوى ثلاثة جيوش عربية، وحرب الـ**35** يوماً التي شنتها إسرائيل بجيش أقوى بكثير وأشد تسلحاً بأحدث ما توصلت له تكنولوجيا صناعة السلاح في العالم، على أقل من خمسة آلاف مقاتل من ميليشيا حزب الله في جنوب لبنان، وانتهت بفشل تكتيكي واستراتيجي لإسرائيل.

حدود إسرائيل الجديدة.. قضية اليوم!

كان توسيع حدود البلاد وانتظار اللحظة المواتية للتحرك بهذا الاتجاه يشكل الهدف الذي يجمع عليه معظم إن لم يكن الأحزاب الإسرائيلية كافة. وإذا كان هناك من وجه خلاف بينها في هذا الشأن فهو في حجم التوسع المطلوب فحسب. وفي الوقت نفسه لم يكن الإسرائيليون ليختلفوا على ما ينبغي فعله بالأراضي المحتلة الجديدة، حيث كانت هناك رغبة جماعية بالاحتفاظ بها ما أمكن: الضفة الغربية وسيناء ومرتفعات الجولان. وقتها لم يكن هناك من الإسرائيليين من يخشى الضغوط الدولية أو موقف الأمم المتحدة أو أي شيء آخر، وهو شعور عارم بالثقة نابع من الإيمان بقوة ونفوذ وموارد الصهيونية العالمية، وقدرتها على التعامل مع "مصادر الإزعاج" هذه. كان مصدر القلق الوحيد بالنسبة للقادة الإسرائيليين هو: مصدر التهديد الداخلي أو " قنبلة الأرحام" التي يمثلها الفلسطينيون والسكان العرب الذين يعيشون في الأراضي المحتلة الجديدة، وما ستؤول إليه الأمور في النهاية من خلق دولة ثنائية القومية وليس دولة يهودية، مما يعني النهاية بالنسبة للمشروع الصهيوني. غير أن إسرائيل وقتها كانت قد بدأت تشهد تنامياً مطردا للجماعات الأصولية والعنصرية والمتشددة اليهودية التي ادعت أنها تملك الحل.

وفي ذلك يقول المؤرخ الإسرائيلي توم سيغيف:" قال إيشكول لأعضاء اللجنة السياسية في حزبه خلال اجتماع لمناقشة مستقبل الأراضي المحتلة حديثاً: لقد حصلنا على مَهر جيد إلا أنه جاء مصحوباً بهدية لا نرغب بها.. الفلسطينيون. وأضاف: أرغب بالاحتفاظ بغزة بشدة، إلا أنها وردة محاطة بكثير من الأشواك... الفلسطينيون.. ليس هناك من خيار سوى منح الفلسطينيين "وضعاً خاصاً". في غضون ذلك كانت هناك لجنة مكلفة بالبحث عن أماكن لتوطين اللاجئين . وبالنسبة للضفة الغربية قال إيشكول بأن الحدود ستكون نهر الأردن، وبأن إسرائيل لن تتنازل عن أي شيء بدون السلام. توصل الوزراء لقرارين: الاحتفاظ بكامل الضفة الغربية حتى نهر الأردن كما سبق وأن طالب ميناحيم بيغن، والسيطرة على المناطق المنزوعة السلاح على طول الحدود السورية. كرر إيشكول القول بأنه يرغب بالاستيلاء على بانياس أيضاً، وعندها شهدت الجلسة جدلاً عاصفاً كما كتب هيرتزوغ لاحقاً". [1]

[1] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 369

خرج إيغال آلون بفكرة أفضل حول ما ينبغي فعله بالجولان. ففي مذكرة سرية رفعها إلى رئيس الحكومة شرح آلون تصوره الخاص بتشجيع الطائفة الدرزية التي تشكل أغلبية في المنطقة الجنوبية المحتلة من سوريا على الثورة والمطالبة بالاستقلال عن دمشق. وأضاف آلون بأن ألـ: **150** ألف درزي هناك بحاجة لتوجيه ودعم سياسي وعسكري، وبأن إسرائيل يجب أن تقوم بهذا الدور. واقترح آلون بأن الدروز الإسرائيليين ممن يخدمون في الجيش قادرون على لعب دور أساسي في هذا المشروع. كان آلون يرى في دولة درزية في الشمال منطقة عازلة بين إسرائيل وكل من سوريا والأردن وستساعد إسرائيل في الحفاظ على الجولان إلى الأبد.

أما رعنان وييتز، الذي ترأس والده مشاريع الاستطيان لسنوات، فيرى في المشكلة الديمغرافية مصدر خطر داهم على إسرائيل.. ويقول في هذا الشأن بأن العرب في المنطقة المخصصة لليهود في قرار التقسيم كانوا بحدود **200** ألف نسمة قبل حرب **1948** ليصلوا الآن إلى أقل من مليون بقليل. وتوقع وييتز أن يصبح العرب أغلبية في البلاد في وقت لن يطول إذا ما استمرت معدلات الإنجاب بينهم على هذه الوتيرة من الارتفاع. عن هذه المشكلة كتب وييتز يقول:" هذه المشكلة تنغص علي حياتي وتخنق الفرحة وتقتل أي رغبة في الاحتفال لدي".[1]

كما أسلفنا سابقاً فقد كان الجيش الإسرائيلي يخطط لغزو المناطق التي تم الاستيلاء عليها في حرب**1967**، وبأن هذا التخطيط يعود لسنوات إلى الوراء وتحديداً لعام **1963**، ووصل وقتها مرحلة تحديد اسم الحاكم العسكري للضفة الغربية التي سيتم احتلالها طبقاً للخطط وهو الجنرال حاييم هيرتزوق. بل إن الجيش كان قد أعد سلفاً كتيبات إرشادية تم توزيعها على الحكام العسكريين المرشحين لإدارة المناطق المحتلة مستقبلاً، تتضمن الهياكل التنظيمية للحكومة العسكرية وإرشادات لكيفية إدارة السكان المدنيين تحت الاحتلال.. وعليه فإن الحكومة العسكرية بدأت العمل حتى قبل انتهاء القتال. وفي ذلك يقول توم سيغيف في كتابه عن حرب يونيو **1967**:[2]

" حددت الكتيبات الإرشادية للحكام العسكريين مهامهم الأولية التي تتعلق أكثر ما يكون بـ: الأمن، وجمع السلاح وإزالة الألغام، واعتقال العناصر المعادية بموجب قوائم جاهزة أعدها الجيش، ودفن الموتى. كان يترتب على الحاكم العسكري الشروع في تشغيل وحدات الاستخبارات تتولى عملية جمع المعلومات عن المنطقة، بما في ذلك التضاريس الجغرافية والطرق والشوارع، والساحات والحدائق ومراكز البريد والمصانع والمدارس، وأماكن العبادة والمتاحف والمكتبات والمطابع والمقابر، بل وأوكار الدعارة إن وجدت.. كان المطلوب من الحاكم التصرف على أساس الافتراض بأن المناطق المحتلة ستظل في قبضة إسرائيل إلى أجل غير مسمى.. كان على الحاكم العسكري تحديد أسماء وهويات وجهاء كل منطقة، والتحرك السريع والجاد لتجنيد العملاء المحتملين المستعدين للتعاون مع سلطات الاحتلال".[3]

---

[1] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 429
[2] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 458
[3] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 459

من جانبه اعترف حاييم هيرتزغ بأنه استعد للمهمة التي تنتظره كحاكم عسكري قادم للضفة الغربية قبل سنوات من احتلالها، بما في ذلك الحرص على قراءة الصحف الأردنية يومياً ومتابعة تطورات الأحداث في المنطقة.

بعد الاحتلال، قام تيدي كوليك، رئيس بلدية القدس الشرقية بزيارة مجاملة لـ: "نظيره" العربي روحي الخطيب. وبعدها بأيام اجتمع به مرة أخرى في أحد فنادق القدس ولكن ليسلمه كتاب تنحيته من المنصب. ولأن الكتاب كان بالعبرية فقد ترجمه أحدهم للخطيب على إحدى الفوط الخاصة بالفندق!

الواقع أن أي معارضة قد يكون أظهرها البعض للتوجهات الخاصة بضم الضفة الغربية رسمياً لإسرائيل لا علاقة لها بأي دوافع أخلاقية، بل جاءت حصيلة الخوف من القنبلة السكانية الفلسطينية. فهذا زالمان إران يقول بأنه لا ينبغي على إسرائيل ضم الضفة الغربية، ليس لأنه لا يؤمن بإسرائيل الكبرى ولكن لأسباب ديمغرافية، حيث يرى في ضم الضفة بداية لنهاية الدولة اليهودية على المدى البعيد. أما وزير الداخلية شابيرو فيقول بأن ضم الضفة العربية سيقود إلى تحول إسرائيل إلى دولة ثنائية القومية، وبأنه سيأتي الوقت الذي يجد فيه اليهود أنفسهم أقلية في بلادهم.

خطة بن غوريون المقترحة للسلام

كثيراً ما سأل الصحفيون بن غوريون عن تصوراته عما ينبغي على إسرائيل فعله بالأراضي المحتلة، قبل أن يأتي رده المفصل والمدون على شكل برنامج يقوم على المرتكزات التالية:

- لن يكون هناك أي تفاوض على وضع القدس الشرقية.
- عدم انسحاب جيش الدفاع من نهر الأردن ومنح سكان الضفة الغربية الحكم الذاتي.
- سيبقى قطاع غزة بيد إسرائيل مع نقل سكانه إلى الضفة الغربية.
- تمكين يهود الخليل من العودة لمنازلهم.
- سيكون باستطاعة سوريا استعادة الجولان إذا ما وافقت على الدخول في مفاوضات سلام مباشرة مع إسرائيل.
- باستطاعة مصر استعادة سيناء في حال موافقتها على الدخول في مفاوضات سلام مباشرة مع إسرائيل، التي سيكون لها حق العبور الآمن عبر مضائق العقبة وقناة السويس.
- ستمنح إسرائيل الأردن ممراً إلى البحر المتوسط في حال موافقته على الدخول في مفاوضات مباشرة.

من جانبه كان موشيه دايان يفضل منح الضفة الغربية الحكم الذاتي مع بقاء الأمن والسياسة الخارجية بيد إسرائيل. وفي هذا يقول وزير الدفاع السابق:" إذا اتضح بأن خيار الحكم الذاتي غير موات، وبأنه يترتب علي الاختيار بين عودة الضفة إلى الأردن- باستثناء القدس- أو أن يصبح سكانها العرب مواطنين إسرائيليين، فسأختار عودتهم للأردن." [1]

[1] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 503 - 504

ومن الخيارات التي ناقشتها القيادة الإسرائيلية فيما يتعلق بمستقبل الضفة الغربية بعد احتلالها إمكانية إخضاعها لحكم إسرائيلي أردني مشترك. أما في حالة منح الفلسطينيين حكماً ذاتياً في الضفة فقد استعد دايان لهذا الخيار بخطة تقوم على نشر مواقع عسكرية ومستوطنات يهودية على قمم الجبال في قلب المناطق المزدحمة بالسكان العرب.

كان ميناحيم بيغن من أشد المعارضين لخيار إعادة الضفة الغربية للسيادة الأردنية، لأنها وبكل بساطة: أرض إسرائيل. كان أقصى ما يمكنه الذهاب إليه في هذا المجال التنازل عن الضفة الشرقية ليبقى الملك حسين على شرق الأردن بعد توقيع معاهدة سلام معه. غير أن بيغن كان على استعداد لإعادة سيناء إلى مصر بموجب معاهدة سلام كامل. وفي الوقت نفسه حرص بيغن على التأكيد بأنه ليس هناك حاجة للاستعجال في هذا الأمر، وبأن تترك هذه القضية لتحل مع الزمن وبما لا يقل عن سبع سنوات، يتم تخيير الفلسطينيين بعدها إما القبول بالجنسية الإسرائيلية أو الرحيل عن البلاد.

وهذا د.إسرائيل إلداد يأخذ على بيغن "اعتداله". فهذا الصهيوني المتصلب يؤمن بإسرائيل الكبرى الممتدة من النيل إلى الفرات الذي أتخذه شعاراً للحزب السياسي الذي أسسه تحت اسم: حزب أرض إسرائيل. في عام **1970** أرسل إلداد الى الحاخام مائير كاهانا رئيس رابطة الدفاع اليهودي يطلب منه القدوم إلى إسرائيل لتحقيق حلمهما المشترك.

جاء التقرير الذي أعدته لجنة خبراء شكلتها الحكومة بعد الحرب متضمناً عدداً من التوصيات الخاصة بمستقبل الأراضي المحتلة. ومما جاء في التقرير القول: "ستكون الدولة الفلسطينية المقترحة "تحت وصاية جيش الدفاع" وبدون جيش، ولكن يسمح لها بالاحتفاظ بقوة شرطة. وسيكون هناك تمثيل عسكري إسرائيلي لدى حكومة فلسطين ووجود دائم للجيش الإسرائيلي في وادي الأردن، وسيتكفل جيش الدفاع بتوفير الحماية للدولة الفلسطينية من التهديدات الخارجية. وفي حين أن الحدود بين فلسطين وإسرائيل ستقام على أساس خطوط تقسيم **1948** إلا أن إسرائيل ستقوم بضم بعض المناطق بما فيها ممر اللطرون. وحفاظاً على " ماء الوجه " بالنسبة للفلسطينيين، فإن إسرائيل "ستتخلى" عن بعض قراها العربية. وستحظى الدولة الفلسطينية بمدخل إلى البحر من خلال مرفأ إسرائيلي وممر حر يربط الضفة الغربية بغزة. وفي حين أن القدس الشرقية ستبقى ضمن إسرائيل فإنه سيسمح للفلسطينيين بإدارة "بلدية فرعية" في البلدة القديمة، وسيكون هناك وضع خاص للأماكن المقدسة. وسيكون باستطاعة الدولة الفلسطينية إقامة عاصمتها في أقرب نقطة ممكنة من القدس لتصبح جزءاً من القدس الكبرى. وفيما يتعلق بمشكلة اللاجئين فإن إسرائيل ستعمل على حلها من خلال الأموال الدولية التي ستشجع اللاجئين في الضفة وغزة على الهجرة منها والاستقرار في دول أخرى. وكخطوة أولى باتجاه إقامة الدولة الفلسطينية ، فإن التقرير الذي شارك فيه ديفيد كيمتشي من وزارة الخارجية، اقترح جمع عدد من الشخصيات الفلسطينية في مؤتمر تشارك فيه طواقم من الجانبين. ومع أن التقرير يعود لتاريخ **14** يونيو **1967** أي بعد أربعة أيام فقط من وقف إطلاق النار، إلا أنه لم يكن الأول من نوعه: فقد بدأ موشيه دايان وأبا إيبأن في تلقي مقترحات مماثلة لإقامة دولة فلسطينية بتاريخ **9** يونيو". [1]

[1] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 513 - 514

بعد حرب يونيو مباشرة أمر رئيس الوزراء ليفي إيشكول بتشكيل لجنة من أربعة خبراء تعمل بالتنسيق مع الاستخبارات وتتلقى تعليماتها من لجنة رؤساء الأجهزة. كانت مهمة لجنة الأربعة مخاطبة الزعماء الفلسطينيين بـ:" كل أدب واحترام ولكن بحزم ووضوح"، بهدف التأثير عليهم مع التأكيد لهم بأن اللجنة ستكون قناة الاتصال الحصرية بين الفلسطينيين وإسرائيل.

فتحت حرب**1967** أعين الإسرائيليين العاديين على مشكلة اللاجئين الفلسطينيين ممن يعيشون في المخيمات، وهي مشكلة طالما عملت السلطات الإسرائيلية على إخفائها عن مواطنيها. وفي ذلك كتب أموس إيلون في صحيفة هآرتز بتاريخ **18** يونيو يقول:" علينا التزام أخلاقي تجاه هؤلاء لأن الطريق إلى استقلال إسرائيل جرى تمهيده على ظهور هؤلاء الناس، الذين دفعوا بدمائهم وأجسادهم وممتلكاتهم ومستقبلهم ثمن المجازر التي تعرضنا لها في أوكرانيا وفي غرف الغاز النازية ".

غير أن فورة التعاطف هذه سرعان ما تبخرت مع مرور الوقت، وعادت "الحاجة" للاعتقاد بأن الصهيونية لم تتسبب بأي ظلم أو أذى لأي أحد، لتفرض نفسها على الإسرائيليين، وذلك بالرغم من كشف الباحثين النقاب عن أن نصف الفلسطينيين أجبروا على مغادرة أراضيهم بقوة السلاح، في حين دفع الخوف من التعرض للمجازر على غرار ما حدث لأهالي دير ياسين، بالكثيرين إلى النجاة بأنفسهم.

اقترح آلون إعادة توطين لاجئي غزة في العريش- شمال سيناء الأمر الذي لقي الموافقة من بيغن. غير أن دايان كان يعتقد بأن مشاكل اللاجئين هي من اختصاص الأونروا، وعليه فإنه يفضل ترك هذه المشكلة وشأنها. أما الوزير زييف شيرف فاقترح الشروع في مفاوضات سرية مع عدد من الحكومات الأجنبية بغرض توطين اللاجئين في الخارج، وهو اقتراح حظي بمباركة ودعم كل من بنحاس سافير وليفي إيشكول. وقتها طرحت أسماء عدة بلدان لاستضافة اللاجئين منها: المكسيك وسوريا والعراق والمغرب والجزائر.

ومما قاله إيشكول وقتها:" لدينا سكان قدموا من العراق.. لدينا مئة ألف يهودي عراقي.. وسيحصلون مقابلهم على مئة ألف عربي.. يتحدثون اللغة نفسها ومعتادون على المستوى المعيشي نفسه.. هناك الكثير من المياه والأرض".

كان أكثر ما يزعج إيشكول هو ما الذي يتعين فعله بلاجئي غزة؟ فقد كان يرغب في ضم غزة إلا أنه يريدها بدون سكانها العرب وبدون لاجئين بالتأكيد. فكان أن لجأ بتاريخ **6** ديسمبر **1967** إلى اثنين من الخبراء: د. روبرت بككي ، مدير المكتب المركزي للإحصاء وخبير سكاني، وآرييه دفورتسكي، الأستاذ في الجامعة العبرية. وقتها كان بككي منهمكاً في مشروع يستهدف زيادة معدلات الولادة بين اليهود، وتقليصها ما أمكن بين السكان العرب في الأراضي المحتلة. وبالرغم من حماسته للمشروع الوطني هذا فقد أعطى بككي إيشكول "معلومات مثيرة للقلق". فقد ابلغ بككي رئيس الحكومة بأن أحدى الإحصائيات أظهر أن معدلات الوفاة عند الأطفال العرب في الأراضي المحتلة في تناقص، وقد يسجل قريباً أرقاما ينافس فيها تلك المسجلة بين الأطفال العرب داخل الخط الأخضر. وأضاف بككي قائلاً:" هذا وضع فظيع". ورداً على سؤال إيشكول ما إذا كان تغريب العرب سيؤدي إلى تراجع معدلات الإنجاب بينهم أجاب بككي بالإيجاب وأضاف بأن ذلك يحتاج إلى **15** سنة ما لم" نتمكن من السيطرة على تماسك العائلة الفلسطينية". وأضاف

بككي معلومة أخرى تبعث على القلق بالقول بأن نصف سكان الضفة الغربية هم من فئة عمرية صغيرة (تحت**15** عاماً). وأورد بككي سببين يدفعان على الأمل: أن يؤدي ترحيل سكان غزة إلى الضفة الغربية إلى انتقالهم للعيش في الأردن، وحقيقة أن نحو ثلث اللاجئين يرسلون أبناءهم إلى الخارج بحثاً عن فرص للعمل، حيث يختار عدد كبير منهم الاستقرار هناك. أنهى إيشكول اجتماعه مع الخبيرين بككي ودفورتسكي بالقول:" الآن سأكشف لكما عن ورقي: أولاً ليس لدي فكرة عما أريد أن أفعله.. وثانياً أود أن أفعل شيئاً ما في هذا الخصوص.. " لا شك أن هناك من يتساءل ماذا لو أن رئيس الحكومة لم يكشف عن ورقه!!

التهجير في الإيديولوجية الصهيونية

تتجذر فكرة التهجير عميقاً في الإيديولوجية الصهيونية منذ البداية، الأمر الذي تكشف عنه مذكرات هيرتزل: " سنحاول دفع السكان المفلسين(الفلسطينيين) عبر الحدود من خلال توفير فرص عمل لهم في بلدان العبور بينما نحرمهم من العمل في بلادنا".

في أوائل العشرينات تحدث الكاتب إسرائيل زانجويل عن ضرورة إقناع العرب بالرحيل، وحجته في ذلك أن لديهم العالم العربي المترامي الأطراف، القادر على استيعابهم مقارنة باليهود الذين لا يملكون سوى مكان واحد في هذا العالم هو فلسطين. مثل هذا المنطق تحول إلى شعار يتكرر للحركة الصهيونية مرة تلو مرة. كان الكاتب زانجويل لا يرى بأن استمرار العرب في فلسطين لا يحتمل سوى أحد الخيارين التاليين: إما أن تحكم الأقلية اليهودية العرب وهو أمر غير ديمقراطي، أو أن يخضع اليهود لحكم العرب وهذا أمر لا يمكن القبول به. وعليه فإن الحل الوحيد للخروج من هذا المأزق كما يرى زانجويل يكمن في: إجبار العرب على الرحيل. الواقع أن فكرة الترحيل وجدت طريقها إلى أرض الواقع مع بداية حركة الاستيطان اليهودي في فلسطين، حيث أُجبر المستأجرون العرب على الرحيل عن الأراضي المباعة وباستخدام القوة في معظم الحالات، الأمر الذي يعترف به بن غوريون بالقول:" حتى الآن، استطعنا إنجاز استيطان فلسطين من خلال ترحيل السكان". غير أن الحركة الصهيونية حرصت على الطلب من منتسبيها تجنب الحديث عن سياسة تهجير العرب ما أمكن، بل وإنكار حدوثها عند اللزوم لأغراض دعائية بحتة. ومع ذلك نجد العديد من الشخصيات اليهودية يتحدثون عن التهجير الجماعي لعرب فلسطين كممارسة أخلاقية في المقام الأول. فهذا ميناحيم أوشيشكين يقول:" أنا لا أؤمن بترحيل الأفراد بل بنقل القرى بأكملها". ويدافع أوشيشكين عن الجانب الأخلاقي لهذه الممارسة بالقول:" أنا على استعداد للوقوف والدفاع عن الجانب الأخلاقي لهذه الممارسة أمام الله وعصبة ألأمم".

من الناحية الفعلية، بدأت الاستعدادات لعملية ترحيل السكان في الثلاثينات عندما أوجد القادة الصهاينة لجنة خاصة لهذه المهمة وهي : لجنة ترحيل السكان التي كان محور نقاش جلساتها يتركز على قضايا مثل:" من سيتم ترحيلهم أولاً.. هل هم سكان القرى أم المدن (كان هناك تفضيل لإعطاء الأولوية للمزارعين). وما هي معدلات الترحيل (على مدى عشر سنوات على الأرجح)، وإلى أين سيذهب المرحلون (ما بين غزة وبغداد)، وماذا ستكون الكلفة (ما يقارب من **300** مليون جنيه استرليني). كان بن غوريون يفترض بأن الحركة الصهيونية هي التي ستتحمل الكلفة. كما خرج بعض الأعضاء بأفكار خاصة بتضييق الخناق على العرب لدفعهم إلى الرحيل ومن ذلك: عدم السماح للعمال العرب

بالعمل في البلاد إلا بتصاريح خاصة تصدر ضمن أضيق الحدود، وكذلك فرض ضرائب عالية لدفعهم إلى الهروب". [1]

وفي مذكراته تحدث بن غوريون عن فكرة دفع عشرة ملايين جنيه للحكومة العراقية، مقابل استيعاب نصف مليون عربي فلسطيني مهجر (مئة ألف عائلة) في العراق. ومن جانبه حاول حاييم وايزمان استكشاف فكرة ترحيل جميع العرب الفلسطينيين إلى السعودية مع هاري جون فيلبي كوسيط لدى الملك عبد العزيز بن سعود، مقابل مبلغ كبير من المال (ما بين**10**-**20** مليون استرليني). أما زييف جابوتنسكي فحاول الترويج لفكرة تهجير العرب من فلسطين، باعتبارها ممارسة لم يبتدعها اليهود بل كانوا أول ضحاياها في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية. وفي ذلك كتب جابوتنسكي مضيفاً: " لقد أعطى هتلر فكرة التهجير اسماً جيداً في العالم".

مع نهاية الحرب العالمية الثانية:" أعد روبرتو باتشي، أستاذ الإحصاء وشؤون السكان، تقريراً سرياً أطلق فيه صرخة تحذير من الخطر السكاني، الذي يمثله تصاعد معدلات الإنجاب في الوسط العربي في فلسطين، والذي كان الأعلى على مستوى العالم. وحتى تحقيق اليهود أغلبية بسيطة ما بين**2**-**3**% خلال خمس سنوات فإنه ينبغي استقدام ما لا يقل عن مليون مهاجر أي بمعدل **200** ألف سنوياً.. ومع ذلك فإن الأغلبية اليهودية هذه لن تصمد إلا لفترة بسيطة بسبب معدلات الإنجاب المرتفعة للعرب. ولتحقيق الهدف الصهيوني اقترح باتشي: تهجير "جزء كبير" من عرب إسرائيل إلى البلاد العربية". [2]

وجدت فكرة التهجير طريقها للتنفيذ أكثر ما يكون في حرب **1948** لتكون النتيجة تهجيراً جماعياً قسرياً طال مئات الألوف من الفلسطينيين أصبحوا الآن ما لا يقل عن خمسة ملايين نسمة، بعضهم لا يزال يحتفظ بمفاتيح منازلهم وصكوك ملكية "قواشين" أراضيهم ومزارعهم في فلسطين ويرفضون الاستسلام لليأس. ومنهم من يقول: إذا كان اليهود تمسكوا بحق العودة لأرض لا يملكونها فهم أحق بهذا التمسك بالعودة لأرض يملكونها وطردوا منها حتى لو ترتب عليهم الانتظار عدة عقود أخرى.

---

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 406

[2] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New York 1st American Edition 2000, Pg 407

الفصل التاسع

إسرائيل: عودة إلى الحرب الصليبية

عملية سلام بدون سلام

ليس سراً أن يكون العديد من الفلسطينيين والعرب والمسلمين على قناعة بأن قيام إسرائيل في فلسطين ليس سوى نسخة مكررة من الحملة الصليبية، بل إنه ليس سراً أن مثل هذا الاعتقاد يساور العديد من الزعماء الغربيين أنفسهم، أو أنهم على الأقل، يرون بأنها أقيمت بدوافع دينية. ولعل في الاهتمام الخاص الذي أولته الجامعة العبرية لدراسة الحروب الصليبية وإعطاء هذا الموضوع أولوية في البحث والتحليل والنشر في المرحلة الأولى من قيامها، ما يعتبر مؤشراً على اعتقاد الباحثين اليهود بوجود مثل هذا التشابه الكبير بين الحملة الصليبية واستيلائها على فلسطين، وعملية فرض إسرائيل ككيان أجنبي وسط العالم الإسلامي، مع اختلاف واحد ربما وهو أنه لم يكن للصليبيين سياسة تهجير رسمية بحق سكان البلاد كالتي يطبقها اليهود منذ استيلائهم على فلسطين. وفي ذلك كتب أستاذ العلوم السياسية في الجامعة العبرية أيهود سبرينزاك يقول:" ستظل إسرائيل وستبقى إحدى أكثر "الدول غير الطبيعية" في التاريخ: فهي دولة من المهاجرين القادمين من مناطق ومجتمعات متباينة إلى بلد واقع تحت هيمنة قوة استعمارية". فالقوى الاستعمارية هي التي زرعت إسرائيل، وستبقى الدولة العبرية تعتمد في بقائها على هذه القوى.

المستوطنون يرسمون سياسة إسرائيل الرسمية

أوضحنا في الفصول السابقة كيف أن إسرائيل هي التي خلقت الظروف التي قادت لحرب يونيو **1967** وعن سابق تخطيط، وبأن التوسع الإقليمي شكل الهدف الرئيسي للإسرائيليين على اختلاف أطيافهم، إلا أن الجميع كانوا مدركين في الوقت ذاته حقيقة أن إسرائيل ما بعد التوسع الكبير أضحت تواجه مشكلة رئيسية، تتمثل في مخاطر التكاثر السكاني العربي أو ما يعرف بـ:" قنبلة الرحم العربي"، وانشغلوا في كيفية التعامل معها. وكالعادة انقسم الإسرائيليون في نظرتهم للمشكلة ما بين معتدل نسبياً ومتطرف. وخلال المناقشات التي دارت بهذا الشأن قبل وبعد الحرب كان موضوع ضم الأراضي المحتلة حاضراً بل وجزءاً من التخطيط الإسرائيلي بشكل عام، ولكن مع قناعة المتطرفين بضرورة تحقيق هذا الهدف، ومع مرور الوقت أصبح للمتشددين اليد الطولى في اتخاذ القرارات الكبيرة في إسرائيل ونجحوا في فرض رؤيتهم المغالية في التطرف، وأصبح التطرف هو سيد الموقف.

قد يكون الشخص الأكثر تأثيراً على السياسات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة في مرحلة ما بعد **1967** ، والذي قاد حركة الاستيطان هناك هو المدعو: موشيه ليفنغر، زعيم حركة غوش إينوميم. ومع أن السلطات الإسرائيلية خلال حكومات العمل المتعاقبة، وجدت في شخص ليفنغر كبش الفداء المناسب لتحميله اللوم على ما تشهده الأراضي المحتلة من تجاوزات، إلا أن حركته المتطرفة ومستوطناته التي بدأت تنتشر على حساب أراضي وحياة الفلسطينيين، كانت تحظى بحماية الجيش الإسرائيلي طوال الوقت ومنذ البداية.

استندت حركة غوش إينوميم في قيامها وأفكارها إلى تعليمات راف زفي يهودا كووك، رئيس مدرسة ييشيفا ميركاز هاراف الدينية في القدس، وهو ابن الحاخام راف أفراهام كووك، أول كبير الحاخاميين الأشكناز في فلسطين, والذي يعتبر مؤسس الحركة الدينية الصهيونية المعاصرة. كان كووك على اعتقاد جازم بأن الأراضي المحتلة هي جزء من أرض الميعاد التي وهبها الرب لليهود كما نصت عليه التوراة، وبأن هذه الأراضي يجب أن تبقى بيد إسرائيل, وأن يتم الدفاع عنها بأي ثمن. ولهذا يعتبر كووك ومدرسته النواة الفعلية لحركة غوش إينوميم الاستيطانية, التي وجدت في أفكار الحاخام المذكور أفضل من يعبر عن رؤية مؤسس الحركة موشيه ليفينغر. غير أن النمو الثابت والبطيء للحركة هذه, ومحاولاتها زرع البؤرالاستيطانية في قلب المناطق المزدحمة بالسكان الفلسطينيين, نبّه المسئولين إلى خطورة خروج غوش إينوميم وزعيمها المتطرف إلى درجة الهوس، عن نطاق السيطرة خاصة وأن الحكومات العمالية كانت تريد إبقاء النشاط الاستيطاني تحت نوع من السيطرة الرسمية، فكان أن أصدرت أوامرها للجيش بوقف بعض تجاوزات ليفنغر وحركته, وخاصة ما يتعلق بانتشار النشاط الإستيطياني في المناطق المأهولة بالسكان. مثل هذه الخطوة من قبل الحكومات العمالية دفعت بزعيم غوشيه إينوميم إلى وصف حكم العمل بأنه لا يقل سوءاً عن الانتداب البريطاني.

يشير تاريخ الحاخام موشيه ليفنغر إلى أننا أمام شخص غير متزن نتيجة إصابته باعتلال صحي جسدياً ونفسياً منذ الطفولة. فقد كان" طفلاً معتلاً يعاني من نوبات حادة من الكآبة التي تشل نشاطه، وقضى فترة من مرحلة شبابه في مصحة نفسية سويسرية". ويقول فريدي زاك، الحاكم العسكري الإسرائيلي لمنطقة الخليل, حيث كان ليفنغر يقيم في أكبر وأقدم مستوطنة أقامها على مشارف المدينة، بأنه عرف ليفنغر في شخصيتين مختلفتين: ليفنغر الزعيم الديني الذي يحظى بالاحترام وليفنغر المجنون. وبالطبع لم يكن عرب الخليل يرون في كبير المستوطنين سوى الرجل المجنون الذي يستحق لأن يدعى بحق: أب الحركة الاستيطانية في الأراضي المحتلة. ولعل في إلقاء نظرة على خلفية الحاخام المذكور ما يساعد على تحديد معالم شخصية حركته المثيرة للاهتمام.

يصف روبرت فريدمان الحاخام ليفنغر بأنه:" رجل ذو ملامح غاية في الغرابة.. فهو طويل ونحيف بدرجة مثيرة.. وصاحب وجه عظمي. هذا من حيث الخلقة، أما من حيث الأخلاق فقد كان أعند من شامير وأشد انفعالاً من بيغن وأكثر تطرفاً من شارون" وفعل أكثر من أي شخص آخر لإيصال الحركة الاستيطانية إلى ما هي عليه الآن من نفوذ واستفحال.. حركة تمارس نشاطاً غير قانوني طبقاً للقوانين الدولية, وتشكل عقبة أمام السلام على حد الوصف الأمريكي الأخير للمستوطنات، والذي ينسخ التعريف السابق الخاص بنزع الصفة القانونية عنها. كان أول ما أقدم عليه ليفنغر تحدي الحكومة وإقامة مستعمرة في قلب الخليل في عيد الغفران **1968**، حيث لم يكن هناك من مدنيين يهود يعيشون في

الأراضي المحتلة حتى ذلك التاريخ. ولا شك في أن مئات الآلاف من المستوطنين ممن تعج بهم الأراضي المحتلة حالياً يدينون بالعرفان للحاخام المجنون في وجودهم هناك، بما فيهم أناس لا علاقة لهم بالتطرف الديني الذي شكل الدافع الأساسي للعملية الاستيطانية من البداية.. فقد جذبت الحركة الإستيطيانية العديد من أبناء المجتمع الإسرائيلي على اختلاف أطيافه: من مهاجرين روس ممن تدفقوا على إسرائيل في الثمانينات، إلى علمانيين أميركيين وآخرين يهود جذبتهم الحوافز العديدة الممنوحة لسكان المستوطنات, بما فيها الدعم الحكومى السخي والإعفاءات الضريبية. كان موشيه ليفنغر ينظر إلى الرب, باعتباره الصهيوني الأول الذي ينبغي إطاعة أوامره التي تأتي فوق أي قوانين حكومية.. لم يكن هناك مكان لأي حلول وسط مع العرب في نظر الحاخام المذكور, الذي نقل عنه القول:" حتى لو كان العرب راغبين بالحلول الوسط، فإننا لا نملك مثل هذا الخيار". وهنا يوضح ليفنغر وجهة نظره هذه بمزيد من الشرح بالقول:" كيف يمكن للمرء أن يقبل بحل وسط مع شخص يأتي لبيته بهدف الاستيلاء عليه والنوم مع زوجته وأخذ أطفاله! هذه بلدنا وقدرنا أن نعيش في أرضنا كـ: أمة من القساوسة".[1]

وأمام حقيقة أن أفكار ليفنغر المتطرفة اجتذبت تأييد مئآت الألاف من الأتباع الفاشيين ممن يدينون له بالولاء والتبعية، فإنه يصبح من البديهي أن تنبري مجلة النيو ريببلك لوصف الحاخام المذكور بـ:" الفاشي الديني الأول في إسرائيل". والأهم من هذا كله أن وزير الدفاع السابق ورئيس الوزراء اللاحق أرييل شارون وصف ليفنغر وزوجته بأنهما:" أبطال جيلنا بحق". وجاءت نتائج استطلاع للرأي أجرته جريدة حاداشوت الإسرائيلية عام **1990** لتضع ليفنغر على رأس قائمة أكثر الشخصيات نفوذاً في المجتمع الإسرائيلي خلال العقد الفائت. ومن جانبهم يجزم الفلسطينيون بأن حركة الاستيطان الإسرائيلي خاضعة لمجموعة من الفاشيين والمجانين, ممن يعتقدون بأن تفسيرهم للتوراة التي نزلت قبل أكثر من ألفي عام يعطيهم الحق في الاستيلاء على منازلهم وأراضيهم التي لا يزالون يحتفظون بمفاتيحها وبصكوك ملكياتها.

اعتمد مستوطنو غوش إينوميم نهجاً عدوانياً إلى حد كبير في تعاملهم مع العرب الفلسطينيين.. فقد كانوا مدججين بالسلاح, وفوق ذلك يتمتعون بحماية كاملة من الجيش الإسرائيلي حتى وهم يمارسون اعتداءاتهم على السكان المحليين. وعندما أطلق **30** طالباً من مدرسة يشيفا النار على فتاة عربية لا يزيد عمرها عن **13** عاماً وأردوها قتيلة في شوارع إحدى البلدات العربية، وقف الحاخام إسحق غينسبيرغ أمام المحكمة الإسرائيلية مبرراً الجريمة بالقول:" ينبغي الاعتراف بأنه لا يمكن المساواة بين دم اليهود ودم غير اليهود.. على شعب إسرائيل النهوض والجهر بحقيقة أن اليهودي وغير اليهودي لا يمكن أن يتساويا لا قدر الله.. وعليه فإن أي محاكمة تقوم على مبدأ المساواة بين الاثنين إنما هو تزييف للعدالة".[2]

سيكون من غير العدل القول بأن قليلاً من الإسرائيليين هم ليسوا على شاكلة غينزبيرغ. فهذه جماعة حقوق الإنسان المعروفة باسم: بتسيليم، المتكونة من العديد من المحامين والأكاديميينْ وحتى أعضاء في الكنيست, يحرصون على إعداد ونشر تقارير

[1] Zealots For Zion, Robert I. Friedman, Rutgers University Press, New Brunswick, N.J. 1992, Pg 4
[2] The False Prophet, Rabbi Meir Kahana, Robert I. Friedman, Lawrence Hill Books, New York, Fist Edition 1990, Pg 286

تفضح تجاوزات الاحتلال والتعذيب الذي يتعرض له السجناء الإداريون المحتجزون بدون محاكمة أو توجيه تهم. إلا أن هذه الفئة تشكل أقلية ضئيلة أمام المستوطنين وأهل اليمين المتطرف، وعندما سئل كبير الحاخامات السابق شلوموغورين عن رأيه في أحد التقارير المذكورة أجاب:" لا أعرف هؤلاء ولا أريد أن أعرفهم.. هؤلاء خونة لشعب إسرائيل ولدولة إسرائيل وإنما يخدمون عدونا.. وحيث إن هؤلاء يخدمون أعداءنا فإنهم لم يخلقوا على صورة الرب".

الواقع أن التعصب متجذر بعمق في اليمين الإسرائيلي المتطرف, وفي ذلك يقول المؤرخ الإسرائيلي توم سيجيف:" كان هناك الذين وجدوا في التشريع اليهودي عوامل عنصرية, بل إن هناك من يرى أوجه شبه بين آراء وتعليمات كبير الحاخاميين والقانون النازي".[1] ويروي د. إسرائيل شاهاك ، أستاذ الكيمياء في الجامعة العبرية ما حصل معه ذات مرة في أحد شوارع القدس. فقد عثر شاهاك على طالب إفريقي زائر ملقى مغشى عليه على حافة الطريق, وكان يوم سبت والحركة في الشارع شبه مشلولة.. وعندما طرق باب منزل قريب يستأذن في استخدام الهاتف للاتصال بالإسعاف، جاءه الجواب الصاعق من صاحب المنزل بأنه لن يستطيع المساعدة, فاليوم سبت والسماح له بالاتصال الهاتفي لإنقاذ حياة شخص غير يهودي يعني انتهاكاً لقدسية السبت. وعندما سأل شاهاك مكتب الحاخام الأكبر عن الأمر جاءه الرد بالتأكيد على حسن تصرف الرجل صاحب الهاتف, الذي التزم بتفسير القوانين التي تحكم العطلة الدينية المقدسة".[2]

جنون الاستيطان وتواطؤ الحكومة

هناك الكثير من الأحداث والقصص الواقعية الحية الشاهدة على وحشية المستوطنين كما تحدثت عنها أدبيات عدة لعل أبرزها كتاب: "المتعصبون لصهيون" للصحفي والمؤلف روبرت فريدمان، الذي تابع حركة الاستيطان بعقلية واهتمام الصحفي والباحث اليهودي الأمريكي. يروي فريدمان ما جرى مع الفلسطيني عبد الرحمن من أهالي الخليل بالقول:

" كان عبد الرحمن مستلقياً على الأريكة يستمتع بقيلولة ما بعد الظهر عندما استيقظ على صوت حركة في شقته، وليجد أمامه الحاخام ليفنجر واقفاً وسط الصالون محاطاً بثلاثة من حراسه الشخصيين. كان ليفنجر يمسك برقبة طفلة عبد الرحمن التي لا يزيد عمرها على سبع سنوات, محاولاً خنقها بحجة أنها وجهت اهانة لابنته (الحاخام). وعندما تدخل شقيق الطفلة في محاولة لحمايتها التفت الحاخام إليه فاختطفت الأم الطفلة من بين يديه بينما وجه ليفنغر اهتمامه للفتى ولكمه على عينه وكسر أحد ذراعيه, ثم أخذ في توجيه اللكمات للأم على وجهها. يقول عبد الرحمن أن ذاك حدث خلال ثوان وقبل أن يعي ما كان يحصل أمامه. سمع أحد الجنود الذي كان في موقع حراسة على ظهر المبنى أصواتاً غير طبيعية في الأسفل, فترك موقعه ونزل من على السطح لاستكشاف الوضع. في هذه الأثناء طلب ليفنجر من الحراس إعطاءه مسدساً وأخذ في تحطيم جهاز التلفزيون وأثاث المنزل أمام نظر بناته اللاتي كن برفقته لمشاهدة انتقام والدهن من عائلة الطفلة الفلسطينية, التي تجرأت على شتمهن. قاوم ليفنجر الجندي الذي حاول إخراجه من المنزل وشتمه قائلاً بأنه ليس

[1] Ha'aretz., 7 July 1977, p.2; 13 July 1966, p.2
[2] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 99

سوى عميل لمنظمة التحرير الفلسطينية. طلب الجندي الإسناد, وبعد مفاوضات وافق ليفنغر على مغادرة الشقة, إلا أنه اشترط حبس عائلة عبد الرحمن في إحدى الغرف حتى لا يشاهدوا عملية إجلائه من المكان. بعد تردد وبالرغم من عدم ثقته بالقضاء الإسرائيلي، قبل عبد الرحمن برفع دعوى قضائية على ليفنجر. أصدر القاضي يوئيل تسور حكمه ببراءة ليفنجر من تهم التهجم على عائلة ومنزل الفلسطيني وتهمة إهانة الجندي الإسرائيلي، على خلفية عدم القبول بشهادة العائلة العربية باعتبارها الطرف المدعي.أما الجندي فخسر القضية لأنه لم يكن في موقع الخدمة وقتها بعد أن ترك موقع الحراسة على ظهر المبنى ونزل إلى الشقة. بعدها بفترة قصيرة اقتحم ثلاثة من أتباع ليفنجر المخلصين شقة الفلسطيني عبد الرحمن, وأشبعوه ضرباً بالعصي ولم يتركوا المكان إلا بعد أن أغمي عليه من شدة الضرب.

في حادثة أخرى، وصل دبلوماسي أميركي إلى الخليل في سيارته المرسيدس المدرعة من مقره في القدس, لالتقاط صور لمجمع سكني جديد يقام في المدينة ضمن مهمة مكلف بها, وهي متابعة الأنشطة الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة. غير أن بوب سيلفرمان سرعان ما وجد نفسه محاطاً بعدد من المستوطنين وقد رفع أحدهم المسدس في وجهه وهو يصرخ : ماذا تفعل هنا أيها الأمريكي الوغد!!. تطلب الأمر تدخل أحد الضباط لإنقاذ الدبلوماسي الأمريكي من أيدي المستوطنين في مشهد مثير للسخرية.. فها نحن أمام سيلفرمان: اليهودي القادم من "بلد الأوغاد" التي قدمت تواً لبلد المستوطنين **3.5** مليار دولار على شكل منحة سنوية، ذهب جزء منها لتمويل المشروع السكني الاستيطاني الذي جاء لتصويره، ليجد نفسه هدفاً للمنتفعين من المشروع ممن منعوه من الدخول والقيام بواجبه.

ومع أن المستوطنين العلمانيين أصبحوا يشكلون أغلبية في الأراضي المحتلة, إلا أنهم كانوا لا يقلون تطرفاً تجاه الفلسطينيين من أتباع حركة غوش إينوميم الراديكالية. وعن تجربته مع المستوطنين العلمانيين, يروي روبرت فريدمان ما حصل معه في مستوطنة أرييل التي يشكل العلمانيون معظم سكانها. وصل فريدمان إلى أرييل مع مرافقته دينا شاليت قبل اندلاع حرب الخليج الأولى, ليحل ضيفاً على عائلة بيرنشتاين الذي يعمل مهندس طيران في الصناعات الجوية الإسرائيلية, منذ أن وصل إسرائيل مهاجرا إليها من أمريكا عام **1969**. يقول فريدمان في هذا الشأن: "ما إن بدأنا السير عبر الممر الحجري باتجاه الباب الأمامي لمنزل بيرنشتاين في مستوطنة أرييل، حتى وجدنا أنفسنا هدفاً لنباح كلب شرس.. لحسن الحظ أن الكلب كان مربوطاً لعمود بسلسلة. لم ينقذنا من إزعاج الكلب إلا ظهور السيدة بيرنشتاين على الباب لاستقبالنا وهي تقول: إنه ينبح كلما اشتم رائحة عربي. وأضافت السيدة التي تعمل رئيسة الفريق التمريضي في وحدة العناية المركزة في مستشفى بيتاح تيكفا: " الكلب يكره العرب.. فهم يطلقون رائحة خاصة تزعجه.. إنها مسألة جينات." وعندما علقت على كلامها قائلاً بلهجة تحمل بعض الاحتجاج:" ولكنني يهودي"، تدخل زوجها السيد بيرنشتاين، وهو رجل طويل ونحيل بالقول متظاهراً بالمزاح: هل أنت يساري ؟ وهنا ردت عليه مرافقتي دينا شاليت بالقول: روبرت من أنصار حركة السلام الآن، ولكنه كاتب جاد وقد يكون جيداً أن يتعرف على طبيعة الأمور في أرييل. قاطعتها السيدة

بيرنشتاين: وأضافت في لهجة تنم عن الانزعاج لانتمائي لخط سياسي مختلف عنها: ربما هذا هو سبب جنون الكلب"[1]

انتصار ليكود بيغن: نقطة تحول للسياسة الاستيطانية

جاءت نقطة التحول الفعلي في مسار الحركة الاستيطانية والوضع الفعلي في الأراضي المحتلة، بخروج حزب العمل من السلطة إثر الهزيمة التي ألحقها به الليكود في انتخابات **1977** ، ووصول مناحيم بيغن لرئاسة الحكومة. ولد بيغن في بولندا عام**1911** واختار السير، منذ البداية، على خطى فلاديمير جابوتنسكي، مؤسس حركة المجددين الصهاينة. كان جابوتنسكي وكذلك تلميذه بيغن، يؤمنان بعدم تقديم أي شكل من التنازل عندما يتعلق الأمر بأرض إسرائيل ، وبأن على الصهيونية اعتماد القوة طريقاً لتحقيق أهدافها والتحرك سريعاً في هذا الصدد. وبالرغم من هوسه بالصهيونية المتطرفة، فإن بيغن لم يهاجر إلى فلسطين إلا متأخراً (**1942**) وليقود حركة إيتزيل الإرهابية. وبعد سلسلة هجمات استهدفت العرب والبريطانيين, بما فيها تفجير فندق الملك داوود، ظهر اسم بيغن على لائحة الإرهابيين المطلوبين من سلطات الانتداب البريطانية. رفض بيغن قرار التقسيم واستمر في تهريب السلاح حتى بعد إعلان بن غوريون قيام دولة إسرائيل في فلسطين. قرر بن غوريون الذي سبق أن نعت جابوتنسكي ب: هتلر (بينما أطلقت عليه صحيفة هآرتز اسم:موسيلليني) بأن بيغن غير مؤهل للمشاركة في أي ائتلاف للحكم وأمر بحل حركته الإرهابية. وفي يونيو**1948** وبينما كان بيغن على متن السفينة ألتلينا مع مجموعة من عصابته يحاولون تهريب شحنة كبيرة من السلاح قبالة شواطئ تل أبيب، أمر بن غوريون قوات البالماخ بإغراق السفينة. وأمام أنظار الآلاف من رواد الشاطئ أطلقت المدافع على السفينة واشتعلت فيها النار، وسقط **14** قتيلاً و**69** مصاباً بين رجال بيغن, الذي نجا من الموت. وقتها كان قائد البالماخ إسحق رابين هو من قاد عملية إغراق السفينة. وإلى جانب بيغن، كان هناك إسحق شامير على رأس عصابة إرهابية أخرى تحت اسم شتيرن، وليتبوأ بدوره مراكز قيادية في إسرائيل كرئيس للكنيست ورئيس للوزراء بعد بيغن. وبالطبع انعكست خلفية جذور حزب الليكود وقادته في تخطيط واستراتيجية حكومة الليكود الجديدة- التي شكلها بيغن بعد انتصاره في انتخابات **1977**- تجاه الأراضي المحتلة.

بعد فوزه المثير في الانتخابات, شكل بيغن حكومة تحالف يميني تمثلت فيها غوش إينوميم الاستيطانية بقوة. فقد كان أول ما فعله بيغن بعد الإعلان عن فوزه التوجه إلى مستوطنة إيلون موريه القريبة من نابلس, حيث سبق لغوش إينوميم محاولة إقامة مستوطنة هناك سبع مرات ولم تنجح، ليقف وبيده التوراة ويخاطب جموع المستوطنين ويعاهدهم ببناء " المزيد من إيلون موريه". وفي الوقت ذاته وجد أتباع موشيه ليفنغر مصدر دعم كبير آخر لهم داخل الليكود هو: أرييل شارون. فمنذ توليها السلطة عام **1977** وحكومة الليكود تنتهج سياسة استيطانية جديدة تماماً لا تقوم على نشر المستوطنات في عموم الأراضي المحتلة فحسب، بل تنظر إلى هذه الأراضي باعتبارها محررة وليست محتلة.

[1] Zealots For Zion, Robert I. Friedman, Rutgers University Press, New Brunswick, N.J. 1990, Pg 85

وإذا كانت حكومات العمل قد عملت على إحاطة التجمعات السكانية العربية بالمستوطنات؛ فقد جاءت حكومات الليكود لتنقل الزخم الاستيطاني إلى قلب هذه التجمعات. فقد كان أول ما أقدم عليه أرييل شارون كوزير للزراعة في حكومة بيغن هو كشف النقاب عن خطة تحت عنوان: رؤية لإسرائيل في نهاية القرن"، تنص على توطين أكثر من مليوني يهودي في الضفة الغربية قبل نهاية القرن العشرين. وبوجود أشخاص مثل بيغن وشارون في سدة الحكم، لم تكن الحكومة الجديدة لتفتقر إلى التصميم والموارد اللازمة لبناء " المزيد من إيلون موريه".

وحتى عندما ضغط جورج بوش الأب ووزير خارجيته جايمس بيكر على إسحق شامير لحضور مؤتمر مدريد السلام بعد حرب الخليج الأولى، وفي الوقت الذي كانت فيه الإدارة الأمريكية ترى في عودة الضفة الغربية إلى العرب مصلحة إسرائيلية وأميركية في المقام الأول، أبلغ شامير حزب الليكود عشية المؤتمر قائلاً:" ينبغي استمرار الاستيطان في مناطق أرض إسرائيل كافه ". وفي وقت لاحق خاطب شامير أنصار الليكود في فرنسا قائلاً:" إذا كان هناك من يعتقد أن بإمكانه ممارسة الضغوط على إسرائيل لتقديم تنازلات فإن الجواب هو أننا سنكون دائماً أوفياء.. للمثل اليهودية وللصهيونية وللقدس ولأرض لإسرائيل". كانت النتيجة أن شامير خرج منتصراً في "المواجهة" مع الإدارة الأمريكية إذ حرم الرئيس، الذي اعتقد بقدرته على إجبار شامير بالقبول بالسلام، من ولاية ثانية.

ليس من قبيل المبالغة القول بأن إسرائيل حكمت لفترة طويلة من قبل رؤساء حكومات تم تصنيفهم رسمياً كـ: إرهابيين من قبل إمبراطورية عالمية، وكان هؤلاء يرون في الإرهاب أداة مشروعة لتحقيق أهدافهم. فهذا شامير، ومن موقعه كرئيس للوزراء، يرد على سؤال لأحد الصحفيين عن ماضيه الإرهابي بالقول:" الإرهاب وسيلة مقبولة للقتال في ظروف معينة ومن قبل حركات معينة" وهذا يعني أن الإرهاب اليهودي أمر مشروع في نظر شامير؛ لأن اليهود يقاتلون من أجل أرضهم بينما يقاتل الفلسطينيون من أجل القتال ليس إلا. وها هم المستوطنون الذين ينتمون في معظمهم لليكود وحركة كاخ يرون في الإرهاب ضد الفلسطينيين ممارسة طبيعية.

عندما وصل الليكود للسلطة في إسرائيل لم يكن عدد المستوطنين في الضفة الغربية يتجاوز ألـ: خمسة آلاف مستوطن. غير أن الاستثمار الهائل لحكومات الليكود المتعاقبة في النشاط الاستيطاني, والذي بلغ مليار دولار خلال الفترة من **1977-1984**، ضاعف من عدد المستوطنين إلى **38** ألفا وأضاف **60** مستوطنة جديدة. وقبل انتخابات **1981** أقدمت حكومة بيغن على مصادرة **36** ألف دونم من أراضي الفلسطينيين, طبقاً لبيان رسمي صادر عن مكتب رئيس الحكومة في أبريل من العام المذكور، وهو رقم متواضع مقارنة بما تحدثت عنه المصادر الفلسطينية.

إرهاب المستوطنين في ظل الليكود

وجد المتطرفون اليهود في انتصار الليكود وسياسات الحكومة الجديدة، الفرصة التي طالما انتظروها لإطلاق العنان لممارساتهم الإرهابية ضد الفلسطينيين. وفي عام **1980**، أقدمت هذه الجماعات ومعظمها من المستوطنين, على تنفيذ خطة معدة سلفاً لاغتيال خمسة من رؤساء البلديات في الضفة الغربية في وقت متزامن.. كانت النتيجة الحاق إصابات بالغة في اثنين منهم ونجاة الثلاثة الباقين بأعجوبة, إذ لم تنفجر العبوات التي

زرعت في سياراتهم لخطأ في التوصيلات. وفي **27**أبريل**1984** تم إجهاض خطة لنسف أربع حافلات ركاب عربية في ساعة الازدحام في آخر لحظة. بعدها بأيام قليلة ألقت أجهزة الأمن القبض على **27** من المشتبه بهم وأحدثت اعترافاتهم صدمة لدى الكثيرين.. فقد كان هؤلاء يخططون لنسف قبة الصخرة. وقد عثرت الشرطة الإسرائيلية معهم على خطة كاملة وجاهزة للتنفيذ, بما في ذلك دراسة دقيقة لبنية المكان وإعداد المتفجرات المناسبة لهذه المهمة, والتي حصلوا عليها من معسكر للجيش في مرتفعات الجولان. وتبين بأن المتآمرين قاموا بتصنيع **28** قنبلة دقيقة لتفجير القبة مع إلحاق أكبر قدر من الدمار بمحيط قبة الصخرة. كما عثرت الشرطة في حوزة المتآمرين على رشاشات عوزي مزودة بكواتم للصوت لقتل حراس المكان, وحشدوا قوة لتنفيذ العملية قوامها**20** من جنود الاحتياط المدربين. كانت الخطة الأصلية معدة للتنفيذ قبل ذلك بعامين إلا أن خلافات نشبت بين المجموعة استدعت تأجيل ساعة الصفر.

دفعت خطورة وحجم المؤامرة بالباحثين في جامعة هارفارد إلى إجراء لعبة حرب محاكاة لخطة الإرهابيين اليهود تلك، وذلك في محاولة للتعرف على العواقب المترتبة على المؤامرة في حال لو وجدت طريقها للتنفيذ، وذلك طبقاً لما ورد في كتاب د. ايهود سبرينزاك من الجامعة العبرية، والمعنون: صعود اليمين المتطرف في إسرائيل. ومما قاله المؤلف بأن دراسة جامعة هارفارد خرجت بنتيجة مؤداها أن نجاح العملية الإرهابية كان سيضع الشرق الأوسط على أعتاب مرحلة جديدة. وأضاف معدو الدراسة، بعبارات غلب عليها الحذر وعدم إثارة المشاعر ما أمكن، القول بأن: الأزمة المحتملة المترتبة على العملية قد تكون" أعمق وأوسع وأطول من أي أزمة حدثت في الماضي". غير أن تقييمات أقل حذراً وأكثر وضوحاً وصراحة قالت بأن المؤامرة على قبة الصخرة "كانت ستفجر حرباً عالمية ثالثة".

حتى عام**1977** كانت الأغلبية الساحقة من المستوطنين هم من المتدينين وينتمون في معظمهم لحركة غوش إينوميم. وبعد صعود الليكود للسلطة انتقل العديد من الإسرائيليين العاديين وبخاصة الموظفين للسكن في الضفة الغربية, مدفوعين بتوفر مساكن أوسع وأرخص, بالإضافة للامتيازات والمكاسب العديدة الأخرى, مثل الدعم العقاري والإعفاء الضريبي اللذين وفرتهما حكومة الليكود لتشجيع الإسرائيليين على اختلاف انتماءاتهم على الانتقال للسكن في الأراضي المحتلة. ومع التجاوب الكبير من قبل الإسرائيليين أصبح **80**% من المستوطنين من غير الفئة المتدينة, وإن كانوا لا يقلون تطرفاً عن مستوطني غوش إينوميم.

لم يكن توفير السيولة المطلوبة لتمويل برامج وطموحات القائمين على الحملة الاستيطانية ليمثل أي مشكلة في أي وقت, مع وجود الدعم الحكومي المفتوح والتبرعات السخية القادمة عبر الأطلسي من أثرياء اليهود الأمريكيين. وعندما زار رئيس بلدية أرييل الولايات المتحدة عام **1987** بهدف جمع التبرعات للمستوطنة الكبيرة, عاد وفي جعبته عدة ملايين من الدولارات جمعها من الأثرياء اليهود هناك منهم ألبرت رايخمان، رئيس شركة أولمبيا آند يورك، و الملياردير مايكل ميلكين الذي سبق وأن أدين بتهمة الاحتيال المالي.

حقق بيغن عودة مظفرة للسلطة بعد أن نال الليكود هامشاً أكبر في انتخابات **1981** عما حققه الحزب اليميني في انتخابات **1977**. بعدها بستة أشهر، أعلن بيغن ضم مرتفعات الجولان رسمياً لإسرائيل، كما عين ميناخيم ميلسون، أستاذ اللغة العربية في الجامعة العبرية, على رأس الإدارة المدنية التي أنشئت حديثاً في الأراضي المحتلة. كان أول ما فعله ميلسون وضع فكرته الخاصة بإقامة ما عرف بـ: روابط القرى، التي سبق وأن كتب عنها باعتبارها في نظره بديلاً عن منظمة التحرير الفلسطينية. انتهت فكرة الروابط إلى الفشل بعد أن لقيت الرفض والمقاومة من الشارع الفلسطيني، خاصة وأن تجاوب الشخصيات الفلسطينية مع عضوية روابط القرى اقتصر على عصبة من السياسيين ومخاتير القرى الفاسدين. عمد ميلسون بعدها إلى طرد رؤساء البلديات وأغلق جامعة بير زيت وإثنتين من الصحف الصادرة حديثاً.

في غضون ذلك كانت حكومة الليكود منهمكة في مصادرة المزيد من أراضي الفلسطينيين. ففي بداية الاحتلال عام **1967** كان **0.5**% من أراضي الضفة فقط تحت السيطرة الإسرائيلية. وبحلول **1984** كان **40**% من هذه الأراضي مصادرة لأغراض الاستيطان واستخدامات الجيش وشق الطرق. كما وألغى الليكود قانوناً سابقا لحكومة العمل يحظر فيه على اليهود شراء أراضٍ عربية في الضفة الغربية. كانت النتيجة بروز ظاهرة تزوير عقود شراء الأراضي من العرب؛ واستيلاء المستوطنين عليها. وطبقاً لتقرير نشرته النيويورك تايمز في عددها الصادر بتاريخ **20** أغسطس **1985** فإن رئيس الوزراء آنذاك إسحق شامير أمر الشرطة الإسرائيلية بعدم التدقيق في قضايا تزوير عقود بيع الأراضي في الضفة الغربية لأن انتزاع الأراضي من العرب يتطلب " بعض الخداع". وفي خطاب ألقاه في الوقت نفسه قال شامير" غالباً ما تتطلب عملية استعادة أرض إسرائيل اللجوء إلى المكر ووسائل الخداع".

مئير كاهانا: من نيويورك إلى الكنيست

وصل مئير كاهانا إسرائيل حاملاً معه "ماركة صهيونية" خاصة به. فقد كان كاهانا يرى بأن مجرد الوجود العربي في أرض إسرائيل يلوث الجوهر والروح اليهودية، وهذا يعني أن اليهود أمام مشكلة تتجاوز في طبيعتها الجانب الديمغرافي والتهديد المادي، مما يجعل من طردهم ضرورة بل وشرطاً مسبقاً للخلاص. وفي ذلك كتب كاهانا يقول:" الصهيونية، وإقامة دولة إسرائيل، وعودة ملايين اليهود إلى الوطن، والانتصارات المعجزة لليهود القلة على العرب الكثرة، وتحرير يهودا والسامرة وغزة والجولان، وعودة السيادة اليهودية على المدينة المقدسة، وجبل الهيكل.. كل هذا جزء من الوعد الإلهي وتحقيقه". [1]

ولعل من أبرز معتقدات كاهانا التي شكلت الأساس لسائر ممارساته إلى حين اغتياله في نيويورك على يد مسلم من أصول مصرية ، إيمانه الراسخ بأن وجود العرب في أرض إسرائيل، وعدم هدم قبة الصخرة، هو الذي يعيق عودة المسيح وإتمام عملية الخلاص. ومن كتاباته بهذا الشأن:" لو أننا تحركنا بدون أن نأخذ بالاعتبار ردة فعل الغرباء، وبدون الخشية مما يقول أو يفعل هؤلاء، لكان المسيح عاد ودخل من الباب

[1] The False Prophet, Rabbi Meir Kahana, Robert I. Friedman, Lawrence Hill Books, New York, Fist Edition 1990, Pg 173

المشرع جالباً لنا الخلاص". وأضاف كاهانا في مقالة نشرتها له مطبوعة **JDL** " نحن الشعب المختار وشعب من نوع خاص.. تم اختيارنا لما أضفاه علينا الرب من نقاء وقدسية، والارتقاء فوق مستوى الآخرين لتلقينهم حقيقة النقاء والقدسية كما علمنا إياها الرب.. ليس هناك من سبب أو هدف من أن نكون يهوداً إذا لم نكن متميزين عن الآخرين.. لا .. لا يمكن أن نكون على قدم المساواة مع الأجانب.. نحن مختلفون .. نحن أسمى من الآخرين". لا شك في أن هناك من يرى بأن صفة العنصرية لا تكفي في وصف مثل هذا الطرح. ومع ذلك فإن كاهانا بما يمثله من عنصرية وحقد على كل ما هو غير يهودي، استطاع تشكيل حزب سياسي أطلق عليه اسم: "كاخ" وليجد نفسه بعد الانتخابات التالية عضواً فاعلاً في الكنيست. [1]

غير أن كاهانا لم يكن وحيداً في طروحاته العنصرية, وإن كان الأجرأ في التعبير عنها بصوت عال, ومن خلال الممارسة الواضحة على الأرض. فهذا الحاخام موشيه سيغال الذي كان ينتمي لعصابة الإرغون قبل **1948**' يقول بأنه لا ضير في اللجوء للجريمة الجماعية لاجتثاث "المشكلة العربية" في الأراضي المحتلة، واعتاد تشبيه العرب بقبيلة أماليك **Amalek** التي تم القضاء عليها على يد العبرانيين القدامى. ولهذا نجده يكتب قائلاً:" على المرء التحلي بالرحمة مع المخلوقات كافة.. غير أن التعامل مع الأماليك شيء مختلف.. التعامل مع الذين يسرقون أرضنا.. أمر مختلف بالقطع". وأضاف سيغال مستشهداً بما جاء في التوراة على لسان الرب :" عليكم طرد سائر السكان من الأرض أثناء زحفكم والاستيطان هناك.. في الأرض التي وهبتكم إياها.. ولكن إذا لم تقوموا بطرد سكان الأرض مع تقدمكم فإن كل من يتبقى منهم فيها سيكون بمثابة كلاليب شوكية في أعينكم وأشواك في خاصرتكم. . ولن يتوقفوا عن منازعتكم ملكية الأرض التي تسكنون.. وهنا سأفعل بكم ما أنوي فعله بهم". [2]

وفي مقابلة أجراها معه الكاتب الصحفي روبرت فريدمان عام **1991** ، قال ماتيتياهو دروبلز، مساعد رئيس المنظمة الصهيونية العالمية:" يهودا والسامرة جزء من أرض إسرائيل.. وإذا أردنا تحقيق السيادة اليهودية هناك علينا استيطانها ..هذا مكان لا غلبة فيه إلا لمن يملك القوة .. ونحن لدينا القوة .. وكما ينص عليه الإنجيل، فإن لنا الحق في الضفة الشرقية للأردن.. وإن كان ما حصلنا عليه حتى الآن" الضفة الغربية" كاف لجيلي".

كانت رؤية الليكود هي خلق واقع جديد على الأرض, من خلال نشر عدد كبير من المستوطنات وبشكل يجعل من الصعب على أي حكومة إسرائيلية قادمة وبغض النظر عن توجهاتها، التجرؤ على إخلائها بدون المخاطرة في التسبب بحرب أهلية.

متعصبو جبل الهيكل... والمسجد الأقصى

لم تكن فكرة هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل الثالث مكانه، تسيطر على تفكير القلة من المتطرفين اليهود فحسب، بل إنها تتجذر عميقاً في الإيديولوجية الصهيونية الدينية. فهذا كبير حاخامات الجيش الإسرائيلي خلال حرب الأيام الستة، وبمجرد دخوله القدس مع

---

[1] The False Prophet, Rabbi Meir Kahana, Robert I. Friedman, Lawrence Hill Books, New York, Fist Edition 1990, Pg 173

[2] The False Prophet, Rabbi Meir Kahana, Robert I. Friedman, Lawrence Hill Books, New York, Fist Edition 1990, Pg 260

أول دفعة من القوات الإسرائيلية، يطلب من الجنود رفع علم إسرائيل الذي يحمل نجمة داوود فوق قبة الصخرة المذهبة.. غير أن موشيه دايان الذي وجد في مثل هذا العمل ما يثير لإسرائيل الكثير من المشاكل السياسية، أمر الجنود بأنزال العلم بعد أن قاموا برفعه.

وفي نفس الوقت اقترب نفسه الجنرال سولومون غورين من الجنرال عوزي نركيس الذي قاد عملية احتلال القدس ليقول له :" هذه هي اللحظة المواتية لتفجير قبة الصخرة.. افعلها وسيخلد اسمك في سجلات التاريخ". وعندما أوضح الجنرال نركيس, بأن مثل هذا العمل لا يمكن أن يتم إلا في خضم المواجهات العسكرية زمن الحرب، علق غورين قائلاً:" غدا سيكون قد فات الأوان على ذلك". [1]

بتاريخ **21** أغسطس **1969** أضرم مهووس أسترالي النار في المسجد الأقصى, وأخذ في تصوير النيران التي بدأت تلتهم المسجد بأنتظار الشرطة والإطفائية التي تأخر وصولها. وفي **12** مايو **1980** ألقت الشرطة القبض على الحاخام مئير كاهانا ومساعده أندي غريين بتهمة التخطيط لنسف الأقصى. وفي العام نفسه دخل يهودي متطرف قادم من أمريكا المسجد وفتح النار على المصلين؛ فقتل فلسطينياً وأصاب آخر. وبعدها ببضعة أشهر حاول أربعة شبأن من اليهود المتطرفين المسلحين برشاشات عوزي ومتفجرات اقتحام نفق أرضي يؤدي لساحة الأقصى, وتم اكتشاف المذكورين قبل أن يتمكنوا من زرع المتفجرات داخل المسجد. وفي تاريخ لاحق اعتقلت الشرطة أكثر من ثلاثين بمن فيهم حاخام معروف على خلفية التخطيط لنسف المسجد الأقصى. ولدى تفتيش شقة الحاخام المذكور, عثرت الشرطة على مخططات لموقع الأقصى ومداخله, بالإضافة إلى مخزون كبير من الأسلحة. وفي **9** أغسطس **1990** ألقي القبض على شيمون باردا ، زعيم مجموعة يهودية سرية, ووجهت له تهمة التخطيط لنسف الأقصى بعد أن عثرت الشرطة في منزله على مخزن كبير للأسلحة, بما في ذلك قذائف صاروخية من نوع تاو التي تحمل على الكتف. وللتغطية على الجريمة، تم تحويل المذكور وعدد كبير من عصابته إلى مستشفى للأمراض النفسية. وفي ذلك يعتقد الفلسطينيون بأن إسرائيل لا تملك من المستشفيات النفسية ما يتسع للعدد الهائل من هذا النوع من المرضى في البلاد.

بدأت عملية تعزيز الروابط بين المسيحيين البروتستنت والأصوليين اليهود في عهد ميناحيم بيغن, الذي تعرض لضغوط لإعادة بناء الهيكل من الطرفين، هذا إن لم يكن البروتستنت قد تفوقوا على أصحاب الشأن في حماستهم للمشروع. ومن جانبه حرص بيغن وبأقصى ما يملك من جهد على استغلال الدعم السياسي والاقتصادي للمسيحيين الصهاينة هؤلاء وحماستهم المفرط تجاه إسرائيل، خاصة وأنهم ثمانية أضعاف يهود أمريكا من حيث العدد. وسرعان ما أصبح المسيحيون الصهاينة هؤلاء الممول الفعلي لحركة الاستيطان اليهودي في الأراضي المحتلة ولحزب الليكود. ويبرز القس جيم فالويل، من بين رموز الكنيسة البروتستنتينية أو ما يعرفون بـ: المسيحيين الصهاينة، كواحد من أبرز مؤيدي رؤية ومشاريع زعيم الليكود ميناحيم بيغن. وفي ذلك يقول روبرت فريدمان:" كان فالويل صريحاً وقوياً في تأييده لحزب الليكود في الانتخابات الإسرائيلية عام **1984**، عندما قال أمام المئات من أنصاره خلال مؤتمر سياسي قبل الانتخابات: آمل مخلصاً أن لا يتم انتخاب

[1] 1967 Tom Segev, Henry Holt & Co, New York, First U.S. Edition 2007, Pg 379

حكومة في إسرائيل تعمل على تجميد الاستيطان وتوقف التوجه الحالي الذي سيمكننا من تحقيق سيطرة لا رجعة فيها على الضفة الغربية في غضون **3-5** سنوات". [1]

يعتقد المسيحيون الصهاينة الذين يتبعون التفسير الحرفي لإنجيلهم الذي كتبوه, بأن عودة اليهود لفلسطين ستسرع من عودة المسيح إلى الأرض, حيث سيتحول اليهود إلى المسيحية بالضرورة. وعندما قيل لأحد مسئولي لجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية **AIPAC** بأن الأصوليين المسيحيين يسعون لتحويل اليهود إلى الديانة المسيحية بعد عودة المسيح، أجاب بأنه سيبدأ يشعر بالقلق من هذا الأمر فقط عندما يرى المسيح يتجلى فوق جبال القدس.. وحتى ذلك الحين فإن أكبر همه هو الحصول على أكبر دعم من هؤلاء لإسرائيل.

وفي السياق نفسه نجد بأن حركة المخلصين لجبل الهيكل، التي يترأسها غيرشون سولومون، تحظى بدعم بين المسيحيين الصهاينة يفوق ما تحظى به الحركة في إسرائيل، الأمر الذي مكنه من نشر فروع للحركة في عدد من الولايات الرئيسية منها: نيويورك وفلوريدا وتكساس وكاليفورنيا. وعندما زار غيرشون الحزام الإنجيلي عام **1991** طالبه عدد من رموز الكنيسة البروتستنتينية بالشروع في بناء الهيكل الثالث فوراً. ويعتبر القس التلفزيوني الشهير بات روبرتسون من أبرز مؤيدي غيرشون. ويؤمن روبرتسون صاحب البرامج الدينية التي تبث على **200** قناة تلفزيونية محلية و**60** قناة أجنبية بالرأي القائل بأن "إسرائيل هي الدولة المفضلة عند الرب، وبأن أمريكا ستحظى بمباركته مادامت تقدم الدعم لإسرائيل" . وخلال الغزو الإسرائيلي للبنان عام **1982** ، أمضى روبرتسون عدة أسابيع وهو يحاول إقناع المشاهدين، بأن الجنود الإسرائيليين موجودون هناك في مهمة مقدسة لتحقيق رؤية النبي إشعيا **Ezekiel**".

وهذا مونرو سبين الثري اليهودي المتشدد من فلوريدا, والذي لا ينفك عن وصف نفسه بـ: اليهودي الصهيوني حتى النخاع، يجد في اليمين الإسرائيلي المتطرف على المستويين الرسمي والشعبي الأجدر بالدعم والمناصرة. ولهذا نجده يسهم في إيصال شخص مهووس مثل مائيير كاهانا إلى الكنيست من خلال دعم حملته الانتخابية. كما أن دعمه لحركة سولومون أنقذها من البقاء مغمورة على هامش حزب تيحيا **Tehiya** المتشدد, لتصبح حركة سياسية يمينية تحظى بدعم مالي سخي من عدة مصادر. بل إن سبين كتب ذات مرة إلى رئيس بلدية القدس السابق تيدي كوليك طالبا منه التحرك لإعادة بناء الهيكل على أنقاض قبة الصخرة.

في**17** أغسطس **1986** ، جمع مونرو سبين الجماعات المختلفة التي تنادي بإعادة بناء الهيكل الثالث في لقاء في الحي اليهودي من البلدة القديمة، على أمل توحيد هذه الجماعات، والاتفاق على آلية تمويل تكفل لها الاستمرارية وتنفيذ هدفها عندما يحين الوقت المناسب. ومن الجماعات التي لبت النداء وتواجدت في اللقاء نشطاء حزب كاخ الذي يترأسه كاهانا بمن فيهم الحاخام شخصياً، وستانلي غولدفوت اليهودي الثري المولود في جنوب إفريقيا، وبيترغولدمان رئيس جماعة: الأمريكيون من أجل سلامة إسرائيل. وفي

[1] Zealots For Zion, Robert I. Friedman, Rutgers University Press, New Brunswick, N.J. 1990, Pg 143

الاجتماع ارتفع صوت كاهانا وغولدفووت عالياً في المطالبة بالدخول في مواجهة مع الحكومة الإسرائيلية للسماح لهم بالصلاة على جبل الهيكل، الأمر الذي خالفهم فيه سولومون, الذي كان يحبذ السير قدماً ولكن بحذر وبطء بأسلوب الخطوة خطوة." في البداية الحصول على حق الصلاة في المكان ربما من خلال المحاكم الإسرائيلية، ثم بناء كنيس صغير على أرض جبل الهيكل، وصولاً في النهاية إلى إزالة المساجد من المكان وإعادة بناء الهيكل الثالث". [1]

يجد المرء الكثير ما يثير الإهتمام في استعراض سيرة حياة العديد من مؤيدي اليمين الإسرائيلي المتطرف. فهذا غولدفووت حليف مائيير كاهانا ، هو عضو سابق في عصابة شتيرن، وطالما تبجح بمشاركته في اغتيال الوسيط الدولي الكونت بيرنادوت ودوره في نسف فندق الملك داوود. ويبدو أنه وجد في إقامة علاقات وثيقة مع المسيحيين الصهاينة ما يعينه على تشكيل منظمة معفاة من الضريبة تحت اسم: مشروع جبل الهيكل. وبرز من بين هؤلاء الناشطين الأمريكيين الحلفاء المليونير النفطي تيري ريزينهوفر من أوكلاهوما, الذي قضى حكماً بالسجن لأربع سنوات عام **1987** لممارسته الاحتيال إثر بيعه عقود امتيازات نفطية لا قيمة لها في الاسكا. وهناك بيرنارد بيرغمان، أحد أغنى وأقوى اليهود المتطرفين في العالم, الذي اختار التحالف مع الحزب الوطني الديني, ويعتبر من أشد المتحمسين والداعمين للمشاريع الاستيطانية في الأراضي المحتلة.

يلقي رويرت فريدمان في كتابه المعنون: الحاخام مئير كاهانا.. النبي الزائف، الضوء على خلفية العديد من أنصار اليمين الإسرائيلي من أصحاب الملايين من اليهود الأمريكيين، ومن ذلك معلومات مثيرة عن مصادر ثروات هؤلاء. وفي ذلك يقول عن بيرغمان:" جمع ثروته من إدارة سلسلة لدور العجزة عبر الولايات، حيث تحدثت التقارير وأكدت التحقيقات، أن النزلاء فيها كثيراً ما كانوا يتركون بدون أي عناية وهم "منقوعين في بولهم". وتصف صحيفة النيويورك ديلي نيوز بيوت العجزة هذه بأنها أقرب إلى مستودعات بشرية يلقى فيها كبار السن بأنتظار وفاتهم. ما من شك في أن بيرغمان ورث أخلاقيات المهنة عن والديه الذين لم يكتفيا بتهريب المشروبات الكحولية في الماضي بل أدينا عام **1941** بتهمة تهريب **8** كيلوغرام من الهيروين من فرنسا محشوة بكتب دينية عبرية. تقول سونيا: كان بيرغمان متورطاً في كل الأنشطة القذرة.. فقد اعتاد الاحتفاظ بجثث الموتى في ثلاجات بيوت الرعاية التي يديرها طمعاً في استمرار الحصول على مخصصاتهم من الضمان الاجتماعي . وبعد إدانته عام **1974** بتهمة التزوير, وقف بريغمان أمام كاميرات التلفزيون ليقول: يشهد الله أنني بريء. بعدها اعترف بيرغمان بأنه مذنب بتهمة التزوير والرشوة وأمضى سنة في السجن..". [2]

أما غولدفووت وبعد عودته من مهمة في الولايات المتحدة لنشر رؤية إعادة بناء الهيكل من خلال "مؤسسة هيكل القدس" وكنيسة جبل الهيكل. فيدّعي بأنه خاطب المسيحيين الصهاينة بالقول:

---

[1] Zealots For Zion, Robert I. Friedman, Rutgers University Press, New Brunswick, N.J. 1990, Pg 146

[2] The False Prophet, Rabbi Meir Kahana, Robert I. Friedman, Lawrence Hill Books, New York, Fist Edition 1990, Pg 17

" أبلغت الغوييم (المسيحيين) في أمريكا بأن جبل الهيكل هو أعلى جبل على وجه الأرض؛ لأنه يمثل قمة "أيفرست" الأخلاقية والروحية للبشرية. وأضاف غولدفووت مستذكراً كلمته في أمريكا: أدهشتني حفاوة الاستقبال الذي لقيته هناك لسبب وحيد هو أنني كنت الشخص القادم إليهم من القدس لأحدثهم عن الهيكل.. قلت للغوييم بأنهم مدينون لنا نحن اليهود بالكثير, وبأنني أشك في قدرتهم على الوفاء به مهما فعلوا ومهما طال الزمن.. فقد اضطهدونا وقتلونا وسرقونا على مدى قرون.. بل إنهم سرقوا حتى ديننا ليحرفوه ويطلقوا عليه أسماً مختلفاً: المسيحية.. إلا أنني قلت لهم بأنهم قد يجدون منا الغفران والسماح إذا ما دفعوا لنا تعويضات كافية, وعلى مدار فترة طويلة فقد ينالوا المغفرة وتتاح لهم مشاهدة وجه الرب.. قلت لهم بأن الرب لن يتقبلهم إلا إذا "ساعدتمونا في إعادة بناء الهيكل" .. وعندها فقط يمكن إنقاذكم .. لست واثقاً تماماً من أن الرب سيغفر لكم إلا أن عليكم المحاولة.. أعجبهم كلامي وبدأوا يرددون: هلليلوليا.. هلليليوليا.. قلت لهم عندها بأن عليهم التحرك وعلى الفور لنشر الدعاية في عموم أمريكا دفاعاً عن السيادة اليهودية على جبل الهيكل، وممارسة الضغوط على الكونغرس وعلى الرئيس نفسه"[1]

أما الشيء الذي لم يكن ليثير الضحك في هذا الموقف، فهي حقيقة أنه حتى الرئيس رونالد ريغان كان من أشد المؤمنين بنظرية هرمجدون **Armageddon** (معركة الخير والشر التي سيقودها المسيح في آخر الزمان) منذ **1968** وحتى خلال سنوات وجوده في البيت الأبيض. وهنا يقول روبرت فريدمان:" في مناسبات عدة، تحدث فرانك كارلوتشي وكاسبار وينبيرغر مع الرئيس ريغان حول أهمية الردع النووي، ليفاجأ الاثنان بالاستماع لمحاضرة منه حول هرمجدون. في **5** مايو **1989** أبلغ ريغان كانون(كاتب سيرة حياته) بأن سيطرة إسرائيل على جبل الهيكل ستكون إشارة على اقتراب هرمجدون".[2]

عملية السلام.. بدون سلام

جاءت حرب الخليج الأولى لتكشف مدى الوهن الذي يعتري منطق اللوبي الصهيوني الخاص بأهمية إسرائيل الإستراتيجية بالنسبة للولايات المتحدة. فلم يكن لمنظومة الأسلحة المتطورة التي تم تزويد إسرائيل بها، ولا المساعدات العسكرية والاقتصادية الهائلة التي تنهال عليها، لتجعل من الدولة العبرية مصدر نفع للولايات المتحدة في خططها لغزو العراق بحجة إخراج الجيش العراقي من الكويت. لم تعتمد الولايات المتحدة على إسرائيل في حربها بل إنها لم تملك سوى الطلب من حليفتها الإستراتيجية التزام الهدوء، بينما اختارت التحالف مع الأنظمة العربية في الحرب الأولى، وعلى مشاركة تحالف دولي في غزو العراق عام **2003**

بعد حرب الخليج الأولى قام وزير الخارجية الأمريكي جايمس بيكر بثمان زيارات للشرق الأوسط خلال أقل من ثمانية أشهر لتليين موقف شامير والتفاوض حول الأجندة

[1] Zealots For Zion, Robert I. Friedman, Rutgers University Press, New Brunswick, N.J. 1990, Pg 148

[2] Zealots For Zion, Robert I. Friedman, Rutgers University Press, New Brunswick, N.J. 1990, Pg 151

الخاصة بمؤتمر مدريد للسلام الذي عقد بتاريخ **30** أكتوبر **1991**. غير أن شامير كان وقتها يخطط لاستخدام المؤتمر والمفاوضات التي أطلقها لشراء الوقت مع اقتراب الانتخابات الرئاسية الأمريكية، حيث الفرصة المواتية للجنة العلاقات العامة الأمريكية الإسرائيلية "أيباك" وإسرائيل لإظهار نفوذها والطرف الحقيقي الذي يمسك بالخيوط في واشنطن.

مؤتمر مدريد

بدا واضحاً حتى قبل انطلاق أعماله بأن مؤتمر مدريد سيعقد تحت وطأة مطالب شامير التي حددت شروط المرجعية وهي:

- لن يكون للمؤتمر الافتتاحي أي سلطة لفرض أي حلول، وبعبارة أوضح فإن ميزان القوى يميل لصالح إسرائيل بشكل كبير، وبالتالي فإنها في وضع يتيح لها الخروج منه بما تريد وإلا فإن من الأفضل أن يذهب كل إلى حاله.
- عقد محادثات ثنائية مع الدول العربية المجاورة، الأمر الذي يتيح لإسرائيل اللعب على التناقضات العربية. كما تم استبعاد مصر كما لو أن القضية الفلسطينية لا تعنيها بشيء.
- يقوم التفاوض مع الفلسطينيين على مبدأ منحهم حكماً ذاتياً لفترة خمس سنوات تتبعها مفاوضات على الوضع النهائي.. وهذا يعني حصول الفلسطينيين على حكم ذاتي على جزء من الضفة الغربية، وبما يجعل الحكومة الفلطسينية مجرد مقاول أمني فرعي لإسرائيل. ومن يدري ماذا ستؤول إليه الأوضاع بعد خمس سنوات؟.
- تأخذ المفاوضات صفة التعددية عندما يتعلق الأمر بالقضايا الإقليمية مثل قضية اللاجئين.. ويأتي إشراك دول أخرى في المفاوضات في هذه الحالات فقط من منطلق أنها ستتحمل العبء الأكبر في عملية التوطين وتسديد الفواتير.

بعد أيام فقط من افتتاح مؤتمر مدريد وجد جورج بوش الأب نفسه خارج المكتب البيضاوي، بينما انتهى الراعي الآخر للمؤتمر، الاتحاد السوفياتي ، إلى التفكك. غير أن الضربة القاضية التي وجهتها إسرائيل لمؤتمر مدريد جاءت في أوسلو التي اختيرت مسرحاً لقناة سرية من المفاوضات بين فريق تفاوضي إسرائيلي يعرف تماماً ماذا يريد، وآخر فلسطيني غير مخول ويفتقر للخبرة والدراية بل وحتى الالتزام بالثوابت الفلسطينية، في خطوة أفقدت الفريق الرسمي الأكثر مصداقية برئاسة د. حيدر عبد الشافي التوازن وسلبته الشرعية. وقتها أعرب عبد الشافي عن دهشته البالغة لوجود القناة السرية والأخطر من ذلك الشروط التي تحكم مفاوضات أوسلو.

في الوقت الذي كانت فيه المفاوضات المنبثقة عن مؤتمر مدريد متواصلة، ومحمود عباس يفاوض الإسرائيليين سراً للتوصل إلى اتفاقات أوسلو، كان شامير وشارون منهمكين في مشروعهما الخاص المغاير تماماً وهو: العمل على تحقيق حلمهما بزرع مليوني مستوطن في الأراضي المحتلة بحلول نهاية التسعينات. وفي هذا الصدد، بدأ شارون في نوفمبر عام **1990** زيادة الدعم المقدم للمستوطنين في الضفة الغربية، والذي اتخذ شكل حزمة من الإعفاءات الضريبية وفترة سماح، وصولاً إلى الإعفاء من جزء من المستحقات المالية المترتبة على المستفيدين.. وفي خطوة لاحقة وصلت الأمور بالسلطات إلى توزيع القسائم السكنية على المستوطنين بدون مقابل، الأمر الذي دفع بالمشرع ديدي زوكر

للقول:" عندما تنظر إلى هذه التسهيلات.. يكون أحمق من لا يبادر للانتقال للسكن في الضفة الغربية وخصوصاً من المتزوجين حديثاً". بقي برنامج شارون قيد الكتمان حتى كشفت صحيفة دافار عنه في يوليو **1991**.

عندما بدأ جايمس بيكر سلسلة زياراته للشرق الأوسط للضغط على إسرائيل لحضور مؤتمر السلام ، وجد نفسه أمام اثنين من عتاة التطرف الإسرائيلي: رئيس الحكومة إسحق شامير ' إرهابي معروف سابق ورئيس للموساد الذي كان يرى حتى في ميناحيم بيغن زعيماً معتدلاً بعد توقيعه معاهدة كامب ديفيد مع السادات، وهي المعاهدة التي لم يقبلها شامير حتى مماته.. ووزير الزراعة آرييل شارون بطل الاستيطان الحقيقي والمحارب الدموي. في البداية اعترض شامير على الرغبة الأمريكية بإطلاق المفاوضات، ليجد نفسه في مواجهة إصرار بوش الذي كان في أوج شعبيته بعد الانتصار المؤزر الذي تحقق في عاصفة الصحراء. وعليه قبل شامير حضور مؤتمر مدريد على مضض، ولكنه أسر إلى بعض المقربين بأنه يعتزم إطالة المفاوضات إلى الأبد. في غضون ذلك طلب بوش تجميد النشاط الاستيطاني، وجعل من استجابة شامير شرطاً للموافقة على ضمان قروض أميركية لإسرائيل بقيمة **10** مليارات دولار، في خطوة شكلت سابقة في العلاقات الأمريكية الإسرائيلية، واعتبرها شامير وأيباك **AIPAC** خطيئة لا تغتفر أن يتجرأ رئيس أميركي بالوقوف في وجه مطالب إسرائيل المالية. كانت إسرائيل وقتها تعتمد على مصادر الدعم المالي الأمريكية التي لا تنضب ما دامت المعادلة المستخدمة في الانتخابات الأمريكية تسير وفق المخطط التقليدي لها وهو: يدفع اللوبي الإسرائيلي وأنصاره بضعة ملايين من الدولارات لإيصال من يرغبون من السياسيين إلى مواقع اتخاذ القرار، سواء في الكونغرس أو في البيت الأبيض، ويضمن هؤلاء السياسيون في المقابل فتح بوابات الخزينة الأمريكية على مصراعيها لتتدفق المساعدات على إسرائيل بالمليارات.

سرعان ما تغيرت الأمور بالنسبة لبوش. وفي ذلك قالت باربارا بوش لاحقاً بأن تغيراً كبيراً حصل في موقف وسائل الإعلام من زوجها الرئيس، ما أسهم في إحداث تراجع كبير في شعبيته أمام بروز نجم سياسي شاب قادم من الجنوب، بدأ يحظى بتركيز كبير من لدن وسائل الإعلام التي يسيطر عليها اليهود وهو: حاكم أركانساس بيل كبينتون. وبأنتظار الانتقام الإسرائيلي القادم من بوش، توجه شامير مجبراً إلى مدريد على عكس رغبة صقور الليكود: شارون ونتنياهو اللذين توليا رئاسة الحكومة في وقت لاحق ليجهزا على القليل مما تحقق باتجاه السلام.

اتفاقيات أوسلو

بتاريخ **13** سبتمبر **1993** تم التوقيع على اتفاقيات أوسلو أو كما عرفت رسمياً: إعلان مبادئ بشأن ترتيبات الحكم الذاتي **DOP** . نصت الاتفاقيات على اتفاق الطرفين على مبادئ عامة لحكم ذاتي للفلسطينيين لفترة خمس سنوات ، تقوم السلطة الفلسطينية الجديدة بموجبها فعلياً بدور المقاول الأمني لحساب إسرائيل بالإضافة لتسيير الشئون البلدية، بينما تبقى قضايا الدفاع والأمن والحدود بل والسياسة الخارجية في يد إسرائيل، وتأجيل القضايا الرئيسية التي أطلق الفريقان عليها اسم: قضايا الوضع النهائي لمفاوضات لاحقة وتشمل: القدس والحدود والأمن والمستوطنات واللاجئين. الواقع أن التنازلات

المفترضة التي قدمتها إسرائيل في مفاوضات أوسلو لا تقارن بشيء مما قدمه الجانب الفلسطيني.

قبل توقيع اتفاقيات أوسلو رسمياً كان على ياسر عرفات الإقدام على خطوة رئيسية وهي الاعتراف بإسرائيل، الأمر الذي تحقق وعلى الطريقة الإسرائيلية . ففي **9** سبتمبر **1993** وقع عرفات نص رسالة موجهة لرئيس الحكومة الإسرائيلية إسحق رابين تتناول القضايا الرئيسية بين المنظمة وإسرائيل. ونصت الرسالة على النقاط الرئيسة التالية:

- تعترف منظمة التحرير الفلسطينية بحق إسرائيل بالوجود بسلام وبأمان.
- تقبل منظمة التحرير بقراري مجلس الأمن للأمم المتحدة رقم **242** و**338**.
- تلتزم المنظمة بعملية السلام في الشرق الأوسط.. وبحل سائر القضايا الرئيسية من خلال المفاوضات.
- ... تنبذ المنظمة الإرهاب وغيره من ممارسات العنف، وتتحمل المسئولية عن سائر فصائل المنظمة والعاملين فيها لضمان إذعانهم لما تم الاتفاق عليه ومنعاً لأي انتهاكات من قبل البعض.
- .. تصبح البنود الواردة في ميثاق المنظمة والخاصة برفض الاعتراف بوجود إسرائيل وجميع البنود التي تتعارض وما ورد في هذه الرسالة من تعهدات، ملغاة الآن وغير معمول بها.
- .. تتعهد المنظمة بعقد اجتماع للمجلس الوطني الفلسطيني للحصول على الموافقة الرسمية على التعديلات الضرورية فيما يتعلق بالميثاق الفلسطيني.
- وفي المقابل بعث رابين برسالة إلى عرفات تحمل التاريخ نفسه جاء فيها:
- ... قررت إسرائيل الاعتراف بمنظمة التحرير كممثل للشعب الفلسطيني، والدخول في مفاوضات مع المنظمة.

صحيح أن رئيس الطاقم التفاوضي الذي كان وراء هذا الخلل الهائل في التوازن في موقفي الجانبين، لم يكن سوى محمود عباس، إلا أن ما تفتقت عنه قريحة عباس حظي بموافقة عرفات ورفاقه.

تحققت رغبة ونوايا شامير بإطالة أمد عملية السلام إلى ألف سنة من خلال توالي سلسلة من الاتفاقيات الجديدة بين الطرفين، دون أن يجد أي مما يتم الاتفاق عليه طريقه للتنفيذ، إلى أن وصل شارون للسلطة ليوجه الضربة القاضية لاتفاقيات أوسلو. قبل ارتقاء شارون سدة الحكم في إسرائيل، عمد فريق من المحافظين الجدد الأمريكيين منهم: ريتشارد بيرل، إلى إعداد تقرير تم رفعه لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو يطلبون منه التخلي عن أوسلو. إلا أن شرف تلبية هذه الرغبة القادمة عبر الأطلسي كان من نصيب شارون، الذي بدأ تطبيق خطة بهذا الشأن بدءاً من **2001** أي في تزامن مثير مع تبوؤ نفس أصحاب التقرير من المحافظين الجدد لمقاليد الأمور في واشنطن من خلال إدارة جورج دبليو. بوش. من الجدير بالذكر أنه منذ وصول الليكود بزعامة بيغن للسلطة عام **1977** والمتطرفون يتحكمون بإدارة إسرائيل باستثناء فترات قصيرة من وقت لآخر. والملاحظ كذلك أن كل حكومة جديدة يشكلها الليكود (أو كاديما الذي ولد من رحم الليكود) تنافس سابقتها في انتهاج التطرف وعدم الوفاء بأي تعهدات نصت عليها الاتفاقيات العديدة الموقعة مع الفلسطينيين، هذه الاتفاقيات التي لم تكن سوى خطوات تكتيكية لكسب المزيد الوقت وإضافة المزيد من المستوطنات في الأراضي المحتلة.

بعد اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي وقع اتفاقيات أوسلو إسحق رابين، لم يعد هناك من شيء يمكن التفاوض عليه. صحيح أن الجانبين عقدا جلسات تفاوضية عديدة وشاركا في مؤتمرات بحضور شهود كبار، إلا أن ذلك كان يتم في وقت لم تتوقف فيه إسرائيل عن قضم المزيد من أراضي الفلسطينيين ويتحول فيه إرهاب عصابات المستوطنين إلى إرهاب دولة.

.. أوسلو II

تم التوقيع على أوسلو-**2** بالأحرف الأولى، في طابا بتاريخ **24** سبتمبر **1995** والتوقيع النهائي عليها في واشنطن بعد ذلك بأربعة أيام. ونصت الاتفاقية ليس على قيام الجيش الإسرائيلي بأنسحاب بل "إعادة انتشار" في الضفة الغربية. وكانت القوات الإسرائيلية قد أقدمت على إعادة انتشار شملت غزة وأريحا بعد التوقيع على أوسلو-**1** وجاءت الخطوة الجديدة لتقسم الضفة إلى ثلاث مناطق: أ، ب، ج ولكل منطقة وضعها المختلف كما يلي:

- المنطقة- أ : وتضم الأراضي كافة التي تم نقلها من السيطرة العسكرية الإسرائيلية إلى السلطة الفلسطينية بما فيها غزة وأريحا والمراكز الفلسطينية السبعة الآهلة بالسكان: نابلس وقلقيلية وطولكرم وبيت لحم وجنين والخليل ورام الله، حيث أصبحت السلطة الفلسطينية في هذه المناطق مسئولة عن الأمن الداخلي والنظام العام بالإضافة إلى الشئون المدنية.
- المنطقة-ب: وتضم **450** بلدة وقرية فلسطينية في الضفة الغربية حيث تتولى السلطة المسئولية المدنية نفسها كما هو الحال في المنطقة-أ وتختلف عنها في أن إسرائيل تحتفظ بالسلطة الأمنية بهدف ضمان أمن مواطنيها ومحاربة الإرهاب.
- المنطقة- ج: وتضم المناطق غير المأهولة في الضفة، بما فيها المناطق ذات الأهمية الإستراتيجية لإسرائيل والمستوطنات، حيث تخضع للسيطرة الأمنية الإسرائيلية الكاملة.
- لعل أكثر ما يلفت الاهتمام في هذه الاتفاقية حقيقة أنها وضعت كامل العبء الأمني في المناطق المأهولة على كاهل السلطة الفلسطينية، في الوقت الذي بقيت فيه معظم مناطق الضفة تحت السيطرة العسكرية الإسرائيلية المباشرة.

..تفاهمات واي ريفر

برعاية الرئيس الأمريكي بيل كلينتون ، وقع عرفات ونتنياهو على مذكرة تفاهمات واي ريفر بتاريخ **23** أكتوبر **1998**، والتي جاءت بهدف واحد هو تأجيل الإعلان عن الدولة الفلسطينية التي كان من المفترض أن ترى النور في **4** مايو **1999**، وتحل الخلافات التي نشبت بين الجانبين حول عدد من القضايا الناجمة عن اتفاقية أوسلو-**2** . نصت المذكرة على إدخال السي آي إيه كمراقب ووسيط فيما يتعلق بالقضايا الأمنية، الأمر الذي أتاح لوكالة الاستخبارات المركزية زرع عناصرها في الجهاز الأمني الفلسطيني. قيل وقتها بأن نتنياهو تعرض لضغوط أميركية لتوقيع تلك الاتفاقية. فقد قال للصحفيين بأنه لجأ

إلى تأجيج المشهد السياسي في واشنطن لمقاومة ضغوط كلينتون. بعدها بفترة قصيرة وجد كلينتون نفسه وسط فضيحة أخلاقية كادت أن تطيح به. فقد أبلغ مجلس الأمن القومي كلينتون بأن إحدى السفارات الأجنبية في واشنطن كانت تسجل له حوارات منتصف الليل الحميمية التي كان يجريها مع مونيكا لوينسكي، وطلب منه توخي الحذر. غير أنه لم يطل الوقت بعدها قبل أن تنفجر قضية مونيكا على الملأ. الملاحظ هنا أن بطلات مسلسل علاقات كلينتون الغرامية: مونيكا لوينسكي وليندا تريب وبولا جونز جميعهن يهوديات.

.. باراك، عرفات وكامب ديفيد

لم يجد أي بند في تفاهمات واي ريفر طريقه للتنفيذ من جانب الإسرائيليين. ومع اقتراب الرابع من مايو **1999**، وهو التاريخ المفترض لحل سائر قضايا الوضع النهائي، التأمت قمة في شرم الشيخ شهدت توقيع مذكرة تفاهم جديدة من قبل عرفات ورئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد إيهود باراك، نصت على تأخير الموعد إلى **13** سبتمبر **2000**، وأكدت على التزام الجانبين بالعمل على إعادة عملية السلام إلى مسارها. بدا باراك وقتها أكثر جدية في تنشيط عملية السلام طبقاً لشروطه بالطبع. بعدها حصلت جملة من التطورات نوردها تباعاً لتسلسلها التاريخي:

- **14** يناير **1999**، اجتمع باراك وعرفات في تل أبيب.
- **4** يناير **2000**، وافقت اللجنة التوجيهية على إعادة انتشار جزئي من المرحلة الثانية وبنسبة لا تتعدى **5**%.
- **30** يناير **2000** : استؤنفت المفاوضات على مسار التعددية في موسكو.
- **9** مارس **2000**: توصل عرفات وباراك إلى اتفاق على استكمال المرحلة الثانية من إعادة الانتشار واستئناف محادثات الوضع النهائي.
- **21** مارس **2000** : استأنف مفاوضون فلسطينيون وإسرائيليون مفاوضات الوضع النهائي في قاعدة بولنغ لسلاح الجو الأمريكي، واشنطن.
- **11** أبريل **2000**: اجتماع كلينتون- باراك في واشنطن.
- **22** مايو **2000** : قطع باراك المفاوضات إثر اندلاع أعمال العنف في الأراضي المحتلة .
- **6** يونيو **2000**: وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت تجتمع مع باراك وعرفات كل على حدة لدفع الأمور باتجاه التوصل إلى إطار اتفاق.
- **5** يوليو**2000**: الرئيس كلينتون يدعو عرفات وباراك إلى قمة في كامب ديفيد.

في كامب ديفيد وجد عرفات نفسه يفاوض وفدين يهوديين: أحدهما إسرائيلي يمثل إسرائيل والآخر أميركي يمثل الولايات المتحدة.. ويضم وزيرة الخارجية أولبرايت ومستشار الأمن القومي ساندي بيرغر، ودينيس روس، وجميعهم من اليهود الصهاينة الأمريكيين الذين يقودون الوفد الأمريكي الضاغط على الفلسطينيين أكثر منه وسيطاً موضوعياً. أما التنازلات الإسرائيلية التي روج لها الوفد الأمريكي مطولا فهي التي تنص على رفض العودة للاجئين، واقتصار

السيادة الفلسطينية في القدس على "السيادة الدينية" على المسجد الأقصى، والحفاظ على الكتل الاستيطانية تحت السيطرة الإسرائيلية.

غير أنه في الوقت الذي كانت فيه المفاوضات بين عرفات وباراك متواصلة، كان لدى آرييل شارون أفكار أخرى أفضل من المراوغة والضغط على الفلسطينيين على طاولة المفاوضات. وفي الوقت الذي حددت فيه مفاوضات واي ريفر سبتمبر **2000** كموعد نهائي لاستكمال قضايا الوضع النهائي، وفي الوقت الذي كان فيه كلينتون يضغط للتوصل إلى اتفاق تسوية نهائية، قرر شارون وبعقلية المخطط الإستراتيجي الإقدام على ما من شأنه إعادة العملية السلمية إلى المربع الأول، من خلال القيام بزيارة مثيرة للمسجد الأقصى على رأس وفد كبير من الليكود والمتطرفين من أهل اليمين الإسرائيلي، تحت حماية أكثر من ألفي رجل شرطة وموافقة على الزيارة من رئيس الحكومة باراك. الواقع أن شارون لم يكن ليجد أفضل من هكذا خطوة لاستفزاز مشاعر المسلمين بدخول ثالث أقدس مكان بالنسبة لهم خاصة، وأن من دخلوه هم الأشخاص أنفسهم الذين يسعون لتدمير الأقصى وبناء الهيكل الثالث على أنقاضه.

خطة شارون تحظى بدعم بوش والمحافظين الجدد

بحلول **2001** كان للسلطة الفلسطينية جهازها الأمني الخاص بها، والذي يرتبط بتعاون كامل مع جهاز الأمن الإسرائيلي المرتبط مباشرة مع السي آي إيه. وبمساعدة وكالة الاستخبارات المركزية حصلت السلطة الفلسطينية على جهاز شرطة منظم على أحدث طراز بما في ذلك: التدرب على وسائل الاستجواب العصرية، وإدارة السجون التي أقيمت على النظام الحديث. وفي الوقت ذاته فقد تم تجهيز بنية تحتية مناسبة للسلطة الفلسطينية وبصورة تمكنها من أداء وظيفتها الرئيسية التي أقيمت من أجلها في المقام الأول، وهي العمل كمقاول أمني من الباطن للإسرائيليين، الأمر الذي أكدته سائر التفاهمات والاتفاقيات الموقعة بين الطرفين: السلطة الفلسطينية والحكومات الإسرائيلية. وفي هذا الصدد أقيمت البلديات وأشيد مطار دولي في غزة لربطها بالعالم الخارجي.

غير أن عام **2001** حمل للسلطة الفلسطينية ولدعاة السلام على الجانب الإسرائيلي مفاجآت غير سارة. ففي الوقت نفسه الذي شهد وصول بوش الإبن للبيت الأبيض ليحيط نفسه بعصبة المحافظين الجدد الذين يتألفون في معظمهم من الأمريكيين الصهاينة، الذين يؤيدون مواقف الليكود المتطرفة، كانت إسرائيل تستعد لدخول مرحلة جديدة بوصول آرييل شارون إلى سدة الحكم، الأمر الذي تحقق بعدها بأسابيع قليلة. الواقع أن المحافظين الجدد لم ينتظروا الوصول للسلطة للكشف عن سياساتهم الشرق أوسطية، القائمة على الدعم الأعمى والمفتوح لسياسات اليمين الإسرائيلي، وبخاصة رفض التخلي عن الأراضي المحتلة، ولهذا نجدهم يبلغون كلينتون وباراك خلال قمة كامب ديفيد المطولة مع عرفات بأنهم لن يلزموا أنفسهم بأي اتفاق قد يتم التوصل إليه هناك. كان المحافظون الجدد وكما بدا واضحا أشد تحمساً ووطنية من باراك و أرييل شارون! وحتى قبل ذلك وخلال عملهم كمستشارين متطوعين لرئيس الوزراء الإسرائيلي السابق بنيامين نتنياهو في أواخر

التسعينات، حرص المحافظون الجدد على الطلب منه التخلي عن اتفاقيات أوسلو. وإذا كان نتنياهو قد أظهر تردداً في التنصل رسمياً من عملية أوسلو؛ فإن شارون جعل ذلك على رأس أولوياته عندما تولى رئاسة الحكومة. وحتى لو لم يحصل شارون على الضوء الأخضر من ساكني البيت الأبيض الجدد لتدمير أوسلو، لكان فعل ذلك من تلقاء نفسه وزاد على ذلك الحكم على عرفات بأنه غير متعاون بما فيه الكفاية، وبالتالي لن ينفع كمتعهد أمني بالنسبة لإسرائيل في الضفة الغربية. وكل الخير والبركة في محمود عباس الذي تم تعيينه لاحقاً رئيساً للوزراء ما لبث أن استقال مدعياً بأن عرفات قد جمّده ولم يمكنه من القيام بدوره كما يراه.

انتفاضة "الأقصى" الثانية وإعادة احتلال الضفة الغربية

يعرف المعهد الأوروبي للأبحاث المتوسطية والتعاون العربي الأوروبي، انتفاضة الأقصى وأسباب اندلاعها بالقول:" اندلعت الانتفاضة الثانية والتي تعرف أيضاً بـ: انتفاضة الأقصى بتاريخ **28** سبتمبر **2000**، نتيجة الزيارة المثيرة للجدل التي قام بها آرييل شارون لمجمع الأقصى- جبل الهيكل في القدس. جاءت الزيارة لتفجر ثورة من الغضب بين الفلسطينيين، ضاعف منها الجمود الذي آلت إليه عملية السلام واستمرار الاحتلال والتوسع الاستيطاني.. جاء الرد الإسرائيلي باستخدام القوة المفرطة ضد المتظاهرين الفلسطينيين المطالبين بأنهاء الاحتلال فسقط أكثر من**200** قتيل فلسطيني في أقل من شهر، كان معظمهم من الفتية الذين لا تتجاوز أعمارهم **17** سنة. وللرد على العنف الإسرائيلي لجأ الفلسطينيون إلى السلاح بدءاً من نوفمبر **2000**.. ولم تعد حركة فتح التي يقودها عرفات قادرة على التحكم الكامل بالانتفاضة ،وخاصة مع تعاظم دور حماس والجهاد الإسلامي اللتين اختارتا طريق الكفاح المسلح ضد الاحتلال من البداية".

وبالطبع فإن تعبير الانتفاضة لم يكن ليرق للإسرائيليين والأمريكيين والمؤسسات الإعلامية الحليفة، ممن فضلوا إطلاق تعبير العنف على مقاومة الاحتلال.. وفوق ذلك اختاروا تحميل عرفات المسئولية عن هذا "العنف"، واعتبار التصرف الإسرائيلي مجرد دفاع عن النفس. ما غاب عن الإعلام الأمريكي بوجه خاص، وقتها، جملة من الحقائق مثل:

- أن الفلسطينيين هم الطرف الذي يرزح تحت نير الاحتلال منذ **33** عاماً.
- تواصل البرامج الاستيطانية، بالرغم من إدانة الأمم المتحدة بل والولايات المتحدة باعتبارها خرقاً فاضحا لما تم الاتفاق عليه في أوسلو.
- مماطلة الإسرائيليين في الانسحاب العسكري أو إعادة الانتشار كما نصت عليه الاتفاقيات.
- استمرار احتلال إسرائيل لـ **60**% من الضفة الغربية و**20**% من غزة، في وقت كان يفترض فيه نقل كامل الضفة وغزة للسيطرة الفلسطينية بحلول عام**2000**.
- بقيت القدس منطقة محظورة على الفلسطينيين ممن لا يحملون تصاريح الإقامة الإسرائيلية في المدينة.

- ارتفع عدد المستوطنين اليهود في الضفة الغربية وغزة بأكثر من **70**% على عكس ما نصت عليه اتفاقيات أوسلو عام **1993**. وتم توسيع المستوطنات القائمة بل وشرع في إقامة مستوطنات جديدة، حتى في الوقت الذي كان فيه باراك يدعي بأنه قدم لعرفات عرضاً سخياً.

عن هذا الموضوع كتب أستاذ القانون الدولي في جامعة برينستون ومؤلف كتاب: آفاق حقوق الإنسان، يقول في عام **2000**: " بالرغم من إصرار الحكومة الإسرائيلية وكذلك الإعلام الغربي على وصف الانتفاضة الفلسطينية الثانية على أنها أزمة سياسية أو تعطيل لعملية السلام، فإن المقاومة الفلسطينية للاحتلال حق مشروع يحظى بحماية القانون الدولي. فعلى مدى **33** عاماً وإسرائيل تدير احتلالا عسكرياً للضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية، في تحد مستمر وعنيد لإرادة المجتمع الدولي بكامله، هذا الإجماع الدولي المتمثل في القرارات الصادرة عن مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة، وتحظى بتأييد عالمي واسع، وعلى رأس هذه القرارات. **242** و **338** اللذان يؤكدان على التزام إسرائيل القانوني بضرورة الانسحاب من المناطق الفلسطينية التي احتلتها في حرب الأيام الستة عام **1967**. لا بد أن يكون الانسحاب وإنهاء الاحتلال هو نهاية المطاف لأي عملية سلام قادرة على تحقيق السلام الدائم. وحتى يأتي اليوم الذي تحترم فيه إسرائيل هذا الالتزام، فإن مبادئ القانون الدولي، كما جاءت في ميثاق جينيف الرابع والمتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب، وبخاصة تلك بنود الميثاق التي تطالب سلطة الاحتلال الحفاظ على الوضع القائم، واحترام حقوق الإنسان واحتمالات منح الحكم الذاتي للشعب المحتل، فإن بنود الميثاق تجبر سائر الموقعين على تحكيم الميثاق في مواجهة "الخروق الكبيرة". منذ **1967** وخلال الانتفاضة الحالية وإسرائيل لا تزال ترفض القبول بهذا الإطار من الالتزامات القانونية؛ بل إن رفضها لهذه الالتزامات اتسم بالتحدي والوضوح الذي لا لبس فيه. فهي لم تكتف برفض الانسحاب من الأراضي المحتلة، بل لم تتوقف عن خلق حقائق جديدة على الأرض هناك على شكل إقامة مستوطنات مسلحة وطرق التفافية ومناطق أمنية في قلب الدولة الفلسطينية المستقبلية، وبما يهدد الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني. وفي الوقت نفسه فإن ما تم التوصل إليه في أوسلو لا يلغي حق الفلسطينيين في مقاومة الاحتلال، وخاصة مع تمسك إسرائيل برفضها القاطع تطبيق القرارات القانونية التي تحظى بإجماع دولي داخل الأمم المتحدة".

في ربيع **2002** وبموافقة ضمنية من إدارة جورج دبليو بوش، شنّ إرييل شارون عمليات عسكرية بهدف إعادة احتلال كامل الضفة الغربية، وتدمير البنية التحتية الجديدة للسلطة الوطنية الفلسطينية ومؤسساتها، وبخاصة تلك التي أقيمت بعد أوسلو بما فيها مقر عرفات في رام الله. وتلخص الصحفية الأمريكية تراسي ويلسون من لوس أنجلوس تايمز دوافع شارون من الحملة بالقول تحت عنوان: عرفات واتفاقيات أوسلو الضحية الأكبر لشارون :" تبدو خطط وأهداف الهجوم العسكري الكبير الذي تشنه إسرائيل واضحة المعالم في الغبار والحطام الذي أحاق بالمكان هنا.. دمار هو الأكبر، حتى الآن، طال رموز الحكم الذاتي الفلسطيني. فهذا مقر رئيس السلطة الفلسطينية عرفات يبدو في حالة دمار بجدرانه المنهارة التي حلت محلها أسلاك شائكة.. في حين استهدفت قنابل الطائرات الإسرائيلية أهم مقار الأمن في الضفة الغربية الذي كلف بناؤه عدة ملايين من الدولارات.. ويبدو أن

الشرطة الفلسطينية التي طالما أكدت إسرائيل براءتها من العمل الإرهابي تحولت إلى هدف رئيسي لغارات الجيش الإسرائيلي. .." وأضافت تراسي " باستهداف قوة الشرطة بالاعتقال والإذلال المتعمد، يكون شارون قد قوّض الركائز الرئيسية للسلطة الفلسطينية، باعتبار أجهزة الأمن تجسد استقلالية الدولة التي يتطلع الفلسطينيون لإقامتها.. وتوج الإسرائيليون حملتهم باستهداف مقر الأمن الوقائي الفلسطيني الذي يترأسه جبريل الرجوب، أحد أقوى رجال السلطة في الضفة الغربية، المثير في الأمر أن الحملة الإسرائيلية استهدفت الجهاز المكلف بملاحقة منفذي العمليات المسلحة الفلسطينية ضد إسرائيل ومحاربة الإرهاب، ورئيسه الرجوب الذي يحتفظ بعلاقات قوية مع مسئولي الأمن الإسرائيليين والأمريكيين، بل وينظر إليه الكثيرون باعتباره ربيباً للسي آي إيه. ومن الأشياء التي عثر عليها فوق مكتبه قبل أن يطاله التدمير الإسرائيلي صورة تجمعه ومدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت.. يضاف إلى ذلك أن الرجوب يمثل نوع التعاون الأمني الإسرائيلي الفلسطيني كما نصت عليه اتفاقيات أوسلو.. ومن الواضح أنه لم يكن هناك مكان لهذا النوع من التعاون في تصورات شارون لمرحلة ما بعد عرفات، حيث يريد الإبقاء على الملف الأمني في يد إسرائيل وحدها، وهذا يعني بالضرورة احتفاظ إسرائيل بالضفة الغربية إلى أجل غير مسمى."

محمود عباس.. خليفة عرفات

أعيد احتلال الضفة وغزة وأصبحت اتفاقيات أوسلو شيئا من الماضي، وكذلك لحق بها عرفات الذي قضى بعد حصار مطول في مقره برام الله. توفي عرفات في نوفمبر **2004** متأثراً بمرض غامض، وإن كان الاعتقاد السائد بين الكثيرين بأنه مات مسموماً. خلف محمود عباس، بطل أوسلو، عرفات في الرئاسة..ولكن رئيس على ماذا؟ لم يعد هناك حكم ذاتي ولا أوسلو، بل ولا حتى بنية تحتية أو مؤسسات حكم.. والسؤال الذي طرح وقتها ولا يزال: هل استوعب عباس أي دروس من إخفاق أوسلو؟

قرر شارون وأولمرت من بعده بأنه سيكون من الصعب على إسرائيل الاستمرار باحتلال غزة، وعليه فقد أقدمت إسرائيل على تنفيذ انسحاب من القطاع من جانب واحد، بحجة عدم وجود شريك فلسطيني يمكن التفاوض معه. ولكن ماذا الآن مع عباس الذي وصفه بوش بـ: الرجل الطيب؟

هكذا شرح آفي شليم ، أستاذ العلاقات الدولية يهودي الديانة ، وإسرائيلي الجنسية، كتب في مقاله في جريدة الغارديان في **2009/1/8**: الأمر:

"قررت حكومة حزب الليكود الإسرائيلية برئاسة آرييل شارون الانسحاب من غزة بما في ذلك **8000** مستوطن تم تدمير مساكنهم ومزارعهم قبل الانسحاب. أما حركة المقاومة الإسلامية حماس فكانت قد أدارت حملة أدت الى ذلك الانسحاب. كان ذلك الانسحاب مهيناً للجيش الإسرائيلي، لكن شارون قدّم الانسحاب على أنه مساهمة في جهود السلام القائم على دولتين في أرض فلسطين .. ومع أن المستوطنين قد انسحبوا إلا أن الجيش الإسرائيلي بقي مسيطراً على المعابر براً وبحراً وجواً وأصبحت غزة سجناً كبيراً. وبقي الطيران

الإسرائيلي حراً في إلقاء القنابل أو الطيران المنخفض وخرق سرعة الصوت لإلقاء الرعب في نفوس سكان هذا السجن الكبير"[1]

أعطت الانتخابات التي عقدت في الضفة وغزة حماس الأغلبية في المجلس التشريعي، وشكلت الحركة الحكومة بعد رفض عباس المشاركة في حكومة وحدة وطنية. وبالطبع لم يجد نجاح حماس في الإنتخابات أي ترحيب من قبل إسرائيل والولايات المتحده اللتين تفضلان الديمقراطية التي تأتي بما تريدان، أما غير ذلك فلتذهب الديمقراطية إلى الجحيم. لم يطل الوقت على تسلم حماس السلطة قبل أن تصل التوترات بين حماس وعباس إلى ذروتها، ولم يكتب لحكومة الوحدة الوطنية التي شكلت إثر المصالحة التي رتب لها العاهل السعودي الملك عبد الله الصمود طويلاً. ومن الواضح أن الأمريكيين الذين كانوا يحتفظون بعناصر لهم وعملاء داخل أجهزة أمن السلطة وبالتعاون مع الإسرائيليين، لعبوا دوراً في تصعيد المواجهة بين حماس وفتح.

كان عدل حضارة اليهومسيحية جلياً في غزة، حيث كان عدد المستوطنين**8000** فقط سنة **2005** يقابلهم **1.4** مليون فلسطيني . لكن المستوطنين كانوا يسيطرون على **25**% من مساحة قطاع غزة ، و **40**% من أراضي القطاع الخصبة وحصة الأسد من مصادر مياهه.

هكذا وصف الأمر آفي شليم في مقالته بتاريخ **8**/**1**/**2009** في جريدة الغارديان اللندنية:

"تحب إسرائيل أن تدّعي أنها جزيرة ديمقراطية في بحر من الاستبداد ... ولكن بالرغم من سائر العوائق فلقد نجح الفلسطينيون في بناء الديمقراطية الوحيدة الحقيقية في العالم العربي باحتمال استثناء لبنان. في يناير **2006** وبانتخابات حرة ونزيهة للمجلس التشريعي الفلسطيني للسلطة الفلسطينية ، نجحت حماس في الانتخابات، مما أدى إلى تكليفها بتشكيل حكومة. لكن إسرائيل رفضت الاعتراف بنتيجة الانتخابات، مصرّة بأن حماس هي حركة ارهابية ... واستمرت إسرائيل بلغة (فرق تسد) بين الفصائل الفلسطينية المتنافسة . ففي نهاية عقد **1980** أيدت إسرائيل حركة حماس اليافعة لإضعاف فتح، الحركة العلمانية التي قادها ياسر عرفات. لكن الآن بدأت إسرائيل بمساندة القيادة الفاسدة لفتح لإعادة سيطرتها ضد منافستها حماس. ولقد ساهم المحافظون الجدد الأمريكان في مخطط يؤدي إلى حرب أهلية فلسطينية . وكان التدخل الأمريكي السبب الرئيسي في سقوط حكومة الوحدة الوطنية، مما أجبر حماس على أن تستولي على السلطة في غزة في شهر يونيو **2007** لإجهاض انقلاب قادته أجهزة أمن فتح".[2]

دور واشنطن في الصراع الفلسطيني الداخلي

يلقي الصحفي الأمريكي ديفيد روز، المتخصص في إعداد التحقيقات السياسية المثيرة، والذي يحظى بالقدرة على الوصول للملفات السرية، الضوء على الظروف التي

---

[1] Avi Shlaim, professor of international relations at the University of Oxford January 08, 2009 at The Guardian

[2] Avi Shlaim, professor of international relations at the University of Oxford January 08, 2009 at The Guardian

عاشتها غزة وأدت إلى قرار حماس الاستفراد بمقاليد الأمور هناك في ما سمي بأنقلاب فعلي على عباس. وفي تقرير نشرته في عددها الصادر في أبريل **2008** تناولت مجلة فانيتي فيير ما حصل عليه الصحفي الأمريكي روز من معلومات مثيرة بهذا الشأن، في تقرير جاء فيه:

" يأتي الفشل في توقع انتصار حماس على فتح في الانتخابات الفلسطينية عام **2006**، ليضاف إلى سلسلة الإخفاقات السابقة التي حاقت بوكالة الاستخبارات المركزية والإدارة الأمريكية، على رأسها فضيحة إيران كونترا والفشل المتحقق في خليج الخنازير. ومن خلال العديد من الوثائق وإفادات الشهود الذين تعاونوا معه، استطاع الصحفي روز كشف النقاب عن إقدام الرئيس بوش والوزيرة رايس ونائب مستشار الأمن القومي إليوت أبرامز، على دعم رجل فتح القوي محمد دحلان، لمواجهة حماس الأمر الذي كاد أن يفجر حرباً أهلية في غزة لينتهي الأمر بتعزيز موقف حماس التي أصبحت أقوى من أي وقت مضى". وطبقاً للصحفي روز فإن الإدارة الأمريكية، فوجئت تماماً بالفوز الكبير الذي حققته حماس في انتخابات **2006** ، وفوجئت بعدها بالسيطرة السريعة للحركة على غزة، خاصة وأن محمد دحلان كان يعتبر رجل عباس القوي في غزة، حيث كان يقود الأجهزة الأمنية هناك، واعتقد الكثيرون بأن تنظيم فتح والأجهزة الأمنية التابعة لدحلان قادران على وضع حد لسيطرة حماس على القطاع.

كما تحدث تقرير فانيتي فيير والذي وصف بـ: القنبلة، عن كيفية أن الولايات المتحدة كانت تملي على رئيس السلطة عباس ومحمد دحلان وآخرين التعليمات، وبشكل يومي عن كيفية ترتيب انقلاب على حكومة حماس المنتخبة. وبهذا الشأن تحدثت رايس وبوضوح عن المفاجأة التي أصابت الأمريكيين من قوة حماس بالقول:" لا أعرف من أحد لم يفاجأ بأداء حماس القوي". ومن أبرز ما جاء في تقرير الصحفي ديفيد روز بهذا الشأن:

- "حصلت مجلة فانيتي فيير على وثائق سرية من مصادر عليمة في الولايات المتحدة وفلسطين، تتحدث عن عملية سرية وافق عليها بوش ونفذتها كونداليزا رايس وإليوت أبرامز بهدف إشعال حرب أهلية فلسطينية. ونصت الخطة على تزويد جهاز الأمن الوقائي الفلسطيني بقيادة محمد دحلان بأسلحة حديثة كفيلة بتعزيز قوة فتح، بما يكسبها القدرة على الإطاحة بحكومة حماس".
- " امتدح بوش دحلان على الملأ، واصفاً إياه بـ: القائد الجيد الصلب"، كما وصفه في مجالسه الخاصه بالقول:إنه رجلنا". وطبقاً للصحفي ديفيد روز فإن دحلان كان يعمل بالتنسيق الوثيق مع مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية، وبأنه طور علاقة قوية مع مدير السي آي إيه جورج تينيت.."
- لعب محمد دحلان، من موقعه على رأس جهاز الأمن الوقائي في غزة، دوراً رئيسياً في ملاحقة واعتقال وتعذيب المئات من أعضاء حماس وخاصة بعد اتفاقية أوسلو، حيث صدرت له أوامر من عرفات بذلك بسبب موقف الحركة الرافض لاتفاقيات أوسلو. وقتها اعتقلت قوات دحلان أكثر من ألفين من أعضاء حماس وزج بهم في السجون حيث تعرض الكثيرون منهم للتعذيب.
- تحدثت الولايات المتحدة بصوت واحد، على حد قول ديفيد روز. فقد أبلغت رايس عباس بأن الولايات المتحدة تتوقع منه حل حكومة حماس في أقرب وقت وعقد انتخابات جديدة.

- وافق عباس، كما قال أحد المسئولين، على التحرك في غضون أسبوعين. وخلال وجود رايس في المنطقة وكان وقتها رمضان، شهر الصيام، دعاها عباس لتناول طعام الإفطار، وعلى المائدة أكدت رايس على موقفها بالقول:" اتفقنا إذاً على حل الحكومة بعد أسبوعين، أليس كذلك ؟ رد عليها عباس:" ربما أكثر من أسبوعين.. أعطني شهراً.. لننتظر حتى بعد العيد". وطبقاً للمصدر المسئول، فإن رايس وقبل أن تصعد لسيارتها المدرعة قالت لأحد مرافقيها بلهجة تنم عن الكثير من الضيق:" لقد كلفنا هذا الإفطار اللعين أسبوعين أخريين من وجود حماس في السلطة".
- عندما مرت بضعة أسابيع دون أن يتحرك عباس ضد حماس حسب الاتفاق مع الإدارة الأمريكية ، صدرت التعليمات للقنصل العام الأمريكي في القدس جيك والاس بالتوجه إلى رام الله لرؤية عباس حاملاً معه "إنذار مبطن" بضرورة التحرك السريع.
- لم يصدر عن عباس ما يوحي باستعداده للمضي قدماً في الخطة المتفق عليها وهي حل حكومة حماس والدعوة لانتخابات جديدة. وهنا وفي ظل هذه الظروف القاتمة، شرعت الولايات المتحدة في إجراء محادثات أمنية مباشرة مع دحلان.."
- في نوفمبر **2005**، أبلغ المنسق الأمني الأمريكي المعين لدى الفلسطينيين الجنرال كيبيث دايتون، الشريك الفلسطيني محمد دحلان، بضرورة توحيد سائر أجهزة الأمن وعددها **14** مجموعة تحت قيادته كمستشار للأمن القومي، وأكد له استعداد الولايات المتحدة لتزويده بالسلاح والتدريب. وعندما رفض الكونغرس صفقة المساعدات لدحلان كما اقترحتها إدارة بوش، عملت رايس على تأمين الأموال اللازمة من أنظمة عربية صديقة.
- في أواخر ديسمبر **2006** عبرت" أربع شاحنات مصرية" نقطة عبور تسيطر عليها إسرائيل، إلى غزة حيث تم تسليم محتوياتها لقيادة فتح هناك. كانت الشحنة تضم **2000** بندقية آلية صناعة مصرية، و**20** ألف مشط ذخيرة، بالإضافة إلى مليوني رصاصة.
- في الأول من فبراير **2007** نقل دحلان "حربه الذكية" خطوة أخرى للأمام، على حد تعبير الصحفي ديفيد روز، عندما أمر قواته باقتحام الجامعة الإسلامية في غزة، التي تعتبر أحد معاقل حماس الرئيسية، حيث أشعلوا النار في عدد من الأبنية.
- أضاف روز " ولأن عباس لم يكن يرغب بنشوب حرب أهلية فلسطينية، اختار رئيس السلطة إظهار المرونة والقبول بالوساطة السعودية، التي قادت إلى تشكيل حكومة اتحاد وطني برئاسة إسماعيل هنية، مع إعطاء ممثلي فتح عدة مناصب مهمة. يذكر أن عباس اصطحب دحلان معه إلى مكة حيث دارت المفاوضات مع حماس برعاية الملك عبد الله.
- مرة أخرى فوجئت إدارة بوش بما حصل من مصالحة مع حماس.. ولتظهر وثيقة مهمة يتم الكشف عنها هنا لأول مرة بأن الولايات المتحدة ردت على هذا التطور "المفاجئ" بمضاعفة الضغوط على حلفائها الفلسطينيين. فكان أن خرجت وزارة الخارجية سريعاً بخطة بديلة عن حكومة الوحدة الوطنية عرفت بـ: الخطة- ب، وهدفها طبقاً لما ورد في مذكرة لوزارة الخارجية الأمريكية- أكد أحد المسئولين ممن كانوا على علم بها صدق ما جاء بها- هو" تمكين عباس ومؤيديه من الوصول

لنهاية اللعبة بحلول **2007**". وطالبت الخطة – ب عباس بالعمل على "انهيار الحكومة" إذا رفضت حماس تغيير موقفها تجاه إسرائيل.. ومن هنا يستطيع عباس الدعوة لانتخابات مبكرة أو فرض حكومة طوارئ.

- كانت الاعتبارات الأمنية كبيرة، وجاءت الخطة-ب بمثابة الوصفة المناسبة للتعامل معها. كان المطلوب من عباس التأكد من إبعاد حماس عن التدخل في الأجهزة الأمنية، و"إبقاء الأجهزة الرئيسية منها تحت سيطرته الحصرية"، وفي الوقت ذاته "إلغاء القوة التنفيذية التي شكلتها حماس أو التقليل من التحديات التي يخلقها استمرار وجود هذه القوة".
- كتب روز يقول:"ورد الحديث وبالتفصيل عن أهداف بوش من الخطة– ب، في وثيقة حملت عنوان: خطة عمل للرئاسة الفلسطينية". كانت "النتيجة المرغوبة" منح عباس" القدرة على اتخاذ القرارات الاستراتيجية ... مثل حل الحكومة وتشكيل حكومة طوارئ"..
- بتاريخ**30** أبريل **2007**، تسربت أجزاء من مسودة أولية لخطة العمل الأمريكية لصحيفة المجد الأردنية لينكشف بذلك المستور. كانت خطة العمل من وجهة نظر حماس تعني شيئاً واحداً: خطة انقلاب تعد لها فتح بدعم أميركي .. وفي السابع من يونيو التالي، حدث تسرب آخر لا يقل ضرراً عندما تحدثت صحيفة هآرتز عن طلب عباس ودايتون من إسرائيل السماح بإدخال شحنة أسلحة مصرية جديدة هي الأكبر حتى حينه، لتضم عشرات السيارات المدرعة ومئات الصواريخ المضادة للدروع، والملايين من أمشاط الذخيرة.
- وقتها قررت حماس التحرك. وطبقاً لما حصل عليه ديفيد روز من قادة حماس مباشرة من خلال مقابلات أجراها معهم، فإن التسريب الذي حصلت عليه صحيفة المجد الأردنية أقنع الحركة بأن هناك مؤامرة عليها، وبأن" الخطة المدعومة من أمريكا تستهدف تدمير الخيار السياسي" ومما قاله فوزي برهوم، الناطق الرسمي باسم حماس، فإن دخول الدفعة الأولى من المقاتلين الذين تم تدريبهم في مصر إلى غزة كان السبب في توقيت التحرك الذي أقدمت عليه حماس لإجهاض المؤامرة. " قال لي برهوم بأن **250** مقاتلاً من حماس لقوا حتفهم في النصف الأول من عام **2007** وحده، وعليه فقد قررنا أخيراً وضع حد لما يحصل.. فلو تركنا الحبل على غاربه في غزة لوقع القطاع فريسة للعنف".

كانت الأمور نظرياً في مصلحة فتح، والتي كان لها **70000**عنصر في **14** جهازاً أمنياً ، نصفهم على الأقل في غزة مقابل **6000** من فصائل القسّام التابعة لحماس و **6000** آخرون لقوة تنفيذه شكلتها حماس. بدأ القتال في **2007/6/7** وانتهى في غصون خمسة أيام. وبدأ القتال بالهجوم على معاقل فتح في وحول مدينة غزة وفي مدينة رفح الجنوبية . حاولت فتح قصف منزل رئيس الوزراء إسماعيل هنية، ولكن تم التغلب على قوات فتح في **2007/6/13** بعدها تم تشديد الحصار على غزة من إسرائيل والدول العربية المعتدلة الراغبة بالخضوع إلى تسوية سلمية بمقاسات إسرائيلية، فأصبحت غزة بعد هذا الحصار أكبر وأقسى سجن في التاريخ يحتوي على **1.5** مليون نزيل. أصبح **70**% من السكان بلا عمل. مات المرضى لعدم وجود الدواء المناسب، وأصيب أغلبهم بسوء

التغذية حيث تم منع الغذاء عنهم إلا بكميات ضئيلة، وذلك بإغلاق المعابر إلى غزة. كذلك لم يسمح للوقود بالدخول إلى غزة إلاّ بكميات ضئيلة أدت في الكثير من الأحوال إلى انقطاع التيار الكهربائي.

ثمانية عشر شهراً من التآمر على غزة من إسرائيل والـ **CIA** وعملائهما بعد استيلاء حماس على غزة لم تنجح بإخضاع حماس أو الانقلاب عليها في الداخل. في أواخر سنة **2008** كانت ولاية محمود عباس ستنتهي في الأسبوع الأول من شهر يناير **2009** ، وكانت الولاية الثانية لإدارة بوش ستنتهي في **2009/1/20** حيث كان أوباما يحمل في اجندته تسوية سلمية بمواصفات إسرائيلية ، وفي **2009/2/10**، كانت الانتخابات الإسرائيلية على الأبواب . لكل ذلك شن الجيش الإسرائيلي هجوماً براً وجواً وبحراً . هكذا وصف هذا الحدث آفي شليم.

" كان الهجوم الإسرائيلي في **2008/12/27** تتويجاً لسلسلة من المناوشات والمصادمات بين إسرائيل وحكومة حماس. وفي حقيقة الأمر ، فالحرب كانت بين إسرائيل والشعب الفلسطيني الذي انتخب حماس إلى السلطة. كان هدف الحرب المعلن هو الضغط على حماس لترضى بوقف اطلاق النار على الشروط الإسرائيلية. لكن الهدف غير المعلن هو تحويل قضية الفلسطينين في غزة بنظر العالم إلى قضية إنسانية وإبعادها عن جوهرها كونها قضية نضال من أجل الاستقلال والدولة ... كان الجيش متحمساً للحرب علهّا تزيل عنه وصمة عار فشله في حربه ضد حزب الله في لبنان في يوليو **2006**. ولقد كان في حسابات القادة الإسرائيليين وهن وضعف الأنظمة العربية، بالإضافة إلى تأييد مطلق وأعمى من الإدارة الأمريكية للرئيس بوش". [1]

ثم أضاف آفي شليم:

"ما بين الحقيقة وادعاءات إسرائيل على لسان الناطقين باسمها هوة عميقة. لم تكن حماس هي التي خرقت التهدئة ولكنها إسرائيل هي التي خرقتها وذلك بإغارتها في **2008/11/4** على غزة وقتلها ستة من منتسبي حماس. لم تهدف إسرائيل للدفاع عن مواطنيها ولكن الهدف كان إزاحة حماس وحكومتها عن الحكم بتحريض الشعب ضدها. لم تهتم إسرائيل بسلامة السكان بل العكس فلقد قادت حصاراً استمر ثلاث سنوات مما أوصل أوضاع **1.5** مليون من السكان إلى وضع كارثي" . إذن فهل في الأمر غرابة بأن يطلق هؤلاء المحاصرون صواريخ أكثرها محلية الصنع علّ وعسّى أن تعطيهم شيئاً من قوة ردع؟ "

تقول إسرائيل إن الفلسطينيين يستحقون ما هم فيه. ذلك يذكرنا بقصة قديمة عن أم يهودية كانت تودع ابنها الذي تم إرساله من جيش القياصرة الروس للحرب على الأتراك. قالت الأم لابنها : لا تتعب نفسك كثيراً. اقتل تركياً واسترح. اقتل تركياً آخر واسترح. سألها ابنها: ولكن يا أمي ماذا لو قتلني التركي؟ قالت الأم: يقتلك ! لماذا؟ ماذا فعلت له ليستحق أن يقتلك ؟ ليست هذه نكتة . ليس هذا وقت النكت. إنه درس في علم النفس . هذا ما كتبه يوري افينري في المحرقة الإسرائيلية على غزة التي بدأتها في **2008/12/27** قتلت وجرحت

[1] Avi Shlaim, professor of international relations at the University of Oxford January 08, 2009 at The Guardian

إسرائيل أكثر من **6000** فلسطيني نصفهم من الأطفال والنساء. والمعركة مازالت مستمرة.

إن مقاومة الاحتلال هي حق في ظل القانون الدولي. ولقد تم تسمية هذه المقاومة إرهاباً . لكن الحقيقة أن هناك إرهاب دولة تقوم بأعمال الاغتيال دونما محاكمة، وتطبق أحكام الفصل العنصري بأقبح أشكالة على الفلسطينيين.

كتب آحاد عاهام في مطلع القرن العشرين:

"كان اليهود عبيداً في المنفى. ووجدوا أنفسهم فجأة يتمتعون بحرية مطلقة ... هذا التغيير المفاجئ ادخل إلى قلوبهم الرغبة في أن يكونوا طغاة مستبدين كما يحدث عادة عندما يتحول العبد من محكوم إلى حاكم"، لكن أحاد عاهام حذر قائلاً "كنا نظن أن العرب بدو بدائيون ، أمة من الحمير التي لا ترى ولا تدري ما يدور حولها. هذا خطأ كبير. فالعرب ككل الساميين، لهم عقل وقّاد ... عندما يأتي الوقت الذي تصبح هجرتنا تضغط على الفلسطينيين سواء بالقليل أو بالكثير ، فسوف لن يتنازلوا عن حقوقهم بسهولة". [1]

قال الجنرال موشي ديان وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق في أحد الأيام "يجب أن تكون إسرائيل كالكلب المسعور، خطرة إلى درجة لا يستطيع أحد مضايقتها".

ما الذي ينبغي على الناس أن يفعلوا بالكلاب المسعورة يا ترى؟

[1] One Palestine *C*omplete, Tom Segev, Henry Holt & Company, New YorkIst American Edition 2000, Pg 104, Ahad Ha'am, "Truth from Palestine", in the Complete Works of Ahad Ha'am (in Herbre) (Tel Aviv: Dvir, 1949), P. 24

خاتمة..انتهت اللعبة

ما يراه العرب والفلسطينيون في إسرائيل مجرد كيان دخيل أقيم على أجسادهم وأراضيهم المسلوبة وبدعم مالي أميركي إجمالي ،لا يمكن مجاراته، يقدر حتى الآن بـ: **160** مليار دولار تحملها دافعو الضرائب الأمريكيون، وغطاء عسكري وسياسي لا محدود، بما في ذلك إفشال القرارات الدولية باستخدام الفيتو **42** مرة في مجلس الأمن منذ **1972**، وتوفير الحماية للاحتلال، وتبرير التجاوزات الإسرائيلية في مجال حقوق الإنسان.

تعرض العرب الفلسطينيون الذين كانوا يشكلون**65**% من سكان فلسطين وقت قيام إسرائيل عام**1948**، لعملية تطهير عرقي منظمة ليعيشوا كلاجئين بالملايين حتى يومنا هذا. أما من استطاع الصمود منهم في الداخل فيعيشون غرباء في أرضهم، ويعاملون كمواطنين إسرائيليين من الدرجة الثالثة. وخلال الفترة من **1848** إلى **1963** تعرضت **531** قرية عربية للدمار الكامل لتصبح أثراً بعد عين، وأصبح التهجير، التعبير الإسرائيلي المفضل للتطهير العرقي، سياسة رسمية للقيادة الإسرائيلية مع فرق في الأسلوب. تعرضت أراضي الفلسطينيين ولا تزال للمصادرة لبناء مستوطنات جديدة أصبحت تنتشر الآن في كل مكان في الأراضي المحتلة. ما يتعرض له الفلسطينيون منذ عقود هو عملية إذلال ونزع للصفة الإنسانية قولاً وفعلاً من قبل دولة عنصرية تتحدى بممارساتها سائر القيم التي جاءت بها الأديان، وهي صفة تنسحب أيضاً على حاميتها الكبرى.. أمريكا.

وعندما أطلق **30** طالباً من مدرسة يشيفا النار على فتاة عربية لا يزيد عمرها عن**13** عاماً وأردوها قتيلة في شوارع إحدى البلدات العربية، وقف الحاخام اسحق غينسبيرغ أمام المحكمة الإسرائيلية مبرراً الجريمة بالقول:" ينبغي الاعتراف بأنه لا يمكن المساواة بين دم اليهود ودم غير اليهود.. على شعب إسرائيل النهوض والجهر بحقيقة أن اليهودي وغير اليهودي لا يمكن أن يتساويا لا قدر الله.. وعليه فإن أي محاكمة تقوم على مبدأ المساواة بين الاثنين إنما هو تزييف للعدالة".

وصل المشروع الصهيوني وإسرائيل الكبرى إلى طريق مسدود. بل أصبح الصهاينة الأمريكيون مع الصهاينة الإسرائيليين يدركون أن الديمغرافيا (وقنبلة الأرحام الفلسطينية) هي أقوى من قنابلهم الذرية والهيدروجينية ، بل أقوى من توأمهم : أمريكا. فهذا رئيس الوزراء وعضو قيادي سابق في الليكود، والرئيس السابق لحزب كاديما إيهود أولمرت يتحدث عن "أشياء مثيرة قد لا تكون مثيرة في حد ذاتها إلا أنها تصبح كذلك عندما تخرج من فم شخص مثل أولمرت".

ومما جاء على لسان أولمرت القول:

- " علينا التوصل لاتفاقية مع الفلسطينيين، جوهرها الانسحاب الفعلي من معظم الأراضي إن لم يكن منها كلها. سنحتفظ بنسبة من هذه الأراضي إلا أننا سنضطر لإعطاء الفلسطينيين نسبة مماثلة، وبدون ذلك لن يكون هناك سلام".
- "... بما فيها القدس حيث أتصور حلولاً خاصة لوضع الجبل الهيكل والأماكن التاريخية المقدسة.. إن كل من يعتقد بإمكانية الاحتفاظ بكامل المدينة يجد نفسه أمام خيار وحيد هو وضع أكثر من **270** ألف عربي خلف السياج ضمن السيادة الإسرائيلية وهذا خيار غير قابل للتطبيق".
- " كنت أول من يرغب في بسط السيادة الإسرائيلية على كامل المدينة. وأعترف .. بأنني لم أكن مستعداً وقتها للتمعن في أعماق الواقع".
- " فيما يتعلق بسوريا.. ما نحتاجه أولاً هو قرار سياسي.. أتساءل ما إذا كان يوجد شخص واحد في إسرائيل يعتقد بإمكانية عقد سلام مع سوريا بدون التخلي عن مرتفعات الجولان في نهاية المطاف".
- " الهدف هو محاولة الاتفاق ولأول مرة، على حدود دقيقة بيننا وبين الفلسطينيين.. حدود يعترف بها العالم أجمع".
- " دعونا نفترض أن حرباً إقليمية ستنشب في العام أو العامين القادمين وسندخل في مواجهة عسكرية مع سوريا.. ليس لدي شك في أننا سنلحق بهم هزيمة منكرة.. ولكن ماذا بعد انتصارنا؟.. لم الدخول في حرب مع السوريين في وقت نستطيع فيه تحقيق ما يمكن تحقيقه بدون دفع ثمن باهظ؟"
- ما وجه العظمة في شخص مثل ميناحيم بيغن؟ أرسل دايان إلى المغرب للقاء تهامي(مبعوث السادات)، حتى قبل التقائه بالرئيس المصري.. وهناك أبلغ دايان تهامي على لسان بيغن باستعداد إسرائيل الانسحاب من سيناء".
- " اريل شارون، بيبي نتنياهو. إيهود باراك ورابين بوركت ذكراه، كل من هؤلاء أقدم على خطوة قادتنا في الاتجاه الصحيح إلا أنه في لحظة ما.. وعلى مفترق طرق. . وعندما تحين ساعة اتخاذ القرار، لا يجد القرار طريقه إلى النور".
- قبل فتره جمعتني جلسة نقاش مع عدد من الأشخاص ضمن دائرة صنع القرار في إسرائيل. وفي ختام الجلسة قلت لهم: بعد أن استمعت لكم، أدركت لماذا لم نتوصل لسلام مع الفلسطينيين والسوريين خلال السنوات الأربعين الماضية".
- " قد نستطيع الإقدام على خطوة تاريخية في علاقاتنا مع الفلسطينيين، وكذلك الأمر بالنسبة لعلاقاتنا مع السوريين. وفي كلتا الحالتين نجد أنفسنا أمام القرار نفسه الذي رفضنا مواجهته بأعين مفتوحة على مدى أربعين عاماً".
- " عندما تجلس على هذا الكرسي وتسأل نفسك: في أي اتجاه ينبغي علينا توجيه الجهود؟ هل تحقيق السلام هو الهدف، أم تعزيز قدراتنا العسكرية لنصبح أقوى وأقوى وأقوى لنكسب الحرب؟.. نملك من القوة ما يكفي لمواجهة أي مخاطر. وعلينا محاولة البحث عن طريق لاستخدام هذه القوة في سبيل التوصل للسلام لا لكسب الحروب فحسب".
- " تشكل إيران قوة عظيمة. والافتراض القائل بأن عجز دول مثل أمريكا وروسيا والصين وبريطانيا وألمانيا عن معالجة الملف الإيراني بينما يستطيع

الإسرائيليون ذلك، ومن أننا سنفعل هذا الأمر، ليس سوى مثال على افتقار البعض لسائر درجات الوعي والإدراك."

- " عندما أقرأ التصريحات الصادرة عن جنرالات إسرائيل السابقين أتساءل في نفسي: كيف حصل أن هؤلاء لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئاً؟".

لم يكن أولمرت لوحده هو الذي توصل إلى النتيجة أن حلم إسرائيل الكبرى قد انتهى، ولكن حتى المحافظين الجدد (من اليهود) قد وصلوا إلى القناعة نفسها بأن هذا الحلم قد وصل إلى طريق مسدود، خصوصاً بعد ثماني سنوات من سماحهم لإسرائيل – ذلك الكلب المسعور – بالانقضاض على الفلسطينيين. أصبحت المسألة الديمغرافية – والتي يسميها الديمغرافيون اليهود بقنبلة الأرحام – ضاغطة، وثماني سنوات من القهر لم تزد الشعب الفلسطيني إلاّ صمودا. البعض اقترح حل الدولتين، والآخر حل الثلاث دول كما اقترحه جون بولتون **Bolton**، لكن المهم أن الكل وجد أن إيجاد الدولة الفلسطينية على الطريقة الإسرائيلية قد أصبح ملحاً . كتب جون بولتون:[1]

"دعنا نعترف بأن بناء سلطة وطنية على أنقاض منظمة التحرير الفلسطينية قد فشل، وأن مشروع الدولتين لم ينطلق. لقد قتلت حماس ذلك المشروع – ولربما الأرض المقدسة لا تتسع إلى بعثين . لذلك علينا البحث عن مشروع الدول الثلاث بحيث تعاد غزة إلى مصر ، والضفة الغربية إلى الأردن بطريقة أو أخرى. وحيث أن مصر والأردن مرتبطتان بمعاهدتي سلام مع إسرائيل، فإن اعادة غزة والضفة لتلك الدولتين يضمن السلام بطريقة اوتوماتيكية . أما قضية وضع قوات أو مراقبين دوليين فلن يكون كافياً ، فما نحتاجه هو دول تملك أجهزة أمنية.

وهذا الاقتراح لن يكون محبباً من مصر والأردن واللتين أرادتا أن تنفضا يديهما من المسألة الفلسطينية . لذلك فيجب عدم تحميلهما هذه المسؤولية لوحدهما، بل مساندة جامعة الدول العربية والغرب بالطريقة التي تمت فيها مساندة النظامين المصري والأردني من الولايات المتحدة لسنوات عديدة. وعلى إسرائيل قبول الحكم الإداري للأردن ومصر إلا إذا أرادت إسرائيل نفسها أن تقوم بهذه المهمة ، وهو أمر لا تريده إسرائيل"

لقد أوضحنا أنه لن يكون ممكناً لأي رجل سياسة أمريكي الوصول إلى مناصب رفيعة دون مؤازرة أصحاب النظام والسلطة الحقيقيين وبارونات المال العالميين، وقوى الظل للمؤسسة الحاكمة سواءٌ كان الدعم مالياً أو سياسياً أو "تسويقكم" للوصول إلى تلك المناصب. وبذلك يمكن الاستنتاج بأن الصعود الصاروخي لباراك أوباما من قوة الظل هذه ستكون نتائجه أن يحاول فرض حل الدولتين أو الثلاث دول، وبهذا يصبح أوباما رجل سلام ، كما كان الحال مع أرييل شارون، والذي سماه جورج بوش رجل سلام بعد مجزرة مخيم جنين. وكما بينا ، فإن الإدارات الأمريكية ما هي إلاّ إدارة تنفيذية للمضي في تطبيق سياسات وأجندات المؤسسات صاحبة السلطة الحقيقية في الظل، والتي تقف من وراء ستار تُعلق كل أوساخ أجندتها على الرؤساء وإداراتهم، لاعنة أوساخهم مع الجماهير، داعية الجماهير للصبر حتى يأتي الرئيس القادم ... وهكذا.

قلنا "تأدباً" في كتابنا "أزمة نظام" بأن "ايهود باراك أو باراك اوباما ... لا فرق" ولم يكن ذلك من قبيل المغالاة. فهو لا يتشارك مع الأمريكيين السود إلا في شيء من لونه لا أكثر . أمه البروتستانية البيضاء كانت تحمل شهادة الدكتوراة. جدته التي ربته أرسلته إلى

[1] January 5, 2009; Page A11, The Washington Post

جامعة هارفارد لدراسة الحقوق. وحسب ما جاء في مجلة **Chicago Jewish News** (عدد **2008/10/24**) في مقال للكاتبة بولين دوبكن فقد اقتبست المقالة أحد كبار اللاعبين في حقل السياسة بأن "اليهود هم الذين صنعوا اوباما. أينما تنظر حوله ستجد يهوداً". وحسب المجلة اليهودية هذه، كانت البروفيسور مارثا مينو الصهيونية المتحمسة في جامعة هارفارد هي التي اكتشفته "كرجل ذكي، واعد وطموح" وممكن "توظيفه". وتقول الاستاذة مفاخرة بأنها هي التي اتصلت بعائلتها وخصوصاً والدها الملياردير وأحد أصحاب النفوذ الكبير في الحزب الديمقراطي والذي تبنى سيرة اوباما السياسية. مقال **Chicago Jewish News** الانف الذكر يستطرد القول: "إن اوباما على الطريق الصحيح في كافة المواضيع التي تتعلق بإسرائيل. إنه يتبنى نفس المواقع التي تقفها هيلاري كلينتون بالنسبة لإسرائيل، ولربما بشكل اقوى، ولربما أن فكره أكثر وضوحاً". في **2008/12/12** صرح **Abner Mikvner** وهو عضو كونغرس سابق وأحد مستشاري الرئيس السابق كلينتون، وصف أجندة اوباما بأنها يهودية إسرائيلية بالكامل .

وإذن، لم نكن مغالين حينما قلنا أن "يهود باراك أو باراك اوباما ... لا فرق".

كان المشروع الصهيوني، وكما شرحنا سابقاً، قد تحرك وبثبات باتجاه أقصى اليمين من الخط الاشتراكي في البداية، مروراً بحزب العمل الذي أطلق على جابوتنسكي لقب: "فلاديمير هتلر" واتهم أنصاره المتحمسون بالفاشية، ومنها إلى مرحلة الإرهاب الموجه للفلسطينيين والبريطانيين لاحقاً، وصولاً إلى تتويج المشروع بإقامة الدولة عام **1948**. غير أن الدولة الجديدة أريد لها أن تكون بلا حدود، فقد تركت لعملية التوسع كلما سنحت الفرصة، الأمر الذي لا يخفيه المؤرخون والقادة السياسيون في إسرائيل. ثم كانت حرب **1967** ليحل دعاة التوسع والتشدد تجاه العرب محل المعتدلين "نسبياً". الواقع أن سياسة التوسع كانت موجودة ومنذ البداية، ولكن كأجندة خفية لتتحول إلى سر مفتوح مع قفز تلامذة وأنصار جابوتنسكي إلى السلطة عام **1977**. كان جابوتنسكي من المنادين بسياسة القوة مع الفلسطينيين بهدف خلق " جدار حديدي " نفسي يصعب تخطيه في المستقبل. أثبتت هذه السياسة جدواها ولكن إلى حين، وبخاصة مع الحكام العرب ممن لا هم لهم سوى الحفاظ على كرسي الحكم بينما، فشلت في تحقيق أي شيء في أوساط الجماهير بشكل عام. حتى أطفال فلسطين انتفضوا ضد الاحتلال بسلاحهم الوحيد المتاح: الحجارة. لاشك أن الجدار الحديدي الذي أقامه جابوتنسكي وأتباعه اختفى إلى الأبد مع الصورة التي تناقلتها وسائل الإعلام عبر العالم للطفل الفلسطيني ابن السابعة، وهو يقفز على دبابة ميركافا إسرائيلية وبيده المرفوعة حجر. حل جدار فصل آخر أقامه شارون محل جدار جابوتنسكي، ولكن على أرض الواقع على طول الضفة الغربية، وحتى هذا الجدار سينهار يوماً ما حتى في حالة تطبيق رؤية أولمرت الخاصة بالعودة لحدود **1967** مع بعض التعديلات.

قاد حزب العمل كافة حروب إسرائيل الكبرى، وكان رابين هو من أصدر تعليماته بتكسير عظام الفلسطينيين في الإنتفاضة الأولى. قاد وزيرا دفاع إسرائيل من حزب العمل حربي لبنان وغزة ... ويقولون أن هذا الحزب هو حزب الإعتدال – مع اعتذارنا لمعسكر الإعتدال العربي– وكأن في إسرائيل والصهيونية شيء اسمه اعتدال. سيأتي إلى الحكم في إسرائيل الأكثر حماقة وتطرفاً، وستحاول الولايات المتحدة وأصدقاؤها العرب المعتدلين أن "يحموا هؤلاء من حماقاتهم ... وهذا ما سيحاوله اوباما على كل حال... قامت الصهيونية

على الكذب وتم بناؤها فوق رمال متحركة . الآن بدأ الإسرائيليون أنفسهم بكشف هذا الزيف في الوقت الذي بدأ بعض العرب بالهرولة للإعتراف بهذا الكيان.

تحت عنوان: تحطيم أسطورة وطنية، كتبت أوفري إلاني في صحيفة هآرتز بتاريخ **21** مارس **2008** تقول:

" من بين جميع الأبطال القوميين الذين برزوا من أحضان الشعب اليهودي على مر الأجيال، كان القدر كريماً مع داحيا الكاهنة، الزعيمة القبلية البربرية في جبال الأوراس. ومع أنها كانت يهودية معروفة إلا أن القليلين فقط في إسرائيل هم من سمعوا بهذه الملكة المحاربة، التي كان لها الفضل في توحيد عدد من قبائل البربر في مواجهة الجيش الإسلامي الذي غزا شمال إفريقيا. وقد يكون السبب في هذا التجاهل للمحاربة اليهودية كونها تنتمي لقبيلة بربرية تحولت إلى اليهودية قبل أجيال من ولادتها، وربما في وقت ما من القرن السادس الميلادي.

وطبقاً للمؤرخ الإسرائيلي شلومو ساند الأستاذ في جامعة تل أبيب مؤلف كتاب: متى وكيف وجد الشعب اليهودي، فإن قبيلة الملكة المحاربة وغيرها من القبائل المحلية ممن اعتنقت اليهودية هي المصدر الرئيسي الذي انبثق عنه اليهود الأسبأن. ويشكل البحث في أصول يهود شمال إفريقيا ومن أنهم قبائل محلية اعتنقت اليهودية ولا علاقة لها باليهود القدامى الذين نفوا من القدس، هو أحد المواضيع الرئيسية موضع البحث في كتاب ساند الجديد.

ويحاول المؤرخ الإسرائيلي في كتابه المذكور البرهنة على أن اليهود الذين يعيشون حالياً في إسرائيل وأماكن أخرى في العالم ليسوا من نسل اليهود القدماء ممن سكنوا مملكة يهودا خلال فترة الهيكل الأول والثاني. ويرى المؤرخ شلومو ساند بأن اليهود حالياً ينتمون لشعوب عدة اعتنقت اليهودية على مدار التاريخ، وفي زوايا عدة من حوض المتوسط والمناطق المتاخمة. ليس يهود شمال إقريقيا وحدهم الذين تحولوا من الوثنية لليهودية ، فهناك أيضاً يهود اليمن (بقايا مملكة حميَر في شبه الجزيرة العربية ممن اعتنقوا اليهودية في القرن الرابع) واليهود الإشكناز في أوروبا الشرقية (لاجئون من مملكة الخازار ممن تحولوا لليهودية في القرن الثامن).

ما يحاول البروفيسور ساند إثباته في كتابه المذكور هو أن الشعب اليهودي لم يوجد يوماً كـ:"أمة – سلالة" تنبع من أصل واحد، إنما هم مزيج ملون من جماعات تبنت العقيدة اليهودية في مراحل مختلفة من التاريخ. ويعتقد المؤرخ بأن عدداً من الإيديولوجيين الصهاينة يرون في التصور الأسطوري القائل بأن اليهود هم امتداد لشعب قديم هو الذي قاد للتفكير العنصري الفعلي. وفي ذلك يقول:" كانت هناك أوقات يتعرض فيها كل من يتحدث عن اليهود باعتبارهم سلالة شعوب لا علاقة لها باليهودية للاتهام الفوري بمعادة السامية. أما اليوم فإن كل من يجرؤ على الاقتراح بأن من يوصفون باليهود حالياً لم يشكلوا يوماً شعباً أو أمة ولن يصبحوا ذلك أبداً، سيجد نفسه عرضة للاتهام بالكراهية للدولة العبرية".

وطبقاً للمؤرخ الإسرائيلي فإن وصف اليهود على أنهم:" أمة معزولة منفية هائمة على وجهها.." عبر البحار والقارات وصلت نهاية الأرض قبل أن تنقلب على عقبيها، بفضل جهود الصهيونية، عائدة بموجات جماعية إلى وطنهم اليتيم، ليس سوى أسطورة وطنية". وكغيرها من الحركات القومية الأخرى في أوروبا، ممن تخيلت ماضياً ذهبياً رائعاً اخترعت خلاله ماضياً بطولياً في محاولة لإقناع نفسها بأنها كانت موجودة منذ بزوغ

التاريخ (الإغريق أو القبائل التيوتونية على سبيل المثال).. وهذا ما حصل مع تفتح أول براعم القومية اليهودية باتجاه الضوء الساطع المنبعث من مملكة داوود الأسطورية".

يعتقد البرفيسور ساند بأن الشتات اليهودي ليس سوى اختراع. وفي هذه الحالة يطرح التساؤل التالي نفسه:" ما دامت قصة الشتات مختلقة، فهل يكون الفلسطينيون هم سلالة سكان مملكة يهودا؟ يجيب ساند على ذلك بالقول:" ما من سلالة تحافظ على نقائها على مدى آلاف السنين، ومع ذلك فإن احتمالات أن يكون الفلسطينيون هم سلالة الشعب اليهودي القديم هي أقوى بكثير من احتمال أن أكون أنا أو أنت من هذه السلالة".

كتب آفي شليم:

"إن مطالعة سجلات إسرائيل خلال العقود الأربعة الماضية توصل إلى النتيجة بأن إسرائيل هي دولة مارقة ... الدولة المارقة تُعرف بأنها تلك الدولة التي تخالف القانون الدولي بشكل دائم، وتمتلك أسلحة دمار شامل، وتمارس الإرهاب أي ممارسة العنف ضد المدنيين للوصول لأهداف سياسية. إن هذه الشروط تنطبق على إسرائيل تماماً وعليها الاعتراف بذلك، فإسرائيل لا تنشد التعايش السلمي مع جيرانها لكنها تبغي الهيمنة العسكرية، وأنها تقوم بإعادة أخطائها في الماضي ولكن بشكل مأساوي في كل مرة".[1]

فبعدما لم تعجبها انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني الحرة، والتي نجحت فيها حماس، قامت إسرائيل بسجن عدد من أعضاء هذا المجلس المنتخب، وكذلك عدد من أعضاء حماس الوزراء في حكومة السلطة الفلسطينية. عن ذلك كتبت الجريدة اليومية الإسرائيلية هآرتس "ليس هذا فعل خاطئ فقط، باعتقال الناس للمساومة عليهم كرهائن هو عمل العصابات وليس الدول".

قامت جريدة الإندبندت البريطانية بنشر مقابلة مع أبراهام بورغ في **2008/11/1** . كانت افتتاحية المقال هكذا:

"إن ابراهام بورغ هو أحد أعمدة المؤسسة الإسرائيلية، إلا أن كتابه الجديد يثير الجدل. فهو يصل إلى نتيجة مؤداها أن إسرائيل هي (طفل تمت إساءة معاملته) فنشأ (كأب عنيف) . وبورغ هو من صلب المؤسسة الإسرائيلية حقاً، حيث دخل المعترك السياسي حين أصبح مستشاراً لرئيس الوزراء شمعون بيريس ، ثم انتخب إلى الكينيسيت. فأصبح رئيس الكنيسيت بعد ذلك ، ثم رأس الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية وكاد ينجح في كونه رئيساً لحزب العمال سنة **2001** ... كتب سنة **2003** مقالاً في مجلة يديعوت احرونوت، وفيه كتب أن على إسرائيل أن تختار بين كونها ديمقراطية عنصرية وظالمة ... دولة لا تهتم بما يحدث للأطفال الفلسطينيين، وبعدها يجب ألا تفاجأ حين يجيئها هؤلاء مليئين بالحقد ليفجروا أنفسهم".

أما في كتابه : انتهت المحرقة : يجب أن ننهض من بين الرماد ، فلقد كتب أن صورة المحرقة وبالطريقة التي تم التركيز عليها في الرأي العام وتم استخدامها بطريقة رخيصة ومسيئة إلى الهوية اليهودية . كما أن طريقة استعمال أسطورة المحرقة قد جعلت الإسرائيليين يعتقدون أنهم هم "أمة من الضحايا" بالرغم من قوتهم الطاغية هذه الأيام.

[1] Avi Shlaim, Professor of International Relation, Oxford University. January 08, 2009 at The Guardian

وانتهى إلى النتيجة أن على إسرائيل أن تتخلى نهائياً عن عقلية يهودية الغيتو إلى عقيدة يهودية إنسانية وعالمية".

بداية النهاية ... ونهاية اللعبة ... للرأسمالية وإسرائيل

في وصفه لأخلاقيات الرأسمالية التي تشكل العمود الفقري لإمبراطورية أمريكا العالمية ، كتب البروفيسور ليستر ثارو من جامعة **MIT** يقول:

"تعتبر الجريمة، طبقاً لأشد التعبيرات قسوة في أخلاقيات الرأسمالية، مجرد نشاط اقتصادي آخر، مع فرق واحد هو أن من يتم إلقاء القبض عليه بالجرم المشهود يدفع ثمناً باهظاً هو السجن. ليس هناك من شيء محرم فعله، كما أنه لا وجود للواجبات أو الحقوق إذ لا وجود هناك سوى لتعاملات السوق".[1]

كثيراً ما قادت ممارسات الرأسمالية الأنغلو-ساكسونية ولا تزال إلى: الحروب والمذابح الجماعية والجرائم الفعلية، على حد تعبير البروفيسور ثارو، ليس في فلسطين فقط بل حتى داخل أمريكا. وهنا تشير الإحصائيات إلى أن أكثر من **40** مليون أميركي مصنفون تحت خانة الفقراء في بلد يعتبر أغنى بلاد العالم على الإطلاق. وبالمقارنة تصل نسبة الفقر بين فئة الأطفال الأمريكيين إلى **22.4** % بينما لا تتعدى **5.1**% في الدنمارك، و**4.4**% في بلجيكا، و **4.3** % في بريطانيا، و**2.6**% في السويد. كما أن **1**% فقط من الأمريكيين يملكون أكثر مما يملكه **80**% من بني وطنهم. ويتوصل ثارو إلى نتيجة مؤداها:

" فرغت الساحة العالمية للرأسمالية بعد أن تخلصت من منافسيها الرئيسيين في القرنين التاسع عشر والعشرين.. الفاشية والاشتراكية والشيوعية التي اختفت عن الساحة.. ومع ذلك وحتى مع تراجع المنافسة إلى كتب التاريخ، فإن هناك ما يعمل على زعزعة أسس الرأسمالية من الأعماق".[2]

في عددها الصادر بتاريخ **20** أكتوبر**2005** نشرت مجلة هارفارد كريمسون نص محاضرة لأحد أشهر المؤرخين في العالم ، إيريك هوبسباون جاء فيها القول:

" قد تشيع الإمبراطورية الأمريكية فعلياً: الفوضى والبربرية وانعدام النظام أكثر مما تنشر السلام والنظام". ويعتبر هوبسباون بأن مشروع الإمبراطورية الأمريكية سينتهي إلى الفشل الحتمي. ويضيف:" هل ستتعلم الولايات المتحدة دروس الإمبراطورية البريطانية، أم ستعمد إلى محاولة الحفاظ على دور عالمي آخذ في التآكل، من خلال الاعتماد على قوة سياسية وعسكرية فاشلة لا تفي بالمتطلبات والأهداف الحالية التي تدعي الحكومة الأمريكية أنها مصممة لأجلها؟"

سيكون من المثير للاهتمام الانتباه لحقيقة لجوء هوبسباون لتعبير" البربرية" في وصفه للنظام الحالي الذي يحكم الولايات المتحدة، وهو وصف سبقه إليه أحد رموز حزب "الشعب الأمريكي" عام **1890**. وقتها قال الناشط الحزبي المذكور:" أي دولة تضع حقوق الملكية فوق حقوق الإنسان إنما تمارس البربرية".

---

[1] Lester C. Thurow: The Future of Capitalism, Penguin books USA, New York 1996

[2] Lester C. Thurow, The Future of Capitalism, Penguin Books, 1997

نحن وآخرون كثر مع تقدير السيد هبسباون القائل بأن اللعبة قد وصلت نهايتها فيما يتعلق بالولايات المتحدة.. وكذلك المشروع الصهيوني، فنحن نعيش عصر الانهيارات المفاجئة، سواء بالنسبة للشركات الأمر الذي بدا جلياً في الانهيار الاقتصادي عام **2008** أو ما آلت إليه الإمبراطورية السوفيتية، وكذلك فإن إسرائيل بالرغم من تعاظم قوتها العسكرية والنووية لم تربح حرباً واحدة بعد حرب **1967** وأن قوة ردعها قد عفا عليها الزمن حينما فشلت في تحقيق أهدافها في جنوب لبنان ضد حزب الله، بل وعندما فشلت في تحقيق أهدافها ضد المقاومة في غزة، والتي كانت تعاني ظلم الحصار من القريب قبل الغريب.

بعد ستين عامٍ من تأسيس إسرائيل وامتلاكها مئات القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ والأقمار الصناعية ، بل وامتلاكها القرار السياسي لأقوى دولة في العالم تساءلت كبريات المجلات الأمريكية على غلافها (التايم **2009/01/19**) "هل تستطيع إسرائيل استمرارية العيش؟" فهل يا ترى هذا هو الوقت المناسب لأن يهرول بعضنا مستجدياً ما أسموه ظلماً بالسلام، تُعهد فيه أعمال الكناسة والحراسة إلى دولة فلسطينية منقوصة السيادة وتقوم بأعمال المقاول الأمني لحماية دولة بدأ أصحابها ومواطنيها يشكّون في امكانية ديمومتها أو شرعيتها؟

ليست المشكلة بالنسبة للفلسطينين والعرب هي إسرائيل ، أمريكا الصغرى، والتي تم وصفها من المفكرين والقادة الإسرائيليين أنفسهم بأوصاف منها الدولة المارقة، أو دولة الإرهاب، أو الكلب المسعور! المشكلة هي في الولايات المتحدة – إسرائيل الكبرى.

كتب إيهود سبرينزاك، الأستاذ في الجامعة العبرية يقول:

" لم تحقق الدولة اليهودية استقلالها عام**1948** ، بصورة طبيعية كنتيجة حتمية لمرحلة من الكفاح ضد الاستعمار البريطاني في فلسطين. بل كانت ولا تزال إحدى أكثر الدول "غير الطبيعية" في تاريخ الدول حديثة العهد، والتي ظهر معظمها على خارطة العالم إبأن الحقبة الاستعمارية" وأضاف:" لم تكن إسرائيل ما بعد **1948** بتلك الدولة الديمقراطية المثالية، حيث بقيت السلطة فيها وعلى مدار سنوات طويلة في يد حزب واحد.. فقد بقيت الأقلية العربية، التي حصلت لاحقاً على حق التصويت وانتخاب ممثليها في الكنيست، ولسنوات طويلة خاضعة للحكم العسكري الصارم..." [1]

لو وافقنا على استنتاج أستاذ الجامعة العبرية هذا بأن إسرائيل هي مولود غير طبيعي؛ فالمرء يمكن أن يستنتج أن مثل هذه المخلوقات نتيجتها هي الموت غير الطبيعي!!

[1] Ehud Sprinzak, a political science professor at the Hebrew University in Jerusalem (The ascendance of Israel's Radical Right, Oxford University Press, 1990, p 11,12

هكذا كنا ...

أرسل الملك جورج الثاني ملك إنجلترا ابنة أخيه الأميرة دوبأنت ورئيس ديوانه على رأس بعثة مكونة من ثماني عشرة فتاة من بنات الأمراء والأشراف إلى إشبيلية؛ لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك، وكل ما يؤدي إلى تهذيب المرأة.

ولقد أرسل رسالة معها هذا نصها:

من جورج الثاني ملك إنجلترا والغال والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس، صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام، وبعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان ، ولقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دوبأنت على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز تتشرف بلثم أهداب العرش، والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم ، وحماية الحاشية الكريمة وحدب من اللواتي سيتوافرون على تعليمهن.

ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص.

من خادمكم المطيع

جورج م . أ

جواب الخليفة الأندلسي هشام الثالث...

بسم الله الحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين و الصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين ، وبعد:

إلى ملك انجلترا و ايكوسيا واسكندنافيا الأجلّ..

اطلعت على التماسكم، فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر من أرباب الشأن، وعليه نعلمكم أنه سوف ينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين، دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي. أمّا هديتكم فقد تلقيتها بسرور

زائد، وبالمقابل أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية، وهو من صنع أبنائنا، هدية لحضرتكم، وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتتنا ومحبتنا....و السلام

خليفة رسول الله في ديار الأندلس

هشام الثالث ..